
رسالة الإسلام
مجلة إسلامية عالمية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العلمين ۝ الرحمن الرحيم

ملك يوم الدين ۝ إياك نعبد وإياك

نستعين ۝ اهدنا الصرط المستقيم

۝ صرط الذين أنعمت عليهم

غير المغضوب عليهم ولا الضالين ۝

كلمة التحرير

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه

فى هذا الشهر المبارك : شهر ربيع الأول ، الذى فى مثله سعدت البشرية بمولد « رسول الإسلام » صلوات الله وسلامه عليه ، يسعدنا أن نقدم إلى العالم الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها أول عدد من مجلتنا « رسالة الإسلام »

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن ، وإن لنا فى شهر مولده ليمناً وطالعاً حسناً إن شاء الله .

إن الإسلام هو دين العلم والعقل والصفاء والأخوة والسلام ، هو دين الحكمة والموعظة الحسنة ، هو دين العدل والمساواة والإحسان ، وإن كتابه الكريم لينبوع العزة والقوة ، ومدد الإيمان واليقين ، وغذاء الأرواح والقلوب ، وإن رسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه هو المثل الأعلى للإنسان الكامل ، فى إيمانه وخلقه ، فى علمه وعمله ، فى رحمته ورأفته ، فى صبره واحتماله ، فى حزمه وعزمه ، فى شجاعته وقوته ، فى صدقه ووفائه ، فى بره بالقريب والبعيد ، فى كل صفة من صفات النبل ، وخلة من خلال الشرف .

فإذا كانت « جماعة التقريب » قد اختارت لهذه المجلة اسم « رسالة الإسلام » فقد أرادت بذلك أموراً :

أرادت أن تتخذ من هذا الاسم عهداً إلى المسلمين وموثقاً فى كل ما تعالج أن تستوحى روح الإسلام ، وسماحة الإسلام ، وكل خير وبر ورشاد وصلاح يدعو إليه الإسلام .

أرادت أن يعلم المسلمون جميعاً أنها مجلتهم ، ومعرض آرائهم وأفكارهم ، دون تعصب ولا تحيز ، وأنها ملتقى علم العلماء ، وأدب الأدباء ، من جميع الطوائف والشعوب الإسلامية .

أرادت أن توقظ فى نفوس المسلمين الشعور بأنهم أمة واحدة ، وأن بينهم على اختلاف ديارهم وشعوبهم وطوائفهم عروة لا تنفصم ، وصلة لا تنقطع ، هى : « الأخوة الإسلامية » .

أرادت أن تربط بين ماضيهم وحاضرهم ، وأن تحيي أمجادهم ، وتنفض الغبار عن مفاخرهم ، وتعلّم شبابهم الناشىء أن الخير كل الخير فى ثقافتهم ، وأن النجاح كل النجاح فى مثلهم وأخلاقهم .

أرادت أن تذكّرهم بأنهم ورّاث دعوة عالمية خالدة لخير الناس أجمعين ، عليهم أن يحملوا لواءها ، وأن يخوضوا بها فى هذا العالم السهلَ والوعرَ متكاتفين متعاونين كأنهم بنيان مرصوص ، حتى يدركها الناس على حقيقتها ، وينفوا عنها زيْفها ، وما ران عليها ، فتكون للقلوب شفاء ، وللأرواح جلاء ، وللحق والعدل والمساواة أساساً ثابتاً وعماداً .

فإن تكن مجلةٌ ما بحاجة إلى تقديم عهدها ومنهاجها وأهدافها بين يديها ، فإن عهد هذه المجلة ومنهاجها وأهدافها هى اسمها !

وقد رأينا ـ مجاراة لسنة التدرج ، ورغبة فى التريث ، وإيثاراً للإتقان والإحسان ـ أن ندمج أعداد السنة الأولى فى مجلدات أربعة ، يصدر كل واحد منها على رأس ثلاثة أشهر ، ونرجو أن نتمكن منذ العام القادم إن شاء الله تعالى ، من زيادة عدد المجلدات حتى نصل بها إلى عشرة فى العام .

وقد رغب إلينا كثير من أهل الرأى والعلم فى مختلف الطوائف الإسلامية ، أن نجعل للتقريب فى هذا العدد الأول نصيباً أوفى من العناية ، بيانا لفكرته وأهدافه ، وتسجيلا لخطواته ، وتعريفاً بمدى نشاط العاملين له ، والساعين فيه ، فلعل شيئاً من ذلك يبدو فى هذا العدد .

ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

رئيس التحرير

محمد محمد المدنى

تقديم :

المسلمون أمة واحدة

لحضرة صاحب السعادة محمد على علوبه باشا
رئيس جماعة التقريب

قامت « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » تلبية لنداء قوى ألقى فى روع المؤمنين ذوى الغيرة على الدين ، والحرص على هذه الأمة الإسلامية ، ولو أن رجال العلم والرأى لم يلبوا هذا النداء ، ولم يسارعوا إلى تكوين هذه الجماعة لكانوا مقصرين فى حق أمتهم ، مسئولين عن هذا التقصير أمام ربهم فى يوم عسير يؤخذ فيه بالنواصى والأقدام .

لقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الدين رسولا إلى الناس جميعا ، وكان من أبرز مبادئه التسوية بين جميع الشعوب ، وعدم الاعتراف بالفروق التى ألف الناس أن يعترفوا بها ، ويتعاملوا على أساسها ، وكانت بعثته صلى الله عليه وسلم فى وقت بلغت فيه العصبيات أوْجها ، فكانت كل أمة تعتز بنفسها ، وتعتد بما عندها ، وتعتبر جنسها هو خير الأجناس ، وكان العرب أنفسهم منقسمين قبائل وأفخاذاً وبطونا ، وكل قبيلة تعتقد أنها خير القبائل ، وتحتفظ بأنسابها ، ولا تختلط بغيرها ، حتى كان منهم قبائل لا تُصْهِر إلى غيرها ، ولا يصهر غيرها إليها ، وسمّوا أنفسهم «بالجَمَرات» تشبيها بالنار التى تتقى ، ولا يجرؤ أحد على مسها ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هدم ذلك كله ، ونادى فيهم بقول ربه « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ثم كان تصرفه صلى الله عليه وسلم فى سياسة المؤمنين مبنياً على هذا المبدأ السامى : مبدإ إهدار العصبيات ، وهدم عوامل التفرق والتقاطع حتى ألف الله به بين جميع القلوب وبنى من هذه اللبنات المفككة صرحا قويا

متماسكا استندت إليه دعوة الحق ، واحتمى به الإسلام وهو ناشىء غض ، حتى جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وقد امتن الله بذلك على رسوله وعلى المؤمنين فقال « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » وقال « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »

فلما اختار الله رسوله إلى جواره سار أصحابه — عليهم رضوان الله — فى طريقه ، غير أن الزمان عاجلهم ببعض المشكلات فاختلفوا عليها ، وكان خلافهم فى دائرة الحق والمصلحة كما يعتقد كل منهم ، ثم انقضت الحقبة الأولى من عمر الدولة الإسلامية ، بعد أن تركت فى جسم الأمة جراحا عميقة كان من سوء الحظ أنها لم تجد أساة معالجين ، بل وجدت من لا يزال ينكؤها ويحييها ويحتفظ بها خضراء كما يعبر أدباء الغرب ، وفعلت السياسة فعلها ، وعادت العصبيات إلى سابق عهدها ، فتعددت الأحزاب والفرق والطوائف ، وكثرت الخلافات والمسائل الجدلية ، وترامى المسلمون بالتهم ، وساءت بينهم الظنون ، ومشى كل فريق فى طريق فضلت بهم السبل عن الطريق السوى ، وذاق بعضهم بأس بعض ، وتمكن منهم أعداؤهم ، فدسوا لهم فى السياسة ، ودسوا لهم فى التاريخ ، ودسوا لهم فى العلم والرواية ، ودسوا لهم فى النظريات الفلسفية ، والقضايا الغيبية ، وفتحوا لهم آفاق الشك والريب فيما لديهم ، وشغلوهم بالجدل والخصام حتى أنهكوا قواهم ، وأوهنوا عقولهم ، وحطموا أعصابهم ، وأفقدوهم الثقة بأنفسهم ، والتعويل على مواهبهم ، ثم اقتطعوا أوطانهم قطعة بعد قطعة ، واقتسموها فيما بينهم غنائم باردة ، فى صورة الاستعمار أحيانا ، والحماية أحيانا ، والوصاية أحيانا ، ومناطق النفوذ أحيانا ، وفتح الأسواق أحيانا ، وهكذا من كل ما برر به الغاصبون غصبهم ، وجعلوه ستاراً على مطامعهم وشهواتهم .

تلك حال المسلمين اليوم ، وإن داءهم لقديم منذ تدابروا وتقاطعوا وصاروا شيعاً . كل حزب بما لديهم فرحون ، ولا صلاح لهم ، ولا شفاء من دائهم ، إلا بأن يعودوا كما بدأهم الله أمة واحدة لا فرق بين شعوبهم ، ولا تناحر بين طوائفهم ، ولاجهالة تصور الشيعي للسني ، أو السني للشيعي ، عدوا يظن به الظنون ويخافه على دينه وعقيدته ، ويتحفظ فيما يقرأ له من كتاب ، أو ينقل عنه من رأى .

إن أصول الإسلام واحدة ، فكل المسلمين يؤمنون بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وكلهم يعتقدون أن القرآن حق وأن رسالة محمد حق وأن عليهم إذا تنازعوا فى شىء أن يردوه إلى الله ورسوله ، وقبلتهم واحدة ، وصلواتهم واحدة ، ولا خلاف بينهم فيما بنى عليه الإسلام من أسس ، فما بالهم يعيرون ما وراء هذه الأصول اهتماما ، ويخوضون فيه خوضا ، ويعولون عليه تعويلا ، حتى يلتحق بالأصول وما هو منها فى شىء ، ويتخذ مقياساً للكفر والإيمان ، أو الإثم والبراءة ، وهو عن ذلك بمنأى ومعزل ؟

إن المسلمين فى ضعف لأنهم فى تفرق ، وهم فى تفرق لأنهم متقاطعون يجهل بعضهم ما عند بعض . ومن جهل شيئاً عاداه ، ولو أنهم تقاربوا لتفاهموا ، وقد يزول بتفاهمهم كثير من أسباب خلافهم ، أو يحتفظ كل منهم برأيه فيما وراء العقيدة الإسلامية ، على أن يعذر بعضهم بعضا ، ويحترم بعضهم بعضا كما كان سلفهم الصالح من أئمة الدين والفقه يفعلون ، وتلك هى مهمة « جماعة التقريب » إن تريد إلا تعريف المسلمين بعضهم إلى بعض ، وجمعهم على أسس الدين الحق التى نزل بها القرآن وجاء بها الرسول ، ودعوتهم إلى اطّراح أسباب الخلاف فيما لا طائل تحته ، ولا فائدة تلتمس منه ، وتمكينهم من درس ما يعن لهم فى جوّ هادىء ، لا يشوبه غبار التكفير والتأثيم والتظنن ، فإذا فعلوا — وإنهم إن شاء الله لفاعلون — فقد استقاموا على الطريقة ، وهيئوا أنفسهم لمستقبل كريم ، ومقام حسن . فى هذا المعترك العالمى ، يعينهم على أن يكونوا دعاة بر وإصلاح !

إن سياسة الدول والأمم فى العالم اليوم قائمة على التكتل والتحالف والانضواء فى مجموعات متعاونة يسند بعضها بعضا ، ويدفع بعضها عن بعض ، وأنهم ليلتمسون

أوهى الأسباب والروابط ليرتبطوا بها ، أما المسلمون فدينهم واحد ، وكتابهم واحد ، وهدفهم فى الحياة وبعد الممات واحد ، وكل شىء بينهم يدعو إلى الألفة ، ويساعد على الوحدة ، فمن الخير لهم دينيا ، كما بيّنا ، وسياسيا كما علمتنا أحوال العالم ، أن يتفقوا ويتكتلوا ، وينسوا خلافاتهم ، ويذكروا فقط أنهم مسلمون ، وأن المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وأن الله أمرهم فى كتابه العزيز بأن يعتصموا بحبله ، وأن يتعاونوا على البر والتقوى ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان ، وألا يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات .

تلك هى رسالة التقريب ، وهى لعمرى رسالة الإسلام ، ولقد بدت تباشير النجاح فيما تلقت به الأمة الإسلامية فى ربوع العالم نبأ تأليف هذه الجماعة من ترحيب حماسى ، فقد جاءتنا كتب شتى من الأفراد والجماعات فى شتى البلاد الإسلامية ؛ كلّها تأييد للفكرة ، ومساهمة فيها ، ودعوة لها وإننا لنتوجه إلى الله بقلوب مخلصة أن يهيىء للمسلمين من أمرهم رشدا وأن يجمعهم على الخير والبر والهدى ، وأن يلزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، وأن يحفظ حضرات أصحاب الجلالة والفخامة ملوكهم ورؤسائهم ، ويوفقهم إلى صراطه المستقيم .

وعلى بركة الله نقدم هذه المجلة إلى كل مسلم يؤمن بالله ورسوله وكتابه ، ولا نحاول أن نتحدث عنها إلا بما يتحدث به اسمها ، فهى « رسالة الإسلام » وكفى !

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى :ــ

ا ــ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية « الطوائف الإسلامية » الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ــ نشر المبادىء الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج ــ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما .

بيان للمسلمين

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل

الشيخ عبد المجيد سليم

رئيس لجنة الفتوى بالأزهر ووكيل جماعة التقريب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإن الدين الإسلامى قائم على نوعين من الأحكام :

أحدهما : أحكام ثابتة ، يجب الإيمان بها ، ولا يسوغ الاختلاف فيها وليس من شأنها أن تتغير بتغير الزمان والمكان ، ولا أن تخضع لبحث الباحثين ، واجتهاد المجتهدين . ذلك بأنها ثابتة عن الله تعالى بطريق يقينى لا يحتمل الشك ، واضحة فى معانيها ، ليس فيها شىء من الإبهام أو الغموض .

والثانى : أحكام اجتهادية نظرية مرتبطة بالمصالح التى تختلف باختلاف ظروفها وأحوالها ، أو راجعة الى الفهم والاستنباط اللذين يختلفان باختلاف العقول والأفهام ، أو واردة بطريق لا يرقى إلى درجة العلم واليقين ، ولا يتجاوز مرتبة الظن والرجحان .

والنوع الأول من الأحكام ـ وهو القطعى فى روايته ودلالته ـ هو الأساس الذى أوجب الله على المسلمين أن يبنوا عليه صرح وحدتهم غير متنازعين ، وربط به عزهم وقوتهم وهيبتهم فى أعين خصومهم والمتربصين بهم . والمسلمون كلهم مؤمنون به إيمانا ثابتاً لا يتزعزع ، لا فرق فى ذلك بين طائفة منهم وطائفة .

وإن جميع الآيات التى جاءت فى النهى عن التفرق ، وذم الاختلاف ، والتحذير منه ، وضرب الأمثال بما كان من الأمم السابقة حين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات : إنما تعنى الاختلاف والتفرق فى هذا النوع من الأحكام ، ومن ذلك قوله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » . « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون » .

فهذا هو الاختلاف المذموم المنهى عنه فى كتاب الله تعالى .

أما النوع الثانى من الأحكام ، فإن الاختلاف فيه أمر طبيعى ، لأن العقول تتفاوت ، والمصالح تختلف ، والروايات تتعارض ، ولا يعقل ، فى مثل هذا النوع أن يخلو مجتمع من الاختلاف ، ويكون جميع أفراده على رأى واحد فى جميع شئونه ، وهذا النوع من الاختلاف غير مذموم فى الإسلام ، ما دام المختلفون مخلصين فى بحثهم ، باذلين وسعهم فى تعرف الحق واستبانته ، بل إنه ليترتب عليه كثير من المصالح ، وتتسع به دائرة الفكر ، ويندفع به كثير من الحرج والعسر ، وليس من شأنه أن يفضى ، ولا ينبغى أن يفضى ، بالمسلمين الى التنازع والتفرق ، ويدفع بهم الى التقاطع والتنابز .

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتابعون لهم بإحسان ، والأئمة عليهم الرضوان ، يختلفون ، ويدفع بعضهم حجة بعض ، ويجادلون عن آرائهم بالتى هى أحسن ، ويدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم نسمع أن أحدا منهم رمى غيره بسوء ، أو قذفه ببهتان ، ولا أن هذا الاختلاف بينهم كان ذريعة للعداوة والبغضاء ، ولا أن آراءهم فيما اختلفوا فيه ، قد اتُخذت من قواعد الإيمان وأصول الشريعة التى يعد مخالفها كافراً أو عاصياً

لله تعالى ، وقد كانوا يتحامَـوْن الخوض فى النظريات ، وفتح باب الآراء فى العقائد وأصول الدين ، ويحتمون الاعتصام فيها بالمأثور ، سداً لذريعة الفتنة ، وحرصاً على وحدة الأمة ، وتفرغا لما فيه عزهم وسعادتهم وارتفاع شأنهم ، ولذلك كانوا أقوياء ذوى عزة ومهابة « أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

* * *

ولكن المسلمين لم يلبثوا أن انحرفوا عن هذه السبيل ، واتخذوا من خلافاتهم عصبيات جامدة لا تعرف التفاهم ، ولا تنزل على حكم البرهان والعقل ، فكانوا باختلافهم المذهبي كالمختلفين فى الدين . يتبادلون سوء الظن . ويتراشقون بالتهم جزافا ، وينظر بعضهم إلى بعض فى حذر وحيطة ، بل أفضى بهم ذلك فى كثير من الأحيان الى التضارب والتقاتل وسفك الدماء ؛ وبذلك انحلت عرى الأمة ، وانفصمت وحدتها ، وقدر عليها أعداؤها . ونزع الله هيبتها من القلوب . وأصبحت غثاء كغثاء السيل . وانقلب الخلاف الذى كان رحمة ونعمة . إلى بلاء وشر وفتنة . وصار مثله كمثل الخلاف فى الأصول . والنزاع على الأسس الأولى للإيمان .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخشى هذا التفرق . ويحذّر منه . وكان يشبه المؤمنين بالجسد الواحد . ولم يكن شىء أبغض إليه بعد الكفر بالله من الاختلاف والتنازع ولو فى الأمور العادية .

إن هذه الأمة لن تصلح إلا إذا تخلصت من هذه الفرقة ، واتحدت حول أصول الدين ، وحقائق الإيمان ، ووسعت صدرها فيما وراء ذلك للخلافات ما دام الحكم فيها للحجة والبرهان .

ولقد أدركنا فى الأزهر على أيام طلبنا العلم ، عهد الانقسام والتعصب للمذاهب ولكن الله أراد أن نحيا حتى نشهد زوال هذا العهد ، وتَطهُّرَ الأزهرِ من أوبائه وأوضاره ؛ فأصبحنا نرى الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى ، إخوانا متصافين وجهتهم الحق ، وشرعتهم الدليل ، بل أصبحنا نرى بين العلماء من يخالف مذهبه

الذى درج عليـــه ، فى أحكامه لقيام الدليل عنـده على خلافه ، وقد جريت طول مدة قيامى بالإفتاء فى الحكومة والأزهر — وهى أكثر من عشرين عاما — على تلقى المذاهب الإسلامية — ولو من غير الأربعة المشهورة — بالقبول ، ما دام دليلها عندى واضحا ، وبرهانها لدىّ راجحاً ، مع أننى حنفى المذهب ، كما جريت ، وجرى غيرى من العلماء . على مثل ذلك فيما اشتركنا فى وضعه أو الإفتـاء فيه من قوانين الأحوال الشخصية فى مصر . مع أن المذهب الرسمى فيها هو المذهب الحنفى . وعلى هذه الطريقة نفسها تسير « لجنـة الفتوى بالأزهر » التى أتشرف برياستها . وهى تضم طائفة من علماء المذاهب الأربعة

فإذا كان الله قد برأ المسلمين من هذه النُّعَـرة المذهبية التى كانت تسيطر عليهم إلى عهد قريب فى أمر الفقه الإسلامى ؛ فإنا لنرجو أن يزيل ما بقى بين طوائف المسلمين من فرقة ونزاع فى الأمور التى لم يقم عليها برهان قاطع يفيد العلم . حتى يعودوا كما كانوا أمة واحدة . ويسلكوا سبيل سـلفهم الصالح فى التفرغ لمـا فيه عزتهم . وبذل الوسع فيما يعلى شأنهم . والله الهادى إلى سواء السبيل . وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

بديهة حاضرة

قال أبو العينـــاء : قلت لابن أبى داود : إن قوماً من أهل البصرة قدموا « سرَّ مَـنْ رأى » يداً علىَّ

فقال : يد الله فوق أيديهم !

قلت : إن لهم لمكرا

فقال : ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

قلت : إنهم كثير .

فقال : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . والله مع الصابرين

فقلت : لله درُّ القاضى !

تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

مقدمة :

عُنِيَ المسلمون منذ فجر الإسلام ، وانبثاق نور الهداية الإلهية على ربوع العالم بالقرآن الكريم ، مصدر تلك الهداية ، ومنبع ذلك الإشراق ، عناية كبرى شملت جميع نواحيه ، وأحاطت بكل ما يتصل به ، وكان لها آثارها المباركة الطيبة فى حياة الانسان عامة ، والمسلمين خاصة ، أفاد منها العلم ، وأفاد منها العقل ، وأفاد منها الدين ، وأفاد منها الفن ، وأفاد منها القانون والتشريع ، وأفادت منها الفلسفة والأخلاق ، وأفادت منها السياسة والحكم ، وأفاد منها الاقتصاد والمال ، وأفاد منها كل مظهر من مظاهر النشاط الفكرى والعملى عرفه الناس فى حياتهم المادية والروحية .

ولقد زخرت المكتبة الإسلامية من آثار هذا النشاط العظيم ، بل زخرت مكتبات أخرى فى لغات أخرى وأمم أخرى ، بكنوز رائعة يقف العقل أمامها حائراً مشدوها ، يخالجه مزيج من الإعجاب والمهابة ، ويملكه معنى عميق من معانى الخضوع ، أمام هذه العظمة التى لا كفاء لها إلا الإقرار بالعجز والخضوع !

ولكى ندرك مدى هذه العناية الكبرى التى تلقى بها المسلمون القرآن الكريم فى جميع عصورهم ومراحل حياتهم ، وعلى أيدى علمائهم وملوكهم ووزرائهم وأمرائهم وأغنيائهم وأرباب الفن فيهم ، وأهل الإحسان فى كل ناحية من نواحى الإحسان لكى ندرس مدى هذه العناية الكبرى ، علينا أن نلتفت إلى ماسجله التاريخ الفكرى للمسلمين .

لا نكاد نعرف علماً من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى تاريخهم الطويل إلا كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم ، فالنحو الذى يقوِّم اللسان ويعصمه من الخطأ ، أريد به خدمة النطق الصحيح للقرآن ، وعلوم البلاغة التى تبرز خصائص اللغة العربية وجمالها ، أريد بها بيان نواحى الإعجاز فى القرآن ، والكشف عن أسراره الأدبية ، وتتبعُ مفردات اللغة ، والتماس شواردها وشواهدها وضبط ألفاظها ، وتحديد معانيها ، أريد بها صيانة ألفاظ القرآن ومعانيه أن تعدو عليها عوامل التحريف أو الغموض ، والتجويدُ والقراءات لضبط أداء القرآن وحفظ لهجاته ، والتفسيرُ لبيان معانيه ، والكشف عن مراميه ، والفقه لاستنباط أحكامه ، والأصول لبيان قواعد تشريعه العام وطريقة الاستنباط منه وعلم الكلام لبيان ما جاء به من العقائد ، وأسلوبِه فى الاستدلال عليها ، وقل مثل هذا فى التاريخ الذى يشتغل به المسلمون تحتيماً لما أوحى به الكتاب الكريم فى مثل قوله : « نحن نقص عليك أحسن القصص » . « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » . « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر » وقل مثل هذا أيضاً فى علم تقويم البلدان وتخطيط الأقاليم ، الذى يوحى به مثل قوله تعالى : « سيروا فى الأرض » . « فامشوا فى مناكبها » . وفى علوم الكائنات التى يوحى بها مثل قوله : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى » . « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير » .

وهكذا علوم الفلك والنجوم والطب ، وعلوم الحيوان والنبات وغير ذلك من علوم الإنسان ، لا يخلو علم منها أنْ يكون الاشتغال به فى نظر من اشتغل به من

المسلمين مقصودا به خدمة القرآن ، أو تحقيق إيحاء أوحى به القرآن ... حتى الشعر إنما اشتغلوا به ترقية لأذواقهم ، وتربية لملكاتهم ، وإعدادا لها كى تفهم القرآن وتدرك جمال القرآن ، وحتى العروض كان من أسباب عنايتهم به أنه وسيلة لمعرفة بطلان قول المشركين : إن محمدا شاعر ، وإن ما جاء به شعر .

وتبعا لهذه الأنحاء المختلفة فى نظر المسلمين الى القرآن واشتغالهم به ، نرى التفاسير ذات ألوان متنوعة ، فمنها مايغلب عليه تطبيق قواعد النحو وبيان إعراب الكلمات وبنائها ، ومنها ما يغلب عليه بيان نواحى البلاغة والإعجاز ، ومنها ما يهتم بالفقه والتشريع وبيان أصول الأحكام وهكذا .

ولعل مما يدلنا أيضا على مدى هذه العناية أن الذين فاتهم القدرة على معالجة القرآن من هذه النواحى العلمية ، لم يفتهم أن يضربوا بسهم فى نواح أخرى ، جعلوها مظهرا من مظاهر عنايتهم ، وسبيلا الى نيل حظهم من رضا الله وثوابه ، فهذا يكتب القرآن بخط جميل ، وهذا يزخرف صفحاته وأوائل سوره ، وهذا يرقم آياته ، وهذا يطرز سجله وغلافه ، وهذا يرصد الأموال لتحفيظه ، والمكافأة على التبريز فيه ، وما زالت المساجد الى يومنا هذا محتفظة بظهر من هذه المظاهر هو تلك المقارىء التى يجتمع فيها القراء يتبادلون فيها قراءته وتجويده والاستماع إليه .

لهذا كله أعتقد أنى لا أتجاوز حد القصد والاعتدال إذا قلت : أنه لم يظفر كتاب من الكتب سماوياً كان أو أرضياً فى أية أمة من الأمم قديمها وحديثها بمثل ما ظفر به القرآن على أيدى المسلمين ، ومن شارك فى علوم المسلمين . ولعل هذا يفسر لنا جانبا من الرعاية الإلهية لهذا الكتاب الكريم الذى تكفل الله بحفظه وتخليده فى قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فما كان الحفظ والتخليد بمجرد بقاء ألفاظه وكلماته مكتوبة فى المصاحف ، مقروءة بالألسنة ، متعبَّدا بها فى المساجد والمحاريب ، إنما الحفظ والخلود بهذه العظمة التى شغلت الناس ، وملأت الدنيا ، وكانت منارا لأكبر حركة فكرية اجتماعية عرفها البشر ! ومن فضل الله

علينا فى هذا العصر ، أن الركب سائر لم يقف ، ولم يفتر ، وأن هذا الروح الكريم ما يزال يسيطر على المسلمين ، وينتقل فيهم من جيل الى جيل يورثه الآباء للأبناء وسيظل كذلك — إن شاء الله — حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وهؤلاء هم المسلمون ، على تفرقهم فى البلاد والأقاليم ، وتفرقهم فى السلطان والنفوذ ، وضعفهم المادى أمام دول الغرب ، وبالرغم مما غمروا به وغزوا من علوم متنوعة ، وثقافات متعددة ذات ألوان مادية ، وأدبية ، واجتماعية ، وتشريعية ، لا يزالون يعتصمون بالقرآن ، ويدينون بقدسية القرآن ، ويتآزرون على خدمة القرآن . وإنهم ليستشرفون جميعاً لمطلع ذلك اليوم الذى يعود فيه سلطان القرآن فيكون التشريع تشريع القرآن ، والأخلاق أخلاق القرآن ، والهدى هدى القرآن ، ونرجو أن يكون قريبا .

* * *

وإذا كان المسلمون قد تلقوا كتاب الله بهذه العناية ، واشتغلوا به على هذا النحو الذى أفادت منه العلوم والفنون ، فإن هناك ـ مع الأسف الشديد ـ ناحيتين كان من الخير أن يظل القرآن بعيدا عنهما ، احتفاظا بقدسيته وجلاله ، هاتان الناحيتان هما : ناحية استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والخلافات المذهبية ، وناحية استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة منه ، وأحب أن أثبت على صفحات هذه المجلة ، وبين يدى ما سأكتبه لها من التفسير ، رأيى فى هاتين الناحيتين واضحا ، فأقول :

أما الناحية الأولى : فإنه لما حدثت بدعة الفرق ، والتطاحن المذهبي ، والتشاحن الطائفى ، وأخذ أرباب المذاهب ، وحاملو رايات الفرق المختلفة ، يتنافسون فى العصبيات المذهبية والسياسية ، امتدت أيديهم الى القرآن ، فأخذوا يوجهون العقول فى فهمه وجهات تتفق وما يريدون ، وبذلك تعددت وجهات النظر فى القرآن ، واختلفت مسالك الناس فى فهمه وتفسيره ، وظهرت فى أثناء

ذلك ظاهرة خطيرة ، هى تفسير القرآن بالروايات الغريبة ، والإسرائيليات الموضوعة التى تلقفها الرواة من أهل الكتاب ، وجعلوها بياناً لمجمل القرآن ، وتفصيلا لآياته ومنهم من عنى بتنزيل القرآن على مذهبه أو عقيدته الخاصة ، وبذلك وجدت تحكمات الفقهاء والمتكلمين وغلاةِ المتصوفة وغيرهم ممن يروِّجون لمذاهبهم ، ويستبيحون فى سبيل تأييدها والدعاية لها أن يقتحموا حمى القرآن ، فأصبحنا نرى من يؤول الآيات لتوافق مذهب فلان ، ومن يخرجها عن بيانها الواضح ، وغرضها المسوقة له ، لكيلا تصلح دليلا لمذهب فلان ، وبهذا أصبح القرآن تابعاً بعد أن كان متبوعا ، ومحكوما عليه بعد أن كان حاكما !

كانت هذه ثورة ! ثورة غير منظمة ، عقدت حول القرآن غباراً كثيفاً حجب عن العقول ما فيه من نور الإرشاد والهداية ، وكان من سوء الحظ أن صادفت هذه الثورة عهد التدوين ، فحفظت ودونت كثير من الآراء الباطلة فى بطون الكتب وأخذت بحكم الأقدمية ومرور الزمن نوعا من القداسة التى يخضع لها الناس ، فتلقاها المسلمون فى عصور الضعف الفكرى ، والانحلال السياسى كقضايا مسلمة ، وعقائد موروثة لا يسوغ لهم التحلل منها ، ولا الاعتداء عليها ، ولا التشكيك فيها .

قيّد هذا التراث العقول والأفكار بقيود جنت على الفكر الإسلامى فيما يختص بفهم القرآن ، والانتفاع بهداية القرآن ، فجمد الناس على تقليد هذه الكتب واتخذوها حكما بينهم ، واعتقدوا كل مافيها من غير تمييز بين حق وباطل ، ونافع وضار ، واعتقدوا أنه لا يصح لمؤمن أن ينكر شيئا منها ، وقالوا : هذا شىء درج عليه السابقون المتقدمون ودوّنوه فى كتبهم ، وشرحوا به كتاب الله ، وتلقته الأمة بالقبول ، وما كان لنا ، ولسنا بأعلم منهم بالدين ، ولا بأبعد نظراً فى فهم أساليب القرآن ، وتخريج الأحكام ، أن نحيد عما تلقيناه منهم قِيد شعرة ، ولا أن نخالفه فى قليل ولا كثير ، وبذلك أسلموا عقولهم الى غيرهم ، وجنوا على أنفسهم بحرمانها لذة التفكير ، وجنوا على دينهم باعتقاد أن هذه الأوهام من الدين ، وقعدوا عن

النظر فى القرآن ، وامتلأت أذهانهم بألوان من الأوهام الفاسدة عن التشريع والعقيدة ، وما يحل وما يحرم ، وصار كثير من المسلمين يعتقد أن الحلال ما أحله فلان فى كتاب كذا ، وأن الحرام ما حرّمه فى كتاب كذا ، بل وصل الأمر ببعض أهل العلم الى أن يقول : إن هذا الشيء ثابت فى القرآن ، لأن فلاناً وفلاناً حملوا عليه بعض آيات الكتاب الحكيم .

وأما الناحية الثانية : فإن طائفة أخرى هى طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث ، وتلقنوا ، أو تلقفوا ، شيئا من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها ، أخذوا يستندون الى ثقافتهم الحديثة ، ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها .

نظروا فى القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا فى القرآن فتحا جديدا ، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة ، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية ، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ، ويرفعون من شأن الإسلام ، ويدعون له أبلغ دعاية فى الأوساط العلمية والثقافية .

نظروا فى القرآن على هذا الأساس فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن وأفضى بهم الى صور من التفكير لا يريدها القرآن ، ولا تتفق مع الغرض الذى من أجله أنزله الله ، فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر ، أو وصف للسحاب ، أو حديث عن الرعد أو البرق ، تهللوا واستبشروا وقالوا : هذا هو القرآن يتحدث الى العلماء الكونيين ، ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف ينشأ وكيف تسوقه الرياح . وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء ، قالوا : هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة ، وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، قالوا : هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علمى دقيق .

ومن عجيب ما رأينا من هـذا النوع أن يفسر بعض الناظرين فى القرآن قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » بما ظهر فى هـذا العصر من الغازات السامـة ، والغازات الخانقـة التى أنتجها العقـل البشرى فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير ، يفسرون الآية بهذا ويغفلون عن قوله تعالى بعدها : « ربنا اكشف عنا العـذاب إنا مؤمنون » . « أنَّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا : معلَّم مجنون » .

روى أن رجلا جاء الى ابن مسعود وقال له : تركت فى المسجد رجـلا يفسر القـرآن برأيه ، يفسر قوله تعـالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان فيأخـذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام ، فقال ابن‌مسعود : « من علم علما فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، إنمـا كان هذا لأن قريشا استعصوا على النبى صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم قحط وجَـهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجَـهْد .

وأغرب من هذا وأعجب أن يفسر بعض هؤلاء المفسرين الحديثين شأناً غيبيا من شئون الله الخاصة لم ينزل بتفصيله وحى ، ولم يطلع الله على حقيقته أحداً من خلقه ، ببعض الظواهر الحاضرة التى اكتشفها العلم واهتدى إليها بنو الإنسان ، يفسر : « الـكتاب المبين » و « الإمام المبين » الذى تحصى فيه الحسنات والسيئات ويعرض على أصحابها يوم القيامة ، بالتسجيل الهوائى للأصوات ، ويقول : أظهر العـلم ذلك بالمخترعات البشرية ، واستخدمه الإنسان فيما يختص بالأصوات ، ولا يبعد أن يستخدمه فيما يختص بحفظ الحركات والسكنات والخواطر النفسية ، والله القادر خلق الـكون على هـذه السنن لغاية أسمى من ذلك ، هى محاسبة الناس يوم القيامة ، وعرض أعمالهم عليهم ، كشريط مسجل يضم جميع حركات النـــاس وسكناتهم وخواطرهم وأقوالهم ، وما قدموا من عمل .

يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى

ولا ينسى » وقوله تعالى : « وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا » ويهجمون على الغيب بما لم يأذن به الله ، ويجدون من العلماء من يؤيدهم ويشجعهم ويزكيهم ويتمنى أن يكثر الله من أمثالهم !

إن هؤلاء فى عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هذا التفكير ولكن على حسب ما كانت توحى به إليهم أحوال زمانهم ، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية :

ولسنا نستبعد إذا راجت عند الناس فى يوم ما نظرية داروين مثلا - أن يأتى إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول : إن نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين .

هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك ، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتابا يتحدث فيه الى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف .

وهى خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الإعجاز ، ولا يسيغه الذوق السليم .

وهى خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان ومكان ، والعلوم لاتعرف الثبات ولا القرار ولا الرأىالأخير ، فقد يصح اليوم فى نظر العلم ما يصبح غدا خرافة من الخرافات .

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة ، لعرضناه للتقلب معها ، وتحمل تبعات الخطأ فيها ، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفا حرجا فى الدفاع عنه . فلندع للقرآن عظمته وجلالته ، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة الى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ، ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم .

وحسبنا أن القرآن لم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول . قيل : يارسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون

على حالة واحدة ؟ فنزل قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج . وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون »

وإنك لتجد هذا فى سؤالهم عن الروح حيث يقول عز وجل : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أليس فى هذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون ، وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتشريع ؟

* * *

وإنى لأرجو أن أوفق فيما أعرض له من تفسير آيات القرآن الكريم على صفحات « رسالة الإسلام » إلى الخطة المثلى التى يجب أن يستقبل بها المسلمون كتاب الله « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا » ؟

من الحكم النبوية

- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .
- يد الله مع الجماعة .
- إن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها .
- المرء كثير بأخيه .
- لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .
- دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .
- المرء على دين خليله .

التثبت قبل الحكم

لحضرة صاحب الفضيلة العلامة الكبير
الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

ما زال أهل العلم والنظر والدراسات الصحيحة يُعْنَـوْن أكبر العناية بالمصادر التى يعتمدون عليها فى بحوثهم ، ويستندون إليها فى أحكامهم ، ومن المعهود أن رجال الفرق ، وأهل العصبية للمذاهب ، ينقلون عن مخالفيهم آراء قد لا يعرفها هؤلاء المخالفون ، وقد يعرفونها على صورة أخرى تختلف اختلافاً قريباً أو بعيداً عن الصورة المنقولة ، وأنهم قد يأتون باستدلالات لمذهب مخالفيهم يروجون لها ، فى ظاهر الأمر ، ويوغلون فى تفصيلها والعناية بدقائقها ، ليوهموا الناس أنها لمخالفيهم ، ثم يكرون عليها بالإبطال والتزييف والطعن والتجريح فلا تلبث أن تنهار .

لذلك كان شيوخ العلم ، وحذاق النقد ، يوصون تلاميذهم بأن يُعنَوْا بمصادرهم ، وألا يقلدوا فى بحوثهم وأفكارهم تقليداً أعمى ، فيقعوا فى الخطأ ، ويضلوا عن سواء السبيل ، وكانوا ينصحونهم دائماً بالرجوع إلى المصادر الأصيلة لمذهب ما ، أو فكرة ما ، إذا أرادوا أن يصلوا إلى الحقيقة فى هذا المذهب ، وأن يعرفوا الواقع الفعلى ، لا التخيلى ، لهذه الفكرة .

أقول هذا لأننى تتبعت كثيراً مما يكتبه الكاتبون عن الشيعة إلى عهد قريب ، فوجدته مأخوذاً عن ابن خلدون الذى كان يكتب وهو فى أفريقيا وأقصى المغرب عن الشيعة فى العراق وأقصى المشرق ، أو عن أحمد بن عبد ربه الأندلسى ،

أو أمثالهما ، وقد يريد الكاتبون التوسع ، ويقصدون إلى الدراسة والتحليل ، فيرجعون إلى كتب الغربيين المعروفين « بالمستشرقين » ، وحينئذ يظنون أنهم قد أتوا بفصل الخطاب ، واعتمدوا على المصدر الوثيق ، وجاءوا بالحجة الدامغة . مع أن أمر الشيعة فى أفكارهم وآرائهم ميسر لمن أراد معرفته ، فهذه كتبهم ومؤلفاتهم ومكتباتهم — ومن بينها مكتبتنا التى تشتمل على أكثر من خمسة آلاف مجلد — تشهد بأن الشيعة ما هم إلا طائفة من طوائف المسلمين ، ومذهب من مذاهب الإسلام ، يتفقون مع سائر المسلمين فى الأصول ، وإن اختلفوا معهم فى بعض الفروع .

* * *

ومن الأمثلة التى تدل على عدم التثبت ما يزعمونه من أن الشيعة تقول : إن النار محرمة على الشيعى إلا قليلا ، وكتب الشيعة جميعا تنادى بأن الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشيا ، والنار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشيا . والمسلمون جميعاً يقرأون قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

ومن ذلك ما يزعمونه من أن النصرانية ظهرت فى التشيع فى قول بعضهم : إن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح إلى الله ، وهذا قول مرسل بغير سداد ، ولم يعين قائله من الشيعة ؟ فإن كان المراد ما يسمونهم غلاة الشيعة كالخطابية ، والغرابية ، والعلياوية ، والمخمسة ، والبزيعية ، وأشباههم من الفرق الهالكة المنقرضة التى نسبتها إلى الشيعة من الظلم الفاحش ، وما هى إلا من الملاحدة والقرامطة ونظائرهم ؛ فإن الشيعة الامامية وأئمتهم يبرأون من تلك الفرق براءة التحريم ، على أن تلك الفرق لا تقول بمقالة النصارى ، بل خلاصة مقالتهم ، بل ضلالتهم أن الإمام هو الله سبحانه وتعالى ظهوراً أو اتحاداً أو حلولا أو نحو ذلك مما ينقل عن بعض المتصوفة ، وقريب من ذلك ما يقول به أرباب وحدة الوجود أو الموجود .

أما الشيعة الإمامية ، وأعنى بهم جمهرة العراق وإيران وملايين من مسلمى الهند ومئات الألوف فى سوريا والأفغان ، فإن جميع تلك الطائفة يبرأون من تلك المقالات ، ويعدونها من أشنع الكفر والضلال ، وليس دينهم إلا التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق ، أو ملابسة له فى صفة من صفات النقص والإمكان ، والتغير والحدوث ، وما ينافى وجوب الوجود والقدم والأزلية ، إلى غير ذلك من التنزيه والتقديس المشحونة به مؤلفاتهم من مختصرة ومطولة .

وقصارى القول أنه إن أريد بالشيعة تلك الفرق البائدة ، والمذاهب الملحدة التى لا أحسب أن على رقعة الأرض منهم اليوم نافخ ضرمة ، فنحن لا نضايق فى ذلك ، ولكن نسبتهم إلى الشيعة ظلم فاحش ، وخطأ واضح ، وسوء فى التعبير ، وإن أريد بالشيعة الطائفة المعروفة اليوم بهذا الاسم ، والتى تعد بالملايين من المسلمين ، فهذه كتبهم ومؤلفاتهم وعلماؤهم من حاضر وغابر ، فأين فى شىء منها أثر هذا القول الباطل ؟

وقد ينبزون الشيعة بالقول بالرجعة ، فليت شعرى هل القول بالرجعة أصل من أصول الشيعة ، وركن من أركان مذهبها حتى يكون نبزاً عليها ؟ إن أمر الرجعة ليس إلا كبعض أنباء الغيب وحوادث المستقبل وأشراط الساعة مثل نزول عيسى من السماء ، وظهور الدجال وخروج السفيانى وأمثالها من القضايا الشائعة عند المسلمين ، وما هى من أصول الإسلام فى شىء ، ليس إنكارها خروجا منه ، ولا الاعتراف بها بذاته دخولا فيه ، وكذلك حال الرجعة عند الشيعة ليس التدين بها بلازم ، ولا إنكارها بضار ، ولا يناط بها التشيع وجوداً ولا عدما .

* * *

وأعود فأقول إن التثبت واجب قبل الحكم ، وقد أمرنا الله به لئلا نصيب قوماً بجهالة فنصبح على ما فعلنا نادمين ، وأكبر الظن أن الذين يكتبون عن الشيعة دون أن يعرفوا بأنفسهم حقيقة الشيعة ، إنما يريدون تسويد الأوراق ، والتلهى

بعض الحديث ، ولكن الشيعى الذى هو على بينة من أمره ، ينظر إلى هذه الكتابات كما ينظر إلى النادرة الطريفة التى يرويها الأصفهانى فى كتابه « المحاضرات » إذ يقول : سئل رجل كان يشهد على آخر بالكفر عند جعفر بن سليمان ، فقال : إنه معتزلى ناصبى حَروري جبرى رافضى ، يشتم على بن الخطاب ، وعمر بن أبى قحافة وعثمان بن أبى طالب ، وأبا بكر بن عفان ، ويشتم الحجاج الذى هدم الكوفة على أبى سفيان ، وحارب الحسين بن معاوية يوم القطائف « يريد يوم الطف أو الطائف » فقال له جعفر بن سليمان : قاتلك الله . ما أدرى على أى شىء أحسدك ؟ أعلى علمك بالأنساب ؟ أم بالأديان ؟ أم بالمقالات ؟

رضيتُ عن الله ورسوله

روى أبو داود من حديث أبى الورد عن على بن أعبد قال : قال لى علىّ رضى الله عنه : ألا أحدثك عنى وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت من أحب أهله إليه ؟ قلت : بلى . قال : فإنها جرّت بالرحى حتى أثر فى يديها ، واستقت بالقربة حتى أثر فى نحرها ، وكنست البيت حتى أغبرّت ثيابها ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم خدم — وفى رواية البخارى : فبلغها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتى بسَبْى — فقلت : لو أتيْتِ أباك فسألتيه خادماً ، فأتته فوجدت عنده حُدّاثا ، فرجعت ، فأتاها من الغد فقال ما كان حاجتك ؟ فسكتت ، فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله . جرّت الرحى حتى أثرت فى يدها ، وحملت القربة حتى أثرت فى نحرها ، فلما أن جاء الخدم أمرتُها أن تأتيك فتستخدمك خادماً تقيها حر ما هى فيه ، فقال : اتقى الله يا فاطمة وأدّى فريضة ربك واعملى عمل أهلك ، فإذا أخذتِ مضجعك فسبّحى ثلاثا وثلاثين ، واحمدى ثلاثا وثلاثين ، وكبرى أربعاً وثلاثين فهى خير لك من خادم . قالت : رضيت عن الله وعن رسوله .

وظيفة الدين في المجتمع

لحضرة الكاتب الكبير الأستاذ أحمد أمين بك

امتاز القرن الثامن عشر والتاسع عشر بوضع خطّة ترمى إلى أن يكون العلم أساس الحياة، وبشّر الدعاة فيهما بأن العلم هو الذى يزيل شقاء العالم، ويزيد من سعادته، وهو الذى ينبغى أن تبنى عليه كل نظم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية. وأدّاهم هذا النظر إلى الاعتقاد «بالجبر» ولكن لا على النحو الذى كان يقول به الأقدمون، من أن أرادة الله تجْبر الإنسان على السير على مقتضاها، ولكن بمعنى جديد، وهو أن ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والطبيعية، ترغم الناس على نوع من الحياة لا يمكنهم أن يتحولوا عنه، فالفقر نتيجة طبيعية للنظام الاقتصادى، وسوء حالة الأفراد فى بؤسهم وضعف عقلهم واضطرابهم وخرافاتهم وأوهامهم؛ نتيجة طبيعيّة للنظم السياسية والاجتماعية التى يعيشون فيها، فإذا تغيّرت تغيروا، وإذا حسنت حسنوا.

وهذا حق من ناحية أن الحياة ينبغى أن تؤسس على العلم، فالمشروعات التى تقترح، ونظم التربية التى توضع، وتنظيم الحياة الاقتصادية ونحو ذلك، كلها يجب أن تبنى على العلم والإحصاء والتجربة.

ولكن خطأ هذه النظرية جاء من أن العلم ليس كل شىء، وأنه لا يكفى وحده لإسعاد العالم، فانتشار العلم فى أوروبا لم يمنع الحرب وويلاتها وأهوالها ولم يحقّق الأمل الذى بشّر به العلماء، ولو خيّر أكثر الناس بين بيت أسس على أحدث طراز من العلم والصناعة لجهز بالراديو والتلفون ومكيّفات الهواء وأدوات الزينة ونحو ذلك وسكنته أسرة فقدت أحد أبنائها فى الحرب، وبين

بيت أقل مدنية وحضارة ولكن سلم أهله من الحرب وويلاتها ؛ لفضلوا البيت الثانى على البيت الأول والحياة الثانية على الحياة الأولى .

لو كان الإنسان جسما فقط يخضع للعلم لصحت هذه النظرية من جميع وجوهها ولكن الإنسان جسم وروح ، وعقل وقلب ، ومادة وإرادة ، فمن قصر النظر أن تنظم الحياة المادية وحدها من غير أن تنظم الروح ، وينظم العقل وحده ولا ينظم القلب ، وتجرى تجارب المادة على الإنسان كأنه جماد من غير أن ينظر إلى إرادته الحرة .

لذلك نجحت المدنية الأوروبية فى باب المادة وما يتعلق بها ولم تنجح فى باب القلب وما يتصل به . والمدنية الصحيحة هى التى تعالج الإنسان فى جانبيه اللذين فطر عليهما وهما جسمه وروحه .

إن العلم فى كل أشكاله حتى علم النفس يعالج المادة ، والذى يعالج القلب هو الدين ، ولا تنتظم سعادة العالم إلا بهما . فإذا غلا العلم فاعتقد أنه يسيطر على كل شىء فى الإنسان فقد أخطأ . وإذا غلا الدين وحارب العلم فى دائرته فقد أخطأ .

إن كان العلم يحقق رغبة الإنسان من حيث مادته ؛ فالدين يحقق أمله وطموحه من حيث نفسه وقلبه .

لقد أراد الماديون أن يؤسسوا نظاماً للأخلاق مبنياً على العقل البحت فلم ينجحوا . إن الأخلاق إذا كان يحميها القانون فقط أو الحكومة أو الضمير أو الرأى العام لم تكن أخلاقا محصّنة ، فكل هذه الوسائل لا تمنع الإجرام . فكم من الجرائم يستطيع الإنسان ارتكابها ولا يصل إليها القانون ولا الحكومة ولا الرأى العام ، وما سمّى بالضمير ليس إلا مرآة منعكسة للعرف والتقاليد . فالضمير فى الهند كان يسمح للزوجة أن تدفن حيّة وراء زوجها ، والضمير فى أمريكا يسمح للأمريكى أن يعامل الزنجى معاملة الإنسان للغنم . والدين هو الذى يسد هذه الثلمة فيربط قلب الإنسان بربه ، وضميره بإلهه ، وإلهه مطلع على خفاياه يحاسبه حتى على نياته ، ويراقبه حتى فى خلجات نفسه .

لذلك كان لا بد من الدين لحياة القلب ، وحيـاة الضمير ، وتحقيق السعادة ، وبدونه تصبح الحياة جافّة مادية تافهة لا قيمة لها .

هذا فضلا عن أن الدين هو الذى يتفق والطبيعة الإنسانية ، والغرائز البشرية فمن فقد دينه فقد أفسد طبيعته ، وجزاؤه على ذلك الحيرة والاضطراب وقلق البال وزعزعة النفس . وخاصة عند الشدائد ، أو عنـــد الشيخوخة ، أو عند حضور الموت .

وإذا كان الدين هو الذى يتفق والطبيعة البشرية وهو الذى يكمل نقص العلم ، وهو الذى يسعد الناس ويطمئنهم ويرقى بهم ؛ كان ضرورة من ضرورات الحيـاة أشدّ من العلم .

وليست الأديان كلها بمنزلة واحدة فى تحقيق هذا الغرض ، فقـد يضرّ الدين إذا كان دين خرافات وأوهام ، يقف حجرة عثرة فى سبيل العلم . وقد يضرّ الدين إذا كان لا يتفق مع الطبيعة الإنسانية فيدعو إلى العزلة والتبتـل والرهبانية ، وقد يضرّ الدين إذا ملأ الإنسان رعبـاً وخوفاً ورهبة فشـّله عن العمـل فى الحيـاة ، وقد يضر الدين إذا لم يكن روحانيا واقتصر على الانهمـاك فى اللذائذ والاستهتار بالحياة ، إنمـا الدين الصحيح ماسما بالإنسان فوق حاجاته الجسمية ، وأوثق الصلة بينه وبين الله العـادل الحكيم المتصف بجميع صفات الـكمال ، المنزه عن جميع صفات النقص ، والدين الصحيح هو الذى يبث فى نفوس أصحابه روح الأخوة بينهم وبين سائر أفراد البشر لأنهم جميعاً من صنع إله واحـد . والدين الصحيح هو الذى يتمشى مع الطبيعة الإنسانية ولـكنه يرقيها ، ويحيي غرائزها ولـكن يعـدّلها ويلطفها ، والدين الصحيح هو الذى يربط عبادة الله وطاعته بخير الناس ، ويربط عصيانه بفساد الناس ويبث فى نفوس أتباعه حب العدل والإخاء والمساواة وكره الظلم والطغيان والطبقات . والدين الصحيح هو الذى يرقى القلب ويحييه ، ويوحى إلى الضمير باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه .

* * *

والناظر فى الإسلام يراه أُسِّس على هذه المبادىء : فالله رب العالمين ، والمؤمنون أخوة ، والناس سواسية ، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، والرسل ليسوا إلا بشراً كسائر الناس : رقى استعدادهم ، وتفتحت نفوسهم فأوحى الله إليهم بتعاليمه ، وبما يُصلح من معاش الناس ومعادهم .

إن الدين على هذا الوضع يدعو إلى الوئام لا الشقاق ، وإلى الحب لا الخصام ، وإلى عمل الخير لا عمل الشر ، وإلى الإكثار من الخير وتلافى الشر — إن كان هذا فما أعجبنا من خصام يكون بين الدين الواحد . لقد كان حرياً أن لا يكون خصام بين الأديان المختلفة ، فكيف بأهل دين واحد ؟! لقد تبين الرشد من الغى ، وتبين أن للإسلام أصولا وفروعا ، وأن أصول الإسلام إيمان بالله وإيمان بحياة أخرى وإيمان برسله ، فمن اعتنق هذه الأركان كان مؤمناً وكان مسلماً ، وهذه الأركان هى لبُّ الدين . فالخلاف فى الفروع خلاف لا يصح أن يكون مثار حرب ولا نزاع ولا عداء ، ولئن صح أن يكون خلاف فخلاف يقتصر على المنطق وتبادل الآراء وإقامة حجة أو بطلان حجة ، ولا يصح أن يتعدى هذا . فما أعجب قوماً لهم رب واحد ، ورسول واحد ، وكتاب واحد ، يتنازعون فى الفروع هذا التنازع العقيم ثم يكفر بعضهم بعضا ، ويلعن بعضهم بعضا ، ويلجأون إلى السلاح فى إقامة الحجة ، وما كان السلاح يوما إحدى الحجج ولا وسيلة للاقناع .

إنما نشأ هذا عن ضيق فى النظر ، وتعصب أعمى ، وفساد فى الذوق ، وانحراف عن أصول الدين ، وسياسة تعتمد على التفريق ، وجهالة تتجر بالجهل ، ولئن صح هذا فى العصور المظلمة والعصور الجاهلة ؛ فلا يصح فى هذا العصر المستنير العاقل ، ولئن صح أن يصدر هذا الخلاف عن أهل دين يقولون بالتعديد فلا يصح عن أهل دين يقولون بالتوحيد !

بين القانون الرومانى والشريعة الأسلامية

للباحث القانونى الكبير

الأستاذ محمد الشافعى اللبان بك

جاء الإسلام ديناً ودولة ، فحوت الشريعة الغراء الى جانب ما جاءت به من أحكام العبادات قواعد المعاملات بين الناس ، تقررت أصول تلك القواعد فيما أنزله الله تعالى فى كتابه العزيز ، وفيما استنه نبيه الكريم من قول وفعل وتقرير ، ثم استكملت تفصيلاتها بالاجماع ، ثم بالقياس ، فتمت بذلك للشريعة مصادرها الأربعة من الكتاب والسنة والإجماع والحمل على واحد منها ، واحتلت المكان الأول بين الشرائع بما انفردت به أحكامها وأساليبها من دقة بلغت حد الاعجاز ، فواجهت حاجات الناس فى كل عصر وفى كل مكان .

وقد كان للأئمة والمجتهدين أثر محمود فى هذه النتيجة ، فهم — مع ما قيدوا أنفسهم به فى استنباط القواعد والأحكام من ردها الى أصولها فى الكتاب أو السنة — قد سلكوا مع ذلك فى فتاويهم وفى اجتهادهم الطريقة المعروفة فى إصلاح رجال القانون بالطريقة الفرضية الموضوعية التى تقوم على طرح الفروض التى تمس الحياة العملية دون غيرها مع الاقتصار على وضع الأحكام للحوادث الواقعية ومقتضياتها ، فكان من نتائج ذلك تلك الثروة الفقهية الباقية على الدهر ، والتى يجد الباحث فيها دائما الحكم فى كل ما يعرض له من حوادث ، وما يقع من أقضية .

انفرد علماء المسلمين بهذه الطريقة ، فخالفوا بها من تقدمهم من فقهاء الشرائع القديمة ، وخاصة الشريعة اللاتينية التى قامت على وضع نظم ونظريات وتقرير قواعد وأحكام ، ثم إخضاع الحوادث لها قسرا ولو على حساب العدالة ، ومع

تجاهل مقتضيات التعامل مع الناس حتى انتهى الأمر بهم فى كثير من الحالات الى استحالة تطبيق تلك النصوص، فالتمس الحكام الحل فيما أسموه « قانون العدالة » الذى حكموه الى جانب القانون الرومانى الجامد لسد نقصه وتقويم عوجه .

قامت الشريعة الاسلامية على هذا الأساس السليم، وحلت مع الإسلام أينما حل ، وفى القرون الوسطى حين بدأت النهضة العلمية فى أوروبا تفتحت أعين الباحثين والمفكرين عن شريعتين رئيسيتين فى العالم ، الأولى : شريعة الإسلام فى بلاد المسلمين ، والثانية : شريعة الرومان فى القارة الأوربية . إذا استبعدنا الشريعة الانجلوسكسونية التى لم تكن ترقى إذ ذاك إلى مرتبة القانون الرومانى، فكان طبعيا عند ما بدأ البحث فى مقارنة الشرائع أن يتطلع الباحثون الى الشريعة الإسلامية وإلى ما استحدثته من أحكام سبقت بها الشرائع الوضعية، وأن يقوم الجدل حول مقارنتها بالقانون الرومانى ، لكن هذا الجدل لم يدفع إليه التحقيق العلمى والبحث الخالى عن الشهوة ، بل قام أشده على التعصب والتجنى على العلم والهدى ، وتولاه نفر من المستشرقين من دعاة الدين المسيحى، يسعون به إلى النيل من الإسلام برد ما جاء به من البينات إلى أصول من عندهم وبالعمل على إثارة الشك فى أصول تلك الشريعة ، عسى أن يجدوا ما يقيم حجتهم فى التدليل على قيام الصلة بينها وبين قانون الرومان، أو ما يثبت الاقتباس من أحكامه .

والحق أن جملة القول فى هذا البحث أنه يخلو من الحجة ويفتقر الى الدليل، دفعه روح التعصب ، وتلمس القائلون به سندا له مما ارتأوه من صدفة الاتحاد أحيانا فى الفكرة أو فى الحلول المقررة فى كل من الشريعة، وفى قانون الرومان ، لكن بجرد الاتحاد بين فكرتين لا يكفى للقول بأن المتأخر أخذ من المتقدم، بل لا بد من إثبات التلاقى فى أصول الفكرتين مع اتصال السند كما يجب التحقق من التقدم والتأخر .

وللتحقق من التقدم والتأخر يجب التمييز بين القانون الرومانى القديم - وهذا أقدم عهدا من الشريعة - وبين القانون الرومانى الحديث الذى ظهر فى أوروبا فى

عصر النهضة فىالقرن الثانى عشر ، أما القانونالرومانى القديم فيرجع إلى الأصول الأولى التى صيغت فى الألواح الاثنى عشر التى ترجع بدورها الى أصول متفرقة من الأنظمة والتقاليد السابقة عليه كالأنظمة اليونانية ، وعلى الخصوص قانون : « صولون » الإغريق . ومعلوم أن أحكام هذا القانون الرومانى تميزت بالقسوة والإفراط فىالشكلية لجاء التشريع فطريا فى مبادئه يسقط الحق لهفوة شكلية ويقتل المدين إذا لم يف بدينه ، ويعطى الأب حق قتل ابنه أو بيعه ، لذلك كان طبيعيا أن يتطور هـذا القانون القديم تطورا فى عهود متلاحقة من عهـد الجمهورية إلى عهد الإمبراطورية ، حتى إذا قامت الديانة المسيحية التى لا تتفق تعاليمها مع شكلية ذلك القانون ، ظهر فى القارة الأوربية إلى جوار القانون الرومانى قانون دينى مسيحى هو : « القانون الكنسى » يقضى بأصول تختلف عن الأصول المقررة فى القانون الرومانى .

أما الشريعة الإسلامية فقـد نبتت من أولها متصلة بأحكام الدين التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتسعى إلى النية ، وتبعد عن الشكلية ، وهكذا نجد الأحكام الشرعية منقطعـة الصلة بأحكام القانون الرومانى القديم ، وخاصـة من حيث أساليبها الفنيـة ، وأوضح ما يسـاق على ذلك من دليل المقـابلة بين النظم الرومانية التى تميزت أساساً وتفصيلا بالشكلية المحاطـة بالطقوس الرمزية ، وبين أحكام الشريعـة الغراء التى قامت بصفة أصلية على الرضائية والتجرد من الشكليـة والتى تبحث عن النية الحقيقية لتصل الى الجوهر دون الشكل والمظهر : خذ عقد البيع مثلا ، فهل يكفى أن عرفه العرب ، ووضعوا أحكامه ليقال أنهم نقـلوه عن بيع الرومان ، أين عقـد البيع المعروف فى الشريعة الإسـلامية من عقـد البيع الرومانى الذى ما كان يتم إلا بطريقة الإشهاد ، أو ما قام مقامها ، وإلا باستعمال ألفاظ وصيغ معينة موضوعة ؟ وشتان بين هذا البيع الناقص الذى ما كان لينقل إلى المشترى غير « الحيازة الهادئة » وبين عقد البيع شرعا الذى ينقل الملك العام .

أما أن يتحد موضوع البحث أحيانا وتلتقى الحـلول صدفة فذلك أمر طبعى

ما دام القصد تقرير أحكام لمعالجة أحوال واحدة فمن المسلم به أنه كثيراً ما تتفق خواطر الأطباء عند بحث مرض واحد على نفس العلاج ولو لم يتم بينهم بهذا بهذا الشأن تفاهم سابق . ونحن إذا رجعنا بمختلف الحلول إلى الأصول الكلية ظهر الخلاف وتميزت الشريعة بطابعها الخاص وعرف المصدر على حقيقته ولم يعد مجال للقول أو الاستنتاج .

على أن ما بين التشريعين الإسلامى والرومانى القديم من اتفاق لا يكاد يذكر فى بعض الجزئيات يجب ألا ينسينا مدى التباين والاختلاف القائم بينهما ويظهر ذلك فى مسائل الأحوال الشخصية وفى أحكام الملكية ومبادىء العقود وقواعد تعويض الضرر وغير ذلك من القواعد والأصول الكلية . وقد استحدث الكتاب العزيز والسنة الشريفة مبادىء لم تسد حتى ذلك الوقت ولم تتقرر فى القوانين الغربية إلا بعد أن تطورت وتقدم بها العهد . من ذلك الأمر العام بالوفاء بالعقود الوارد فى سورة المائدة ، والنهى العام عن أكل أموال الناس بالباطل فى سورة النساء ، والمبدأ العام القاضى بأن لا ضرر ولا ضرار الوارد فى السنة .

ولم يتضح التلاقى فى بعض الأحكام إلا بعد أن تطور القانون الرومانى وتجرد من الشكلية وبعد أن التقى فى تطوره بعوائد وتقاليد شعوب وأجناس مختلفة وخاصة بعد أن التقى بالعوائد والتقاليد الجرمانية فأخذ بذلك يقترب فى بعض نواحيه من الأساليب التى أخذت بها الشريعة الإسلامية التى قامت قبل ذلك التطور بزمن طويل .

فاذا قامت المقارنة بين الشريعة والقانون الرومانى الحديث فربما وجدنا فى أحكام هذا القانون ما يلتقى أحيانا بما جاءت به الشريعة من أحكام . ولكن إن صح القول هنا بالاقتباس فالأولى أن يسند ذلك إلى القانون المتبع فى القارة الأوربية لتأخره فى التاريخ . بل إن البعض قد وصف القانون الرومانى لذلك السبب بأنه « فقه إسلامى أخذ من الأندلس » ويكون لهذا الوصف قيمته إذا كان المقصود بالنظر هو القانون الرومانى الجديد فليس ثمة ما يمنع من أن يكون

هـذا القانون قد تأثر فى بعض أحكامه بفقه الشريعة التى سادت حينـا طويلا فى بلاد الأندلس .

لا محل إذن للتحدث عن اقتباس على النحو المزعوم فى الأحكام بين الشريعة والقانون الرومانى . هذا إلى أن أئمة الشريعـة فيما جاءوا به قد التزموا الأصول الشرعية ولم يخرجوا عليها وفرضوا على أنفسهم أن ردوا الفروع إلى أصولهـا من الـكتاب أو السنة ، وهى أصول معروفة ثابته .

ومع ذلك فمن الممـكن أن نتلمس فى الحلول الفرعية التى جاء بهـا بعض أئمة الشريعة ، والتى لا تستند إلى مصـدر خاص من الـكتاب أو السنة ، أو الإجماع أو القياس ، وإنمـا تقوم على الاجتهاد البحت أو الاستحسان أو على إقرارمصلحة مرسلة ما يقرب بينها وبين ما قرره القانون الرومانى . وليس فى هـذا من حرج ما دام ليس ثمة حواجز حصينـة بين الأمم والشرائع تمنع من تسرب الأفـكار من هذه إلى تلك فتتبادل الشرائع الاقتباس ، ويجرى بينها التبـادل والائتناس . فـكما صح لنـا القول بأن القوانين الأوربيةربمـا تأثرت فى تفصيلاتهـا بأحكام ترتد أصلا إلى الشريعة الغراء ، نقلت إليها خاصة عن طريق الأندلس ، فلا يمنع أن يكون فقهاء الشريعة الإسلامية فى فروعهم التى يأخذونها من الـكتاب أوالسنة أو الإجماع أو الحمل على واحد منها ، قد سرت إليهم آراء من غيرهم نقحوها وصقلوها بصقل الإسلام . وقد نسوق مثلا لذلك نظام « الحـكر » فى الأراضى الموقوفة الذى لم ينص عليه فى الـكتاب ، ولم تأت به السنة ولم يتصد لبيانه الأئمة الأعلام ، وإنمـا ورد فى فروع بعض المذاهب والمقرر أن العرف السائد إذ ذاك فى البـلاد المصرية والشامية وغيرهما ،كان له أثر فى إقرار بعض أحكامه ، فليس من العسير أن نقرب بينه وبين « عقد الأمفتيوز » المعروف فى القانون الرومانى، وقد رده البعض إليه فعلا .

لقد تأثرت العوائد والتقاليد فى بعض البـلاد العربية — كمصر والشام — بأحكام القانون الرومانى ، الذى نقل إليها حينا ، وما كان على المجتهـد من حرج

أن يقتبس من تلك التقاليد ، ويستأنس بذلك العرف حيث لا يجد للحكم أصلا فى الكتاب أو السنة ، أو فيما أجمع عليه ، أو أخذ بالقياس ، وذلك فى نطاق ما أتت به تلك المصادر الأربعة من أحكام ومبادىء عامة لا يجوز الخروج على نصوصها وروحها .

على أننا إذا استقرأنا حوادث التاريخ إلى عصر الأئمة وتابعيهم لا نجد للقانون الرومانى من سبيل إلى هؤلاء الذين أسسوا بناء الشريعة وأقاموا صرحها إلا فيما استقر من بعض التقاليد ببعض البلاد العربية على ما قدمنا إذ لم يكن القانون الرومانى من بين ما نقل إلى العربية فى عصر الترجمة كما أكد ذلك المؤرخون . وجدير بالذكر أن الحلول الفرعية التى أتى بها منهم أبو حنيفة وأحمد والشافعى ، لا تتفق مع أحكام القوانين السائدة فى القارة الأوربية ، بقدر ما تتفق معها بعض الحلول التى قال بها الامام مالك وهو الوحيد من بينهم الذى لم يغادر أرض الحجاز أبداً فى حين اتصل الباقون بالأمصار الأخرى . وهكذا فان اتحاد الفكرة قد جاء عرضا ، بل إن مذهبه دون غيره من المذاهب هو الذى ساد بلاد أفريقيا الشمالية حتى وصل بلاد الأندلس .

* * *

وصفوة القول أن الشريعة الإسلامية فى أصولها ، وما يرجع من أحكامها إلى ما أورده الكتاب أو جاءت به السنة ، أو كان مرده الإجماع أو القياس ، منبتّة الصلة بالقانون الرومانى . وأنه من الجائز أن تكون بعض الفروع التى جاء بها الأئمة والمجتهدون قد تأثرت بعوائد بعض البلاد التى خضعت حينا لحكم الرومان . ولكن إذا قيل بأن فرعا من الفروع قد قبسه الفقهاء مما سبقهم من الشرائع ، أو تأثروا بما اتبع من العوائد ، التى لا تخالف أصولهم المقررة ، فان هذا القول يجب له الدليل ويلزمه البرهان ، ولا يكفى التلاقى فى الفكرة للقول بأن المتأخر نقل عن المتقدم ، والله يهدى إلى الصراط المستقيم .

وحدة المسلمين حول الثقافة الإسلامية

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد تقى القمى

السكرتير العام لجماعة التقريب

لا يهمنى إن كانت هذه القصة حقيقة واقعية ، أو خرافة من نسج الخيال ، وإنما يهمنى أن تكون مقدمة لنتائج نتعرض لها فى هذ المقال .

ولا يهمنى إن كان بطلها من حكماء الفرس ، أو من أبطال الرومان ، أو من غزاة العرب ، من الموحدين أو من غيرهم ، بقدر ما تهمنى فكرته السامية .

كان حكيما نافذ الكلمة فى عشيرته ، شديد الغيرة على مصالحهم ، تقدمت به السن ، فأراد أن يزف وحيده ويتنازل له عن رياسة قومه ، فقدم إليه أتباعه — على عادة القبائل والعشائر — هدايا ثمينة ، فأراد أن يستغل شعورهم هذا فى توطيد الإمارة لولده ، ولأحفاده من بعده ، فخطب فيهم شاكرا ، ورجاهم أن يستردوا هداياهم ، فألحوا عليه فى قبول شىء فقال لهم : « إن كان لا بد من تقديم شىء ، فأقيموا لولدى بيتاً يسكنه ، بشرط أن تشتركوا فى بنائه ، وتساهموا فى إقامته ، وأحب أن أراكم تحملون لبنائه بأنفسكم وتضعونها فى البناء بأيديكم ، فأقدموا على هذا العمل الذى يرضى شيخهم الكبير ، ولما تم البناء ، أوصى ولده أن يقيم فيه ، ولا يتحول عنه ، لأن مقامه فى بناء مشترك ربط للقلوب والنفوس جميعا ، ولأن الناس يتمسكون به ، ويتعلقون بإمارته ما أقام فى هذا البيت الذى صنعوه بأنفسهم ، ويقولون : إن نبوءة الشيخ تحققت ، وكان نزيل هذه الدار من أحفاده أميراً مرموقاً وحاكما مطاعا .

إذا كانت هذه قصة خيالية ، فهناك قصة من صميم الواقع ، عن قصر فخم لم تر عين الزمان مثله ، أقيم على أساس متين ، وشيد من حجر صلد بأيدى أمهر البناة

المخلصين من الأبيض والأسود ، ساهم فى إقامته رجال من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، من بلخ وبخارى وسمرقند وطوس وطبرستان والرى والعراق والشام والحجاز ومصر والأندلس وما بينها ، وتعبت فيه عقولهم - إن صح هذا التعبير - واستعملت فيه لبنات نورانية بدل اللبنات الظلمانية المعروفة .

وإذا كانت مرضاة ذلك الشيخ هى الدافع الى بناء ذلك البيت الصغير ، فان الدافع الى بناء هذا القصر المنيف ، هى مرضاة الله فى الدارين ، وإرضاء الضمير والإيمان والعقيدة ، بنى باسم الإسلام ، وقدمه بناته الى الإسلام ، ليكون فى خدمة الإسلام والمسلمين ، ولم يكن لحدائقه أسوار تمنع الناس من الدخول فيه ، ولا بين أقسامه حواجز تحجب عن الرواد بعض نواحيه ، فتوجهت اليه عقول الملايين ، وتعلقت به قلوب مئات الملايين ، وعبق عطره فى أركان العالم الإسلامى وفاح شذاه فى أركان الكون كله ، وأطلت عظمته على الشرق والغرب .

ذلك قصر الثقافة الإسلامية التى أراد الله أن تكون أعظم مفخرة للمسلمين ، وأعظم ثمرة للإسلام ، تلك الثقافة التى لم يوح بها أحد ، وإنما أوحى بها الشعور والإيمان والرغبة فى أن يكون للإسلام ثقافة خاصة ينهل منها المسلمون ، واندفع لتحقيق ذلك بناؤون من كل شعب مسلم ، ومن كل طائفة إسلامية ، وتخلوا جميعا عن كل قومية ولغة ، إلا قومية الإسلام ولغة القرآن ، فالبلخى نسى بلخيته ، والفارسى نسى فارسيته ، والبخارى نسى أنه من بخارى ، والعربى نسى عروبته وجعلوا أنفسهم فى خدمة الإسلام ولغة الإسلام ، وخلقوا ثقافة اسلامة ، استنبطوا قسما كبيرا منها من الإسلام نفسه ، وأخذوا قسما آخر من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية ، التزموا فيه نهجا لم يلتزمه البناة قبلهم ، هو أن يصبغوه بصبغة الإسلام ، ويسخروه فى خدمة فكرة الإسلام ليكون ثقافة إسلامية قبل كل شىء ، ووفقوا فى هذا توفيقا عجيبا ، حتى أنهم أخذوا الفلسفة اليونانية — التى كانت تثبت العقائد الوثنية ، والتى استغلتها الكنيسة فيما بعد لخدمة التثليث — وصبغوها بالصبغة الإسلامية وأثبتوا بها التوحيد والمعاد ، ولست بصدد شرح هذا وسأفرد له بحثا خاصا .

ولم ينشط فى إقامة هذا القصر الباؤون فحسب ، بل نشط كذلك الجارون والبستانيون واهتم كل بناحيته ، وتقدم كل فن يشجعه الإسلام ، من تفسير إلى أدب ، ومن طب إلى كيمياء ، ومن علوم إسلامية إلى نبوغ فى الفقه بوجه خاص ، وهكذا أوجدوا كنزاً ثمينا ، يليق أن يسمى بحق أغنى كنز فى العلوم الإسلامية ، ازدهرت كل هذه العلوم دون أن يؤخذ عهد من القائمين عليها ودون أن تشرف على تنسيقها منظمة كاليونسكو ، ودون أن يمنع أحد من الدخول فى أى بحث ، أو يحرم من الرجوع إلى أى مرجع ، أو الاغتراف من أى منهل .
كانت ثقافة إسلامية تقدم لكل المسلمين ، لا لشعب دون شعب ولا لطائفة دون طائفة ، وكان لكل عالم حق الدخول فى كل بحث ومراجعة أى كتاب والأخذ بأى رأى ولا ينظر أحد الى من يخالفه فى الرأى إلا نظرة التقدير والأخوة .

فالخليفة يقدم الى الإمامى كرسى الدراسة ببغداد ، والسنى يستمع الى دروسه كثير من غير أهل السنة ، ومرجع الفتوى إلى كل مذهب ، والباحث يقف على رأى كل مفكر . كانت ثقافة عامة مشتركة ، تعلق بها كل قطر لأنه يساهم فيها ، وغار عليها كل صقع لأن له قسطاً منها ، وحفظ حرمتها وكرامتها كل مسلم ، واحترم رجالها ونظر اليهم كمجموعة يكمل بعضها بعضاً ولا تقبل التجزئة .

لعلك تتساءل : أين هذا القصر؟ هل عدا عليه الدهر فخربه ، أم غصبه أحد الطغاة ودمره؟ كلا : لا هذا ولا ذاك . أنما تنازع فيه ورثته ، وقسموه فيما بينهم وأقاموا الحواجز بين أقسامه ، واستقل كل فريق بحصته وامتنع الآخرون من الدخول إليها .

وهكذا تحولت الثقافة الإسلامية من عامة جامعة ، إلى مذهبية ضيقة ، ومن قومية شائعة ، إلى طائفية محدودة ، وعكف كل عالم على مراجع مذهبه ، وأغضى عن ما فى المذاهب الأخرى ، وتعصب لما درس ، واستراب فى كل ما جهل . وتأثرت كل طائفة بعلمائها ، وتمسكت بنهجم ، ونفرت من كل من يخالفهم فى الرأى بل ذهبت إلى الشك فى عقائد الطوائف الأخرى .

وانتهز كثير من غير المسلمين هذه الظلمة ، وتسللوا إلى الصفوف ، وتسموا باسم المسلمين ، واستغلوا جهل الطوائف بعضها ببعض ، يزعمون لكل طائفة أنهم

من الأخرى ، يقولون للشيعة نحن من أهل السنة ، ويقولون لهؤلاء نحن من أولئك ، واستطاعوا فى غفلة المسلمين وجهلهم أن يسيئوا إلى الإسلام قروناً عديدة .

كل هذا حصل بسبب التعصب المذهبي الذى تريد جماعة التقريب القضاء عليه ، وبتأثير النزعات الشعوبية التى ترمى إلى تقسيم هذا التراث باعتبار العنصريه .

فلو أننا فتحنا صدورنا من جديد ، واعتبرنا الثقافة الإسلامية ، مجموعة يكمل بعضها بعضاً ، وتفاهمنا فيما بيننا على هذا الأساس ، وأدركنا أن هـــذه الثقافة إسلامية ، بنيت على أن تكون للإسلام قبل كل شيء ، وليست ملكاً لفرد ولا لمذهب أو طائفة كما أنهـا ما أوجدت لتـكون عنصرية ؛ لجـددنا بناء هذا القصر المنيف ولمحونا عن كل طائفة باطل الاتهـامات الموجهة اليها ، ولأخرجنا من بيننا من ليسوا بمسلمين كأولئك الأدعياء الذين انتسبوا كذباً إلى الإسـلام وهم معاول هدم فى الـكيان الإسلامى .

وفى رأيى أن ثقافة إسلامية موحدة ــ اذا التف حولها المسلمون ــ كفيلة بتوحيد صفوفهم ، ولا يخفى ماتؤدى إليه الوحدة من عز ومجد وسؤدد .

وما دامت هذه الثقافة موجودة ، فإن من الميسور بلوغ هذا الهدف ، وهو ما نعمـل له ونسعى الى تحقيقه .والله ولى التوفيق ؟

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثالثة : تسلك الجماعة من السبل ما تراه محققاً لأغراضها ومنها :

(ا) نشر الـكتب والرسائل .

(ب) الدعوة بطريق الصحف والمحاضرات والإذاعات اللاسلكية .

(ج) تبادل النشرات مع الجماعات الدينية والثقافية فى مختلف الهيئات الإسلامية .

(د) عقـد مؤتمرات إسلامية عامة تجمع زعماء الشعوب الإسـلامية فى الأمور الدينية والاجتماعية .

(ه) العمل على أن تقوم الجامعات الإسـلامية فى جميع الأقطار بتدريس فقه المذاهب الإسلامية حتى تصبح جامعات إسلامية عامة .

فريضة الحج

فيما علمته وفيما شهدته

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير
الشيخ عبد الوهاب خلاف بك

بنى الاسلام على خمس قواعد ، كل قاعدة منها أساس ثابت لتحقيق مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع ، ولو أقام المسلمون هذه القواعد على وجهها ، وقصدوا إلى تحقيق ما أراده الشارع بتشريعها ، لصلحت حالهم أفرادا وجماعات ، واستحقوا معونة الله وتأييده فى الدنيا ورضاه وحسن ثوابه فى الآخرة ، وأنا أبين فى هذه الكلمة بعض ما قصده الشارع من مصالح للفرد ، ومصالح للمجتمع فى فريضة الحج ، ثم أبين بعض ما شاهدته فى موسم الحج مما جعل هذه الفريضة شكلية لا روحية ، وبعد بها عن تحقيق المصالح التى شرعت لأجلها .

وأولى الأقوال بالصواب أن الحج فُرض على المسلمين فىالسنة التاسعة للهجرة بعد أن فتح الله عليهم مكة فىالسنة الثامنة للهجرة ، وقد حج المسلمون فى تلك السنة التاسعة بإمرة أبى بكر ، وحجوا فى السنة العاشرة بإمرة رسول الله ، وهى حجة الوداع ، وفيها فى يوم الجمعة يوم الوقوف بعرفة أوحىالله إلى رسوله قوله سبحانه « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » وقد بكى بعض الصحابة لما تلا عليهم رسول الله هذه الآية ، لأنه فهم أن هذا نذير الختام لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

قصد الشارع بفرض الحج على المسلمين تحقيق مصالح للحاج نفسه ، وتحقيق مصالح لجماعات المسلمين ؛ فأما مصلحة الحاج نفسه فقد أرشد إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله فيما رواه عنه البخارى ومسلم : « من حج فلم يرفث ولم

يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » وبقوله فيما رواه عنــه الامام أحمد فى مسنده : « إذا لقيت الحاج فسلم عليه وصافحه ، ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته فإنه مغفور له » فهذان الحديثان الصحيحان صريحان فى أن الحج طهرة للحاج من ذنوبه وآثامه ، ولا ريب فى أن أنفع مصالح المسلم أن يطهر نفســه من دنس الآثام ، وأن يزيـل ما يحجبه عن ربه من حجب عصيانه والخروج عن أمره ، فالعبادة التى تمحو ذنوب العابد وخطاياه، وتعيده كيوم ولدته أمه فيها أكبر منفعة له ومصلحة ، وفى مناسك هذه الفريضة وشعائرها من الرياضة الروحية ، والدروس التهذيبية ، ما له أكبر الأثر فى تطهير النفوس من الشرور والسيئات ، وتهيئتها لرحمة الله وغفوانه ، لو عنى الحاج بأن يقوى روحـه بهذه الرياضة ويزكى نفسه بهـذه الدروس .

فأول ما يبدأ به الحاج مناسك حجه ، الإحرام ، وإحرام الحاج ينقله من حال إلى حال ، ينقله من حياة الزينة والترف إلى حياة الفطرة والتقشف ، فهو إذا تطهر ونوى حج بيت الله ، وسأل الله أن ييسر له حجـه ويتقبله منه ، وجب عليـه أن يتجرد من ثيابه ، وأن يقتصر على ستر جسمه بإزار ورداء ، وأن ينتعل حـذاء لا يستر قدمه ، وأن يترك رأسه عاريا ، وحرم عليه أن يستعمل طيبا ، وأن يحلق شعره أو يقصره أو يرجله وأن يقص ظفره ، وأن يجادل أو يرفث أو يفسق ، وعلى الجملة حرم عليه كثير من أسباب الزينة والترف التى كانت مباحة له .

وهذا أول درس رياضى تهـذيبى يتلقاه الحاج من مناسك الحج ، فهو حين يظهر فى مجتمع بإزار ورداء عارى الرأس شبه الحافى يشعر بأن كل عظيم هو بين يدى الله خاضع ذليل ، ويشعر بأن الناس سواء ، وأن مظاهر الزينـة والترف التى تفرق بين الناس ليست إلا ظواهر ، وأن حقيقـة الناس واحـدة ، وأن الـكبر والعجب والخيلاء والتفاخر والتكاثر هى آثار غفلة الانسان ، وبهذا الشعور يتغلب على قهر نفســه ، ومحاربة ملاذه وشهواته ، ويكثر التفـكير فى ربه ، والنـدم على عصيانه ومخالفته .

فإذا وصل المحرم إلى مكة وهو على هذه الحال مظهره خال من الزينة والترف وبين جنبيه نفس شاعرة بالخضوع لله . تواقة إلى الرجوع إلى الله ودخل المسجد الحرام ورأى الكعبة التي جعلها الله قياماً للناس ، شعر بأنه في بيت الله وفي ضيافة الله وأن عليه أن يتطهر من آثامه تكريماً لمن هو في ضيافته ، إذ كيف يكرمه الله في بيته وهو مدنس بعصيانه ومصر على مخالفته ؟ هذا الشعور يملأ قلب الحاج وهو أمام الكعبة فيندفع في البكاء والدعاء والتضرع والابتهال ويطوف حول الكعبة طواف تحية القدوم وقلبه متفطر ، وعيناه باكيتان ، ولسانه ضارع ، ويداه مرفوعتان ، وكل جارحة فيه متجهة إلى الله تطلب منه الرحمة والمغفرة وتسأله الرضا والعفو والمثوبة ، وينتهي من أشواط الطواف السبعة وقد شعر بأنه خلع أكثر أوزاره ، وقرب من رحمة ربه . فإذا خرج من المسجد الحرام إلى المسعى وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، مهللا مكبراً ، داعياً مستغفراً ، تالياً قول الحق سبحانه « إن الصفا والمروة من شعائر الله » شعر أنه كرر غسل نفسه من الذنوب وتطهير قلبه من السوء ، فإذا وقف بعرفات في اليوم التاسع من ذي الحجة وقضى هذا اليوم مهللا مكبراً داعياً مستغفراً ذاكراً موقف الرسول فيه عام حجة الوداع شعر أنه أتم تطهير نفسه ، وأنه انتصر على وساوس صدره ، وهواجس شيطانه واستحق مغفرة ربه فرمز إلى هذا القهر لنفسه والإنتصار على شيطانه برجم تماثيل الشياطين وأصنام الوساوس والهواجس .

من هذا الإيجاز لمناسك الحج يتبين أنها مواقف متعددة في أماكن مختلفة لتذكير العبد بربه وتخليصه من سلطان نفسه الأمارة بالسوء ، وأنها غسل مكرر بمنزلة غسل الثوب النجس بالماء عدة مرات لتتم طهارته ، وعن هذا عبر رسول الله بأن الحاج يعود كيوم ولدته أمه وبأنه يعود مغفوراً له .

غير أني لاحظت أن كثيراً من الحجاج لم يلتفتوا إلى المعاني الروحية لمناسك الحج ، ولم ينتفعوا بما فيها من دراسة تهذيبية ، وكان جهدهم الأكبر في تحقيق شكلياتها لا في تحقيق غاياتها ، ففي الإحرام شاهدت أن أكثر المحرمين مشغولون

بالسؤال عن حكم لبس الخاتم والساعة والنظارة وكثير من الأسئلة التى شغلتهم عن التفكير فى حكمة الاحرام والإنتفاع بما فيه من عبرة وخيل إلى أن كثيراً من الحجاج يحسبون هذا الإحرام مقصوداً لذاته وليس وسيلة إلى معنى روحى وتهذيب نفسى ، وأنهم يقصدون إلى المبالغة فى الشكليات . وقد روى البخارى عن عبد الله بن عباس ، قال : « انطلق النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة بعد ما ترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه هو وأصحابه ، فلم ينه عن شيء من الأرديه والأزر تلبس ، إلا المزعفرة التى تردع(١) على الجلد » وفى الطواف شاهدت أن أكثر الطائفين يقودهم المطوفون ويرددون تبعاً لهم كثيراً من الأدعية المحفوظة المكررة المرددة . ومن الطائفين من لا يفهمون لها معنى ، ويرددون ألفاظها فى ضجيج وعجيج لا يتفق وتكريم الكعبة التى جعلها الله قياماً للناس ، ولا يتفق والخشوع والخضوع والضراعة التى يجب أن تكون عليها التائب لله والراجع إلى الله . وشاهدت أن كثيراً من الطائفين يكثرون من تكرير الطواف ليلا ونهاراً ، مع أن رسول الله ما طاف فى حجة الوداع إلا ثلاث مرات طواف القدوم حين قدم . وطواف الإفاضة حين أفاض من عرفات ، وطواف الوداع حين أراد العودة إلى المدينة ، وفى شدة الزحام حول الكعبة ، وكثرة الجلبة والضوضاء فى المطاف لا يتاح للحاج أن يقف أمام هذا البيت المبارك وقفة الذكر والاعتبار، وأن يستعرض ما مرت به من قرون ومن طافوا به من موحدين ووثنيين من حين بناه إبراهيم وإسماعيل إلى السنة الثانية للهجرة حين فتح المسلمون مكة ، ووقف رسول الله أمام الكعبة والأصنام منصوبة حولها وفوقها ، وهو يضرب بطرف رمحه وجوهها وعيونها ، ويقول: « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » ولاحظت أن أكثر الحجاج يشقون على أنفسهم ويحسبون الأخذ بالأشق هو الأحوط ، مع أن رسول الله ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، وقال : « خذوا من الأعمال بما تطيقون » . وقال : « يسرا ولا تعسرا » فمن ذلك أن بعض أئمة المسلمين ذهب إلى أن رمى الجمرات فى يومى الرمى يجوز قبل الزوال

(١) تردع على الجلد : أى تترك أثرا فيه .

وبعده وفى هذه التوسعة تخفيف للزحام ورحمة بالناس ، ويأبى أكثر الحجاج إلا التزام الرمى بعد الزوال ، ومن ذلك أن بعض أئمة المسلمين ذهب إلى أن الحصى يجمع من أى مكان ، فيأبى كثير من الحجاج إلا أن يجمعوه من المزدلفة ومنهم من يعانى فى هذا جهداً كبيرا .

ومن ذلك التزام ذبح الهدى والأضحية ، وإضاعة هذه الذبائح وأثمانها بغير فائدة ، وولاة الأمر هناك يبذلون جهداً شاقا فى دفن هذه الذبائح ، وفى وقاية الناس من عفونة جلودها ودمائها وصروررياتها . والله سبحانه أعدل وأحكم من أن يطلب من المسلم إضاعة ماله ، وهو سبحانه إنما يتقبل الصدقات ممن يصرفونها فى مصارفها ، وينتفعون بها فى خير وجوه الانتفاع بها ، فما دامت لم تتخذ الوسائل للانتفاع بهذه الذبائح فالتصدق بالقيمة أنفع للفقراء ، وما أحوج الفقراء هناك الى مشروعات يدوم نفعها لهم ، لا إلى لحوم يتخمون بها يومين فى كل عام ، ولاحظت أن كثيرا من الحجاج لا يفرقون بين ما فعله الرسول على أنه نسك من مناسك الحج ، وبين مافعله اتفاقا كما اقتضاه نظام سفره أو مقامه أو بواعث خاصة وقتية ، ولهذا لما نزل رسول الله بالأبطح عند النفر من الحج قال عبد الله ابن عباس إن هذا النزول كان اتفاقاً ، وليس من سنن الحج ولا من مناسكه . ولما رمل رسول الله فى طوافه قال ابن عباس : إن الرمل فى الطواف ليس من سنن الحج ولا من مناسكه ، وإنما كان إظهاراً للجلادة لما سمع الرسول قول المشركين فى المسلمين : حطمتهم حمى يثرب .

وكلمتى والختام ، أن الحاج لو عنى بالناحية الروحية والرياضة النفسية ، ولم يقف عند الشكليات والصور ، لكانت أيام هذه المناسك أياماً إلهية وشعر الحاج فيها أنه مع الملائكة ، وأن روحه صفت من ظلمة الماديه . ولو أخذ بالأيسر الأسهل وكفى نفسه عناء المشقات والمتاعب ما أمكن ؛ لاستراح من الضجر والألم ، وخلص لعبادة الله فى راحة بال واطمئنان خاطر ، وإذ ذاك تتحقق المصلحة الفردية للحاج ، ويعود مغفوراً ذنبه كيوم ولدته أمه ؟

إلى الدين من جديد

لحضرة صاحب المعالى

السيد محمد رضا الشبيبى

رئيس المجمع العلمى بالعراق

اقتبست غير دولة واحدة من الدول الاسلامية نظمها الحديثة للحكم من الدول الغربية ، فأصبح نظام الحكم فى بعض هذه الدول الشرقية ديمقراطيا ، وشكله نيابيا ، ووضعت فى كل بلد قواعد دستودية عامة لا معدى عنها فى الحكم ظاهرا ، ومع أن هذه الدساتير المتبعة فى بعض هذه البلاد الاسلامية تنص على أن الاسلام دين الدولة ، فان سياستها العملية سارت على قاعدة فصل الدين عن الدولة ، واقصائه عن المدرسة والمعاهد العلمية ، حاذية فى ذلك حذو كثير من الشعوب الأوروبية وفى مقدمتها فرنسا ، والواقع أن الفرق بعيد ، والبون شاسع بين الشرق والغرب من هذه الناحية ، فلما نودى فى فرنسا وفى غير فرنسا بفصل الدين عن الدولة فى العصر المعروف عندهم بعصر البعث ، أو عصر النهضة ، ولما اعتبر القوم فى الغرب أن الدين من جملة القضايا الشخصية ، أو هو رابطة خاصة تربط بين الخالق والمخلوق التفت الشعوب الأوربية حول رموز أخرى يعتزون بها كما يعتزون بالدين ، ومن ذلك رمز الوطن ، ورمز الجنس ، محاولين إحلال العقائد السياسية أو القومية أو الوطنية محل العقائد الدينية .

على هذا الأساس بنى التعليم فى فرنسا ، وفى كثير من الدول الأوربية ، وهو من جملة الأسس التى بنيت عليها الحضارة المادية الحديثة ، فنهضت أوربا نهضة قوامها الصناعة الآلية والعلوم التجريبية ، وبذلك ارتفع مستوى الشعوب المشار إليها من حيث المعيشة ، وبذلك أيضا تم للغربيين السيطرة على العالم ، واستغلال الشعوب الشرقية الضعيفة .

من ذلك يتضح أن عبارة الدولة والوطن حلت محل الدين فى بعض الدول الغربية فأردنا نحن أن نقلد الغربيين فى ذلك ، وحاولنا فصل الدين عن الدولة ، وقاومنا التربية الروحية ، ولكننا لم نجد إلى الآن ما يحل محل الدين أو يغنى غناء التهذيب الروحى ، أو يقوم مقامه ، ولم تنصب لنا رمزاً ماديا من تلك الرموز التى نصبها الغربيون ، فخسرنا — أو أوشكنا أن نخسر — الاثنين معا .

لكل ثورة جامحة حد تقف عنده ثم تعتدل وتتزن ، ولكل نزوة طائشة غاية ثم تثوب إلى رشدها ، وتتراجع من غلوها وإفراطها ، نادمة على كثير مما فرط منها ، ولما ثارت أو ارتدت بعض هذه الدول الشرقية عن الدين حاذية حذو بعض الدول الغربية توقعنا أن تندم يوما من الأيام أو تعود إلى حظيرة الدين .

مرت بإخوان لنا فى الجوار والعقيدة تجارب قاسية من هذا التبيل ، وذلك فى الفترة الواقعة بين الحربين العامتين الأولى والثانية وهى فترة لا تقل مدتها عن خمسة وعشرين عاما ، وقد بلغت ثورتهم فى هذه الفترة قمتها فألغيت الشريعة الإسلامية ، والعادات الشرقية ، وحظر التزيى بالأزياء العلمية ، والكتابة بالحروف العربية ، وأصبح شعارهم (وداعا أيها الشرق) وهم يقصدون بذلك تجنب النظم والعادات والأخلاق المألوفة فى الشرق واصطناع ما يخالفها فى الغرب ، زاعمين أن تمسكهم بعقائدهم ، كان عاملا من عوامل انحطاطهم ، وتخلفهم عن مجاراة الشعوب الناهضة .

لعل الحرب الأخيرة وما أسفرت عنه من حقائق وعبر ، وما أملته على البشر من دروس ، وما أعقبها من انتشار القلق الروحى ، واستئصال الطمأنينة من النفوس غيرت آراء كثير من الناس فى كثير من نظم الحياة المألوفة لدى الغربيين والشرقيين على حد سواء ، ولذلك نجد بعض هذه الشعوب الشرقية ، تخشى الانحلال بعد أن تبلبلت فيها الآراء ، وتغلغلت الفوضى ، وتسرب إلى شبابها التملق ومالت ناشئتها إلى الانغماس فى الفساد ، وهذا الشعب الشرقى الذى نقصده شعب متدين وهو مدرب على الجندية ، وقد ألف الخدمة فى السلك العسكرى ، وتعود احتمال ما فيه من تقشف وخشونة ، فلا غرو أن يشق عليه مروق كثير من شبابه ، وتسكعهم

فى دياجير التقليد ، ولا عجب إذا أنكر من أنكر منهم ، انحلال العقائد والالحاد ولو بعد حين .

إن سلطان الدين على ضمائر الناس لا يقاوم ، وأن الوازع الروحى لا يقوم مقامه وازع آخر فى إصلاح النفوس وقدعها عن الشر وتربيتها تربية قيمة .

لقد وضعت نظم اقتصادية واجتماعية واشتراكية ، قالوا : إنها تسعد البشر ، وتنقذ الانسانية ، ثم اتضح أنها لم تهذب إلا مظاهر الانسان ولم تنفذ إلى ماوراء ذلك ، أما باطن الانسان ، فقد بقى فارغا ، لا يملؤه إلا وازع الدين ، ولا يسيطر عليه إلا العقيدة بوجود خالق حكيم ، ومن ذلك اتضح أن الوازع الظاهرى أو المادى الذى يتمثل فى سلطات الدولة من تشريعية وإجرائية وقضائية ، لا يتعدى تأثيره ظواهر البشر ، ولا يتصل بالبواطن والسرائر ، وهيهات أن يسد مسد الوازع الدينى فى الانسان .

وثبت البشرية وثبتها المعروفة ، وتقدمت الى الأمام فى العصور التى سارت فيها على هدى الشريعة الاسلامية ، سياسيا واجتماعياً واقتصاديا ، وتمتعت فى العصور المذكورة بقسط لا يستهان به من السعادة والطمأنينة ، لم تحلم به فى عصورنا الحديثة عصور النظم الديمقراطية والاشتراكية ؛ ومن ذلك يتضح أن الاسلام شريعة خالدة ، غير قابلة للنسخ كما قال مشرعها عليه أفضل الصلاة والسلام . وأن الباطل لا يأتيها من بين يديها ولا من خلفها قط .

لا شك أن العقيدة الاسلامية منيت بالمروق والعقوق من قبل كثير من أبنائها ، وقد كثر سواد المفتونين والمقلدين من أبنائنا ، وزاغوا عن الاسلام ، بيد أن هؤلاء المقلدين والمفتونين لا يلبثون بعد ما مر بنا من العبر فى الزمن الأخير أن يرجعوا إلى حظيرة الدين نادمين منيبين إلى الله . والخلاصة : أنه سيبقى الاسلام عاملا فعالا فى حياة البشر يعمل على جعلها مثلا أعلى فى السمو والشرف والكمال . وصلى الله على سيدنا محمد المرسل بهذه الشريعة الغراء صلاة نامية فى شهر مولده وفى كل شهر وعام ؟

لا خلاف في الدين الحق

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير
الأستاذ محمد فريد وجــــدى بك
مدير مجلة الأزهر

شرع الله الإسلام لرفع الخلاف الذى وقع بين الناس فى العقائد ، لأن التدين فطرى فى النفس البشرية ، وموجد الوجود الذى يتوجه إليه الإنسان بالعبادة والإخبات ، لا حد له ، ولا تستطيع أقوى العقول البشرية أن تصل إلى كنهه ، فكيف يعقل أن تختلف فيه ؟ وقد عبد الخالق على هذه الحالة أحقابا طويلة . فقد أثبت الأستاذ الكبير (ماكس مولر) الألمانى فى كتابه الجليل (أصل الدين وارتقاؤه) ، بالنصوص الدينية الهندية أن الإنسان أول ما عبد سجد للخالق وحده ، وأما هذه الأوثان والأنصاب فليست إلا بنات الخيال ، استدعتها محبة الإنسان للمس كل مايشعر به فى نفسه ، قال ماكس مولر: (إن هذه الآلهة المجسمة ليست إلا تمثيلا طرأ على الإنسان بعد تلك الحالة الفطرية . وبناء على هذا فقد ركع آباؤنا وسجدوا أمام الله الحق حتى قبل أن يجرؤا على الإشارة إليه باسمه) .

ثم استرسل هذا المؤلف فى البيان فقرر بأن أصل الأديان كلها واحد ، وما كان سبب تخالفها إلا ما أحدثته النزعات الإنسانية ، والأهواء النفسانية ، من الميل للتحديد والتقييد والحصر . وهذا هو ما نزل به القرآن المجيد حرفا بحرف . قال الله تعالى : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . »

أى أن الناس كانوا أمة واحدة « فاختلفوا » فأرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين ليهدوهم إلى وجوه رفع الخلاف ، لأن الحق لا يجوز الخلاف فيه .

وقد شدد الله فى الزجر عن الخلاف فى الدين لأن تفرق الكلمة فيه يؤدى إلى شر ضروب الانقسام بين الجماعات ، ويلد أنكأ الضغائن بينها ، وقد عرف أن أغول الحروب غولا ، وأهولها هولا ، كانت فى جميع أدوار التاريخ الحروب الدينية . وقد أصاب المسلمين نصيب منها فى القرن الأول من جراء تفرق الكلمة على الخلافة ، كان أثرها فى وقف الفتوحات الاسلامية ملحوظاً ، على أنها كانت ذات طابع سياسى ، ولكنها سرعان ما تطورت إلى خلاف دينى للعلاقة الأكيدة بين السياسة والديانة فى الإسلام ، ودخلت فى تطورات شتى لم تنته إلا وللمسلمين ثلاث وسبعون فرقة ، ولولا أن الله حمى هذا الدين ، لما بلغ المسلمون فى النواحى العلمية والعملية ، وفى بناء صرح المدنية فى القرون الستة التى تلت وجوده ، إلى مثل ما بلغه مما يذكره مؤرخو الأجانب مقرونا بالاعجاب والدهش من حكمة الديانة الاسلامية .

وبعد أن أصاب الدولة الإسلامية الضعف ، وأذهبت طيباتها الفتن ، اقتسمت بلادها بعض هذه المذاهب ، فاستقل كل فريق فى قطر وأخذ يعمل على شاكلته ، وبقى خيال من كلمة جامعة لخلافة بغداد تشاركها فيها خلافة فى الأندلس ، وأخرى فى مصر ، وغيرها فى غيرها مما حدا بشاعر ذلك الزمان أن يقول :

وتفرقوا شيعاً فكل مدينة   فيها أمير المؤمنين ومنبر

من العجب العاجب أن يقع خلاف بين المسلمين ، لا لأن الله سبحانه وتعالى نهى عنه وشدد فى النهى فحسب ، ولكن لأن أصول الإسلام جلية بينة لا تقبل التشكيكات ، وقواعده قاطعة مانعة لا مجال معها لتعدد الاحتمالات . وقد أفرغت فى صورة لغوية بلغت من ضبط المعانى ، وتحديد المفاهيم ، حداً لا يصادف فى كلام أبلغ البلغاء . فان شوهد من الناس من يتوسع فى استخراج معان مختلفة من ألفاظ معينة ، فانه إنما يفعل ذلك على حساب نفسه لا على حساب الآيات

التي بين يديه ، وقد وصف الله كلامه بالبينات فى مواطن كثيرة ، تقريراً فى الأذهان أنها لا تحتمل اللبس وتدل على مقاصدها دون معاناة ولا كد ، وكرر هذا الوصف لكلامه نحو ستين مرة فى كتابه الكريم كقوله تعالى : « فيه آيات بينات » و « بل هو آيات بينات » و « أنزلنا إليك آيات بينات » الخ ، تنبيهاً على أن ألزم ما يلزم الكلام الإلهى فهمه على وجهه الصحيح ، لا على وجه يساور أهواء النفوس وبنات الخيال ، وهو ما تتدافع النفوس الساذجة اليه تطلعا لتنور بعض الأسرار العلوية من خلال الألفاظ ، وفضول العبارات . وهو الأمر الذى أفسد جميع الأديان ، وأمكن رؤساء المذاهب من تضليل العقول ، وتسخير أصحابها لخدمة أهوائهم .

لم يكتف الاسلام بما كرره من وجوب الوقوف مع مدلولات الألفاظ فى الحد المسموح به ، ولكنه سند ذلك بتحفظ آخر أدل على ما يريده من كل ماسبق وذلك أنه لما أطلق القرآن الكريم على عيسى عليه السلام أنه روح منه فى قوله تعالى : « كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » قال النصارى يكفينا ذلك توهما منهم أن إطلاق كلمة روح الله على عيسى تدل على بنوته له ، فأنزل الله فى دفع هذا الضرب من التأويل قولا فصلا لا عذر لمتقول على الدين بعده . قال تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به . كل من عند ربنا . وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

بهذه الآية ، أوصد الله آخر باب لتأويل آيات القرآن الكريم وألفاظه وفقا لما تتطلبه الأهواء ، أو لتأييد بعض الآراء ، والمتأمل فى كل هذه التحفظات ، يرى الى أى مدى وصل تشديد الكتاب الكريم على أهله فى لزوم الحرفية فى الدين . وإن ديناً هذا شأنه كان يجب أن لا توجد فيه فرق يخالف بعضها بعضا ، ولكن الطبيعة البشرية تتغلب على جميع الحوائل الأدبية والمادية ، وتظهر

وجودها قوية متشددة ، ولكن لا يغيبن عنك أنها فى الاسلام لم تستطع أن تتغلب على الحقائق الرئيسية ، وهى ميزة لهذا الدين صان الله بها كيانه سليما من آثار التقلبات إلى اليوم .

ومن ناحية أخرى نرى أن جذوة الحماسة الدينية التى كانت تحفز هذه الفرق للتنابز ، وتربص الدوائر بعضها ببعض ، قد خفت اليوم وطأتها الى درجة تكاد لا تحرك فيها ساكنا ، وهذه البقية المتخلفة تكفل إزالتها الثقافة العصرية التى عمت الخافقين ، وقربت العقول والقلوب بعضها لبعض . وقد لاينقضى جيلان أو ثلاثة حتى تزول الحدود الفاصلة بين هذه الفرق ، لاشتغال العقول بما هو أبعد منها أثراً فى تكييف الشخصية ، وهو العلم ، العلم الذى يجب أن تتألب جميع العقول البشرية لدفع خطره عن العقول الشرقية . ولست فى حاجة لأن أبين أن للعلم خطراً ، وهذا الخطر ماثل أمام أعيننا فى جميع البلاد على السواء ، فلو وفقنا الله لصيانة الإسلام منه نكون قد أدينا للأخلاف خدمة سوف يذكرونها مقرونة بالثناء والدعاء .

من حكم بُزُرْ جَمِهْر الفارسى :

* نصحنى النصحاء ، ووعظنى الوعاظ شفقة ونصيحة وتأديبا ، فلم يعظنى أحد مثل شيبى ، ولا نصحنى مثل فكرى . وملكت الأحرار والعبيد ، فلم يملكنى أحد ولا قهرنى غير هواى .

* إن كان شىء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شىء فوق الموت فالمرض ! .

* وسئل : ما المروءة ؟ فقال : ترك ما يعنى . قيل : فما الحزم ؟ قال : انتهاز الفرصة . قيل : فما الحلم ؟ قال : العفو عند المقدرة ، قيل : فما الشدة ؟ قال : ملك الغضب . قيل : فما الحرْق ؟ قال حبٌّ مُفرِط ، وبغض مفرط .

الفقه والفقهاء في مصر

على عهد المماليك

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ

الشيخ عبد العزيز المراغى

الإمام الخاص للحضرة الملكية

قد يبدو للقارى غريباً بادى الرأى أن تكون ثمة صلة بين الفقه الإسلامى فى تطوره وحالة البلد الاجتماعية ، فللفقه الإسلامى طريقته الخاصة فى التطور وفى التطبيق ، وله معينه الخاص الذى يفيض منه ، وتخرج منه فروعه ضيقاً أو اتساعا ، وقبضاً أو بسطاً ، حسب ما يعن لكل فقيه مجتهد على ضوء القواعد الأصولية التى ارتضاها جمهرة العلماء فيصلا فى قواعد التفريع واستنباط الأحكام الفرعية .

نعم إن الفقه الإسلامى قد اتخذ شكلا خاصاً عندما اتسعت رقعة الأمبراطورية الإسلامية ، وأظل الخفاق من راياتها أمماً لها نظامها الخاص وطابعها الخاص مما استدعى فى أكثر الأحايين أن تبقى تلك النظم وهذه الطوابع ما دامت لاتؤثر على الروح العامة للتشريع ، أو بعبارة أوضح ، ما دامت لا تصدم القواعد العامة للتشريع . وحسبك أن تقرأ أى كتاب ذكرت فيه آراء الخلفاء الذين تمت تلك الفتوحات فى عهدهم ، فتجد من تلك الآراء ومن آراء من تعتد برأيهم ما يقنعك بصدق تلك القضية التى أسلفناها وما كانوا يرون فى ذلك غضاضة ، فالدين يجب أن يكون للكل ، والشريعة يجب أن تكون سمحة ميسرة للكل ، وظل الحال كذلك حتى جاء دور التدوين ودور الاجتهادات المذهبية ، فتبلورت هذه المجموعة الفقهية الأولى الواسعة فيما عرف بعد باسم مذاهب الفقه الإسلامية ، من الأربعة المعروفة وغيرها ، مما ضُبط وجه الرأى فيه ونقل نقلا صحيحا ، وكان ممن يعتد

بقائله فى الإجماع وظل الحال على ذلك أيضاً — ولكن على شيء من الضيق — شيئاً فشيئا حتى اكتسحت العالم الاسلامى موجة المغول التى قضت على تلك الأمبراطورية وأتت بنيانها من القواعد .

وفى الحق لم يكن مجيء المغول ليعنى قيام دولة وذهاب أخرى فحسب ، ولكنه كان فى الواقع صراعا بين نوعين من التفكير لم يعهد لهما اجتماع ولا تقارب من قبل ، فللمغول قانونهم ، ولهم نظامهم ، ولهم شريعتهم ، إلى غير ذلك مما لانريد الاطالة فيه فمرجعه كتب التاريخ التى عنيت بهذه الناحية ، وللمسلمين أيضاً طرائقهم فى التفكير ، وشريعتهم ، وسنتهم ، وفقههم ، ولكن مجيء المغول قد عنى من الناحية السياسية أن ينقل عبء الدفاع عن الاسلام وتقاليده وميراثه إلى مصر . ذلك أنه لم يكن ثمت فى أى بلد من البلاد الاسلامية — وقد نخر فى عظامها جميعاً السوس — دولة أو دويلة أو أقليم ينهض للقيام بهذا العبء غير مصر فكان من الطبيعى أن يولى العالم الاسلامى وجهه شطرها لتقف سداً ضد ذلك السيل الجارف الذى لم يُبق فى طريقه علما ، ولم يقف فى طريق جبروته سلطان ، بل اكتسح كل ما كان لهذه الدول الضعيفة من أثر وحاول أن يعفى على رقيها ومدنيتها ، ولم يَكذب المماليكُ أو لم تكذب مصرُ ما رجاه العالم وما شامه فيها من مخايل فاضطلعوا بالعبء صابرين . وأدوا رسالة الاسلام أمام ذلك السيل الجارف ، واستطاعت مصر بعد بغداد ومكة والحجاز أن تحمل مشعل الثقافة الاسلامية فى شتى نواحيها ، وكان من الطبيعى أن يتلو ذلك ارتحال الجمهرة الغفيرة من العلماء إلى مصر ليعيشوا فى كنف هذه الدولة التى أبلت البلاء الحسن فى الدفاع عن الاسلام وكان منهم المحدثون والمفسرون واللغويون والنسابون والأطباء والأخباريون وكان منهم بعد هذا وقبل هذا الفقهاء . ويحسن أن ننبه القارىء إلى أننا حين نتكلم على مصر يحسن أن يطبق القول على الشام والأقاليم التى دانت بالخضوع للمماليك واستظلوا بسلطانهم .

تلك كلمة عابرة قدمناها بين يدى الموضوع ليكون القارىء على علم بمقدمات هذه الظروف التى سنعرض لها ونتحدث على ضوئها عن الفقه والفقهاء .

كان المماليك فى مصر أو غالبيتهم قد جلبوا إلى مصر من الجيش التركى أو الشركسى وإن كان ثمت فيهم مماليك من أجناس أخرى ، وتطور بهم الأمر حتى استولوا على زمام الأمر فى مصر بعد عهد الدولة الأيوبية على يد الملك المعز عام ٦٤٨ هـ ، وظلوا يقبضون على سلطانها حتى عام ٩٢٣ هـ ، وكان لهؤلاء المماليك تربية خاصة ، وثقافة قدّت على غرار النظام الإقطاعى الذى كان سائداً فى البلاد التركية التى نزحوا منها ، وهو الذى ساد العالم كله فى القرون الوسطى ، ولكن النظام الذى اتبعوه كان فذا فى التاريخ ، فلا هو ملكية وراثية مطلقة أو مقيدة ، ولا جمهورية شورية ، وكانوا طبقة تتجدد بما يفد على مصر من الخارج ، وهم مع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم طبقة متميزة من الشعب ، وليس للشعب مظهر لإرادته اللهم إلا اشتراك القضاة فى حفلة تنصيب السلطان .

وهم — على هذا الاعتبار — كانوا يرون لأنفسهم من الحق ما ليس للشعب وأنهم — إلا قليلا منهم — وإن كانوا مسلمين ، فيجب أن يسرى عليهم نظام خاص هو النظام الذى ألفوه فى البلاد التى رحلوا منها ، والذى ساد العالم بعد موجة التتار ، ذلك هو نظام (الياسا) أو الياسق كما يسميها ابن بطوطة فى رحلته . وتلك (الياسا) هى شريعة جنكيزخان التى كانت محفوظة فى الألواح ، والتى كانت تظهر عند كل مناسبة فى تولية خاناتهم وأمرائهم ، وقد كتب المستشرقون كثيرا عن هذه (الياسا) ولكننا سندع المقريزى يتكلم عنها حتى نعرف السر فى ثورة الفقهاء على نظامها فى عهد المماليك . قال فى الخطط فى ذكر أحكام الياسا : « وكان جنكيزخان قد قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه « ياسا » ونقشه فى صفائح الفولاذ ، وجعله شريعة لقومه ، فالتزموه بعده ، وكان جنكيزخان لا يتدين بشىء من أديان أهل الأرض ، فصار « الياسا » حكما بتا بقى فى أعقابه لا يخرجون عن شىء من حكمه ، ومن جملة ما شرعه جنكيزخان فى الياسا أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن ، ومن لاط قتل ، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل ، ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة ،

ومن أطعم أسيرقوم أو كساه بغير إذنهم قتل ، ومن وجد عبداً هاربا أوأسيرا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل ، وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤ كل لحمه ، وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين قتل ، إلى غير ذلك من الأحكام .

وقد حرف أهل مصر كلمة ياسا إلى سياسة ، وأدخلوا عليها الألف واللام ، فصارت السياسة ، ثم قال : وكانوا — يعنى المماليك — إنما ربوا بدار الإسلام ولقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية ، فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد الى الردىء ، وفوضوا لقاضى القضاة كل مايتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية ، واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيزخان ، والاقتداء بحكم الياسا ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم ، والأخذ على يد قويهم ، وإنصاف الضعيف منهم على مقتضى ما فى الياسا وجعلوا إليه مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف فى أمور الاقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب ، وكانت من أجل القواعد وأفضلها حتى تحكم القبط فى الأموال وخراج الأراضى فشرعوا فى الديوان ما لم يأذن به الله تعالى ليصير لهم ذلك سبيلا إلى أكل مال الله تعالى بغير حقه ، وكان مع ذلك الحاجب يُحتاج إلى مراجعة النائب أو السلطان فى معظم الأمور ، هذا وستر الحياء يومئذ مسدول ، وظل العدل صاف ، وجناب الشريعة محترم ، وناموس الحشمة مهاب ، فلا يكاد أحد أن يزيغ عن الحق ولا يخرج عن قضية الحياء ، إن لم يكن له وازع من دين ، كان له ناه من عقل : ثم تقلص ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجور أنيابه ، وقلت المبالاة وذهب الحياء والحشمة من الناس حتى فعل من شاء ما شاء ، وتعدى - منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست وثمانمائة - الحجّاب ، وهتكوا الحرمة ، وتحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى ، وتسلطوا على الناس » هذه عبارة المقريزى نقلناها على طولها لأسباب .

أولاها : أنها تمثل الصراع الذى كان بين طبقة المماليك وطبقات الشعب .

ثانيها : أنها تمثل نوع القانون الذى كانوا يحتكمون إليه ، والذى أثار المتمسكين بالدين من الفقهاء والشعب .

ثالثها : رد الفعل الذى أنتجه تمسك المماليك بهذا النظام الممقوت .

وإنما عنينا ببحث موقف الفقه والفقهاء فى عهد المماليك لأن عهدهم كان العهد الذى ألفت فيه جمهرة الكتب التى بين أيدينا من كتب الفقه ، والتى نرجع إليها فى استفتاءاتنا فى شتى المذاهب ، والذى تركزت فيه الآراء الفقهية فى المعاملات بوجه خاص نتيجة لتلاقى الفقه الإسلامى مع شريعة الياسا ، ومع النظم الأوروبية التى وردت على مصر عن طريق الحروب الصليبية ، وعن طريق تجارة أوربا فى ذلك العهد ، مما اضطر معه الفقهاء أن يحددوا موقفهم منها ، ويبينوا نظرات الشريعة الى تلك المعاملات وهذه النظم .

وما من شك فى أن النظام الإقطاعى الذى ساد مصر فى ذلك العهد كان له أثره البين على الفقه الإسلامى فى جميع مذاهبه ، وخاصة فى مذهب أبى حنيفة فى باب الإجارة وكتاب الوقف وشروطه ونظرية التعدى والغصب ، وما عرف فى فروع الوقف من مسائل الخلو ، وقد حدث فى هذا العصر التركى ألفاظ لم يكن فى الواقع لأغلب الفقهاء إلف بها من قبل ، مثل لفظ : الكرواد ، ومشد المسكة ، والجامكية والحكر ، والتيمارى ، والسباهى . الى آخر تلك الألفاظ التى يعلمها من راجع كتب المتأخرين من الحنفية متونهم وفتاواهم ، والتى كانت نتيجة لذلك النظام التركى الاقطاعى ، وإنك لا تكاد تجد هذه الألفاظ إلا فى بعض كتب الحنفية التى ألفها من يعلمون شيئا عن مثل هذا النظام ، ولكنها فى ذلك العصر تعدت الحنفية إلى جميع المذاهب ، وإن كانت قد ذكرت بأسماء مختلفة ، وما من شك فى أن الفقهاء رضوان الله عليهم قد وقفوا موقفا محمودا يشكرون عليه احتساباً لله عز وجل ، وكان من آثار موقفهم هذا إيجاد شىء من التوازن الاجتماعى الذى وقف دون تبديد ثروة البلد بالقدر الممكن ، ودون تركيزها جميعها فى أيدى المماليك ، وكان

لفتاواهم فى أرض الاقطاع من حيث جواز إجارتها أو وقفها أو بيعها أثر بالغ فى كبح جماح المماليك ، وما كانوا يتنوونه فى هذه الناحية ، وهم كانوا فى الوقع أداة عاطلة من حيث الإنتاج ، وكل ما كان فى مكنتهم هو الاستيلاء على الأراضى بإذن السلطان على النظام الذى كان سائداً ، والذى شرحه صاحب صبح الأعشى ، وصاحب كتاب قوانين الدواوين والتحفة السنية فى الأراضى المصرية ، ثم يدفعون الأرض للملتزم وللتيمارى ، وفى ثنايا هذا الالتزام كم كان يرتكب من مظالم وتعسفات ، وقد نص الحنفية على أن أغلب أوقاف المماليك إقطاعات يجعلونها مشتراة صورة من بيت المال وهى ليست وقفا حقيقة بل هى إرصاد ، وكان للإمام النووى ، وللعز بن عبد السلام مواقف مشهورة سجلت لهم فى التاريخ صفحات من الفخار وقفوا فيها من الأمراء مواقف ظاهرهم فيها العامة فاستطاعوا أن يوقفوا العدوان عند الغاية التى لا تضر بالثروة العامة ، ولا تحمل على الطبقة الفقيرة أثقالا فوق ما كان ظهرها ينوء به من أثقال ، وهم كما أسلفنا ما كانوا يعتبرون هذا الاقطاع فى الأراضى إقطاعا صحيحا يملك كما كان يظن المماليك ، وإنما هو نوع من الإجارة ، والأرض لاتزال لبيت المال ، وقد ذكر الإمام السيوطى فى رسالة القل المستور فى قبض المعلوم من غير حضور ، إفتاء جميع علماء عصره بذلك ، ورتبوا على ذلك آثارا كثيرة يمكن مراجعتها فى كتاب : تنقيح الحامدية فى كتاب الوقف .

وما من شك فى أن هذا النظام الاقطاعى الذى كان يلزم المقطع بتقديم نوع خاص من الخدمة والذى كان من أجله يلجأ للعسف والاضطهاد ترك فى نفوس الطبقات الفقيرة آثاراً بالغة ما كانوا يجدون مداواة لجرحها إلا على يد الفقهاء ، وقد كان لبعضهم منزلة ممتازة خضع لها سلاطين المماليك كما كان من شأن عز الدين ابن عبد السلام مع برقوق ، وكان بعض الفقهاء يلجأ أحيانا إلى أن يكون قاضياً عرفياً يسرى حكمه على المتخاصمين ، وقد ذكر ذلك السخاوى فى الضوء اللامع فى ترجمة عز الدين الحنبلى ، إذ قال فى سياقها ما نصه : « وصار يقضى فيما يقصد به فى بيته مجاناً ثم تركه جملة » .

وما من شك أيضاً فى أن ذلك النوع من العناد من ناحية الفقهاء قد ترك أثره فى نفوس سلاطين المماليك وأمرائهم فبدل أن يكون قضاؤهم قاصراً على ما يقوم به الحاجب من الفصل فى الخصومات المدنيـة التى تقع بين الجنود المماليك بحسب على ما فى الياسا بدءوا يتدخلون فى النظر فى الديون بين أفراد الشعب والفصـل فيهـا وكان أول قضاء الحجاب بمـا فى السياسة من الأحكام عام ٧٥٣ فى عهد الملك صالح بن محمـــد بن قلاوون إذ رسم للأمير سيف الدين جرجى الحاجب أن يتحدث فى أرباب الديوان ويفصل بينهم وبين غرمائهم وكان هذا من اختصاص قضاة الشرع وكان سبب ذلك أن تجاراً من العجم شكوا إلى السلطان بدار العدل أنهم ما خرجوا من ديارهم إلا لكثرة ما ظلمهم التتار وجاروا عليهم ، وأن التجار بالقاهرة اشتروا منهم عدة بضائع وأكلوا أثمـانها ، فأثبتوا أمام القاضى الحنفى إعسارهم وأودعوا سجنه وقد أفلس بعضهم ولم يستفيدوا هم من وراء سجنهم شـيئاً فرسم السلطان للأمير سيف الدين أن يخرج هؤلاء الغرماء من السجن وأن يعمل على استخلاص الديون منهم وأنكر السلطان على قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى الحنفى ما عمله ومنع من التحدث فى أمر التجار والمداينات فأخرج الحاجب غرماء التجار من السجن وعاقبهم حتى أخذ التجـار أموالهم منهم شيئاً بعد شىء . قال المقريزى : وتمكن الحجاب حينئذ من التحكم على الناس بمـا شاءوا .

تأمل هذه العبارة الأخيرة لترى ميدان الصراع بين الطبقـة الأرستقراطية المسلطة يومذاك والطبقة المستضعفة ، التى ما كانت لتجـد لها نصيراً إلا فى رجال الشرع والمتشرعين ليصدروا لهم من الأحكام ما يوافق دين الله ، والمماليك ولو أنهم كانوا لا يعبثون بهذه الأحكام إلا فى الوقت الذى تظهر فيه سطوة الفقهـاء فإنهم كانوا فى كثير من الأحيان يحجمون عما قدموا عليه خوفا من الثورات فى البلد ، وخوفا من تعطل مصالحهم فى إقطاعاتهم التى كان يقوم عليها كيانهم السياسى .

وبعد فإن كان للمماليك فضل الوقوف فى وجه المغول فقد كان لهم — رغم تلك المعايب السالفة — فضل كثير من أماكن البر والعبادة كالمساجد والمدارس

التى كان لها فضل نقل هذه الثورة العلمية الضخمة لنا من فقه وحديث وتفسير إلى غير ذلك وفوق هذا فضل تلك المصارعات الاجتماعية التى نبهت أذهان الفقهاء لابتكار هذه الفتاوى الضخمة وتلك النصوص المتعددة وتلك الحلول التى لا يحدها حصر لهذه المشاكل التى واجهت الشعب وواجهتهم هم أيضاً . وبالتالى فضل وجود هذه الكتب التى لا زلنا نرشف من معينها ونعدها ثروة جديرة بالعناية ولعل لنا رجعة لنفصل هذه الكلمة المجملة عن الفقه فى ذلك العهد بتفصيل ذلك المجمل وذكر شواهد وفروع كثيرة من آثار ذلك التفاعل الفقهى الذى كان نتيجة لذلك التفاعل الاجتماعى .

اجعله حيث شئت

يروى أن يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج دخل على سليمان بن عبد الملك فازدراه ونبت عنه عينه (١) ، فقال : ما رأت عينى كاليوم قط ، لعن الله امرأ أجرّك رسنه وحكّمك فى أمره . فقال : يا أمير المؤمنين لاتقل ذلك فإنك رأيتنى والأمر عنى مدبر وعليك مقبل ، فلو رأيتنى والأمر على مقبل وعنك مدبر لاستعظمت منى ما استصغرت ، واستكثرت ما استقللت . قال : عزمت عليك يابن أبى مسلم لتخبرنىّ عن الحجاج ؛ أتراه يهوى فى جهنم أم قد قر فيها ؟ فقال يا أمير المؤمنين : لاتقل هذا فى الحجاج وقد بذل لكم النصيحة وأمّن دولتكم وأخاف عدوكم وكأنى به يوم القيامة وهو عن يمين أبيك ويسار أخيك، فاجعله حيث شئت . فقال سليمان ؛ وقد التفت إلى جلسائه : قاتله الله ! ما أحسن بديهته وترفيعه لنفسه ولصاحبه ! وقد أحسن المكافأة فى الصنيعة . خلوا عنه .

---

(١) نبا بصره عن الشىء : تجافى عنه كراهية له .

مستقبل البشر بعد انقسام نواة الذرة

للدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

ومراقب مصلحة النقل

الدكتور محمد محمود غالى عالم مصرى كبير ، تعرف الدوائر العلمية فى أوروبا وفى الشرق قدره ، وهو من أوائل العلماء المصريين الذين تتبعوا بحوث الذرة ، واشتركوا فى بعض تجاربها فى السوربون بباريس ، وكانت رسالته العلمية الثانية عن « الأشعة الكونية » ذات صلة وثيقة بهذه البحوث ، وهو يقتنى مكتبة قيمة عن الذرة تحوى الكثير مما كتب عنها قبل الحرب وبعدها ، وقد فرغ منذ قريب من إعداد كتاب عنها باللغة العربية . وها هو ذا يحدثنا فى هذه الصفحات فيما يشغل بال العالم أجمع فى هذه الآونة الدقيقة من تايخ البشر .

وسيرى قراؤنا — إن شاء الله — كثيراً من بحوثه العلمية على صفحات هذه المجلة . [المحرر]

فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ وبعد إشعاع القنبلتين الذريتين كما سماها الناس فى هيروشيما وناكازاكى ، طلب إلىّ الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بك عميد الأدب العربى ، أن أكتب فى أول عدد لمجلة الكاتب المصرى التى كان يرأس تحريرها مقالا عن الذرة والقنبلة الذرية ، ولم تكن قد صدرت فى ذلك الوقت هذه المجموعة الكبيرة من الكتب والبحوث التى غمرت العالم منذ ذلك الحين عن الذرة ، والتى طالعنا ما يزيد عن مائة كتاب وبحث فيها .

وفى ذلك المقال الذى نشرته فى أول أكتوبر سنة ١٩٤٥ حاولت أن يفهم القارىء كيف يمكن أن يحصل الانسان على طاقة فوق الوصف من جزء يسير

من المـادة ، وقد اعتقدت فى مقالى أنه عند تحقيق القنبلة الذرية لا بد أن يكون هناك تسلل من جسيم صغير أسماه العلماء « النترون » إلى النواة ، فتسبب عن دخوله خروج طاقة عظيمة من المـادة على نحو لم يعهده البشر .

والحق أنى عند ما أعيد مطالعة مقالى المتقدم أشعر بمـا للمعرفة الصحيحة ، وطول المطالعة من أثر فى التعرف ما أمكن على ما نجهله ، فنى سنة ١٩٤٥ لم أكن قد طالعت بعد نشرة « أوتوهان » الألمـانى ، صاحب انفلاق نواة الذرة ، والتى نشرت فى يناير سنة ١٩٣٩ ، ولم أكن قد طالعت ما تبعها من بحوث قيمة نشرت خلال الحرب ، بل كان آخر ما طالعته فى هذا الشأن كتباً علمية صدرت للعالم . « لويس دى بروى » ولشقيقه « موريس دى بروى » العالم المعروف ولغيرهما ، بمعنى أن معارفى وقفت عند سنة ١٩٣٨

وتطورت الدنيا فى أوروبا ونحن فى غفلة من الزمن ، وجاءت الشهور التى سبقت الحرب شهورا خصبة للعلم والمعرفة ، خطرة على الإنسان والمستقبل ، وإذا أعمال خالدة « لأوتوهان » عن انفلاق نواة الذرة ، وإذا أخرى خالدة « لايرين كورى كريمة مدام كورى » عن التعرف على متطوعة جدد من بين جسيمات المادة لإحداث عمليات انفلاق أخرى لا دخل لعمل الانسان فيها تحدث من تلقاء ذاتها على أثر حدوث أول انفلاق وهو مايسمونه اليوم بالسلسلة ، وهو ما سأحاول أن أشرحه فى هذا المقال .

واليوم ونحن فى مستهل عام ١٩٤٩ تطلب إلىّ مجلة « رسالة الإسلام » أن أكتب مقالا عن مستقبل البشر بعد انفلاق نواة الذرة .

ولئن سعدت فى الحالين فلأن رجال الأدب ورجال الاسلام قد شعروا معا بتقدم العلوم ، وما سيكون لهـذا التقدم من أثر على حياتنـا الحاضرة والمستقبلة ، وأنهم يودون مخلصين أن يتعرفوا ويتعرف قراؤهم من سطور المشتغلين بالعـلوم حقيقة هذا الـكون ، ويتبينوا علاقته بالإنسان .

وإنى ألبي مخلصاً هذه الدعوة الكريمة لكتابة هذا المقـــال ، وهأنذا أقدم هـذه الصفحات لأبين للقارىء ما أعتقد أن ستحدثه نواة الذرة فى مستقبلنـا القريب أو البعيد ، ولا بد لى للوصول إلى هذه الغايه أن أشرح للقارىء بشىء من الإيجاز : ما الذرة ؟ وما قدرها ؟ وما نواتها ؟ وما خطرها ؟ ولمـاذا انفلتت هذه النواة ؟ وما السر فى خروج طاقة خطيرة منها ؟ .

ولئن ظفرت بعدد من القراء يرتاحون لقراءة مثل هذا المقال ، الذى أحاول جاهداً أن أجعله مبسطاً ، من بين المتشوقين لمطالعة هذه المجلة الرفيعـة التى تعنى فى الدرجة الأولى بالناحية الإسلامية ، وتعنى قبل الذرة ونواتها بعلاقة المسلمين بعضهم ببعض ، وتعنى بمـا هو محبب إلى النفس من تاريخ الإسلام ومستقبل المسلمين ، إنى أكون قد سعدت بالشىء الكثير ممـا أرجو ، ولعل مقالى هذا يصادف هوى من هؤلاء الذين وهم يتطلعون للدين يؤملون فى فكرة سامية هى من وحى الأديان - فكرة السلام والأخاء بين البشر .

ولعل من ينعم النظر فيما أكتبه اليوم ويحاول تفهمه يشعر بالعبء الفـادح علينا كآدميين بات من واجبهم المحافظة على كيانهم كجنس عاش إلى الآن أحقاباً طويلة ، وذلك بالتوجه إلى المثل العليا ومحـاولة معرفة ما يحيط بجنسنا البشرى من أخطار أو ما ينتظره من سعادة .

إن فهم مايحيط بنا من مادة وإمكانيات أثرها علينا أوأثرنا عليها من الموضوعات التى أعتقد ضرورة معرفتها لكل إنسان كائن على وجه الأرض .

فليكن مقالى إذن رسالة للمعرفة وللسلام يصدرفى أول عدد لرسالة الإسلام .

وأنه ليسرنى أن يطالع سطورى عدد كبير من طلاب المعرفة ومن الطلبـة والأصدقاء الذين صادفتهم فى البلاد الإسـلامية ، ومنهم من يتم ثقافته فى الوقت الحاضر فى أمريكا أو أوربا ، ومنهم من لا يزال على ضفاف النيـل أو الدجلة فى الجامعة المصريه أو فى دار المعلمين العاليـــة ببغداد ، ومنهم من تخرج ويقوم بالتدريس فى الجامعة أو فى مدارسنا هنا وهنـاك ، ومنهم من طالعت له

مقالات قيمة عن الذرة ، كذلك المقال الذى نشره الأستاذ محمد كاشف الغطاء فى مجلة المعلم الجديد التى تصدر فى بغداد ، لهؤلاء جميعاً أبعث بخالص تحياتى وأشكر مجلة « رسالة الإسلام » التى أتاحت لى هذه الفرصة فى الاتصال بأبناء العروبة والإسلام .

* * *

ستحدث القوى النووية ـ لا الذرية كما أفضل تسميتها ـ انقلابا عظيما وسريعاً فى حياة البشر ، انقلابا لم يتوقعه العلماء بهذه العظمة وهذه السرعة ، ولا يمكن للفرد العادى أن يتصوره فى سهولة .

ولفهم مصدر هذه القوى فهماً مبسطاً يجب أن نعرف أن الذرة وهى أصغر جزء فى المادة يمكن فصله بالوسائل الكيميائية ، مكونة من نواة وسطى شمس ومن سيارات تدور حول نفسها وحول النواة ، كما تدور الأرض حول محورها وحول الشمس ، فالذرة إذن عالم شمسى صغير ، وهذا العالم من الصغر بحيث لو أمكننا أن نضع عشرة مليون ذرة الواحدة منها جوار الأخرى لبلغ طول المجموعة مليمتراً واحداً فى الطول ، أما نواتها وهى شمسها الوسطى فهى من الضآلة بحيث لو أمكننا أن نضع مائة ألف نواة الواحدة منها بجوار الأخرى ، لبلغ طول مجموعها ذرة واحدة ، ومعنى ذلك وفى بعض الحالات أننا إذا استطعنا أن نحدد أو نرى بوسيلة ما طول جزء من الحيز مقداره واحد من المليون من المليمتر ، فإنه يلزمنا أن نضع مليون نواة الواحدة جوار الأخرى لكى نملأ هذا الطول المتناهى فى الصغر .

فإذا علمت بعد هذا أن لهذه النواة على ضآلتها تركيباً معقداً ، فهى مكونة فى كل العناصر الثقيلة من نوعين اثنين من الجسيمات ومن عدد عديد منها ، يبلغ ٢٣٨ جسيما فى مادة اليورنيوم مثلا ؛ فلك أن تصدق وأنت تتأمل هذه الجسيمات داخل النواة الصغيرة أن لها قوانين تختلف جد الاختلاف عما اعتدناه من قوانين .

مثال ذلك : يختلف مجموع كتل هذه الجسيمات داخل النواة عن مجموع كتلها

إذا تفرقت بمعنى أن هذه الجسيمات إذا خرجت من النواة نقص وزن مجموعها على حساب طاقة كبيرة تخرج للخارج .

إنما أود أن أصل مع القارىء إلى نتيجة صعبة : ذلك أن أشرح له إحدى الحالات التى تتحول المادة فيها إلى طاقة ، وأعود فأقول أننا إذا وضعنا عشرة قروش على كفة الميزان فإن مجموع وزنها يساوى مجموع وزن كل من هذه القروش مأخوذة على حدة ، ولكن إذا اعتبرنا الجسيمات المكونة للنواة فإن أمرها يختلف عن ذلك ، فمجموع كتلة هذه الجسيمات مجتمعة يختلف عن مجموع كتلتها متفرقة ، ذلك أنه من الميسور لنا وضع العشرة قروش فرادى أو مجتمعة فى مكان ما ، بينما لا نستطيع أن نجمع فى سهولة مجموعة من جسيمات النواة على الشكل المجتمعة فيه بالنواة ، ويبدو أنه قد صرفت طاقة كبيرة لجمعها على هذه الصورة ، طاقة أدخرتها لنفسها لبقائها مجتمعة ، وهى الطاقة التى تخرج إذا استطعنا تفريقها ، وهذه الطاقة تعادل النقص المادى فى كتلة المجموعة بعد تشتيتها .

ويعتبر هذا فى نظر العلماء المحدثين انعدام جزء من المادة تحول إلى طاقة . من هنا نرى أن ما يقال عن عالمنا الكبير الذى نعيش فيه لا يقال عن هذا العالم الصغير عالم النواة وسكانها وكأنى بالدنيا طاقة ومادة موجودتان فى الحيز والزمان ، وكأنى بالمادة صورة متبلورة من صور الطاقة يمكن بعملية معينة أن تعود سيرتها الأولى .

☆ ☆ ☆

على أن أول من دل على طاقة تخرج من المادة على شكل جسيمات هاربة أو على شكل إشعاع هو : « بكارل » ومدام « كورى » ، وتم ذلك فى معامل السوربون بباريس منذ نصف قرن ، فقد كشف بكارل الخواص المشعة لمادة اليورانيوم وكشفت كورى مادتى البولونيوم والراديوم .

ولم تمض بضع سنوات حتى بات معروفاً كنتيجة لنظرية النسبية لصاحبها « اينشتاين » العالم الألمانى المعروف الذى هاجر إلى جامعة پرنستون بأمريكا ،

أن المادة إذا تحولت إلى طاقة كانت الطاقة التى نحصل عليها عظيمة جداً .

هذه الطاقة حصل عليها العلماء بانفلاق حدث فى نواة الذرة ، ولعل أعظم ما حدث فى العلوم بعد حادث بكارل وكورى هو ماحدث « لأوتوهان » الألمانى فى يناير سنة ١٩٣٩ فى معهد برلين أى قبل الحرب العالمية الثانية ببضعة شهور عند ما انقسمت نواة الذرة فى تجاربه إلى قسمين كبيرين وأقسام أصغر منهما : وقد حدث ذلك بضرب نواة اليورانيوم العالى بإحدى جسيمات النواة (وهو نيترون بطىء) فقد حدث من دخول هذا الجسيم أو هذا الجاسوس فى النواة قسمتها وخروج طاقة عظيمة منها ، بل حدث ما هو أعظم من ذلك ، فقد دلت « مدام جوليو كورى » وهى كريمة مدام كورى وبعد تجربة « أوتوهان » بأيام قليلة على خروج ثلاثة جواسيس متطوعين من النواة المصابة ، وضربهم من تلقاء ذاتهم لثلاث نويات أخرى مجاورة تصاب فى الحال وتخرج كل واحدة منها ثلاثة جواسيس جديدة ، وهكذا دواليك ، بحيث يصبح العمال المتطوعون لقسمة غيرها من النوى ثلاثة ثم تسعة ثم ٢٧ ثم ٨١ وهكذا بضرب كل عدد من المتطوعين الجدد فى ثلاثة يزداد عدد المتطوعين وفق المتوالية الهندسية التى يدرسها الطلاب فى صفوف الدراسة التى تصل فى هذه الحالة التى نحن بصددها فى كسر ضئيل من الثانية إلى بلايين البلايين من الضاربين المتطوعين ومثل هذا العدد من النوى المصاب ، وإذا لاحظنا أن الطاقة الكلية هى مجموع الطاقة التى تخرج من كل نواة فإن الطاقة النهائية من قطعة صغيرة من المادة عظيمة فوق الوصف .

ولقد كان التحول فى القنابل الذرية فجائياً وسريعا ، فلم يحاولوا السيطرة عليه لاستخدامه فى غير التدمير ، ومهمة العلماء الآن التحكم فى هذه الطاقة وتحويلها لصالح الإنسان ، ولو أننا حاولنا أن نحسب ما نحصل عليه من تحول جرام واحد من الماء أو من أية مادة إلى طاقة بتطبيق معادلة التحول لاينشتاين لوجدنا أننا نحصل من هذا الجرام فى حالة انعدامه انعداماً كليا وتحوله إلى طاقة على أكثر من ٣٣ مليون حصان ، وبالتالى نحصل من لتر واحد من الماء على ألف مرة مثل المقدار المتقدم

أى على طاقة تفوق كل احتياجاتنا الصناعية والزراعية فى مصر لمـــدة طويلة .

هذا سر الخليقة ، هذا سر أية مادة تصادفها ، وتلك مقدرة الإنسان المفكر فى إعادة المـادة الى طاقتها الأولى فى الكون بمعرفتة لنواتها واقتحامه هذه النواة ، هذه هى المـادة وصفتها لك كما أراها ، وكما يراها العلماء المحدثون ، كنزا من الأزل وهدية من العصور الغـابرة لا يعادلها أى كنز فى قيمته ، أو فى خطورته ، وعلى الإنسان أن يختار طريق استخدامها ، إما لحياة سعيدة على الأرض ، وإما لفنائه وفناء الأرض ، وهكذا ينحدر مستقبلنا لأحد السبيلين ، حتى اننى كتبت عن عقيدة راسخة على غلاف كتابى الذى سيصدر قريبا العبارة الآتية :

« لقد خطت البشرية مع « بكارل » الفرنسى منذ نصف قرن ، ومع « أوتوهان » الألمـانى حديثا خطوتين حاسمتين ، فإما مدنية فوق التصور نصبح فيها كملائكة نستطيع ما لا نستطيعه اليوم ، وإما مفاجأة محزنة قد يمحى معها الكوكب الوديع الذى نعيش عليه .

ويكفى أن نتصور أنه قد يمكن ببضع جرامات من مادة تقبل نواتها الانفلاق أن نسير باخرة كبيرة عدة رحلات بين مصر وأوروبا بدلا من آلاف الأطنان من الفحم أو البترول .

بل إن علماء أفاضل يكتبون اليوم أشياء أشبه بالخرافات منها بالحقائق ، أذكر للقارىء على سبيل المثال ما يفكر فيه الدكتور « أرفنج لانجماير » من استبدال قطارات السكك الحديدية بمركبات تقذف داخل نفق كبير ، فتسير المركبات وسط مجال مغناطيسى قوى ، فلا المركبة تصطدم فى طيرانها بسقيفة النفق ، ولا هى تلمس فى سيرها أرضه ، بل هى تسبح بسرعة فائقة فى هذا النفق المفرغ من الهواء ، بحيث يصل المسافر من نيويورك الى سان فرانسسكو فى نصف الساعة ، ومعنى ذلك أنك تسافر من مصر للاسكندرية فى حوالى دقيقـــة واحدة ، ومن مصر لأسوان فى حوالى خمس دقائق ، ومهما يكن من أمر تفكيرى فى الصعوبات الفسيولوجية أو البيولوجية التى تواجه العلماء فى العصر النووى لحماية الانسان ، والعمل على استمرار حياته عند هذه السرعة ، وهى الصعوبات التى يذكرون ألا

وجود لها ؛ فلا أقل من أن نفكر أنّ مثل هذه المركبة إن لم تصلح للانسان فستصلح لإرسال البريد ونقل البضائع .

إنما الذى يفكر فى أمر هذه المركبة الجبارة هو لانجاير ، ليس عالما فحسب بل هو من حملة جائزة « نوبل » المعروفة ، فلك إذن أن تأخذ كلامه فى محل الاعتبار ، بالطريقة التى نظرت بها إليه

* * *

ومع ذلك فلندع « لانجاير » الذى نجح فى تحريك اسطوانة معدنية فى الفراغ دون أن تستند الى شىء أو تعلق من أطرافها فى شىء ، وهى اسطوانة عرضها فى أحد معارض أمريكا،لنقول أول نتائج الطاقة النووية هى حصولنا على تيار كهربائى لكل حاجياتنا بأثمان زهيدة ودون عناء ، وعند ظنى سيتمكن الانسان قريبا من إدارة موتووات كبيرة جدا فى محطات رئيسية ، وذلك بواسطة الطاقة الحرارية الناتجة من النواة ، وهذه الطاقة الحركية الموتور تولد الكهرباء فى دينامو كبير بالوسائل العادية ، وهذا الدينامو يعطى بدوره التيار الكهربائى الذى ينعم به الناس .

سيختلف إذن عهد النواة عن عهدنا الحالى ، وعن جميع عهود الإنسان الغابرة وسيزداد استخدامنا للضوء الكهربائى وجميع مشتقاته ، وعند ظنى أن الأنوار المنعكسة على معبد الهند الصينية الذى أقيم فى معرض باريس سنة ١٩٣١ ، والذى استمتعنا به واستمتع به ملايين البشر بصورة لا ينساها الذهن ، ستحل أمثالها وأقوى منها على واجهات منازلنا وبيوتاتنا التجارية .

ستتالق هذه الأنوار وغيرها للدرجة التى سوف يحن معها الإنسان مرة أخرى إلى الاستمتاع بالليل الدامس ، فيهرب أحيانا إلى الريف البعيد ، يسعى إلى الليل الذى لا يجد السبيل إليه فى المدن التى يفوق الضوء فيها ليلا ضوء النهار .

* * *

كل هذا يجيزه العلم اليوم ولا يمكن أن تتصوره غالبية الناس ، ولو أنك قلت لأحد سكان الجزيرة العربية أيام عمر بن الخطاب إن الإنسان سوف يستطيع

أن يخاطب أخاه البعيد عنه ، ويسمعه ويراه دون أن يكون بينهما أى واسطة ، كما نفعل نحن الآن بواسطة التليفزيون ، لما صدقك أحد .

ومع ذلك فثمة أمران أعتقد شخصياً أنهما وشيكا الوقوع خلال حياتنا إن قدر لنا فيها بقية من الأجل .

الأمر الأول : يتلخص فى أن الناس سوف تستطيع السفر بطائرات لم نألفها تتسع الواحدة منها لآلاف الأشخاص حول الأرض عند خط الاستواء مثلا ، حيث يبلغ محيط الأرض أقصاه ، بحيث تسافر الطائرة حول الأرض لتصل إلى النقطة التى بدأت منها المسير فى زمن مقداره ٢٤ ساعة ، وهو الزمن اللازم لدوران الأرض حول محورها دورة كاملة ، وفى هذه الطائرة سوف لا يتغير الوقت على المسافرين ، فإذا بدأوا رحيلهم الساعة ١٢ ظهراً فستظل الساعة عندهم ١٢ دائماً وذلك لمواجهتهم الشمس بزاوية ثابتة لا تتغير ، فلا عصر هناك لهؤلاء القوم ، ولا مغرب ولا عشاء ، ، إنما يساعد على تحقيق مثل هذه الطائرة الجبارة فى حجمها وفى سرعتها عدم حاجتها لحمل هذا الوزن الثقيل من الوقود .

الأمر الثانى : أنه قد يصبح الصعود الى القمر أقرب الأجرام السماوية لنا فى متناول العصر النووى ، رغم علمنا ببعده عنا مسافة تبلغ حوالى أربعمائة ألف كيلو متر أى حوالى أربعين ضعفا للمسافة بيننا وبين نيويورك ، بل ثمة اعتبارات علمية رغم عدم وجود الهواء فى هذا السيار ، تجعل احتمال العودة منه فى العصر النووى أمرا غير مستحيل .

* * *

كل هذا قد يحدث ، وقد يحدث بعضه سريعاً ، ولكن الذى أرجو ، أن تتطور الأخلاق نحو الفضائل ويتطور الانسان نحو الكمال ، فيحب السلام ويعمل للسلام ، ويحب الحياة ويعمل من أجلها ، وهذا وذاك رهن بتصرفاتنا ، وموقوف على درجة إدراكنا للأمور .

عند ذلك يأتى عصر النواة مسرعا إلينا ، ليكون عصر سعادة وهناء ، لا عصر شقاء وفناء ؟

اليمن
منذ ظهور الإسلام

لحضرة القاضي عبد الله الجرافى الصنعانى
مندوب وزارة المعارف اليمنية بمصر

يمثل اليمن فى جماعة التقريب إثنان من كبار رجالاتهم ، هما : حضرتا صاحبي السعادة السيد على بن اسماعيل المؤيد مندوب اليمن بمصر ، والقاضى محمد بن عبد الله العمرى رئيس مجلس الجامعة العربية فى الدورة الحالية .

ونظرا لغياب سعادة القاضى العمرى فى أسفاره الكثيرة أناب عنه فى الحضور بجلسات التقريب حضرة القاضى كاتب هذا المقال .

١ — ظهور الإسلام باليمن ووفود أهله الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

لما ظهر أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم استقبل اليمنيون دعوته بكل تهليل وترحيب ، وأسلم الكثيرون منهم ، وعلى رأسهم باذان ، وكان والى اليمن من قبل كسرى ملك الفرس ، وفشا الإسلام باليمن ، وكتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أقيال حمير ، قيل ذى رعين ، والحرث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، وقيل ذى القلاع ، وغيرهم يدعوهم الى الإسلام فأجابوه ، وترادفت الوفود من اليمن إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فوفد فى العاشرة من المبعث نصارى نجران ووفد ضماد الأزدى والطفيل بن عمر الدوسى ، ووفد بعد الهجرة أبو موسى الأشعرى ، وقبائل الأشاعرة أهل وادى زبيد ، والتقت سفينتهم بسفينة جعفر ابن أبى طالب ، ومن معه من مهاجرة الحبشة عند قفولهم الى المدينة فى السنة السابعة من الهجرة ، وقدموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد فتح خيبر ، فأشركهم فى الغنائم ، ووفد من نجران بنو عبد المدان ، ووفدت قبائل همدان وكان منهم مالك

ابن نمط ذو المشعار ، وافوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة عند رجوعه من تبوك عليهم الحبرات والعمائم العدنية ، وهم على النجائب المهرية والأرجبية ، وكان الوفد من خازف ويام وشاكر ، ووفدت قبائل خولان والنخع ، ووفد الأشعث بن قيس الكندى ومن معه من كندة ، ووفد وائل بن حجر ومن معه من حضرموت ، ووفد فروة بن مسيد المرادى ، واستعمله النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مراد وزبيد ومذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة .

وممن وفد عليه أبيض بن حمال المارنى فوهبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الملح فقيل له : أن المال العد فاستقاله ، ووفد غير هؤلاء ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى أهل اليمن : أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرق أفئدة ، الإيمان يمان والحكمة يمانية . رواه البخارى والترمذى عن أبى هريرة .

٢ — عماله صلى الله عليه وآله وسلم على اليمن :

بعد ظهور الإسلام باليمن بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم عماله عليها ، وأمرهم بإرشاد الناس ، وتعليمهم معالم دينهم ، وأخذ واجباتهم المالية .

فمنهم على بن أبى طالب بعثه مرة إلى نجران ، ومرة إلى همدان ، وأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، وبعث على عليه السلام بإسلامهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسجد لله شكرا .

ومنهم أبو موسى الأشعرى وخالد بن الوليد والبراء بن عازب وزياد بن لبيد الأنصارى والطاهر بن أبى هاله ويعلى بن أمية وعمرو بن حزم وعكاشة بن ثور وجرير بن عبد الله البجلى وعامر بن شهر وشهر بن بادام ووبر بن يُحَنَّس وأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعمر مسجد صنعا فى بستان باذان وأمره أن يعمر الجبانة فى شمال مدينة صنعا .

ومنهم معاذ بن جبل وأمره أن يعمر مسجد الجند ، وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن

« إنك ستأتى قوما أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فاخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك فاخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب .

وعن معاذ قال ، بعثنى النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمن وأمرنى أن آخذ من كل حالم ديناراً أو عدله معافريّاً أخرجه أهل السنن وابن ماجه (والمعافرية ثياب كانت تصنع بالمعافر) .

٣ — عمال اليمن أيام الخلفاء الراشدين فمن بعدهم .

لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقر أبو بكر عمال رسول الله على اليمن ولم يزل العمال يتداولون على اليمن أيام الخلفاء الراشدين ثم أيام الدولة الأموية والعباسية .

٤ — استنفار أهل اليمن للجهاد .

كان فى أيام أبى بكر استنفار أهل اليمن للجهاد فساروا اليه أفواجا ، وبعث نصفهم إلى الشام وهم قبائل عكر وحمير وبعث النصف الآخر إلى العراق وهم قبائل همدان ومذحج وغيرهم وكان لهم أثر عظيم فى الفتوحات الإسلامية ونبغ كثير من أبنائهم فى الشام والعراق والأندلس وسميت بعض قلاع الأندلس بأسمائهم من ذلك قلعة همدان بالقرب من غرناطه وقلعة خولان بالقرب من أشبيلية وقلعة يحصب وغير ذلك مما ذكره المؤرخون .

٥ — الدول المتعاقبة على اليمن .

ظهرت باليمن أيام الدولتين الأموية والعباسية فما بعدهما عدة دول منها ما نبت باليمن ومنها ما أتى من خارج اليمن وقد ألمت بها كتب التاريخ ولنشر هنا إلى الدولة الهاشمية فهى التى لا تزال قائمة منــــذ ألف عام ، ثم نذكر المذهب الزيدى باليمن .

٦ — الدولة الهاشمية باليمن ومؤسسها الإمام الهادى إلى الحق يحي بن الحسين بن القاسم .

ولد الإمام الهادى يحي بن الحسين بن القسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بجبل الرس من بلاد الحجاز حول المدينة المنورة سنة خمس وأربعين ومائتين ، ونشأ فى طلب العلم ومعالى الأمور وأخذ العلم عن أبيه الحسين وعمه الحسن ابنى القسم وعن غيرهما ، واستدعاه أهل اليمن لاظهار معالم السنن فخرج إليها المرة الأولى سنة ثمانين ومائتين ، ثم عاد إلى الحجاز وخرج المرة الثانية سنة أربع وثمانين ، واستولى على مدينة صعدة وما حولها ثم فتح بلاد نجران وجبل برط وامتد نفوذه فى كثير من البلاد اليمنية وسار إلى مدينة صنعا ، وجال فى البلاد وأظهر السنن وأخمد البدع وعمر كثيرا من المساجد وأسس الدولة الهاشمية باليمن وقفا أولاده أثره على طريقة ما عدوها وهى التمسك بالتقوى والتردى بشعار الدين مع لين الحجاب ، والمثابرة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما زالت القبائل اليمنية ولا سيما صميمها ، وهى قبيلة همدان أنصار هذا البيت الهاشمى إلى التاريخ الحاضر .

٧ — وفاة الإمام الهادى إلى الحق يحي بن الحسين .

توفى الإمام الهادى إلى الحق بمدينة صعدة لعشر بقين من ذى الحجة سنة ثمان وتسعين ومائتين وعمره ثلاث وخمسون عاما ، وقبره بمدينة صعده مشهور وأكثر أشراف اليمن من ذريته ، وكان مشهوراً بالقوة والشجاعة والورع والفقه والخصال الحميدة والأعمال المجيدة ، وتولى الأمر من بعده ولده الإمام المرتضى محمد ثم صنوه الإمام الناصر للدين أحمد ، وتلاهما أولادهما ، ولهم مع الدول المعارضة خطوب وحروب تضمنها التاريخ .

٨ — الزيدية باليمن .

الزيدية باليمن ينتمون إلى الإمام الشهيد زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ويوافقونه فى كثير من المسائل ، ويقلدون الإمام الهادى يحي

ابن الحسين فى المسائل الفقهية ويعتمدون مؤلفاته فى الفقه منها كتاب الأحكام ، والمنتخب ، والقنون . وقد قام بخدمتها كثير من فقهاء الزيدية وخرجوا من نصوصها مسائل فرعية ، كما فعله أصحاب الأئمة الأربعة ، وانتشرت مؤلفات الهادى فى بلاد جيلان وديلمان فى شمال إيران ، وقام بخدمتها بعض أئمة تلك البلاد ، منهم الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهارونى ، والإمام أبوطالب يحيى بن الحسين ، ومعظم الزيدية باليمن هم أهل الجبال . أما أهل تهامة والجزء الجنوبى ، فغالبهم ينتمون إلى الإمام الشافعى ، والجميع فى العهد الحاضر إخوة ، وقد خمدت العصبية المذهبية بمساعى الإمام الراحل المتوكل على الله يحيى بن محمد رضى الله عنه . وبما بذله ويبذله جلالة نجله الإمام الحالى الناصر لدين الله أحمد بن يحيى ، ومذهب الإمام زيد ابن على والإمام الهادى وأولاده برىء من الغلو فى الدين ، وكتبهم ومؤلفاتهم شاهد عدل على ذلك ، والتقليد إنما هو لمن لم يتمكن من الاجتهاد ، أما من تمكن من الاجتهاد ، فإنه يجتهد لنفسه ، فباب الاجتهاد مفتوح عند الزيدية كما هو كذلك عند غيرهم من المذاهب الاسلامية ، وقد ظهرت باليمن بدع وفتن ، منها : فتنة على بن الفضل القرمطى فى القرن الثالث ، وكان اضمحلالها واخماد نارها بسيوف الأئمة من أهل البيت ، وذلك معروف فى كتب التاريخ ؟

فى اللغـــة

يقال : امتاز القوم ، إذا تنحى عصابةٌ منهم ناحية ، وكذلك استماز .

قال الأخطل :

فإن لا تغيِّرْها قريش بمُلْكها يكن عن قريش مُستَمازٌ ومرحل

ويقال : امتاز القوم إذا تميز بعضهم من بعض ، وفى الحديث : لا تهلك أمتى حتى يكون بينهم التمايُل والتمايُز ، أى يتحزبون أحزابا ، ويتميز بعضهم من بعض ، ويقع التنازع .

[لسان العرب]

الباكستان

شخصية جديدة فى المحيط السياسى الدولى

للأستاذ الأديب أحمد محمد عيسى
أمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

فى مطلع القرن الثامن الميلادى ومغرب القرن الأول الهجرى ، تقدمت جيوش المسلمين نحو الهند ففتحتها وأقامت بها دولة إسلامية قوية . وقد شاهدت الهند زمن الحكم الإسلامى أزهى لحظاتها التاريخية . وامتد حكم المسلمين إلى أرجاء بعيدة ، واستطاع حكام المغول أن يجعلوا من الهند إمبراطورية شرقية ذات سطوة وسيطرة

خلال تلك العصور امتد الإسلام إلى كل بقاع الهند ، وترك الفاتحون الجدد والدين الجديد أثرهما فى تقاليد الناس وعاداتهم ولغاتهم ، كما تركا أثرهما فى أساليب الحكم وأنظمته ، وعاشت الهند فى ظل الحكم الإسلامى أحسن حالا وأرغد عيشاً من ذى قبل . ولكن تلك الدولة التموية لم تلبث أن شاخت ونخرت عظامها سوسة التدخل الأوربى ، فلم يحل القرن الثامن عشر إلا وقد سيطرت على تلك الجهات شركة الهند التجارية الإنجليزية فأذاقت الهنود ألواناً من البؤس والبلوى وكثرت المجاعات وعمت الفوضى وانتشرت الرشوة ، ورأت الحكومة الانجليزية أن ذلك كله خطر على مركزها فى الهند ، وأنه لا بد أن تنحى الشركة الانجليزية عن إدارة الهند فقررت سنة ١٨٥٧ تبعية الهند للتاج البريطانى .

على أن ذلك القرار الذى اتخذه البرلمان البريطانى لم يكن فى صالح الهند بقدر ما كان فى صالح بريطانيا المستعمرة ، التى أخذت ترسم سياستها لتحجب عن الهند

أى منافس لها فيها ، ولتجعل منها مزرعة تدر عليها النعمة ، وسوقاً تجنى منها الربح وفى ظل الحكم البريطانى زادت أسباب الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين ، واستغلت بريطانيا ذلك لأنه وسيلتها فى تثبيت سلطانها ، وقاسى المسلمون قسطاً وافراً من الاضطهاد لأنهم قاوموا سيادة الانجليز عليهم ، ولأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم دون غيرهم ، أصحاب الحق الشرعى فى البلاد . وفى ظل الاستعمار الإنجليزى أيضاً انتشرت المسيحية وزاد الاهتمام بالديانة الهندوكية ، ونشطت حركة التبشير بين المسلمين وقد لفت هذا كله نظر زعماء مسلمى الهند فحاولوا القضاء عليه بالتفاهم والتعاون ولكنهم فشلوا فى ذلك ، فاتجه تفكيرهم إلى ضرورة تكوين دولة اسلامية مستقلة .

ومن المؤسف أن محنة الاستعمار لم تقنع جميع الهنود بالتفاهم والاتحاد ، ولم ولم يكن الزمن الطويل بكاف للقضاء على ما بين المسلمين والهندوكيين من خلاف ولا على ما بين الهندوكيين والسيخ من فروق ، ولم تكن انجلترا نفسها راغبة فى أن تخف حدة الخلافات الطائفية والمذهبية محافظة على مصالحها الخاصة فى الهند ، وظن المسلمون أنهم هالكون لو خلّى الأمر للهندوكيين ، وطاف ذلك الظن بعقول الهندوكيين أيضاً . وقد تأثرت حركات الهند الاستقلالية بتلك الحركات المليئة بكثير من الحذر والارتياب فأضعفت تلك الحركات ، أو جعلت نصيبها الفشل المحقق .

وعند ما قام حزب المؤتمر للمطالبة بمنح الهند استقلالا داخلياً ، نهض المسلمون فى أول الأمر يؤيدون الفكرة برغبة قوية واخلاص شديد ، ولكن تعنت متطرفى حزب المؤتمر وتعصبهم الأعمى ضد المسلمين جعل هؤلاء يعيدون النظر فى موقفهم ورأوا أن مستقبلهم سيكون مأساة مليئة بالأحزان إذا ما استقلت الهند داخلياً وسيطر عليها الهندوكيون . ومنذ تلك اللحظة استقر رأى زعمائهم على تكوين حزب يدافع عن مصالحهم ويطالب فى الوقت نفسه باستقلال الهند فكونوا حزب « الرابطة الإسلامية » .

وفى سنة ١٩١٧ تقاربت وجهات النظر بين حزب الرابطة الإسلامية وحزب

المؤتمر ، واتفقت أغراض الحزبين على السعى للمطالبة باستقلال الهند الذاتى ، على أساس حق المسلمين فى تمثيل أنفسهم على حدة . وبدأ الحزبان منذ تلك اللحظة كفاحا مشتركا ضد بريطانيا للحصول على استقلال الهند الذاتى .

ولكن بريطانيا لم تسعف الهنود بالأمل المنشود ، فقام غاندى بحركات العصيان المدنى ، ورضى عن تلك الحركات رجال حزب المؤتمر غير أنها لم تقنع الكثير من المسلمين ، فحدث الخلاف بين الهندوكيين والمسلمين من جديد ، أما بريطانيا فقد اضطرت إلى محاولة إيجاد حل للشكلة الدستورية فى الهند ، فدعت لعقد مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن سنه ١٩٣٠ ، ولكنه فشل ، حيث لم يمثل الهندَ فيه غير المسلمين . وفى العام التالى دعت انجلترا لمؤتمر آخر فى لندن بعد أن مهدت له بتقريب وجهات النظر بين حزبى الهند الكبيرين . وقد عقد هذا المؤتمر فعلا ، ومثل المسلمين محمد على جناح ، ومثل الهندوكيين المهاتما غاندى ، وأصر المسلمون على التمسك بمطالبهم وحقوقهم التى سبق أن أعلنوا عنها ، وأصر الهندوكيون على رفضها وعدم الاعتراف بها ، ففشل هذا المؤتمر كما فشل سابقه ، وإن كانت بريطانيا قد اقتنعت بوجاهة مطالب المسلمين وعدالتها .

ولا يهمنا هنا أن نبحث فى مدى صدق اقتناع انجلترا بعدالة مطالب المسلمين بقدر ما تهمنا الإشارة إلى انزعاجها من مظاهر الخلاف بين حزب المؤتمر والرابطة الإسلامية ، وأحست فى مرارة أن تلك الخلافات لن تصرف أى الحزبين عن مواصلة جهوده من أجل استقلال الهند ، وتحت هذا الضغط أصدرت انجلترا قانونى سنة ١٩٣٥ ، ١٩٣٧ ، وبمقتضاهما أعطيت الأقاليم الهندية نوعا من الاستقلال فى إدارة شئونها الداخلية ، وإن كان هذا نفسه قد زاد أسباب الخلاف بين المسلمين والهندوكيين ، لأنه أعطى الهندوكيين فرصة للتحكم فى إخوانهم المسلمين لأنهم على رغم قوتهم لا يمثلون ربع عدد السكان .

وكانت الانتخابات العامة بحكم تلك النسبة تأتى فى صالح حزب المؤتمر ، وعن هذه الطريق سيطر الهندوكيون على كافة شئون البلاد ، وجعلوا لأنفسهم الأولوية

فى كل شىء، وأنفذوا مارغبوا فيه من قرارات دون اهتمام أو مبالاة بمطالب المسلمين أو الحرص على اشتراكهم وإياهم فى الحكم بطريقة تكفل احترامهم وتتناسب مع مركزهم فى البلاد . من أجل هذا اضطر المسلمون إلى أن يعلنوا فى صراحة سنة ١٩٤٠ عن الفكرة التى طالما طافت برءوسهم ، وأن يتحركوا جميعا للمطالبة « بالباكستان » .

وكانت الحرب العالمية الثانية عاملا مهماً فى محاولة حل المشكلة الهندية ، ذلك أن بريطانيا كانت بحاجة قاسية إلى كثير من الرجال والعتاد الحربى ، وكانت الهند تستطيع أن تمدها بكثير من هذا أو بالجانب المهم منه . ولكن هل يكون من السهل دائما أن تضحى الهند فى سبيل الامبراطورية بالرجال والأموال دون أن يكون فى مقابل ذلك أشياء ؟ وهل تستطيع انجلترا أن تفرض على الهند إرادتها وهى ضعيفة فى الميدان الأوربى أمام الألمان ، وضعيفة فى الميدان الشرقى أمام اليابانيين ؟ وهل أمام انجلترا غير الهند يقدر أن يمدها بما تريد من مادة الحرب ؟ ذلك وغيره رغب انجلترا فى محاولة الوصول إلى حل لمشكلة الحكم فى الهند ، وحمل تلك الرغبة واحد من وزارة الحرب البريطانية هو السير ستافورد كريبس فقام برحلته إلى الهند فى مارس سنة ١٩٤٢ للتفاهم مع الهنود على تعاون تام فى جميع العمليات الحربية مع بريطانيا فى نظير تمتع الهند باستقلالها كبلاد الدومين بعد الحرب .

وفى أثناء التفاهم الذى قام به سير ستافورد كريبس بين أحزاب الهند ، اتضح تمسك المسلمين بوجهة نظرهم وإصرار الهندوكيين على رفض مقترحات المسلمين ، وكانت النتيجة أن فشلت مهمة كريبس لمجرد اعترافه بأحقية المسلمين فى تمثيل أنفسهم وبوجاهة مشروع « باكستان » وزادت من جديد عوامل الخلاف والفرقة بين حزب المؤتمر وحزب الرابطة الإسلامية .

وقد استعان حزب المؤتمر ببعض أعضائه من المسلمين فى القضاء على فكرة « باكستان » ولكنهم كانوا أقلية لم يستطيعوا التأثير فى الرأى العام الإسلامى فى

الهند ، وقد وضح ذلك فى انتخابات سنة ١٩٤٦ إذ فاز حزب الرابطة الإسلامية فى المجلس التشريعى بـ ٤٢٧ مقعدا من مجموع عدد المقاعد المخصصة للمسلمين ، وقدرها ٤٨٢ مقعدا ، وأصبح من الواضح ضرورة الاعتراف بأحقية المسلمين فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وأن تكون لهم دولة خاصة ، لأن تسعين مليونا ليسوا أقلية ، وإن كان مجموع السكان يبلغ ٣٦٠ مليون نسمة .

أما انجلترا فقد فكرت طويلا ، وانتهى تفكيرها إلى ضرورة نقل السلطة من يدها إلى يد الهنود أنفسهم ، وتركت لهم حرية اختيار نوع الحكم الذى يريدونه وكلفت لورد مونتباتن ليحمل مشروعها الى الهند ، وليأخذ بأسباب تنفيذه ، وأيقن الهندوكيون أن مشروع باكستان أصبح حقيقة لا مفر منها ، وأنه لا مندوحة عن تقسيم الهند ، أرادوا ذلك أم لم يريدوا . وأثارت تلك الحقيقة أعصاب متطرفيهم فتحركوا للانتقام من المسلمين ، وذبحوا منهم فى الشوارع ، وحرقوا بهم البيوت واقتحموا عليهم المساجد ، وطاردوهم فى كل مكان حتى أفنوا منهم خلقا كثيرا .

وخوفا من نتائج ازدياد تلك الحركة الإجرامية قبل حزب المؤتمر فى يونيو سنة ١٩٤٧ الموافقة على مشروع التقسيم الذى تقدم به لورد مونتباتن لينهى حالة الفزع والفوضى والتقتيل التى سادت البلاد ، ومما يجدر ذكره أن لجنة حزب المؤتمر قد قبلت هذا المشروع بأغلبية ١٢٥ صوتا ضد ٢٩ صوتا ، ولم ينتصف أغسطس سنة ١٩٤٧ حتى أعلن قيام دولتى الهند والباكستان ، كما أعلن انتهاء الاحتلال البريطانى للهند ، ذلك الاحتلال الذى استمر قرابة ثلاثة قرون .

أساس مشروع الباكستان هو أن تتكون من الولايات الهندية ذات الأغلبية المسلمة ، دولة يكون الحكم فيها للمسلمين وحدهم . وهذه الولايات هى : بنجاب ، أفغان ، كشمير ، سند ، بلوخستان ، ومن هذه الولايات جاء اسم : باكستان ، غير أن جغرافية الباكستان الحالية تختلف عن هذا ، فالدولة الجديدة تتكون من وحدتين جغرافيتين منفصلتين هما : الباكستان الشرقية فى شرق الهند ، وهو عبارة عن مقاطعة كبيرة من البنغال ، وقسم من إقليم سيلهت الغنى المجاور لمقاطعة آسام

أما الباكستان الغربية فتشمل : البنجاب الغربى والسند وبلوخستان ، ومقاطعة الحدود الشمالية الغربية التى يطلق عليها أفغان ، وبعض بلاد أخرى آثرت أن تنضم الى الباكستان .

هذه الدولة الجديدة ليست رقعة واحدة إذ يفصل قسمها الشرقى عن قسمها الغربى مسافة تزيد على الألف ميل هى عبارة عن أراض للدولة الهنديه التى تكونت الباكستان على الرغم منها . وهذا الانفصال ليس فى مصلحة الباكستان إذا ما هوجم أحد جزئيها من الخارج أو من الهند نفسها ، وإذن فلا بد أن يكون بين الدولتين تفاهم وتعاون تام لحل كثير من المشاكل المعقدة التى أمامهما .

إن مشكلة تقسيم دولة أصلية إلى دولتين أمر عسير شاق . وهو لا يخلو من عوامل ضعف وأخطاء . وقد شاهدت أوربا شيئاً من هذا عند ما تكونت الدول الحديثة على أنقاض الامبراطوريات الكبيرة المنهارة بعد الحرب العالمية الأولى . فكانت الدويلات الحديثة المجمعة ، أو الدول القديمة الممزقة سبباً فى كثير من المشاكل التى أخذت تزداد تعقيداً حتى أدت إلى الحرب العالمية الثانية . ومثلها مشاكل البلقان أيضا وحدودها وأقلياتها . إ لا تزال هى الأخرى مثار منازعات لا تنتهى . وبالاختصار فإن مشاكل السكان أعقد من أن تحل بتلوين الخريطة أو بتبادل السكان حيث ظهر فشل تلك التجربة .

وقد واجهت دولة الباكسان هذه المشكلة عند التقسيم ، إذ ضمت اليها بلاد قد يكون بها أغلبية غير مسلمة ، ولكنها بحكم موقعها الجغرافى كان لا بد أن تصبح ضمن حدود الباكستان ، كما ضاعت منها بلاد ذات أكثرية مسلمة ، ولم يكن من السهل الحصول عليها . وإذن فقد اضطر بعض المسلمين من دولة الهند الى النزوح إلى دولة الباكستان ، إما خوفا من اضطهاد الهندوكيين لهم أو أملا فى خير جديد ، كما اضطر البعض الآخر أن يتيم فى الدولة الهندية راضياً بما يجرى عليه فى أرضها لأنه لا يقدر أن يتجاهل ماضيه بالمكان الذى ولد فيه ، ولا صلته بالأرض التى يعيش عليها ، أو لأنه رأى أن مقامه بالباكستان لن يختلف كثيراً عنه بالهند .

ولا تزال بين الهنـــد وباكستان مشاكل عـدة ، كمشكلة كشمير ، ومشكلة اضطهاد المسلمين عامة فى الهند ، ومشكلة مسلمى حيدر أباد بعد الحوادث الأخيرة ومشكلة النقل والمواصلات ، وهذه المشاكل عويصة معقدة وفى حاجـة إلى حل يطمئن إليه الطرفان ، ولا أمل فى الوصول إلى ذلك الحل مالم تصْفُ النيات وما لم يكن هناك استعداد حسن عند الحكام والمحكومين على السواء . ويبدو أن الباكستان صادقة الرغبة فى مودتها وصداقتها للهند ، لأن تلك هى السياسة التى رسمها القـائد الأعظم المغفور له محمد على جناح ، والتى يسـير عليها من أتى بعده ، ولا شـك أن تلك السياسـة سوف تتيح للباكستان التفرغ إلى شئونها الداخليـة العديدة وإلى الاستعداد للمستقبل الزاهر الجدير بهـا وبشعبها .

وفى طليعة ما تعنى به الباكستان الآن تنظيم اقتصادياتها ، ووضعها على أساس متين ، وهنا يجب أن نعلم أن ميزانية الدولة فى عامها الأول ١٩٤٧ — ١٩٤٨ كانت ٩٠ مليونا من الجنيهات تقريبا ، والمنتظر لها أن تكون أضخم من ذلك بكثير ، وأن الباكستان دولة زراعية يعتمد ٨٠ فى المـائة من سكانها على الزراعة ، وهى من أجل هذا بحاجة إلى تحول صناعى سريع ، وتبذل الحكومة غاية جهدها لتنشيط الحركة الصناعية ، ودفع الناس إلى التحول من الإعجـاب بالحقل إلى الإعجاب بالمصنع ، وأهميته بالنسبة لمستقبل البلاد الاقتصادى . ومـا قد يهدىء من سرعة ذلك التحول الصناعى قـلة مواد الوقود فى الباكستان ، وعـدم كفايتها لحاجة البلاد . على أن أمل الباكستان فى تفريج تلك الأزمة يعتمد على ما تنوى القيام به من مشروعات لتوليد الكهرباء من المساقط المـائية بهـا .

ولا يسمح المجال هنـا بالـكلام عن ثروة الباكستان الزراعية والحيوانية والمعدنية ، فلندع ذلك الآن ، ولننتقل إلى ذكر شىء عن السكان فنقول إن عددهم ٧٥ مليونا من الأنفس تقريبا ، وتبلغ نسبة المسلمين حوالى ٨٠ فى المـائة من مجموع السكان ، وأكثر مسلمى الباكستان على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأقليتهم من الشيعة ولـكن رجال هذه الأقلية من أرباب النفوذ وأصحاب المقامات العاليـة

فى البلاد ، والمذهب السائد هناك هو مذهب الامام أبى حنيفة ، على أنه توجد بين المسلمين فرق أخرى فيها خروج على العقيدة الإسلامية . وكان منتظرا أن يكون لتعدد مذاهب المسلمين أثر سيء فى الدولة الجديدة ، ولكن السياسة التى رسمها المغفور له القائد الأعظم محمد على جناح أنقذت البلاد من كل هذا ، وجعلت كل واحد ينسى مذهبه ، ويذكر أنه مسلم فقط . وعلى هذه السياسة السمحاء سارت الباكستان ، فنجدها مثلا قد أسندت وزارة العدل إلى مستر موندل، وهو هندوكى من المنبوذين فى الهند نفسها ، ولكنه مخلص للدولة ثم إنه قوى الإيمان بفكرة الباكستان .

ومنذ دخول الباكستان عضواً فى هيئة الأمم المتحدة وهى تعمل جاهدة لخدمة قضية السلام العام ، كما أنها تبذل اهتماما خاصاً بالمسائل الشرقية ، وإن ذلك ليبدو واضحاً من عنايتها بمشكلة فلسطين ، ومشكلة أندونيسيا ، ومشاكل العرب والمسلمين بوجه عام . وهى ترجو أن يكون انضمامها إلى مجموعة دول الشعوب الإسلامية عاملا له أهميته نحو الوصول إلى التحرر من كل نفوذ أجنبى ، وإلى تحقيق حلم جميل : هو أن يكون الشرق للشرقيين ؟

مكتبة التقريب

ينص قانون الجماعة فى مادته الرابعة على أنه (تكون للجماعة دار تسمى « دار التقريب بين المذاهب الإسلامية » ومكتبة تحوى كتب المذاهب الإسلامية والمراجع التى تحتاج إليها فى بحوثها الدينية والاجتماعية) .

ويسرنا أن أهل العلم والفكر من كافة الطوائف الإسلامية ، بين أفراد وهيئات رسمية وشعبية ، يدركون ما لهذه المكتبة الجامعة من أهمية ، وأنها ستكون بعون الله طرازاً فريداً بين المكتبات تلم المتفرق وتجمع الشتات ، وتسعف العلماء والباحثين بما لا يجدونه مجتمعاً فى سواها ، وهم لذلك يغذونها بكل نافع ، ويحرصون على أن تلتقى لديها أفكار علمائهم وأدبائهم وباحثيهم فى القديم والجديد .

وإن دار التقريب لتشكرهم أجزل الشكر ، وتحيى فيهم جميعاً هذا الشعور الكريم .

المغرب الإســــلامى

للأستاذ المجاهد السيد محى الدين القليبي

يبتدىء تاريخ المغرب الإسلامى بصفته بلداً إسلامياً له آثاره فى مختلف نواحى الأوطان الإسلامية ، ومختلف خطواته أثناء تطوره وانتشاره فى أواخر القرن الأول للهجرة ، أو بالأحرى فى أيام عبد الملك بن مروان عند ما ولى عليه حسان ابن النعمان الغسانى للمرة الثانيــة ، فأنشأ منه هذا الوالى بحصافته ولاية إســلامية تتمتع بكامل استقلالها الإدارى ، وتعود أمورها السياسية العامة مباشرة إلى مقر الخلافة الأموية دون أن يكون لعمال مصر أى سلطان عليها كما كانوا يحاولون ، وعلى الرغم من أن ظهور النزعات المناوئة لحكم الأمويين من شيعة وخوارج لم يكن بصفة فعالة إلا بعد ربع قرن من هذا التأسيس ، فإنه مما لا شك فيه أن العناصر الأولى التى استطاعت أن تثير على الخلافة الأموية ما أثارت من زوابع فى المغرب وانتهت بفصله نهائيا عن الخلافة فى أوائل الدولة العباسية كانت موجودة من قبل ذلك فيمن نزح إلى المغرب من جنود وأساتذة ومهاجرين .

على أن جميع الأطوار التى مرت بالمغرب الإسلامى من لدن استقراره كبلد إسلامى حتى الآن ، والتى اصطبغت بشتى النزعات والأهواء كانت تدل على شى واحد فى جوهرها ، وهو وحدته كوطن واحد فى جميع مقوماته من طبيعية وملية ولغوية ، تلك الوحـدة التى تجلت أحياناً فى طابع سياسى عام ، كما وقع فى دولتى الفاطميين والموحدين ، وفى مـد وجزر إقليميين ، كما وقع فى مختلف الدول التى نشأت فيه خلال هذه المدة الطويلة ، والتى لم يتفق أن استقرت على حدود معينة فى فترة من فتراتها ، وبهذا نستطيع أن نفهم العلة التى جعلت الاختـلاف المذهبى الذى لعب فى المغرب الإسلامى دوراً خطيراً لم يؤثر فيه كوطن واحد بكل معانى الوحدة على اتساع رقعته التى تمتد من حدود مصر الغربيـة إلى المحيط الأطلسى

ومن شواطىء البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء الكبرى ، وبهذا أيضاً نستطيع أن نفهم العلة فى أن الحدود التى أقيمت منذ السيطرة العثمانية عليه بين أجزائه وقسمته إلى أربع مقاطعات — ليبيا وتونس والجزائر ومراكش — لم تحل دون تأثر كل قطر من هذه الأقطار بما يحدث فى القطر الآخر من أحداث ، فعلى الرغم من أن السياسة الإيطالية كانت تحاول تبديل الجنس العربى بالجنس الإيطالى فى طرابلس ، كما حاولت ذلك من قبل فرنسا فى الجزائر ، إن هاتين المحاولتين يرجع الكثير من إخفاقهما إلى وجود دولتين محميتين ، إحداهما تونس الواقعة بين طرابلس والجزائر ، والأخرى المغرب أو مراكش الواقعة فى الطرف الأقصى من المغرب الإسلامى ، فالصورة الدولية الشكلية التى بقيت لهاتين الدولتين كانت عاملا فعالا فى إحباط محاولات الإبادة والإدماج فى كل من الجزائر وليبيا المستعمرتين استعماراً مباشراً ، وبهذا كله يتضح السبب الرئيسى فى فناء معظم النزعات والمذاهب التى كان لها دعاة وأنصار فى المغرب الإسلامى ، والتى لم يبق منها إلا المذهبان الحنفى والمالكى اللذان يسودان الأغلبية الساحقة من سكانه ، ثم المذهب الإباضى من مذاهب المُحكِّمة الذى لا تزال من أنصاره بقايا تذكر بدولة بنى رستم الإباضية المذهب والتى قامت فى الجزائر الغربية قبيل منتصف القرن الثانى على أن هذه المذاهب على اختلافها استطاعت أن تحيا بعضها مع بعض فى وئام ، كما سنبينه فى الفصل الآتى إن شاء الله ؟

من الأدب الغربي

مولد عبقرية

للأستاذ الأديب مصطفى طه حبيب
السكرتير الفني لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

منذ أربعة قرون تنفس صبح الحياة فى بلدة من بلاد الريف الإنجليزى عن مولد فتى لأسرة تجرى فى الحياة جريان الأسر التى لا تنتمى إلى عراقة أصل يوفر لها من أسباب النعيم الموروث ما يدفعها فى خضم الحياة ثابتة القدم ، نائية عن التفكير فى مر أو حلو ، فالحياة لديها راتبة النعيم ، دانية القطوف ، ميالة الأعطاف ، لا تدعو إلى جد ، ولا تستثير همة ، ولا هى من الأسر المعروقة المكدودة ، التى لا تعرف من الحياة إلا الشظف فى العيش ، والخشونة فى المظهر ، والرقة فى الحال بل كانت أسرة متوسطة كثيرة الأولاد ، فلم يكن وليدها الجديد محل حفاوة ولا موضع اعتبار ، بل مر عابراً أو أقل من العابر كما تمر ملايين المواليد فى كل يوم ، وفى كل جيل ، وماذا يهم الناس من مولد غلام لرجل متوسط الحال أو لرجل غنى دهمته الأحداث وعفّت على ثروته ومجده خطوب الزمن التى لا ترحم .

هذا الغلام الذى ولد فى غير ضجة ، ولم تحط مولده مراسم ، ولا سبقته علامات أو إرهاصات ، أضحى اسمه فى فم الزمن عنوانا على المجد الخالد والعبقرية الفذة ، هذا الغلام هو وليم شكسبير ، شاعر الكون ، وسيد من كتب للمسرح على طول الزمن .

ولد وليم شكسبير فى الثالث والعشرين من شهر ابريل سنة ١٥٦٤ م فى قرية استراتفورد على نهر الإفون من قرى الريف الإنجليزى الجميل ، فتفتحت عينه على

الطبيعة فى أجلى مظاهرها تداعب أذنه شقشقة الطيور وأغاريد العصافير ، ويهز أعطافه خرير الماء ، يندفع فى موسيقا حلوة هادئة ، بين شاطىء نهر الإفون الجميل .

ذاق هذا الفتى مرارة العيش، وقسوة الزمن وهو بعد حدث لم ينضج ، فقر الألم فى نفسه ، واكتملت معانى الوجود فى حسه ، حتى إذا أرادت المقادير أن تلهب هذا الحس ، وأن تثير مكنون هذه العبقرية ، وجدت الشعلة الإلهية صدراً مليئاً لما أرادته له .

وفى العشرين من عمره فر وليم شكسبير من قريته إلى لندن العاصمة ، وقلب انجلترا النابض ، وهناك بزغ نجم هذا الفتى المغمور ، وسكن الدهر ليستمع لصوت هذا العابر الذى لم يحفل لمقدمه أحد ، ولا وعى تاريخ حياته الأول إنسان . علا نجم هذا الفتى ، وإذا هو بعد فترة غامضة ، قد تكون هى فترة التجربة شاعر مجيد ، يكتب فى الحب وللفن كتابات عاشت ، وستعيش على الزمن ، لأنها وحى الخلود ، ونتاج العبقرية ، عشرون عاما عاشها هذا الفتى عبداً لقلمه ، يكتب ويؤلف للمسرح قصصاً حياً رائعا يصف الحياة بما فيها من خير وشر ، ويحلل النفس الإنسانية تحليلا صادقا عميقاً هو الحق بعينه ، تقرؤه فتجد فيه صور الحياة كما تحسها أنت .

فأنت تقرأ فى كتاب شكسبير صور العظمة ونفاذ البصيرة وتقرأ فيه الوشاية والدس والحقد وكيف تعمل فى السيطرة على النفوس حتى تنقلب من الحب والإجلال إلى السخط والكراهية ، ترى ذلك مجسما فى قصة عطيل وكيف استطاع « إياجو » النمام أن يحبك أحابيله ، وأن يوقع فيها هذا البطل المدره والمارد الجبار « عطيل » فإذا هو قد هدته الغيرة ، وأعمت بصره وبصيرته فتأجج أتون الغضب فى صدره ، واشتعلت نار الحقد بين جوانحه فقتل زوجته وحبيبته التى ضحت بهناءتها من أجله فلما أتى فعلته ، وتبين إفك صاحبه ، انهار كيانه ، وتصدعت أركانه ، وتحطم بنيانه ، وأصبح لا شىء بعد أن كان كل شىء .

واستمع إلى شكسبير يصور الغيرة على لسان « إياجو » ، فيقول : حذار يا مولاى

من الغيرة ، فهي ذلك الوحش الضارى ذو العيون الخضراء ، الذى يسخر من فريسته ويثير فيها كل يوم ضروبا من الشك ويلهو بشجوها المتزايد .

وكما صور شكسبير الغيرة ، وكيف تفعل بالنفوس ، صور لنا الطمع والجشع وكيف يغلب على النفس الإنسانية الهادئه فيقلب أوضاعها ، ويصم آذانها ، ويحيل قلبها صخراً لايلين ، فتقدم على قتل ضيفها ، بعد أن سكن إليها ، وارتاح إلى صحبتها وأسلم إليها زمام أمره ، نرى ذلك فى قصة « مكبث » غدر وخيانة ما كانت لتصدر عن نفس هادئة مفكرة ، ولكنها عوامل الطمع والأثرة ، غالبة غلابة ، قاتلة قتالة دفعت بمكبث إلى الجريمة ، وهيأت له وسائلها ، وحاطته بالمغريات ، وحفزته بالدوافع ، ولم تدع له سبيلا لتدبر ، ولا طريقاً لتراجع . فقتل « دنكان » ضيفه طمعاً فى الملك . لقد كشف لنا شكسبير فى شخصية مكبث الجحيم الذى كانت تتدافع فيه نفسه بين الإحجام والإقدام ، حتى اندفعت فاحترقت . وغير هذه كثير يفيض بها كتاب شكسبير ، وليس هذا من عجب ، فإن شكسبير خلق لفنه دنيا بأسرها متعددة الأجواء ، مختلفة الأشخاص متلونة المظاهر تفيض بالحياة الخالصة ، وهو فى تنوعه وشموله لكل ما يمكن أن يخطر على البال وجوده بين البشر من الشخصيات قد بز الحقيقة الواقعة ، وأضحت الدنيا العريضة تكاد تكون خاوية بالنسبة إلى دنياه العامرة بكل حى مهما تنوع قبيله ، واختلفت صفاته ؟

من خطبة للامام على كرم الله وجهه

أيها الناس : احفظوا عنى خمساً ، فلو شددتم إليها المطايا حتى تنضوها لم تظفروا بمثلها : ألا لا يرجوَنَّ أحدكم إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحى أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم . فإذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، إلا وإن الخامسة هى الصبر . فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . من لا صبر له لا إيمان له ، ومن لا رأس له لا جسد له .



« دار التقريب » بمثابة جهاز إرسال واستقبال بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، عنها يصدر « صوت التقريب» وإليها يرجع ، وعلى هذه الصفحات من « رسالة الاسلام » فى كل عدد تسجيل الصدى (*)

نبدأ هنا بتسجيل أول صوت انبعث من « دار التقريب » وهو « بيان الجماعة إلى العالم الاسلامى » الذى أقرته فى أول جلسة عقدتها ؛ نسجله عهدا وتاريخا وذكرى وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله . وآله وصحبه ومن والاه .

أما بعد . فإن الدين الإسلامى دين واضح الأصول ، بيِّن المعالم لا تعقيد فيه ولا غموض ولا حرج ولا إعنات . أنزله الله على رسوله وخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم على حين فترة من الرسل، وضلالة من الناس ؛ واختلاف بالهوى وتنازع وتطاحن بالقوى فهدى الناس فى العقيدة إلى كلمة سواء هى كلمة الله التى بعث بها كل رسول ، وأنزل بها كل كتاب ، وبين لهم شريعة الحكمة والرحمة والصلاح .

(*) « دار التقريب » هى المركز العام للجماعة ، ومقر سكرتيريتها ومكتبتها الكبرى

وأساس هذا الدين هو القرآن الكريم والسنة المطهرة ، بهما تقررت عقائده وأصوله ، ومنهما استنبطت قواعده وأحكامه ، وإليهما يرجع المسلمون فى كل شأن من شئون دينهم ودنياهم .

تلقى المسلمون الأولون هذا الدين كما أنزله الله ، والتفوا حوله يعتقدون عقيدته ، ويدرسون شريعته ، ويمضون على سنته وطريقته ، فما كان من نص ظاهر واضح فى دلالته . قاطع فى معناه ، اجتمعوا عليه ، ونزلوا على حكمه متوافقين ، وما كان محل نظر وتأمل أعملوا فيه عقولهم واجتهدوا فيه بقدر وسعهم فى دائرة الأصول التشريعية ، والمقاصد التى أرشد إليها كتاب الله وسنة رسوله . فإذا شجر بينهم خلاف عالجوه بالحجة والإقناع ، ولم يتجاوزوا به دائرة العلم والبحث ولم يسمحوا له — مهما تباعدت وجهات النظر فيه — أن يقطع ما بينهم من الأواصر أو يفسد ما أصلحه الله من القلوب ، بل كانوا يتبادلون الثقة والمحبة والاحترام ، وربما سأل بعضهم بعضاً عن دليله أو مدركه على ما يقول ؛ فإذا لقنه واستراح إليه سارع إلى إعلان قبوله والرضى عنه غير مستكبر على الحق ، ولا متعنت فى الخطاب .

هكذا كان شأن الأمة الإسلامية فى أولها ثم عدت عليها بعد ذلك عوادٍ جعلتها تتفرق فرقاً وتنقسم طوائف وشيعاً وابتدأت هذه الانقسامات بأواخر عهد الراشدين ثم ما زالت السياسة والحرب الأهلية تغذيها وتنفخ فى نارها حتى تمخضت البلاد الإسلامية عن فرق شتى ، وتشعبت كل فرقة إلى شعب وكان هذا هو الأساس الأول لما عاناه وما يزال يعانيه المسلمون إلى الآن ، من تفرق وتنازع وتقاطع وتدابر .

وقد كانت المساجد والجامع والمجالس أندية رأى ونقاش وجدل ، ذهبوا فيها مع الحرية الفكرية والنشاط العقلى إلى مدى بعيد جعلهم يخوضون حتى فيما نهوا عن الخوض فيه من البحوث العقيمة ، والمسائل التى لا تتصل بها فوائد علمية ، وساعد على اتساع دائرة هذا الجدل امتزاج الثقافات المختلفة والعلوم الجديدة التى جاءتهم من الأمم الأخرى حين دخل الناس فى دين الله أفواجا من كل جنس ولون حاملين معهم قضايا تفكيرهم وأساليب منطقهم وجدالهم .

ولم تقف الخلافات والآراء عند دائرة المعارف الفكرية الكلامية ، بل شملت الفقه والأحكام التشريعية المستنبطة ، غير أنها لم تكن فى هذه الناحية الأخيرة عنيفة ولا مشتطة ، وإنما كانت تجرى فى هدوء وسكينة ووقار ، لا يسيطر عليها إلا العلم والحجة والبرهان ، وذلك فى عهد الأئمة المجتهدين ، ومن بعدهم من تلاميذهم الذين أشربوا مبادئهم ، وساروا على سنتهم ، فلم نعرف أن أحداً منهم رمى غيره بالخروج على الشريعة ، أو المروق من الدين لخلاف بينه وبينه ، ولم نعرف أحداً زعم لنفسه أنه هو وحده صاحب الرأى المقدس فى الشريعة ، أو فكر فى حمل الناس على ما يراه ، بل كلهم ورد عنه مايدل على أنه مجتهد قد أتى بما وسعه أن يأتى به ، ويحتمل أن يكون مصيبا وأن يكون مخطئاً ، وأن العمدة فى ذلك كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وما ارتضاه المسلمون من قواعد الشريعة وأصولها العامة ، وها هو ذا مالك رضى الله عنه يصرف أبا جعفر المنصور عما همَّ به من حمل الناس على « الموطأ » ذاكراً له أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تفرقوا فى الأمصار ، وعند كل منهم علم ، وليس من الرأى أن يحمل الناس على كتاب ما إلا كتاب الله .

هكذا كانت ريح الفقه تجرى رخاء ، ولذلك نما وزكا ، وأينعت ثمراته ، ودنت قطوفه ، ووفىَّ أعظم التوفية بحاجات المسلمين أمة ودولة وأفرادا ، وحفظ به التاريخ أعظم تراث فكرى فى الأحكام التشريعية والمبادىء الإصلاحية التى تقوم عليها الأمم .

ولذلك أيضاً استطاع الفقه الاسلامى أن يقف عالى الرأس عزيزاً كريماً فلم يغزه يومئذ فقه فارسى ولا فقه رومانى ولا فقه يونانى ، على كثرة ما دخل بلاد المسلمين من علوم هذه الأمم وثقافاتهم ، وعلى ماعهد فى المسلمين من ترحيب بالنافع من هذه العلوم والثقافات ، وتلقيه بسماحة وحسن قبول .

ثم جاءت بعد ذلك طبقات من المقلدين والمتعصبين للمذاهب ، كلَّت هممهم عن حمل ما كان يحمله سلفهم من العلم والنظر ، وصادف ذلك عهود الضعف السياسى

وانقسام الأمة الإسلامية إلى دويلات صغيرة لا تربطها رابطة ، ولا تجمعها جامعة ، ومن شأن الضعف السياسي — إذا أصيبت به أمة — أن يخيل إلى أبنائها أنهم أقل من سواهم قوة ، وعلما ، وتفكيرا ، وأن تركد معه ريح العلم ويفتر نشاط العلماء .

بهذا وبغيره تأثر أكثر المشتغلين بالفقه ؛ فحكموا على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم فى زمانهم بأنهم ليسوا أهلا للنظر والاستنباط ، ولا لفهم كتاب الله وسنة رسوله ؛ ومن ثم حكموا بإغلاق باب الاجتهاد ، وترتب على ذلك أن وقف الفقه وجمد ، وأن تعصب كل منهم لرأى إمام وزعم أنه الحق ، وأن ما سواه باطل ، وأسرفوا فى ذلك إسرافا بعيداً حتى كان منهم من لا يصلى وراء إمام يخالفه فى مذهبه ومن لا يزوج ابنته لفلان ، أو يتردد فى أكل ذبيحة فلان ، أو فى قبول قضاء فلان ، لمجرد أنه يخالفه فى المذهب ، ثم حصروا الأئمة الذين أوجبوا اتباعهم فى عدد معين ، وهكذا ضاق أفق الأتباع والأشياع عما اتسع له أفق المتبوعين ، وضاقت بهم دائرة الفقه الإسلامى ، وركدت ريحه ، وصوَّح نباته ، وقلت ثمراته ؛ وكان من آثار ذلك أن خرج كثير من البلاد الإسلامية عن هذا الفقة عامة ، والتمسوا فقها آخر فى هذه القوانين الوضعية يحكمون به ، ويجعلونه نظامهم فى القضاء والتشريع والمعاملات ، التمسوا فقهاً لم يتقيد بهذه القيود الطارئة ، ولم يحد بهذه الحدود المصنوعة ؛ ومن ثم رأينا القذى فى العيون ، والشجى فى الحلوق حين رأينا أمم الإسلام تحكم فى بلادها بغير فقه الإسلام ومنهاج الإسلام .

ولكنا قد استطعنا فى عهدنا الحاضر — ونرجو أن يكون ذلك أولى الخطا فى سبيل العودة إلى مجدنا الفقهى التشريعى — استطعنا أن نتخلص إلى حد بعيد من آثار هذه العصبيات التى تنكرها الشريعة ، ولا يعرفها الأئمة المجتهدون أنفسهم وأن يسير بعضنا مع بعض على وفاق ، فلم نعد نسمع خلافا يؤدى إلى تضارب أو تقاذف أو تراشق بالتهم بين حنفى وشافعى مثلا ، وها هو ذا الأزهر الشريف أكبر جامعة إسلامية يدرس فيه فقه المذاهب الإسلامية الأربعة ، ونرجو ألا يكون

هناك من يمنع أو ما يمنع من دراسة غيرها من مذاهب المسلمين إذا تهيأت له أسباب هذه الدراسة ، وإن كلية الشريعة لتدرس فى العهد الحاضر إلى جانب الدراسات المذهبية دراسات فقهية مقارنة لا تتقيد فيها بالمذاهب الأربعة ، ومما يبشر بالخير أن الأساتذة والطلاب يتلقون هذه الدراسات المقارنة بإقبال وشغف ، وبروح من السماحة ، ورفض العصبية المذهبية غير ناظرين إلا إلى الدليل ولا باحثين إلا عن الحق .

إذن قد انتهت هذه المشكلة أو كادت ، ولم يعد لها خطرها ، ولا ضررها ، ولعلنا نشهد فى القريب العاجل إن شاء الله مذاهب إسلامية أخرى يدرس فقهها فى الأزهر كما يدرس فقه المذاهب الأربعة ، ويومئذ يحق لنا أن نستوفى جهات الفخر برجوع الفقه الإسلامى إلى مجده الأول يوم كانت الآراء المحتكة ، والحجج المتقابلة ، والأدلة ، ووجهات النظر هى مادته وغذاءه ، وعمدته فى التنوير الفكرى والوصول إلى الحق ، لا قول فلان ولا رأى فلان .

إننا لنستبشر خيراً بهذا ، وقد قارنه فى نفس العهد إحساس المسلمين بأنه لا ينبغى أن يحكموا بغير شريعتهم ، وتلك هى الصيحات ترتفع عالية من كل جانب ينادى بها المشتغلون بالفقه الإسلامى والمشتغلون بغيره من رجال القانون والقضاء والتشريع أن عودوا إلى فقهكم فإنه عنوان مجدكم وعزكم ، وقد أعترف بقيمة هذا الفقه وعظيم صلاحيته مؤتمر دولى عقد فى مدينة لاهاى سنة ١٩٣٧ م . حضره ممثلون للأزهر الشريف والحكومة المصرية ، وما كان هذا كله ـ علم الله ـ إلا لأننا نبذنا التعصب فتجلى لنا ما فى شريعتنا وفقهنا من روعة وجلال ، ومن قدرة على مسايرة أرقى أنواع الحضارات والمدنيات . هـــذا هو تاريخ الخلاف فى الفقه والتشريع . بدأ خلافاً علمياً مهذباً ، فكان بركة وفتحاً مبينا ، ثم تطور إلى عصبية مذهبية عمياء ، فكان جموداً وركوداً ، وكان سببا فى انسلاخ كثير من الشعوب الإسلامية من تشريعها ، ثم أخذ يعود إلى هدوئه وسنته الأولى ، فاستروحنا منه

روح النهضة والتجدد، وابتدأنا نلتفت إليه، ونستعز به، وننادى بأنه فكرتنا ومنهاجنا فى الحياة .

هكذا كان شأن الفقه، فماذا كان شأننا فى غير هذه الدائرة؟ ما ذا كان شأننا فى المعارف الفكرية والقضايا التى أثارها الخلاف الطائفى والكلامى؟

لقد بكرت هذه الخلافات على المسلمين منذ أول الأمر كما قلنا، وكانت عنيفة حادة، وكانت فى نفس الوقت متلونة بألوان مختلفة تبعاً لما كان يمدها من السياسة والأهواء، ولما كان يغذيها من الثقافات المختلفة، وظلت هكذا تتزايد وتقوى وتتسع آفاقها، ويتفاقم شرها، حتى أصبح المسلمون فرقاً شتى وطوائف مبعثرة، بل أصبحت الأمة الواحدة متشعبة إلى فرق، والفرقة الواحدة متشعبة إلى شعب، وكلهم متقاطعون متدابرون، ينظر بعضهم إلى بعض كأنهم أرباب أديان مختلفة، فلا تعاون ولا تزاوج ولا تبادل للأفكار، كل طائفة عاكفة على ما عندها، متعصبة له، نافرة عما سواه تعتقد أنها على الحق، وأن سواها على الباطل، وإذا تقاربت منها طائفتان أو أكثر فى بلاد واحدة احتك بعضها ببعض وهاج بعضها على بعض، وكثيراً ما أفضى ذلك إلى سفك الدماء، وتخريب البيوت، وعداوات الأسر والطوائف مما نشهده بأعيننا، ونسمعه بآذاننا فى الحين بعد الحين .

وساعد على ذلك المستعمرون الذين يهمهم أن تتقطع أسباب المودة، وعوامل الائتلاف بين المسلمين ليسودوا عليهم فى بلادهم، وليكونوا هم قبلة المختلفين، والحكم الأعلى بين المتنازعين، وهكذا طاوع المسلمون هذه الأساليب الاستعمارية الماكرة، فزادوا من حدة الخلاف بينهم، وتراموا بالكفر والفسوق والزندقة والخروج على الدين، وأمثال تلك الاتهامات الطائشة التى أرثت بينهم العداوة والبغضاء، وزرعت فى قلوبهم الحقد والضغينة وسوء الظن، وبذلك ساعدوا على أنفسهم، ومكنوا لأعدائهم من رقابهم وأوصالهم .

حدث هذا كله، وما زال يحدث، مع أن هذه الخلافات عند كثير من طوائف المسلمين وفرقهم لا ترجع إلى أصول الدين، ولا تمس العقائد التى أوجب الله

الإيمان بها ، والتى يعد الخروج عنها خروجا عن الدين . ومن الممكن — إذا وجدت هذه الفرق من يقرب بينها ، ويدرس أسباب خلافاتها — أن تعرض هذه الخلافات عرضاً هادئاً ، دون تأثيرات خارجية ولا تعصبية ، فيتبين الحق فيها ، ويزول كثير من أسباب الجفوة والقطيعة بين أرباب الدين الواحد ، والنبي الواحد والكتاب الواحد .

من الممكن أن يتقارب المسلمون فيعلموا أن هناك فرْقا بين العقيدة التى يجب الإيمان بها ، وبين المعارف الفكرية التى تختلف فيها الآراء دون أن تمس العقيدة ، ويومئذ يهون الأمر ، فنجمع على ما نجمع عليه، وإذا اختلفنا لم يكن خلافنا إلا كما يختلف أهل المذاهب الفقهية دون خصام ولا اتهام ، ودون توجس واسترابة وسوء ظن ، مما يجعلنا متقاطعين فى معاملاتنا ، ومصاهراتنا ، وثقافاتنا .

يومئذ يعود المسلمون كما كانوا أمة واحدة ، دينها الإسلام ، وكتابها القرآن ، ورسولها محمد عليه الصلاة والسلام ، تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتتقبل الكلام فيما وراء ذلك على أنه آراء يدلى كل بما يراه منها ، دون أن تسيء إلى وحدة المسلمين ، أو تكون عاملا من عوامل فرقتهم وضعفهم .

كان هذا ممكناً ، وما زال ممكناً ، ولا سيما بعد أن اتسع نطاق العقول ، وانتشر لواء العلم خفاقا ، وأحس المسلمون بضرر ما هم عليه من التفرق والتطاحن . وبأن هذه الخلافات قد احتسبت خلافات متصلة بأصل الدين وأساس العقيدة ، واتخذت لذلك علامة عند أعداء الاسلام على أن هذا الدين لا يستطيع النهوض بأمة تريد أن تنهض وأن تتخذ لها مكانة بين الأمم .

لقد كان من نتائج هذا الاضطراب فى الأفكار والمعارف الدينية ، وتكفير كل طائفة للأخرى أو اعتدادها بآرائها على أنها هي الحق وما سواها هو الباطل ، وأن من خرج على هذه الآراء ، فقد خرج على شيء مقدس ومرق أو تزندق أو تطرف . كان من آثار ذلك مثل ما كان من آثار الركود الفقهي حين خرجت

الأمة الاسلامية عن فقهها إلى ما سواه ، ذلك أن كثيراً من الشباب يخرجون على هذا التراث الفكرى عامة ، ويجنبون أنفسهم مشقاته وأهواله ، ويبتعدون عن أخطاره ومزالقه ومغبة البحث فيه حذراً أن يضلوا فى مجاهله ، أو يصيبهم رشاش من التكفير أو التفسيق ، فتراهم يتجاوزون هذه الثقافات الفكرية الاسلامية ، غير مميزين بين غثها وسمينها إلى غذاء على آخر لأرواحهم وعقولهم فى المعارف الفكرية الأجنبية ، يتلقفونها من علماء الغرب ومفكريه ومستشرقيه والمأخوذين به ، ويعتقدونها هى العلم الصحيح ، والغذاء المفيد ، والآراء الصالحة للحياة .

ولقد رأينا هذه النزعة الخطيرة تستولى على شبابنا وكثير من مفكرينا ، وتتغلغل فى أعماق نفوسهم ، وتسيطر على أفكارهم وعقولهم ، وتعمل عملها دون أن يشعروا أو تشعر الأمة بما لها من إيحاءات خفية ، وضرر يسرى كالسم الزعاف فى أناة ومثابرة حتى يُهلك أو يقارب ، ومن شأن هؤلاء أن يهون عليهم تاريخهم ، وتصغر فى أعينهم ثقافتهم ، بل أن يصبح دينهم غير عزيز عليهم ، ولا أثير لديهم ، وربما مقتوه ، وفروا منه ، وتباهوا بأنهم علَوْا عنه ، وارتفعوا بأنفسهم عن مستواه .

هذه بعض أخطار التفرق الذى منى به المسلمون ، أضعفتهم وأطمعت فيهم أعداءهم ، بل سلطت عليهم هؤلاء الأعداء يسومونهم الخسف والذل وسوء العذاب وهونت من شأن ثقافاتهم ودينهم ، وجعلت العزة والسلطان لغيرهم ، وإنما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

من الممكن أن تتلافى هذة الأخطار ، وأن يجنب المسلمون شرها وضررها إذا تعاونت القلوب وتآزرت الجهود ، ونُسيت العصبيات ، ورجعنا جميعا إلى الحق ننشده مخلصين .

إن حوالى أربعمائة مليون من المسلمين منبثين فى بلاد الله شرقا وغربا ، لم يؤتوا من قلة ، ولم يؤتوا من فقر فى عقولهم ، أو فى بلادهم ، أو فى استعدادهم ، أو فى ثرواتهم الطبيعية ، ولقد شهد التاريخ كيف كانوا أقل من ذلك عددا ، وأقل

من ذلك مالا وثروة وخصبا ، ومع ذلك سادوا وشادوا ، ولفتوا إلى علومهم وأفكارهم ومدنيتهم أهل الزمان !.

فالمسألة إذن إنما ترجع إلى هذا التفرق والتقاطع ، إلى هذا الفقر الطارىء على النفوس والهمم والعزائم ، وقد تنبه إلى ذلك كثير من أهل العلم والفكر من المسلمين فى عهود مختلفة ، وكانت صيحاتهم تنبعث فى الحين بعد الحين ، عالية طورا وطورا خافتة ، ينادون أمتهم أن تنبهى إلى هذا المرض الخطير ، وإلا قضى عليك القضاء الأخير .

ولكن هذا كله — مع شديد الأسف — لم يتجاوز حدود الأمل الذى يساور النفوس . أو القول الذى تجرى به الألسنة والشفاه ، ولم تتخذ خطوات عملية مثمرة لتنفيذه حتى كاد الناس ييأسون من شفاء هذه الأمة . ويتوجسون أن يدركها بسبب هذا الداء الوبيل موت نهائى بعد أن ألحت عليها العلة حتى أضعفتها وبرتها !

ولكن الله — جلت حكمته — أرحم من أن يترك الأمة المحمدية لهذا المصير الفاجع ، وهى خير أمة أخرجت للناس ، نعم إنها أساءت إلى نفسها ، وخرجت عن دائرة دينها ، وغيرت وبدلت وأعرضت ، إلا أنها ما تزال أمة القرآن ، وأمة خير الأنبياء عليهم السلام ، وإن القرآن الذى أنقذ المسلمين وأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، وجمع بينهم ، وألف بين قلوبهم ، وقد كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها ، وجعلهم سادة العالم وقادته ، لهو جدير بأن ينقذهم مرة أخرى ، وبأن يرفعهم من وهدة خلافهم وتطاحنهم ، وقد أنبأنا الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام بأنه ما تزال طائفة أو طوائف من أمته على الحق لا يضرهم من خرج عنهم إلى يوم القيامة ، وأن الله يبعث فى الحين بعد الحين إلى هذه الأمة من يجددها ويسددها ويهديها بفضله إلى سواء السبيل .

لعلنا نلمح نور هذا الفجر المنتظر يشع على العالم الاسلامى ، لعلنا ننتظر هذا التجديد الموعود به فى هذا العصر الذى تنبه فيه الغافلون ، واستيقظ النائمون ،

لعلنا نلتمس أن تبزغ هذه الشمس فى مصر والعالم الإسلامى بعد أن طال احتجابها عن المسلمين .

نقول ذلك ونحن نقدم جماعتنا هذه ـ جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ إلى العالم الإسلامى الذى رزح تحت أثقال التفرق أجيالا بعد أجيال ، وقرونا تطاول عليها الأمد ، فنبشر المسلمين بعهد جديد نرجو أن يكون بدءاً لانقشاع سحب الخلاف من جوهم ، ونرجو أن تكون الخطوات فيه إلى هذا الغرض الشريف سريعة موفقة إن شاء الله .

وقد ألفت هذه الجماعة فى مصر حاضرة الإسلام ، وملتقى أفكار المسلمين ونهضاتهم ، ومشرق شمس الأزهر الشريف ، تلك الجامعة العلمية الاسلامية التى تهوى إليها أفئدة من الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، على أن تكون لها فيما بعد فروع فى شتى البلاد ، ومختلف البقاع ، تسير على نهجها ، وتخدم فكرتها ، وتعاون على جمع كلمة المسلمين بكل ما تستطيع من أنواع المعاونة .

وإننا ـــ حين نعلن فى العالم الاســـلامى نبأ تأليف هذه الجماعة ذات الغرض الأسمى ـــ لنرجو من كل مسلم أن يتقبلها بقبول حسن ، وأن يضم جهده إلى جهود أعضائها ، وأن يبث فكرتها ويعمل على تحقيق غايتها ، نرجو ذلك من كل أمة وطائفة وجماعة وفرد ، ونرجوه من كل من يؤمن بالقرآن ، ويعتقد برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه .

على بركة الله إذن تتقدم هذه الجماعة إلى العالم الاسلامى ، وتعلن بادىء الأمر أنها ذات أغراض دينية اجتماعية فقط ، كما جاء فى قانونها الأساسى ، ذلك القانون الذى اتفق عليه أعضاؤها المؤسسون ، وهو العهد بيننا وبين المسلمين ، فى ظل الاسلام ، وتحت راية القرآن ، نستعين الله على الوفاء به ، والنهوض بتبعاته « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » . « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

فى الحجاز

١ — اتصل بدار التقريب بعض الحجازيين ، طالباً مزيداً من الإيضاح عن مهمة الجماعة ، وهل تتناول إدماج المذاهب الإسلامية بعضها فى بعض كما يتساءل عنه كثير من أهل العلم فى الحجاز ؟

وخير ما نجيب به عن هذا السؤال ، هو أن ننشر ما كتبناه بهذا الشأن إلى حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وهذا نصه بعد الديباجة :

إن قانون جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية وبيانها يوضحان البواعث التى دعت إلى تكوين هذه الجماعة ، والآمال التى يرجى أن تتحقق على يديها للمسلمين جميعاً إن شاء الله ، ومع هذا نحب أن نبين فى كتابنا هذا إلى جلالتكم بعض الحقائق التى يفيد بيانها فى تحديد غايتنا وأهدافنا :

١ — أن « جماعة التقريب » لا تريد المساس بالفقه الإسلامى ، ولا إدماج مذاهبه بعضها فى بعض ، بل هى على النقيض من ذلك ، ترى فى هذا الاختلاف الفقهى مفخرة للمسلمين ، لأنه دليل على خصوبة فى التفكير ، وسعة فى الأفق ، واستيفاء وحسن تقدير للصالح التى ما أنزل الله شريعته إلا لكفالتها وصونها ، وكل ما تبذله الجماعة من جهود فى سبيل الفقه الإسلامى ، إنما هو فى دائرة خدمته وتنميته وتسليط نوره الوهاج على شئون الحياة الإسلامية كلها ، وبحث المشكلات التى جدت وتجد ولم يتضح للناس حكم الله فيها .

٢ — ولن تمد الجماعة يدها إلا لأرباب المذاهب الإسلامية التى تعتقد العقائد الصحيحة التى يجب الإيمان بها .

٣ — وهى ترى أن بعض المنتسبين إلى المذاهب الإسلامية يجعلون لبعض المعارف والآراء التى لا صلة لها بالعقائد الصحيحة أهمية طاغية تدفعهم إلى التخاصم والتقاطع والتنابز بالألقاب ، ونسيان ما جمع الله عليه القلوب ، وألف به بين المسلمين وترى أن أعداء الاسلام والطامعين فى استعمار بلاده وإذلال أهله ، يتخذون

من هذه الخلافات أبوابا يلجون منها إلى مقاصدهم الباغية ، ويعملون كل ما فى استطاعتهم على أذكاء نيرانها ليضربوا بعض المسلمين ببعض ثم يضربوهم جميعا .

٤ — وتؤمن إيماناً عميقاً بأن من أهم الواجبات الدينية على كل ذى علم ورأى فى شعوب المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم الإسلامية ، العمل على تبصير المسلمين بدينهم ، وقطع أسباب الخلاف والتفرقة بينهم ببيان ما هو عقيدة يجب الإيمان بها ، وما هو معارف لا يضر الخلاف فيها ، وأن من بين هذه المعارف ما يظن أنه من العقائد وهو ليس منها .

٥ — فالغرض من تأليف « جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية » هو : أن تكون مركزاً إسلامياً لهذه الفكرة ، تتركز فيه جهود جميع المقتنعين بها فى أنحاء العالم شرقيه وغربيه ، وتتجاوب لديه أصواتهم وأبحاثهم وآراؤهم فى رفق وحسن تقبل ، فيتهيؤ لها جو من البحث العلمى الخالص على ضوء القواعد الإسلامية الصحيحة ، وحينئذ تنجلى أمام المسلمين أسباب الاختلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام التشريعية فيعالجونها ، ويصلون فى المسائل والنظريات الخلافية نفسها إلى الرأى الصحيح الذى يهدى إليه المطق والدليل ، فإذا بقى بعد ذلك ما لم تجتمع عليه القلوب أو تقطع به البراهين ، كان أمره بعد ذلك هيناً لا ينبغى أن يفضى إلى التقاطع والتناكر والتقاذف ، وإنما هو الخلاف فى الفقه والفروع يعذر العلماء فيه بعضهم بعضاً ويتبادلون الاحترام والمودة والتعاون كما هو شأن المؤمنين .

☆ ☆ ☆

ب — كان من نشاط « دار التقريب » أنها نشرت فى موسم الحج جدولا مفصلا عن أحكام الحج على المذاهب المتعددة « الحنفى ، والمالكى ، والشافعى ، والحنبلى ، والإمامى ، والزيدى » وقد راج هذا الجدول فى البلاد المقدسة رواجا عظيما ، ولفت أنظار كثير من المسلمين . إلى أن آراء فقهائهم فى فروع عباداتهم ليست من التباعد والخلاف بحيث توجد الخصومة والفرقة والتباغض فيما بينهم .

☆ ☆ ☆

فى تركيا:

تبادلت « جماعة التقريب » مع كثير من علماء تركيا ومفكريهم رسالات هامة تتضمن أفكاراً عن بعض المسائل الإسلامية ، وفى مقدمتها مسألة التقريب ، واهتمت بذلك الصحافة التركية بدورها ، وقد كتب إلينا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حمدى الأعظمى عميد كلية الشريعة ببغداد بعد رجوعه من رحلة إلى تركيا كتابا جاء فيه :

« انتهزت فرصة وجودى فى الآستانة ، فأخبرت الأصدقاء هناك ، وجلُّهم من أرباب الفكر وأهل الرأى ، وفيهم العالم والمؤرخ والصحافى بما أقدمتم عليه ، وسعيتم من أجله ، فاستبشروا كثيرا بخبر إنشاء دار التقريب ، وأظهروا ترحيبا كبيرا بالفكرة ودعوة لها ، حتى أن الأستاذ أشرف أديب ، وهو صاحب مجلة (ترك إسلام انسكلوبيد يا سى) ومحرر جريدة (سبيل الرشاد) وهو من أفاضل رجال وأساطين النهضة الدينية هناك رجا أن أكتب فى مجلته بحثا عن دار التقريب فنشرت مقالا مفصلا كان له على قصر فى الباع ، وعجز فى اليراع . دوىٌّ استحسان كبير ، وإعجاب وتقدير لما تهدف إليه الدار المؤسسة على التقوى والخير والاتحاد إن شاء الله تعالى » .

وقد اتصلت « دار التقريب » بأحد مراسليها فى تركيا طالبة منه موافاتها بأصل المقال المشار إليه . ويسرنا أن نوافى القراء بهذا المقال تقديرا لكاتبه ، وللمجلة التى نشرته والبيئة التى اهتمت به :

« إذا كان هناك اختلاف فى الفروع والمعاملات ، وأحيانا فى بعض المسائل الأصولية بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو التابعين ، فما كانت أبدا هذه الخلافات بالتى توجب الخصومة والقطيعة بينهم ، بل إنهم كانوا يراجعون كتاب الله والأحاديث النبوية ، ويحكمونها فيما بينهم ، ونرى خلافاتهم فى أكثر الأحيان ترمى إلى التيسير فى الأحكام الشرعية .

وبعد توسع الفتح الإسلامى رأينا أعداء الإسلام يتدخلون فيما بين المسلمين

ليحرضوا كل طائفة على غيرها ويستفيدوا من الاختلافات الفكرية بين المسلمين ، ويبذروا بذور النفاق والخصومة .

وبهذا ساقوا المسلمين إلى الضلال ، وجعلوهم فيما بينهم ألد الخصوم ، ومن جهة أخرى تدخلت بعض الأغراض السياسية وسارت على قاعدة (فرق تسد) والتفرقة بين المذاهب والفرق الإسلامية فأوجدت هوة كبيرة ، وسببت النفور والقطيعة ، واشتدت المجادلات والمحاورات ، ولم تقف عند حد علمى أو إقناعي بل تعدت ذلك إلى الشتم والسب والتقاذف بالتهم ، حتى انتهى الأمر إلى الاشتباك بالسيوف ، وعلى أثر ذلك ضعف المسلمون ، ومع أن معبودهم واحد وكتابهم واحد ورسولهم واحد وقبلتهم واحدة ، تفرقوا وذهبت ريحهم ، وكسرت شوكتهم ، وضاعت قدرتهم ، وبدل أن يدخلوا العالم تحت لواء التوحيد والهداية الاسلامية رجعوا القهقرى وخسروا نفوذهم وسلطانهم .

هذا الوضع المؤلم المفجع دفع بعض علماء المسلمين ومفكريهم إلى التفكير فى القضاء على هذه التفرقة ، والتثبت بالعمل لعلاج هذه الحالة ، لكنهم وجدوا أن الخصوم جعلوا هذه الحفر بالفرقة بين المذاهب عميقة إلى حد لا يسهل معه التغلب عليها ، والوصل بين المسلمين .

ومنذ خمسة وثلاثين عاما فكر بعض علماء أهل السنة ومجتهدى الشيعة فى العراق فى الاتحاد والاتفاق للقضاء على الاختلافات ، وتوسلوا إلى ذلك بالمواعظ والنشرات ولكن ذلك للأسف صادف وقت الحرب العالمية الأولى وفيها استشهد بعضهم مما جر إلى تعطيل العمل ، أما فى هذه المرة فقد تكونت فى مصر جماعة من كبار علماء المذاهب الستة ومفكريهم ليقضوا على الخصومات والفرقة ونظروا إلى ذلك الأمر نظرة جدية على أساس قويم يبشر بنتائج عظيمة .

حين كنت بالعراق وصلنى من العالم الكبير والمفكر الإسلامى العظيم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد سليم كتاب ينبىء أن هذه الجماعة ألفت فى مصر وأذاعت على العالم الإسلامى بياناً ووزعت على المسلمين قانونها الأساسى

ومن واجب كل مسلم أن يعضد هذه الجماعة ويؤيدها لتصل إلى مقاصدها السامية ».

وبعد أن ذكر الأستاذ أسماء أعضاء الجماعة ومذاهبهم الدينية التى تشمل الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة والإمامية والزيدية ، ذكر أن أهل العراق بصدد تكوين فرع لهذه الجماعة هناك ، وأن النشاط والهمة فى ذلك مبذولان ، ثم ختم مقاله بقوله :

« نرجو أن يتقبل العالم الإسلامى فى كل الممالك أفكار هذه الجماعة تقبلا حسنا ، وألا يدخروا وسعاً فى نصرتها . إن السعى والعمل علينا . والتوفيق والنصر من عند الله تعالى ».

فى إيران :

وهذه مقتطفات مما ورد إلى دار التقريب بأقلام أصحاب الفضيلة والسماحة كبار علماء إيران ، نرتبها فى النشر بحسب تاريخ ورودها :

« لقد تسلمنا بيد التكريم قانونكم الأساسى الكريم ، فكان - والحق يقال - برداً وسلاماً على ابراهيم وآل ابراهيم ، وهذا قصارى ما كنا نتمناه من البارى عز اسمه ، أن يقيض الله للعالم الإسلامى رجالا غيارى يدركون ما آل إليه أمر المسلمين من التفكك والانقسام ، ، وما هم عليه من التفرقة وعدم الوئام ، فيقومون بالواجب الملقى على عاتقهم خير قيام ، فالمسلمون اليوم نيام ، فهل من مستيقظ ؟ « لبيك اللهم لبيك » جهاداً فى سبيلك ، وتوكلا عليك »؟

الحاج شيخ اسماعيل نجفى — أصفهان

* * *

« لا أجد عبارة تعرب عن سرورى وابتهاجى بتشكيل تلك الجمعية ، وسعيها وراء المقصد العالى الذى هو السبب الوحيد لإعادة مجدنا الأول ، ونجاتنا مما أصبحنا فيه ، فحسبى أن أسأل الله التوفيق وتحقيق الآمال »؟

سيد صدر الدين صدر - قُم

« نحن معجبون بطريقتكم المثلى ، وروبتكم المرغوبة الحسنى ، ومعاونون لكم فى فكرتكم السامية ، ومظاهرون إن شاء الله إياكم فى أداء رسالتكم الإسلامية ، ونسأل الله أن يثبتنا وأياكم بالقول الثابت ، ويمن علينا وعليكم بالتأييد والنصر »

محمد تقى الموسوى الخوانسارى - قُم

[وقد جاءنا كثير من الرسائل غير هذا من كبار العلماء هناك ، وموعدنا بنشره الأعداد القادمة إن شاء الله]

فى الباكستان :

بين « الباكستان » و « جماعة التقريب » صلة وثيقة ، فقد تقاربا حتى فى الوجود والنشأة ، فبينما كانت دولة الباكستان على أهبة الظهور فى المحيط الدولى ، كانت « جماعة التقريب » تتكون ثم تظهر فى المحيط الإسلامى ، وقد اشترك أهل الفكر والرأى فى الهند قبل التقسيم فى مشاورات التقريب عن طريق المراسلة ، بل اشترك فيها بعض حضرات علمائها بحضور الجلسات الأولى ، حين كان قانونها الأساسى يدرس ، وبيانها الأول إلى العالم الإسلامى يوضع ، ولم تزل هذه الصلات الوثيقة تزداد قوة وتأكداً بعد نشأة « الباكستان » تحت قيادة زعيمها الأول المرحوم السيد محمد على جناح ، وتتبادل الرسائل والمشاورات بين التقريب وكبار أهلها ، وعلى رأسهم الزعيم المبرور ، حتى كانت الجلسة العامة التى عقدت بدار التقريب فى اليوم الثامن والعشرين من شهر المحرم سنة ١٣٦٨ ه ، وحضرها — بصفة خاصة رجال السفارة الباكستانية — فتقرر فى هذه الجلسة تفويض حضرة صاحب السعادة محمد على علوبه باشا رئيس الجماعة بمناسبة سفره إلى الباكستان فى عمل كل ما يراه لصالح الجماعة ، وتوثيق الصلات بينها وبين أهل باكستان ، ولاسيما إنشاء فرع للجماعة هناك ، وقد كان هذا القرار بالإجماع ، واقترن بترحيب كبير من الأعضاء ، ثم ورد إلى الجماعة بعد ذلك كتاب من الباكستان بتوقيع حضرة السيد المحترم الأستاذ عبد المنعم العدوى يبشر فيه « بأنه قد تأسس فرع للجماعة فى الباكستان ، وانضم إلى عضويتها كثير من الوجهاء والكبراء ، وأنهم

ينتظرون بفارغ الصبر وصول حضرة صاحب السعادة محمد على علوبه باشا رئيس الجماعة ليعرضوا على سعادته نتيجة ما تم فى ذلك ، ويستنيروا بآرائه القيمة فى استكمال الأمر على خير وجه » .

ويسر « رسالة الاسلام » أن تقل إليهم فى أول أعدادها تحيات الجماعة وتهنئاتها وأن تحي على وجه أخص سعادة الرئيس وهو بين ظهرانيهم ، والله معكم ولن يَتِرَكم أعمالكم ؟

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير
محمد محمد المدنى

مدير الإدارة
عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا ـ الزمالك ـ بالقاهرة

تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك للسنة		
فى البلاد العربية	:	خمسون قرشا مصريا
فى أمريكا	:	أربعة دولارات
فى البلاد الأخرى	:	ليرة انجليزية

فهـــرس

مطبعة احمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الأولى
العدد الثاني

جمادى الآخرة ١٣٦٨ هـ
أبريل ١٩٤٩ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
"قرآن كريم"

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

لاشك أن بلاد العالم الاسلامى تتمتع فى هذا العصر بقسط وافر من المدنية وألوان الحضارة ، وتتعلق من العلوم الحديثة بأسباب ربما جعلت بعض شعوبها فى طليعة الأمم فناً وصناعة وعلما .

ولاشك أن الوعى القومى ، والإدراك السياسى فى الشعوب الإسلامية قد صحا بعد غفوة طال عليها الأمد ، فاشرأبت الأعناق ، وارتفعت الرؤوس ، وامتدت العيون إلى أفق الحياة ترصد كوكب العزة والقوة والحرية أن يبزغ ، فيعود الإسلام سيرته الأولى ، ويراه العالم — كما كان ، وكما ينبغى أن يكون — دين السادة والقادة ، والأباة الأحرار .

ولو أن امرأ رجع إلى التاريخ القريب ليعرف حالة الأمة الإسلامية فى القرنين الماضيين ، لوجدها قد وصلت الى أدنى درجات الضعف والانحلال ، والجهل والتخبط ، والذل والاستعباد ، لا فرق فى ذلك بين النواحى السياسية والاجتماعية والعلمية والصناعية والصحية ، ولا فرق فى ذلك أيضاً بين شعب وشعب فى ربوع أفريقيا ، أو أنحاء آسيا ، أو أرجاء أوروبا ، أو حيث تردَّدُ كلمة التوحيد فى أصقاع الصين والملايو وإندونيسيا ، ولكن هذا الظلام قد بدأ ينجاب شيئاً فشيئاً منذ أواخر القرن الماضى ، حتى أصبحت العيون ترى ، والآذان تسمع ، والقلوب تدرك ، ولا سيما بعد هاتين الحربين الضروسين وما سبقهما أو توسط بينهما من حروب أخرى هزت العالم من بطاحه ورعانه ، وكانت للأمم بمثابة قوارع تصيبهم أو تحل قريبا من دارهم ، فتعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

نستطيع أن ندخل تحت هذا الحكم العام ـ حكم النهضة بعد الرقاد، والصحوة بعد الغفوة ـ كل ناحية من نواحى الأمة الإسلامية إلا ناحية واحدة، لا نحب أن نسرف فنقول إن الأمة رجعت فيها القهقرى، ولكننا نقتصد فنقول: إن حظها من النهوض والتقدم فيها جد ضئيل. تلك هى الناحية المتصلة بالدين علماً وعملا وأخلاقا وتشريعاً، واقتناعا وتحمسا.

هؤلاء شبابنا لا يدركون من شئون دينهم — إذا استثنينا بعض الخاصة والأزهريين فى مصر ومن اليهم فى البلاد الإسلامية الأخرى — إلا صورة باهتة حائلة عن بعض عقائده وتعاليمه ورثوها عن الآباء والأجداد كما يورث المتاع بالانتقال من مالك إلى مالك، ولم يدركوها عن تطلب وتحصيل واكتساب، ولذلك نراها مغمورة أو مطمورة فيما حولها من مذاهب وفلسفات وأفكار، فلا تكاد تبين. على أن النابهين من الخاصة لا يزعمون أنهم قد أوفَوْا بدراساتهم وتوجيهاتهم وقيادتهم الفكرية على ما ينتظرون ويُنتظر منهم، فما زال بينهم وبين هذه الغاية أشواط وأشواط.

وهذه هى المدارس العامة، والكليات الجامعية المدنية فى سائر البلاد الإسلامية تخب فى علوم الغرب وتضع، فتقدم الى الأمة أعلاما فى الطب والصناعة والفنون المختلفة، على حين تهمَل فيها الثقافة الإسلامية العليا إهمالا واضحا.

وتلك هى الكتب التى ورثناها عمن سبقنا ما تزال هى المسيطرة على تفكيرنا، الموجهة لعقولنا، لأننا لم نجد خيراً منها، بل لم نستطع أن نجارى أصحابها ونسامتهم فيما نحاول إخراجه للناس من تآليف أو بحوث، دون أن نعتمد عليهم، أو نتقيد بأساليبهم، فكان قصارى المفكر فينا، أو الباحث منا، أن يبسط علمهم، وينشر آراءهم، أو يولّد من كلامهم وأحكامهم، فاذا اختلفنا فى شىء كانت لهم الكلمة العليا، والقول الفصل، وفى ذلك دليل أىُّ دليل على هبوطنا عن مستواهم ـ وإن زعمنا لأنفسنا غير ذلك ـ حيث درنا على محورهم، وجعلنا لمقاييسهم وموازينهم الفكرية سلطان الحكم لنا أو علينا.

وهذه مواطن الحكم والتشريع والنظام والإدارة والاقتصاد ، جلُّها - إن لم نقل كلها - مقتبس مجلوب مستعار ، نلبسه ضيِّقا حيناً ، وحيناً فضفاضا ، ونحن فى غنى عنه بما قدَّ الله علينا من دثار ، وشعَّر لنا من شعار .

ثم أخلاق الإسلام ، وتقاليد الإسلام ، وامتلاء النفوس غيرة على الإسلام وحماسة للإسلام . أين نحن من ذلك اليوم ؟ لقد كان ذلك فيما مضى سياجا حصينا يعصمنا من التدهور الخلق ، والانحلال النفسى ، وكنا نؤمن إيمان الراسخين بأن لنا « مقوّمات » لو خرجنا عنها لخرجنا عن أنفسنا ، ولو فرطنا فيها لفرطنا فى وجودنا ، فلما طوّعتنا المدنية الحديثة تطوّعنا لها بأنفسنا ونسائنا وأبنائنا وتقاليدنا ومقوماتنا ، فصاغتنا خلقاً جديدا ، لتجعلنا أسواقا تجارية لسلعها ، وخدّاماً مخاصين لسياستها وأغراضها ، وميادين تتنافس عليها دولها ، ويطمع فيها كل طامع حتى نُفايات الأمم ، وشذّاذ الآفاق .

هذه حالتنا - معاشر أهل الإسلام - وهذا موقفنا من شريعة الإسلام ، وتراث الإسلام : حقيقةٌ يجب أن تُعلم وتذاق ، وإن كانت بَشِعة الطعم مُرَّةَ المذاق .

على أن الأمر لم يصل بنا إلى حد اليأس ، ومعاذ الله أن ييأس المؤمنون « إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون » .

فمن الممكن أن يتآزر المسلمون فى جميع شعوبهم وبلادهم على إصلاح هذه الناحية الأساسية فيهم ، وإن الفرصة لذلك لسانحة ، حيث تنبه المسلمون ، وتفتحت عيونهم على حالة العالم الآن ، وهو يتنقل بسبب إنكاره للقيم الروحية ، وإفراطه فى المادية ، من فشل الى فشل ، ويرزح تحت أثقال حروب متلاحقة ، لا يكاد يفيق من إحداها إلا ليصرع بأخرى .

ألا وإن أول من يطالب بذلك هم العلماء وأهل الرأى والفكر ، فإن الله قد أخذ عليهم الميثاق كما أخذه على النبيين : ليُبيننُنَّه للناس ولا يكتمونه ، وقد نادى بذلك حكماء الأمة من قبل فى القديم والحديث ، ومن بينهم السيدان المصلحان :

جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده المصرى ، ولعل المسلمين يومئذ لم يكونوا قد انبعثوا لإصلاح شئونهم كما انبعثوا اليوم .

وإنى أثبت هنا نص ما جاء فى العدد الخامس من مجلة « العروة الوثقى » التى كان يصدرها الحكيمان العظيمان ، عن تلك الناحية من نواحى الإصلاح فى الأمة :

« من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشرع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ، ويتداركوا الاختلاف الذى وقع ، بتمكين الاتفاق الذى يدعو إليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ، ويصير كل منها كسلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ، ويجعلوا لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون اليها فى شئون وحدتهم ، ويأخذون بأيدى للعامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج الى مَعتمِد واحد حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين ، وحفظه من قوارع العدوان ، والقيام بحاجات اللغة ، إذا عرض حادث الخلل ، وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ، ويكون ذلك أدعى الى نشر العلوم ، وتنوير الأفهام ، وصيانة الدين من البدع » .

وإنا لنرجو أن يكون الله قد أذِن بتحقيق هذا الأمل الذى طالما اشتاقت إليه القلوب المؤمنة ، والنفوس الطيبة ، وأن يكون « المعقد العام » الذى أشار به الحكيمان و « المعاقد » الأخرى التى تتصل به هى « دار التقريب » فى القاهرة ، وفروعها فى شتى البلاد الإسلامية .

أما « رسالة الإسلام » فلعلها « العروة الوثقى » فى هذا الزمان ؟

محمد محمد المدنى

تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم
جملتان : تعرف أولاهما فى لسان الشرع ، وعند المسلمين « بالاستعاذة » وتعرف الثانية « بالبسملة » أو « التسمية » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

الاستعاذة :

وقد أمر الله بالاستعاذة عند أول كل قراءة ، فقال فى سورة النحل المكية : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » وأمر بها فى كل موضع يتوجس فيه الإنسان شيئاً من المخاوف أو الوساوس التى تدفع به فى مجرى العادة إلى الشر ، قال تعالى فى سورة الأعراف المكية أيضا : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم » وأمر رسوله على وجه العموم أن يستعيذ به ، وأن يلجأ إليه ، وأن يتحصن من كل شر « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون » . « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد » . « قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى توسوس فى صدور الناس من الجنة والناس » .

وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة ، مع أنه قد أمر بها على وجه العموم فى جميع الشئون ، لأن القرآن مصدر الهداية ، والشيطان مصدر الضلال ، فهو يقف للإنسان بالمرصاد فى هذا الشأن على وجه خاص ، فيثير أمامه ألوانا من الشكوك فيما يقرأ ، وفيما يفيد من قراءته ، وفيما يقصد بها ، فيفوت عليه الانتفاع بهدى الله وآياته ، فعلَّمنا الله أن نتقىَ ذلك كلَّه بهذه الاستعاذة التى هى فى الواقع عنوان صادق ، وتعبير حق ، عن امتلاء قلب المؤمن بمعنى اللجوء إلى الله ، وقوة عزيمته فى طرد الوساوس والشكوك واستقبال الهداية ، بقلب طاهر ، وعقل واع ، وإيمان ثابت .

وقد أجمع المسلمون على أن جملة الاستعاذة ليست من نصوص القرآن ، وإنما هى تنفيذ لأوامر القرآن التى ذكرناها ، وتبعاً لهذا لم يجر خلاف فى أنها تقرأ مع الفاتحة فى الصلاة أو لا تقرأ على النحو الذى جرى فى البسملة .

البسملة :

أما البسملة فقد نقل عن كثير من العلماء أنها لم تعرف بتمامها عند المسلمين إلا بعد أن نزلت سورة « النمل » وأنهم كانوا يقولون أولا : « باسمك اللهم » ثم قالوا : « بسم الله » ولما نزل قوله تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » قالوا : « بسم الله الرحمن » ولما نزلت سورة النمل ، قالوا : « بسم الله الرحمن الرحيم » تبعاً لما جاء فى السورة من قوله تعالى : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » .

وسواء أصح هذا التدرج أم لم يصح ، فقد صار من المقرر الثابت عند المسلمين جميعاً أن الشرع أمر بها ، وندب إليها فى أول كل فعل ذى بال ، وصح فى ذلك بعض الأحاديث .

الرأى الذى نختاره فى البسملة :

وقد أجمع العلماء على أن « البسملة » جزء من سورة النمل ، أما أنها جزء فى أول كل سورة ، أو فى أول الفاتحة فقط ، أو أنها آية مستقلة أنزلت للفصل بين السور مرة واحدة ، فتلك أقوال ليس من سبيلنا الآن أن نعنى ببحثها ، ولا

بعرض استدلالاتها ، وحسبنا فى ذلك : أن الذى يترجح عندنا أنها لم تكن من القرآن إلا فى قوله تعالى من سورة النمل « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » . وقد تبع الخلاف فى أنها جزء من الفاتحة أوليست جزءا منها : اختلافهم فى وجوب قراءتها أو عدمه فى الصلاة ، والجهر بها أو الإسرار إذا قرئت .

وقد تكلم المفسرون كثيراً فى معنى البسملة ، وفى علاقة بعض ألفاظها ببعض وفى المقصود منها أول السور ، وقد راقنا فى هذا المقام ما قاله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضى الله عنه :

ويتلخص فى أنها تعبير يقصد به الفاعل إعلان تجرده من نسبة الفعل اليه ، وأنه لولا من يُعَنْوِنُ الفعل باسمه لما فعل ، فهوله ، وبأمره ، وإقداره ، وتمكينه ، فمعنى افعل كذا باسم فلان ، افعله معنوناً باسمه ولولاه لما فعلته ، قال الأستاذ : وهذا الاستعمال معروف مألوف فى كل اللغات . وأقربه اليوم ما يرى فى المحاكم النظامية حيث يبتدئون الأحكام قولا وكتابة باسم السلطان أو الخديوى فلان .

تحقيق المقصود من التسمية فى أول السور :

ولعل هذا يرشدنا الى أن القصد منها فى أوائل السور ليس هو مجرد التبرك أو الاستعانة كما يقولون ، وإنما القصد منها أولا وبالذات ، لفت أرباب العقول بادىء ذى بدء الى أن هذه السُّوَرَ وما يتلى فيها من آيات ، وما تدل عليه من أحكام وقصص ، إنما هى لله ومن الله ، وليس لأحد من خلقه شىء فيها ، فليست من قول محمد ، ولا من تعليم بشر ، « ان هو إلا وحى يوحى » ، « الرحمن علم القرآن » ، ألا وإن مجيئها على هذا الأسلوب المألوف فى إفادة هذا المعنى ، الجامع لوصفين كريمين لم يعهد عندهم أحدهما ، كما لم يعرف اجتماعهما ، وهما الرحمن الرحيم ، لمما يُشعر بأن هذا القرآن قد جاء على غير ما يألفون من كلام الملوك والزعماء والشعراء . وفى هذا إضعاف لروح المعارضة التى يعلم الله أن فريقا من الخصوم سيقوم بها وبترويجها ضد القرآن وضد نبى القرآن ، هذا ولايبعد أن يكون انحطاط ما أثرعنهم فى معارضة القرآن ، حتى عن مألوف كلامهم ، أثرا من روعة هذا الشعار الإلهى القوى العظيم : بسم الله الرحمن الرحيم .

التسمية شعار المسلمين :

هذا هو معنى البسملة فى أوائل السور ، وقد صارت بعد شعاراً للمسلمين يقصد به إظهار التبرى من الحول والقوة ، وليس معنى هذا أن الإنسان يتجرد من كل حوله وقوته ، ويلقى بنفسه فى أحضان القضاء المجهول أو المصادفات المباغتة دون تفكير ولا عمل ولا جهد ، كما يطيب لبعض ذوى الأغراض الفاسدة أن يتصوروا أثر الاستعانة واللجوء الى الله على هذا النحو ، ويجعلون ذلك سبيلا إلى القول بأن الإسلام يربى فى متبعيه بمثل هذه الأساليب روح الاستكانة والضعف والاعتماد على القوى والغيبية المجهولة ، وقد أخطأوا فى ذلك ، وضلوا وأضلوا ، فما كان الإنسان فى نظر الدين إلا خليفة فى الأرض ، يعمل ويكدح ، وينظم ويتصرف ويُكلَّف ويحاسب ، ولا ريب أن كل ذلك ينفى عن الإسلام تهمة إهمال القوى الإنسانية وتعطيلها اعتماداً على اللجوء إلى الله .

على أن التعبير فى « بسم الله الرحمن الرحيم » ينفى هذه التهمة ، فهو صريح فى أن للعبد عملا أساسيا ، وأنه إنما يعمله بأمر الله ولولا الله لما فعله ولما قدَر عليه . فالله هو الذى خلقه ، وهو الذى أودع فيه قوى التفكير والعمل ، وهو الذى أمدَّها برحمته ، ولو تخلت رحمته عنها طرفة عين ، لما كانت ، ولما كان الإنسان فأين هذا مما يصوره الظالمون ؟

إن الإنسان فى هذه الحياة ، وفى كل ما يزاوله من أعمال ، لفى حاجة الى قوتين يباشر بأحداهما عمله ، ويتوى بالأخرى روحه المعنوية ، فإن للروح المعنوية قيمتها وآثارها فى العمل والإنتاج ، فإذا اتجه الإنسان الى ربه القوى القاهر ، وتمثل عظمته ورحمته ، وجبروته وغضبه ، كان ذلك أدعى إلى أن يُقدِم على ما يريد قوىّ النفس ، ثابت العزم ، غير متزلزل الإرادة ، ثقة بأنه يأوى الى ركن شديد ، وكان ذلك فى الوقت نفسه أدعى أيضا الى تحرى ما يرضى ربه ، والبعد عما يغضبه ، فهو لا يعنون عمله باسم الله ، إلا حيث يعلم أن ذلك العمل يرضى الله ، وإلا كان هازئا بربه ، ساخراً بمولاه .

وبهذا تتجلى فائدة البسملة فى الناحيتين : فى تقوية الروح على عمل الخير ، وفى صرف النفس عن عمل الشر ، وهذا أسمى ما يتصور من شعار يتخذ عنوانا لأمة من الأمم ..

« الحمد لله رب العالمين » .

هذه أول آية من سورة الفاتحة ، وأصح ما قيل فى سورة الفاتحة أنها مكية نزلت قبل الهجرة ، وجاء فى بعض الروايات أنها أول سورة كاملة نزلت من القرآن ، ولهذا ، ولأنه يبدأ بها المصحف كتابة ، والقرآن حفظا وقراءة ، سميت : «فاتحة الكتاب» وقد سميت أيضاً بأسماء أخرى لمعان مناسبة كتسميتها «أم الكتاب» أو « السبع المثانى » أو « سورة الحمد » ... الخ

« الحمد » هو الثناء بالجميل على واهب الجميل ، و « الله » علم الذات الأقدس واجب الوجود ذى الجلال والجمال ، و « الرب » هو السيد المالك المربى ، و « العالمين » جمع عالَم ، أريد به جميع الكائنات من كل ما سوى الله عز وجل .

تقرر هذه الآية ثبوت الثناء المطلق الذى لايحد لله سبحانه ، وتقرر اختصاصه الأقوى به ، فليس لأحد أن ينازعه إياه ، وليس لأحد أن ينال منه ذرة إلا ولله مرجعها ، ومنه مبدؤها ، وتقرر أن هذا الاستحقاق العام الشامل للثناء المطلق إنما كان لأنه سبحانه هو رب العالمين .

فليس شىء من الكائنات سماويّها وأرضيّها ، مجردها وماديها ، روحانيّها وجسمانيّها إلا والتربية الإلهية قد شملته فى جميع أطواره ، ومن جميع نواحيه ، فى ذاته وخواصه ، فى وجوده وبقائه ، فى تمكينه ونفعه والانتفاع به .

تربيــة الله للعالم :

عمت تربيته جميع الكائنات ، وأعطى كل شىء نهاية مايطلبه استعداده ومركزه فى مراتب الوجود ، وهــذا هو الإنسان الذى جعله الله فى أقصى درجات الوجود المادى ، ومنحه مركز الخلافة فى الأرض ، قد رباه فوق هـذه التربية الجسمية

الـكونية العامة تربية نفسية وعقلية ، ثم رباه تربية تشريعية سبيلها الوحى وبعثُ الرسل ، وكما أنه لا شريك له سبحانه فى تربية الخلق والتـكوين ، لا شريك له فى تربية الوحى والتشريع ، وكما أنه ليس لأحد أن يزعم لنفسه نصيباً فى الخلق أو حقا فيه ، فليس لأحد أن يزعم لنفسه نصيباً فى التشريع ، والتحليل والتحريم .

ومن هنا كان لله فى خلقه عامة تربيتان : تربية خَلقية وأخرى تشريعية ، وقد انتظمهما قوله تعالى « رب العالمين » ، وفى ذلك إيحاء قوى الى أن يُعمِل الإنسان عقله فى هذا العالم ليدرك نواحى هاتين التربيتين اللتين جعلتا مناط استحقاق الله للحمد ، واختصاصه بالثناء ، فعلى الإنسان لذلك أن يبحث أسرار الله فى نفسه ، وفى الحيوان ، وفى النبات ، وفى الجماد ، وفى السماء ، وفى الأرض ، وفى الماء ، وفى الهواء ، وفى كل ما خلق الله من شىء ، وعليه أن يبحث فى طبيعة العقل البشرى ، وما يعرض له من وجوه الزلل إذا استقل بالنظر الى الأشياء والآراء والأفهام ، وما هو بحاجة إليه من تشريع إلهى يعصمه ويؤازره فى إدراك الحق والعمل بالحق .

وقد صرح القرآن الـكريم بهذا الإيحاء فى هذه الآيات الـكثيرة التى تحث على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء كى يدرك الانسان جهات هذه التربية ، ويؤمن عن علم وبرهان أن الله سبحانه هو رب العالمين ، وأنه المستحق للحمد والثناء « فانظر الى آثار رحمة الله » . « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

سور الحمد فى القرآن :

وفى القرآن غير الفاتحة سور أربع بدئت بالحمد لله ، هى : سورة الأنعام ، وسورة الـكهف ، وسورة سبأ ، وسورة فاطر ، وبذلك تـكون سور الحمد خمساً .

ومما تجدر ملاحظته أن هذه السور الخمس قد دارت حول بيان ربوبية الله للعالم من ناحيتيها : الخلقية والتشريعية ، وأن سورة الفاتحة تختص من بينها بأنها أجملت ذكر هذه الربوبية من الجانبين ، وأن السور الأخرى جاءت كتفصيل

لهذا الإجمال ، وافتتحت كل سورة منها بعد الحمد لله بما يشعر بنوع التربية التى فصلتها .

فبينما تبدأ الفاتحة « بالحمد لله رب العالمين » فتعم تربية الخلق والتشريع ، وتتبعه بما يؤكد هذا المعنى فى الجانبين ، نرى أن سورة الأنعام تبدأ بقوله تعالى : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » فتذكر شأن الخلق والإيجاد ، وتذكر أعراض الكائنات من الظلمات والنور ، وخلق الإنسان من طين ، والقرون الذين مكنهم الله فى الأرض ، والسماء والأنهار ، وما سكن فى الليل والنهار ، ومفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا هو ، واستدلال ابراهيم على الله بظواهر الشمس والقمر والنجوم ، إلى غير ذلك مما تغلب عليه ناحية الخلق والتدبير .

ونرى سورة الكهف تبدأ بقوله تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأساً شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » .

ثم تمضى فى بيان هذه الناحية من ربوبية الله المتصلة ببيان الأمور الغيبية التى لا يعلمها إلا الله ، ولفت نظر الإنسان إلى ما فيها من عبر ، فيذكر قصة أهل الكهف ، ويذكر تصريفه فى هذا القرآن للناس من كل مثل ، وأنه ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، ويذكر قصة موسى وفتاه والعبد الصالح ، وما كان فيها من عبر ، إلى غير ذلك مما تغلب عليه روح التربية الإلهية عن طريق الوحى وإنزال الكتب ، ثم تختم بقوله تقريراً لبشرية الرسول ، وإمداده بوحى الله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ » .

ونرى سورة سبأ تبدأ بقوله تعالى « الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور » فتذكر جانب التربية الخلقية كما ذكرته سورة الأنعام ولكن على نحو آخر ، فتذكر أن جميع ما فى

السموات والأرض لله علماً وتصريفاً ، وتعرض للساعة وعلم الغيب على صور شتى ، ثم تعرض لقصص بعض الأنبياء من جهة ما مكن الله لهم فى الأرض من تسخير بعض الكائنات لداود وسليمان ، وتذكر سبأ ومساكنهم وما كان لهم من متاع ، وما أصابهم حين أعرضوا عن دعوة الحق ، وتعرض للرزق فى مواضع متعددة ، ثم تختم ببيان عاقبة من ضلوا عن الصراط المستقيم ، ولم يُعملوا عقولهم فى تلك الآيات الكونية « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مُريب » .

ونرى سورة فاطر تبدأ بقوله تعالى: « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسكَ لها ، وما يمسكْ فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » . فتجمع كما جمعت سورة الفاتحة نوعى التربية ولكن على تفصيل ، فتذكر خلق السموات والأرض ، وتذكر رسل الوحى من الملائكة ، وأن الله مصدرُ الرحمة ، بيده إمساكها وإرسالها : رحمةٌ بالخلق ، ورحمةٌ بالتشريع ، ثم تسير فى ذكر بعض ظواهر الكائنات ، من إرسال الريح ، وإثارة السحاب ، وخلق الإنسان من تراب وتصريف الله لليل والنهار ، والشمس والقمر ، واختلاف الناس والدواب فى الألوان ، ثم تذكر الذين يتلون كتاب الله وينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ، وتبين أن ما أوحى الله به الى محمد هو الحق المصدِّق لما بين يديه ، وأنه تعالى يورث الكتاب من اصطفاهم من عباده ، وهكذا تتردد بين التربية الخلقية والتشريعية تفصيلا بعد تفصيل .

هذه سور الحمد فى القرآن ، وهذا هو أسلوبها وهى كلها مكية نزلت فى وقت تأسيس الدعوة الى التوحيد ، واعتقاد أن الله هو مصدر كل خير يصيب الإنسان من جهة حياته المادية ، وحياته الروحية ، وكان ذلك بمثابة تمهيد يغرس فى النفوس الاقبالَ على الإيمان ، ويُهيئها لاستقبال ما سينزل من التشريع بعد فى رضا

واطمئنان وطاعة وخضوع ، وقد أجملت الفاتحة — كما قلنا — جميع ما فصل فى هذه السور بكلمة « رب العالمين » .

« الرحمن الرحيم »

هذه هى الآية الثانية من آيات سورة الفاتحة ، تشتمل على اسمين كريمين من أسماء الله الحسنى : الرحمن الرحيم . وقد كثرت أقوال المفسرين فى العلاقة بين هذين الاسمين ، فبينما يرى فريق أن الرحمن هو المنعم بجلائل النعم ، والرحيم هو المنعم بدقائقها ؛ يرى فريق آخر أن الرحمن هو المنعم على جميع الخلق ، وأن الرحيم هو المنعم على المؤمنين خاصة ، ويرى فريق ثالث أن الوصفين بمعنى واحد ، وأن الثانى تأكيد للأول .

ورأى بعض المتأخرين أن الوصفين متغايران تمام التغاير ، فالرحمن صفة ذاتية هى مبدأ الرحمة والإحسان ، والرحيم صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديهما الى المنعم عليه ، ويدل على هذا أن الرحمن لم تذكر فى القرآن إلا مجريا عليها الصفات كما هو شأن أسماء الذات . « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» « لمن يكفر بالرحمن » « أن دعوا للرحمن ولدا » « إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » « الرحمن علم القرآن » » الرحمن على العرش استوى » وهكذا .

أما الرحيم ، فقد كثر فى القرآن استعمالها وصفا فعليا ، وجاءت بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعم عليه « إن الله بالناس لرؤوف رحيم » « وكان بالمؤمنين رحيما » « وهو الغفور الرحيم » كما جاءت الرحمة كثيراً على هذا الأسلوب « ورحمتى وسعت كل شىء » « ينشر لكم ربكم من رحمته » ولم يرد فى القرآن تعبير ما « برحمانية الله »

وهذا الرأى فى نظرنا هو أقوى الآراء ، مما ذكرنا ومما لم نذكر ، فإن تخصيص أحد الوصفين بدقائق النعم أو ببعض المنعم عليهم لا دليل عليه ، كما أنه ليس مستساغا أن يقال فى القرآن ، إن كلمة ذكرت بعد أخرى لمجرد تأكيد المعنى المستفاد منها .

وللإتيان بهذين الاسمين الكريمين بعد ذكر ربوبية الله للعالمين مغزى عظيم ، ذلك بأن الله بين بهما أن ربوبيته وملكه للعالم ليس مصدرها جبروته وقهره وهو القهار الجبار، ولكن مصدرها عموم رحمته وشمول إحسانه لجميع خلقه فإنهم بالرحمة يوجدون ، وبالرحمة يتصرفون ، وبالرحمة يرزقون ، وعلى الرحمة يعتمدون ، وبالرحمة يوم القيامة يبعثون ويسألون ، فإذا استقر هذا المعنى فى نفوس العباد ، وأن الله يتحبب إليهم بصفة الرحمة والأحسان ، كان ذلك أبعث لإقبالهم عليه بصدور مطمئنة ، وقلوب مؤمنة ، ونحن إذا تتبعنا آيات القرآن وجدنا أن رحمة الله بعباده لها مظهران : مظهر التربية الخلقية ومظهر التربية التشريعية ، والحياة كلها تقوم على المادة والروح ، وبهذا يتبين معنى قوله تعالى « ورحمتى وسعت كل شىء » .

وإذا كان الحمد لله ، والثناء عليه ، مرجعهما وأساسهما هو تربيته للعالم ، وإحسانه إليه ، فما أجدر المؤمن أن يتخلق بخلق الله ، وأن يلتمس الحمد والثناء والرضى من الله عن هذا السبيل الكريم . فمن آتاه الله حق التربية ، وحمَّله مسئوليتها من إمام ، أو أب ، أو معلم ، أو زوجة ، أو كذا ، أو كذا ـ وكلكم راع ومسئول عن رعيته ـ فإنَّ عليه أن ينظر إلى ما كلف رعايته على أنه أمانة عنده من المربى الأعظم ، استخلفه فى القيام بها ، والإحسان فيها ، وليمض فيها على سنن الرحمة والإحسان لا الجبروت والطغيان ، فإن ذلك أدنى الى أن يصلح الله به ، ويصلح له ، وأقربُ أن تناله رحمة الله وإحسانه « الراحمون يرحمهم الله » . « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » . « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

تفرد الله بالمِلك والمُلك فى يوم الجزاء :

« مالك يوم الدين » أو « ملك يوم الدين » .

قراءتان يدل مجموعهما على أن المِلك والمُلك فى هذا اليوم العظيم ـ يوم الدين والجزاء والحساب ـ لله وحده ، وقد جاء فى القرآن : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله » وجاء : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار» وقد خوّل الله فى الدنيا لبعض خلقه شيئاً من مظاهر المِلك أو المُلك تنفيذاً لحكمته ونظامه

الذى أراده لهذا الكون ، ورسم لهم حدود ما يرضيه وما يغضبه ، وأوجب على الناس فى هذه الحدود طاعة الملوك والمالكين ، وانفرد فى يوم الدين بالملك والحكم والإدانة والجزاء ، لا يشاركه فى ذلك أحد ممن خلق ، ولا يشفع أحد إلا لمن ارتضى ، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه ، ويومئذ توضع موازين الدنيا ، وترفع موازين الآخرة « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

وفى هذا تربية أخرى للعبد ، فإنه إذا آمن بأن هناك يوما يظهر فيه إحسان المحسن ، وإساءة المسيء ، وينال كل منهما جزاءه دون محاباة ولا ظلم ، وأن زمام الحكم فى ذلك اليوم العظيم بيد العليم الخبير الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، تكوّن عنده خُلق المراقبة ، وتوقع المحاسبة ، فكان ذلك أعظم سبيل لصلاحه وصلاح كل ما يعمل .

« إياك نعبد وإياك نستعين » .

كان ما تقدم من الآيات الثلاث تقريراً للحقيقة فى جانب الربوبية ، وعظمتها ، وعموم سلطانها ، وسعة رحمتها ، تقريراً لطرفى المبدأ والمعاد ، وأن ربوبية الله قد شملتهما وانفردت بالرحمة والرحمانية فيهما ، وقد جاءت هذه الآية تقريراً لجانب العبودية والاستعانة ، وبينت أن الذى يجدر بالعباد أن يتجهوا إليه وحده بالخضوع والخشوع والاعتراف بالحاجة إليه هو ذلك الذى تجلت أوصافه ، ووضحت عظمته ، وصار ظاهراً فى كل شيء حتى لكأنه يُرى ويُتوجه إليه بالخطاب « إياك نعبد وإياك نستعين » .

وبذلك يتجلى ـ مع ما تقدم من الصفات ـ معنى جديد هو معنى قرب الله لعباده ، وشهوده كل أحوالهم ، وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد ـ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم » .

معنى العبادة :

ومعنى العبادة خضوع لا يحد ، لعظمة لا تحد ، وهى تدل على أقصى غايات التذلل القلبى ، والحب النفسى ، والفناء فى جلال المعبود وجماله فناءً لا يدانيه فناء ، وقد يحب الإنسان ويتفانى فى عشق محبوبه ، ويخضع ويتفانى فى الخضوع ، ويستعذب العذاب فى سبيل هذا المحبوب ، ولكنه مهما بلغ لا يسمى عمله « عبادة » فان العبادة هى ما كانت أثراً لشعور بسلطان لا يحد ، ولا يدرك كنهه ، ولا تحصى نعمته .

وإن صور العبادات متى خلت عن هذا الروح ، ولم تكن مبنية على ذلك الشعور ، لم تكن واقعة موقعها ، ولا مقبولة عند الله ، ولا مثمرة ثمرتها من رضى الله .

وإذا كانت العبادة هى الفناء فى الله وحده ، فهو صاحب الحق الأوحد فى رسم صورها ، وتشريع أحكامها .

وليس لأحد من العابدين أن يضع أو يزيد أو ينقص فيما رسم الله ، كما أنه لا ينبغى لأحد أن يتوجه بما رسم الله لعبادته إلى أحد من خلقه . فلا ركوع إلا لله ولا سجود إلا لله ، ولا طواف إلا ببيت الله ، ولا نذر إلا لله ، ولا خضوع ولا تذلل إلا لله .

والاستعانة طلب المعونة ، بعد بذل الوسع فى العمل ، والعاقل لا يطلب المعونة إلا من القادر عليها ، والله هو القادر ، وقدرته شاملة كاملة لا يعجزه شىء ولا يخرج عن سلطانه شىء ، فهو الذى يهيىء الأسباب ، وهو الذى يزيل الموانع ، وهو الذى يعطى إن شاء ويمنع إن شاء .

وهى شقيقة العبادة ، فلا تكون إلا لله ، ولا ترجى مطلقة عامة شاملة إلا من الله ، وفى ذلك سمو بالمؤمنين عن مواطن الذلة والاحتياج لبشر أمثالهم ، أرباب قوى مستعارة محدودة ، وهم فى قواهم محتاجون كاحتياجهم ، مستعينون كاستعانتهم ،

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » . « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » .

التعاون ليس استعانة بغير الله :

وليس فى هذا ما ينافى التعاون بين الناس ، وقد طلبه الله سبحانه وتعالى فى آيات كثيرة « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » فإن هذا التعاون فى دائرة الحدود البشرية لا يخرج عنها ، ولهذا لا يأمر الدين ولا يرضى بطلب المعونة إلا ممن يملكها ، فلا يرضى بالتوجه فى طلب الحاجات الى الأموات ، ولا يرضى باستكشاف الغيب ممن يدّعون علم الغيب ، ولا يجعل بين خلقه وبينه وسطاء فى طلب المغفرة والرضوان .

هذا هو التوحيد الخالص ، وهو سبيل المؤمنين كما رسم الله : « فهؤلاء الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم ، وتيسير أمورهم ، وشفاء أمراضهم ، ونماء حرثهم وزرعهم ، وهلاك أعدائهم ، وغير ذلك من المصالح ؛ هم عن سبيل التوحيد ناكبون ، وعن ذكر الله معرضون » .

« اهدنا الصراط المستقيم » .

الصراط المستقيم : هو الطريق الذى لا عوج فيه ولا انحراف ، وقد كثر كلام المفسرين فى المراد بالصراط المستقيم الذى جعل الله طلب الهداية إليه فى هذه السورة أول دعوة علمها الإنسان ، وأجمعُ ما نرى فى ذلك أن الصراط المستقيم هو جملة ما يوصل الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام من جهتى العلم والعمل ، وهو سبيل الإسلام الذى ختم الله به الرسالات السماوية ، وجعل القرآن دستوره الشامل ، ووكل الى محمد صلى الله عليه وسلم تبليغه وبيانه .

وحسب القارىء فى معرفة أن الاسلام هو الصراط المستقيم ، وأنه لذلك كان الشريعة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان ، أن يتتبع حالة العالم فى عصوره المتتابعة قبله ، فإنه سيجد أن العالم كان يتردد بين طرفين من أفراط وتفريط ، وكان ذلك شأنه فى كل شىء : فى العقائد ، فى الأخلاق ، فى صلة الإنسان بالحياة ،

فى علاقة الفرد بالمجتمع ، فى علاقة الأمم بعضها ببعض ، فى طريقة التشريع ؛ إلى غير ذلك من سائر الشئون ، وقد جاء الإسلام فأدرك أن العالم لا يصلح بواحدة من هاتين الخطتين ، وأنهما منافيتان للفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية ، مُنافيتان لسنن الاجتماع التى تقضى بالوقوف عند الحد الوسط فى كل شىء لضمان البقاء والصلاح ، وعدم التعرض للانحلال والفساد ، أدرك الاســلام ذلك فجاءت شريعته وسطا لا إفراط فيها ولا تفريط ، ووقعت أحكامها ومبادئها مهما تنوعت وتشعبت فى هذه الدائرة التى رسمها كتاب الله عز وجل « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » . « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

هى فى العقيدة وسط بين الذين ينكرون الاله ، ويزعمون أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا وليدة المصادفات والتفاعلات المادية « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر» وبين الذين يقولون بالتعدد ، ويتخذون مع الله أنداداً : تقرر فى صراحة وجلاء ، أن الله اله واحد ، وأنه المعبود الذى لا يعبد سواه ، « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » ، « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فأياى فارهبون » ، « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

وهى فى الأخلاق وسط بين الذين يتحللون من كل الفضائل والذين يشتطون فى تصور الفضيلة والتزام طرف التشديد فيها : تقرر أن الفضيلة وسط بين رذيلتين : لا جبن ولا تهور ، لا بخل ولا تبذير ، لا استكبار ولا استخذاء ، لا جزع ولا استكانة . وأساس ذلك كله قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً » ، « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

وهى فى صلة الانسان بالحياة وسط بين المادية البحته ، التى لا تعرف شيئاً

وراء ما يقع عليه الحس من طعام وشراب ولذات وشهوات وغلبة وبطش وجمع للأموال ، وتكاثر وتفاخر ، والروحية البحته التى تزهد فى الحياة وتعرض عنها إعراضاً تاما ، فلا زواج ولا سعى ولا عمل ، ولكن تبتل مطلق وإهمال للأسباب ! يقرر الاسلام فى ذلك الوسطَ أيضاً فيقول « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » ، « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وهى فى طريقة التشريع ووضع قوانين الحياة وسط : لم تدع الناس يشرعون لأنفسهم فى كل شىء ، ولم تقيدهم بتشريع من عندها فى كل شىء ، بل نصت وفوضت : نصت فيما لا تستقل العقول بإدراكه ، كالعبادات زمانا ومكانا ، وكيفتية ونحو ذلك ، وفيما لا تختلف المصلحة فيه باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، كالمواريث وأصول المعاملات من بيع وشراء وتحريم لأكل أموال الناس بالباطل ونحو ذلك ، وفوضت فيما يدرك العقل الخير فيه ، وتختلف المصلحة فيه بتغير الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، ومن هنا وجد الاجتهاد ، وكان من أركان الشريعة الاسلامية حفظ الله به للعقل الإنسانى كرامته .

وهى فى تحديد علاقة الفرد بالجماعة وسط أيضا : لم تترك الفرد طليقاً يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء ، ولم تدعه كالوحش فى الفلاة يجرى ويمرح ويعبث ، ويفترس ما يقدر عليه ، ويتحكم فيه الأقوى منه ، ولم تلغ شخصه ، وتنس استقلاله وتضيعه فى غمار الجماعة لا يعمل إلا لها ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا يعرف لنفسه وجوداً غير وجودها ، كأنه جزء من آلة يتحرك بحركتها ويسكن بسكونها ، ولكنها اعتبرته ذا شخصية مستقلة ، وفى الوقت نفسه اعتبرته لبنة فى بناء المجتمع ، فأثبتت له ، بالاعتبار الأول ، حق الملكية لماله ودمه والهيمنة على نفسه وولده ، ومنحته فى هذه الدائرة حق التصرف بما يراه خيراً له وسبيلا لسعادته فى حياته ، وأوجبت عليه بالاعتبار الثانى ، حقا فى نفسه بالخروج للغزو والجهاد فى سبيل رد العدوان

عن الوطن ، وحقا فى ماله بالبذل والإنفاق فى سبيل الله ، وأوجبت عليه إرشاد الأمة ، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، وأوجبت عليه أن يعمل لإنجاب النسل الصالح وتكثير سواد الأمة به ، فيختار الولود ذات الدين والخلق ، لتقوى بذلك الأمة ويعلو شأنها .

وفى مقابل هذه الحقوق التى قررتها الشريعة على الفرد للجماعة ، أوجبت على الجماعة للفرد حقوقا لا سعادة إلا بها : كفلت له حفظ دمه وماله وعرضه ، وشرعت لحمايته حق القصاص وحق الحد والتعزير ، وجعلت له حقاً فى أن تعينه بمالها إذا افتقر ، وبذلك تبادل الفرد والمجتمع الحقوقَ والواجبات ، وجعلت سعادة الحياة منوطة بالتعادل بين الجانبين ، وعدم طغيان أحدهما على الآخر : فلو ضن الفرد بنفسه أو ماله أو لسانه على المجتمع ساءت حالته وأدركه الضعف والانحلال ، ولو ضن المجتمع بقوته على الفرد فلم يكفل له سعادته ، ولم يحفظه فى ماله ونفسه وعرضه ، ولم يعنه فى حال فقره أو ضعفه ؛ أشقاه وعرضه للهلاك ، وبهذا وذاك تصبح الحياة عبئاً ثقيلا لا يحتمل ، بل جحيما لا يطاق !

وكذلك كان شأن الشريعة الإسلامية فى تحديد علاقة الأمة بغيرها من الأمم : لم ترض للمسلمين بحياة الضعف والذلة ، وأن يكونوا عزلا من القوة ينتظرون حظهم ، ويترقبون مصيرهم ، وما تقرره الأمم الأخرى فى شأنهم ، ولم ترض لهم كذلك بحياة الظلم والاستبداد ، والفتك بالضعفاء ، والاعتداء على الآمنين فى أوطانهم وأموالهم ، ولكنها أمرت المسلمين بالاستعداد والتقوّى بالعَدد والعدة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوالله وعدوكم » وأمرتهم أن يدعوا إلى الله بالحجة والبرهان لا بالإلجاء والقهر « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

ونظرت إلى الحرب وأسبابها الداعية إليها والمفضية إلى شب نيرانها نظرة تتفق وغايتها من الصلاح العام والمساواة بين الناس والسير فيهم على سنن العدل والرحمة ، فحصرت أسبابها فى دائرة معقولة ، تتناسب وكونها ضرورة من

الضرورات: هى دفع الظلم والعدوان ، واقرار حرية التدين ، والدفاع عن الأوطان . وإن القرآن الكريم ليرشد إلى ذلك فى عدة مواضع إذ يقول :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »

وأساس الدستور العام فى ذلك هو قوله تعالى « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وقد أباحت الشريعة الإسلامية للمسلمين أن ينشئوا ما شاءوا من العلاقات بينهم وبين الذين لم يعتدوا عليهم فى الدين أو الوطن من كل مايرونه عوناً لهم على حياتهم فى شئون التجارة والصناعة والعلم والسياسة والثقافة ، ينظمون ذلك كله على الوجه الذى يتبين صلاحه ، والذى تقضى به سنن الاجتماع والفطرة ، والذى لا يتعارض مع دستورهم الخاص ، وقد أجازت الشريعة أن تصل هذه العلاقات إلى حد البر بهم والإحسان اليهم .

وأساس الدستور العام فى ذلك هو قوله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين »

هذا هو الصراط المستقيم ، والمبدأ الوسط ، الذى تسير عليه الشريعة الاسلامية فى جميع أحكامها ، والذى صلحت به لكل زمان ومكان ، واستحقت به الخلود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين »

وقد أكمل الله نعمته على عباده ـ بعد نعمة العقل التى يميز بها المرء بين الخير والشر ، والنافع والضار ـ بهذه الهداية التشريعية التى من شأنها أن تشد أزر العقل

وأن تحمله على الجادة حتى لا يتأثر فى أعماله وأفكاره بشهوة ولا رغبة ، فتسلم عقائد الناس من الضلال ، وتصلحَ أعمالهم وتبرأ من الفساد .

وقد وصف الله هذا الصراط المستقيم بقوله :

« صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

فكان ذلك بيانا له من ناحية العاملين به ، المستقيمين عليه ، الذين حازوا رضا الله ، وتجنبوا غضبه ، وحُفظوا من الضلال ، وفى هذا من الإغراء به والإطماع فيه ما يدفع بالناس إلى تلمسه والاستقامة عليه .

وكما بينه الله من هذه الناحية بينه فى ذاته بما بثه فى القرآن الكريم من آيات العقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والمعاملات ، وبذلك ظهر الصراط المستقيم من ناحيتيه ، وتحدد من جانبيه ، وتمت بذلك نعمة الله على عباده .

طوائف الناس أمام الحق :

هذا وقد اختلفت أقوال المفسرين فى بيان معنى المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين ، والذى نراه أن الناس أمام الحق والهداية الإلهية - كما بين الله فى صدر سورة البقرة التى تلى هذه السورة فى الترتيب القرآنى - أصناف ثلاثة ، وهو شأن طبيعى فى الجماعة البشرية فى كل وقت ، وفى كل مكان :

الصنف الأول : المؤمنون : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » وهؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم ورضى عنهم .

والصنف الثانى : الكافرون : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » . وهؤلاء هم المغضوب عليهم .

والصنف الثالث هم المنافقون الحائرون ، المترددون بين إيمانهم الظاهر وكفرهم الباطن « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » . « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانو يكذبون » «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلو إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ويَمُدهم فى طغيانهم يعمهون». وهؤلاء هم الضالون المتحيرون .

كمال الإنسان بكمال قوتيه :

هذه سورة الفاتحة ، ونحن إذا ألقينا الى ما سبق نظرة إجمالية ، وجدنا هذه السورة الكريمة ، قد استوعبت ما يتوقف عليه كمال الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة : ذلك بأن كمال الانسان إنما هو باستكمال قوتين : قوة النظر والعلم ، وقوة الكسب والعمل ، فبالأولى يدرك الحق ويؤمن به ، ويغذى به نفسه وعقله وبالثانية يسلك طريق الخير والفلاح ، والهدى والرشاد .

والفاتحة تكفَّل نصفها الأول ببيان الحقيقة التى هى أساس هذا الوجود ، وأصل السعادة المطلقة بتقرير ربوبية الله للعالمين ، ورحمته ورحمانيته ، وتفرده بالسلطان فى يوم الدين والجزاء ، وهذا هو الحق الذى بإدراكه تكمل قوة العلم والمعرفة .

وتكفَّل نصفها الثانى ، ببيان أساس الخطة العملية فى الحياة سواء فى العبادات أو فى المعاملات ، فالعبادة لله ، والاستعانة بالله ، والهداية من الله ، وبالتزام طريق الله ، والبعد عن طريق الجاحدين المستكبرين ، والضالين المتحيرين ،

وإن المتتبع للقرآن جميعه ، الواقف على مقاصده ومعارفه ، يرى أنه جاء تفصيلا لما أجملته هذه السورة وحددته من طريق الكمال الإنسانى فى قوتيه .

بهذا كانت هذه السورة « فاتحة الكتاب » ، وكانت « أم القرآن » ، وكانت هى السورة الوحيدة التى طُلب من المؤمنين أن يقرءوها فى كل صلاة ، وفى جميع الركعات ، وفى كل الأوقات ، ويُسرت على لسان كل مؤمن ، وأصبحت فى الإسلام كأنها « مجمع أشعة » تنير بضوئها كل شىء ، وتنبسط على كل شىء ؟

الحرية والإخاء والمساواة

من المبادئ الأساسية في الإسلام

لحضرة صاحب المعالي محمد حلمي عيسى باشا

من توفيق الله أن اختارت «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية (*)» لمجلتها عنواناً متضمناً غايتها، جامعاً لأهدافها، وهو (رسالة الإسلام)، فإن رسالة الإسلام تنطوى على تبليغها لأهله فيعملون بأحكامها، ويتبعون أوامرها ونواهيها ولغيرهم، فيفهمون سماحتها وعدلها، ويقفون على ما تقضى به من مساواة بين الناس جميعاً، وحرية وأمن، ويسلمون بفضائل الإسلام، وبأنه دين يسر لا دين عسر، وبأنه صالح لكل زمان ومكان، يقر للفرد بحقه وللأسرة بكيانها وحرمتها وللعقائد الدينية باحترامها، وحرية إقامة شعائرها، وللدولة بنظامها وسلطانها فى حدودها المشروعة، ويوحى بأن الله يؤتى الحكمة من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وينهى عن الغدر والخيانة، وعن الإثم والعدوان، وأن لا عقاب إلا بعد النهى والتحذير «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا».

لذلك اخترت الموضوع الذى اتخذته عنوانا لأنه بلغة العصر الحديث شعار الديموقراطية عند الإفرنج، والجامع لحقوق الإنسان التى أعلنها الفرنسيون فى أواخر القرن الثامن عشر إبان الثورة الفرنسية بعد أن قررتها جمعيتهم الوطنية وهم يجملونها فى هذه الكلمات الثلاث (الحرية والإخاء والمساواة)، ولأبين أنها من أسس الدين الاسلامى منذ نشأته أى من نحو أربعة عشر قرنا.

يتغنى بهذه المبادىء كتاب الإفرنج، ويفخرون بأنها سرت سريان الضوء فى جميع الشعوب الأوربية التى تقبلتها قبولا حسناً حيث صادفت هوى فى أفئدة أبنائها كما تلقفتها جميع البلاد المتهورة على أمرها، والواقع أنها أخرجتهم

(*) حضرة صاحب المعالى محمد حلمى عيسى باشا هو أحد الأعضاء المؤسسين لجماعة التقريب

من الظلمات إلى النور وقضت على ما كانوا يرزحون فيه من قيود الاستبداد والاستعباد حيث كان الفرد يلقى فى غياهب السجون بلا ذنب معين ، ولا زمن محدد حتى يكاد ينسى الى أن يأتيه القضاء المحتوم . وبددت نظام الاقطاعات التى كان يسودها سيد مطاع ، لا معقب لأمره ، له السيطرة التامة على مسوديه فى الأموال والأرواح .

ومن يتأمل ير أنها فى ذلك الوقت وهو وقت إعلانها ووقت شيوعها وذيوعها لم ترن هذا الرنين ، ولم تطن هذا الطنين ، فى أهل البلاد الإسلامية ، لأنه لم يكن لها من أثر فى أنظمتهم ولا فى حياتهم العامة أو الخاصة ، فلم يعتبر الاسلام الفرد مسلوب الإرادة ، مهضوم الحق لا يملك لنفسه أمرا . وقد جاءت تعاليم الشريعة السمحة وأوامر القرآن الكريم ، بالمساواة وبالحرية بين الناس ، ومنعت الفوارق ، فلم يكن لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى ، وأوحت بالإخاء « إنما المؤمنون إخوة » ونظمت أفرادهم جميعاً فى عقد واحد ، لتجعل منهم أمة واحدة « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

أما فى البلاد الأوربية حيث كان الحال كما صورنا فقد وجب على أهلها أن يهللوا ، وأن يستبشروا ، بتلك المبادىء وبضرورة احتضانها ، ولذلك بادروا بتسجيلها ، والعمل على تثبيتها ، فشرعوا يضمنونها دساتيرهم ، ويبنون على أساسها أنظمتهم النيابية ، واعتبروها حقوقاً مقدسة ، لا محيد عنها ولا محيص ، وأوجبوا احترامها ، وعدم العبث بها ، ليتمتع بها بنو البشر جميعا ، ومن لم يسر على هداها كان طاغيا ، مستبدا ، عابثاً بالحريات وبالكرامة الانسانية ، قاضياً على المواهب التى أودعها الله عباده ، واختص نفسه بهبتها ، فهو الذى يؤتى الحكمة من يشاء ، فإذا كممت الأفواه ، وخفتت الأصوات ، وخنقت الحريات ، وخرست الألسن ولم يعد يشعر الانسان بحرية فى تفكيره وعقيدته ، وقوله وعمله ، فلن تبرز له كفاية ولن تنمو مواهبه ، ولن يخصب ذهنه ، وإذا أحس أنه دون أخيه مرتبة فى الانسانية شعر بالمذلة والهوان ، وفترت همته ، وقعدت عزيمته ، ولم يأت نشاطه

بكل ثماره إذ يعمل لحساب غيره لا لحساب نفسه ، ولا يرى أن كل نفس بما كسبت رهينة ، وأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولا يعيش قرير العين مطمئن البال ، هادىء النفس .

لهذا أخذت جميع الدساتير تبنى أحكامها على هذه الأسس ، واعتبرتها شعار الديمقراطية الحقة التى تقضى بالمساواة والحرية وحكم الشعب لنفسه ، وأنه مصدر السلطات ، وقد جاء الاسلام من قبل بهذا الحكم فجعل الله أمور المسلمين شورى بينهم ، وأمر نبيه عليه الصلاة والسلام بمشاورتهم فى الأمر .

نقلت الدساتير بعضها عن بعض هذه الأحكام ، وعلى نهجهم سار الدستور المصرى أخذا بلغة العصر الحديث . مع أنه نص على أن دين الدولة الاسلام علما من واضعيه بأن هذه المبادىء لا تخالف روح الاسلام ، ولا تناقض أحكامه وأوامره ونواهيه ، وقد جرى عليها أهله منذ ظهور الإسلام . وربما كان من المفيد بيان تلك المبادىء ليعلم المطلع مقدار تطابقها وتماثلها .

تنص الدساتير على أن جميع الأفراد لدى القانون سواء ، وأنهم جميعا متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين ، وأن حريتهم الشخصة مكفولة ، فلا يجوز القبض على أحد ولا حبسه إلا بمقتضى القانون ، وتجعل لمسكنه حرمة ولملكيته حرمة لا يجوز العبث بهما ، وتجعل حرية الرأى مكفولة ، ولكل إنسان أن يعرب عن فكره بالقول أو الكتابة فى حدود القانون ، ولا تقيد حريته فى أى شىء ما لم يحرمه القانون ، ثم أطلقت له حرية الاعتقاد ، وأوجبت على الدولة حماية حرية القيام بجميع شعائر الأديان والعقائد .

هذه هى حقوق الإنسان الشاملة لحريته .

وقد سارت البلاد الأوربية على هذا النهج حتى نهاية الحرب العالمية الطاحنة الأخيرة ، وبدأت تظهر فى الأفق غيوم تتلبد ، وسحب تتكثف ، تنذر بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وانقسم العالم الأوربى الى كتلتين : كتلة شرقية محورها

الاتحاد السوفيتي وما يدور فى فلكه من بلاد البلقان ، وكتلة غربية تتناول سائر بلاد أوروبا الغربية وتوازرها أمريكا .

ولقد اشتد الخلاف بين الفريقين ، وانقلب اتحادهما الحربى الذى كان قائما أثناء الحرب الأخيرة لقمع النازية الألمانية ، الى عداء مستحكم منذر بشر مستطير ومظهر لانشقاق عميق فى أنظمة الحكم بين نظام الديمقراطية من جانب ، ونظام الشيوعية من جانب آخر ، وأخذوا يتقاذفون التهم ويجهرون بالسوء ، ويعلنون المساوىء والنقائص .

وترى الانقسام والشقاق واضحاً جلياً فى صحافتهم وإذاعاتهم وأحاديثهم السياسية ومناقشاتهم فى مؤتمراتهم ، وأدى خوف كل فريق من الآخر إلى أن جعله يصرف وقته وماله فى تهيئة نفسه للتسلح والكفاح واختراع الأدوات المدمرة والأسلحة الفتاكة المهلكة التى قد تؤدى لفناء البشرية ، والقضاء على المدنية ، وذلك فى الوقت الذى بدأت تجاهد فيه شعوبهم لإصلاح ما خربت الحرب من مساكن كانوا يأوون إليها ، وما أهلكت من زرع ، وضرع كانوا يقتاتون منه ، وما يجددونه من صناعة انهارت لتأمن أنفسهم من الجوع والفقر .

وليس يعنينا فى هذا المقام من ذلك كله سوى بيان أثره فى الناحيتين : الدينية والاجتماعية ، وما تتأثر به حقوق الانسان التى قدسوها وأشادوا بفضلها ، وما حاق بها نتيجة لهذا الشقاق والانقسام ، ومرجعنا فى ذلك كله الى ما تأتى به أنباؤهم ورواياتهم ، وما يشاهد من واقع محسوس .

وتنعى الكتلة الغربية على الاتحاد السوفيتى وأتباعه أنهم ينشرون الشيوعية الدولية ، ويبشرون بها فى سائر بلاد العالم ، حتى اعتنق مذهبهم شيع من أهلها ، وأنهم يرمون الى قلب النظم الاجتماعية ، وهدم الديانات ، والتشكيك فى العقائد السماوية والاستعاضة عنها باعتناق مبادىء هدامة مدمرة ، ويدعون أشياعهم لاضطهاد رجال الدين وتعذيبهم وإلقائهم فى السجون بناء على محاكمات صورية ، واعترافات مغتصبة ، والحض على الاضراب والاغتصاب ، وتخريب المنشآت العامة أو تعطيلها

المؤدى لحرمان السكان الآمنين من الماء الذى يشربونه ، والنور الذى يستضيئون به ، والمواصلات التى تنقلهم الى مراكز أعمالهم ، والإغراء على الاغتيالات بغية الاستيلاء على الحكم عنوة واقتداراً بلا مبالاة لأثر ذلك فى الفتك بأرواح الأبرياء الذين لم يرتكبوا ذنبا ، ولم يقترفوا جرما ، وتوحى إليهم بالتجسس وخيانة الوطن ، والقعود عن الدفاع عن حوضه إذا غزاه الاتحاد السوفيتى أو اعتدى على أرضه .

وقد سعى رجال السياسة من أهل الديمقراطية الى العمل لإظهار حقوق الانسان وإعلانها بغية الوصول الى كسب شعوب الاتحاد السوفيتى لجانبهم ، وإظهار مكنون خفاياه وما تضمنه ، ولكن خاب فألهم ، وضاع رجاؤهم ، وأعرض عنهم رجال السوفييت أثناء أخذ الآراء أمام هيئة الأمم المتحدة ، ورفض ممثلوه إعطاء أصواتهم والموافقة على الحقوق الآتية :

الحق فى حرية الفكر والضمير والدين وحرية التنقل والإقامة داخل حدود الدولة ، والحق فى ترك بلد الفرد والعودة اليها بحرية ، والحق فى الاشتراك فى الثقافة ، كما امتنع عن إعطاء صوته فى الحق العام الآتى ، وهو أن كل إنسان يولد حراً متساوياً فى الكرامة والحقوق ، بلا سيطرة على عقله وتفكيره وأن له الحق فى الاتصال بالآخرين بروح الأخوة ، وكان من أثر هذا الشقاق والانشقاق أن قررت هيئة الأمم المتحدة إعلان حقوق الإنسان ، وقررت إنشاء محكمة عليا للدفاع عنها .

يدلنا ذلك على أن الأقوام انقسموا فيما بينهم ، فيما يتعلق بحقوق الإنسان ومشتملاتها بينما هى راسخة الأصل فى العالم الإسلامى من وقت نشأة الاسلام ، وظهور رسالته على يد رسوله الكريم .

ولا يزال كذلك الخلاف قائماً إلى يومنا هذا فى أمريكا وجنوب أفريقيا بسبب الأجناس والألوان فلا يحل لجنس أن يجلس بمجلس الآخر أو يرافقه فى مدارسه أو ينتقل معه فى مكان واحد فى مواصلاته ، أو يجالسه حتى فى محلات

اللهو أو المشارب ، وتقدمت أمريكا للكونجرس بقانون يمحو الفوارق بين الألوان الأبيض والأسود والأصفر ، ويجعل الجميع سواء فى الحقوق والتمتع بها ، ولكنه لم يصدر إلى الآن ولم يصبح قانونا معمولا به .

هذا ما يقع اليوم ، فهل سُمع بمثله فى عرف الإسلام من يوم نشأته وتدرج فتوحاته الواسعة ، أم جعل الناس سواسية ، لأن الله خلقهم من ذكر وأنثى ، وأمر بمعاملتهم بالعدل والأحسان .

وتذيع الكتلة الغربية فوق ذلك أن الشيوعيين يصدرون تعليمات سرية للأحزاب الشيوعية فى البلاد الأجنبية تقضى باضطهاد القسس لإرغامهم على الانضمام الى الشيوعيين والانخراط فى سلكهم ، والتبشير بمبادئهم من فوق منابر الكنائس ودحض الدعايات المناهضة للشيوعية ، والمعادية لروسيا .

وجزعا وفزعا من ذلك ، هب جميع رؤساء الكنائس فى روما وانجلترا وغيرهما ، يبينون للناس سوء ما عمل الشيوعيون من عسف وظلم وافتراء ويحذرونهم من الوقوع فى شركهم المؤدى للالحاد ، والكفر بالديانات ، وينادى بابا روما بضرورة التمسك بأسباب الدين ، لأن الأمم لا تعيش بغير معرفة الله .

ولا نعجب ، إذا رأينا رجال الدين المسيحى يقومون بزيارة رجال الدين الإسلامى ، ويطلبون إليهم أن يتضافروا معهم لمكافحة قوى الشر المدمرة التى تهدف الى القضاء على الكرامة البشرية ، والعقائد الدينية ، وتستعبد الانسان بدعوى العمل على إسعاد الطبقات العامة والعمال .

وكان من نتائج ذلك أن تبين خطأ النظرية القائلة بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية فصلا تاماً ، فقد تبينت البلاد الاسلامية بعد مامس شيطان الشيوعية بعض أفرادها ، أن تعاليم الدين الاسلامى ، وتشبع أفراده بروحها ، أو إحياء تعاليمها من أقوى العوامل لمناهضة الشيوعية ووقف تفشيها .

فهذه تركيا قررت أن تعلم الدين فى مدارسها ، وأن يتلى القرآن فى مدارسها

باللغة العربية . وهذه باكستان قررت أن يقوم نظامها على أساس التعاليم الإسلامية ، وأن تضمن لأهل الأديان الأخرى حرية عقائدهم ومذاهبهم ، فإنه دين يأمر بالعدل والإحسان ، ودفع الأذى بحسن الصنيع : قال تعالى « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

وينعى الاتحاد السوفيتى على الكتلة الغربية ، أنها تعمل على إثارة حرب عاتية لمناوأتها ترجو من ورائها تحقيق أغراض استعمارية واقتصادية ، ولكنها لا تدفع عن نفسها ما يعزى اليها من إحداث شغب واضطراب وفتن وقلاقل مدعية لنفسها أن بلادها بلاد ديمقراطية حقا ، وأنها تحكم بقوة الشعب وحكوماتها ليست بحكومات ديكتاتورية .

وخلاصة القول أنه يظهر أن لاعاصم لهذا الخلف والخلاف إلا بقوة السلاح والفتك بالأرواح ، فقد أنشأت الدول الأوروبية اتحاداً أوروبيا ، تسعى لتدعيمه بالاتفاق مع دول أخرى ، تعاضدها إذا قامت حرب ، واشتعل لهيبها ، واستعر أوارها ، وهى ناحية لا محل لبسطها هنا ، لأن قوام بحثنا الدين وأثره ، وحق الفرد وما يجب أن يتمتع به ، وأن وازع الأديان خير من وازع السلطان .

والمتأمل يرى أن مبادىء الاسلام الشاملة لهذه الحقوق لم تأت نتيجة لثورة قامت ، ولا حروب نشبت ، وإنما ظهرت بظهور الاسلام فجاء بها القرآن الكريم وحضت عليها السنة المحمدية ، وعمل بها الخلفاء وأولو الأمر من الحكام المسلمين .

وإنى - وإن كنت قابلت فيما سبق بين بعض أحكامها ، وأحكام المبادىء الحديثة - أعود الى تلخيصها فيما يلى ، لأن المقام لا يتسع للبسط والإفاضة :

فى الإخاء :

قال الله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) فذكر الإخاء إطلاقا ، ولم يجعل فارقا بين حاكم ومحكوم ، ولا سيد ومسود ، وإنما جعلهم جميعاً سواء « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فالفضل بينهم بالتقوى والعمل الصالح والعدل والاحسان ، والحضّ

على التعارف حض فى نفس الوقت على نزع الغل والحقد والعدوان . ونهى عن الإثم ، ومن آيات التعارف عند المسلمين أن يأتى المسلمون لحج بيت الله من كل فج عميق ، ومن شعوب مختلفة وبلاد متباعدة يجمعهم صعيد واحد ، ويرعون ربهم فى يوم واحد ووقت واحد ، وهو يوم عرفات ، ويتساوون فيه جميعا بارتداء رداء واحد ، حتى لا يكون تمييز بين أمير وحقير وغنى وفقير ، بل الكل أمام الله سواء ، أكرمهم عند الله أتقاهم .

فى العدل :

أمروا أن يحكموا الناس بالعدل « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» ومضمون ذلك أنهم أمام القانون سواء ، ولا يحق عليهم عقاب إلا بعد النهى والتحذير « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وما أمرهم به الله أخذوه ، وما نهاهم عنه انتهوا .

وقد أمرهم باحترام دين غيرهم « لكم دينكم ولى دين » فاحترموا الديانات الأخرى ، وصانوا أهلها ومعابدها ، وتركوا لهم حرية إقامة شعائرهم وممارسة طقوسهم كما يشاءون .

تركوا لرؤسائهم أن ينظروا فى أقضية أهل دينهم ، وجرى الحال على هذا المنوال لعهدنا هذا ، وفى أحوالهم الشخصية لا يقضى بينهم حاكم مسلم إلا برضائهم ، قال تعالى : « فإن جاءوك فاحكم بينهم » وبسطوا على أديرتهم وبيعهم وكنائسهم حمايتهم حتى لا يعتدى عليها معتد أو يبغى باغ ، وبلغ من حرص الاسلام أن أشار القرآن الكريم الى ما يجعل معابد المسيحين ومعابد المسلمين فى مرتبة واحدة فى حمايتها وأجرى عليهما حكما واحدا حيث قال : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » .

فالدفاع عنها جميعا بمثابة واحدة يتولاه القائمون على أمرها أفرادا أو جماعات كما تقوم به الحكومات ، وهذا منتهى احترام العقائد وحرية إقامة شعائرها ، والدفاع عن حرماتها وكيانها .

وكان من أثر ذلك أن رأينا المسلمين والمسيحيين يتكاتفون فى الدفاع عن فلسطين والعمل على إنقاذها من أيدى الطغاة الصهيونيين المعتدين على قوم كانوا فى ديارهم آمنين ، وينضمون للمسلمين فى حماية الأماكن المقدسة وفى بقائها تحت أيديهم لأن تاريخهم الطويل وواقع الحال دلهم على احترام المسلمين لتلك الأماكن وإطلاق الحرية لأصحابها فى أداء شعائرهم كما توجبها مذاهبهم بلا عائق ولا مانع .

أباح للمسلم الزواج من كتابية ، ولم يرغمها على اعتناق دين زوجها ، بينما الاضطهاد قائم لحض الناس على ترك دياناتهم واعتناق المبادىء الشيوعية .

لم يعرف الاسلام نظام الإقطاعات ، وجعل كل نفس بما كسبت رهينة ، فالله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وجعل نظام التوريث قائما على وضع عادل مانع لحصر الملك فى يد فرد واحد كما لا يزال الأمر قائما فى بعض البلاد التى تجعل الابن الأكبر يرث التركة جميعها من مال ولقب .

وجرى على اعتبار الفرد حرا من يوم ولادته . ومن الأقوال المأثورة بين المسلمين : فيم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وهو الحق الذى رفض الاتحاد السوفيتى الاعتراف به .

لم يعرف تفريقا بين الناس بسبب أجناسهم وألوانهم ، كما هى الحال للآن فى أمريكا وجنوب أفريقيا كما شرحنا من قبل ، بل الناس جميعا سواء فى حركاتهم وسكناتهم وتنقلاتهم وتصرفاتهم

قال عليه الصلاة والسلام : أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

وإذا شاهد أجنبى مساجد المسلمين رأى المساواة التامة بين جميع من أموا بيت الله ، فلا يتقدم متأخر على سابق بجاهه أو ماله ، ورأى الفقير من المصلين يجلس فى صف واحد مع مليك البلاد وعلمائها ووزرائها لا يستطيع أحد أن يصده عن مكانه ، وهل بعد هذا من مساواة .

جعل أمر المسلمين شورى بينهم ، فلم يقصر على حاكم معين ، ولا سيد مطلق التصرف ، فقد اختار المسلمون أول خليفة لهم بالبيعة ، لا بالحسب ولا بالنسب ، ولا بقوة السلاح .

والخلاصة أن تلك الحقوق التي أسموها بحقوق الانسان وحرياته ، والتي يسعون إليها هي حقوق قائمة معمول بها من وقت ظهور الاسلام ، ولم تنشأ نتيجة لثورة أوحرب ، وعلينا أن نذكر، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وأن ندعوالى سلوك سبيلها ليتنبه الغافلون عن أمور دينهم الذين لم يتبينوا ما كفل الاسلام من نظام سديد حكيم في جميع المعاملات الدينية والمدنية ، حتى لا يخدع أحد بما درس وما قرأ عن المدنية الأوربية في الديمقراطية ، وهولم يدر بخلده أن يدرس ويبحث ويفكر فيأصول دينه وما قضى به من أحكام هي أقدم عهدا ، وأثبت أصلا ، وهي نور الله الذي يريدون أن يطفئوه ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ؟

الوحدة سبيل العزة

ما استقامت أمة على سنن الرشاد ، ولا تم لها نظام ، ولا بلغت ماتريد من المجد والعز إلا بالوحدة . وما عزت أمة وهابها الأعداء ولا قام فيها عدل وجرت أمورها على الطريق السوى إلا بالوحدة ، وأعظم الأمم قوة وأكثرها منعة هي الأمم التي نسيت الجنسيات التي تسللت منها ، ونسيت العصبيات واستحالت كلها إلى أفراد متجانسة في اللغة والدين والعقيدة والغاية ، والأمة التي تشعر الطوائف فيها بأصولها التي اشتقت منها ، وتشعر بأن هناك فارقا بين طائفة وأخرى ، لا تزال تعاني الشدائد .

[الشيخ المراغي]

أساس الإسلام

لحضرة الكاتب الكبير الأستاذ أحمد أمين بك

من أروع ما فى الإسلام وصفه لله ، فالله هو رب العالمين ، عالم الجماد ، وعالم النبات ، وعالم الحيوان ، وعالم الإنسان وعالم المجموعة الشمسية ، وعالم غير المجموعة الشمسية مما نعلم ومما لا نعلم ، وهو واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . هو الذى خلق الخلق أولا ، ثم هو الذى يمده بالحياة دائماً ، وهو الذى يدبر نظامه ويسيره إلى غايته ، فعلاقته بمخلوقاته لا تنقطع ، ولو انقطعت لحظة لفسدت السموات والأرض ومن فيهما وهذا هو الذى يميز العقيدة الإسلامية عما يعتقده الأوروبيون اليوم فهم يعتقدون أن الله خلق الخلق وتركه يدبر نفسه كما شاء ويدبرونه هم فى دنياهم كما يشاءون ، فهم الذين يقررون الفضائل والرذائل ، وهم الذين يسنون قوانينهم وشرائعهم حسبما يتراءى لهم ، فإذا ذكروا الله فى أوقات الشدة — كأوقات الأزمات الحرجة فى الحرب — فكل أمة تدعى أنه معها وتستنجده فى النصرة على عدوها ، كأن الله تعالى خادمها لا المسيطر على العالم كله يصرفه ويمضى فيه حسب سنته التى رسمها . فميزة العقيدة الإسلامية أنها تصفه بالخلق ، وتصفه بأنه يرعى العالم دائماً ويهديه سبله دائماً ، وتطلب من الانسان أن يوثق علاقته بربه فيرعى أوامره ونواهيه فى كل تصرفاته ، ويطلب منه الهداية ويؤسس نظرته الى الأخلاق على ما أمر الله به أو نهى عنه ، ويشكل حياته الفردية والاجتماعية حسب تعاليمه ويجدّ فى اكتشاف إرادة الله فيتبعها ، ويدقق فى فهم إشاراته فيعمل على وفقها ، ويجعل صلته بالله أقوى صلة ، وحبه لله أقوى حب ، والخوف منه أكبر خوف ، يؤمن أن لا شىء فى الوجود يستطيع أن يبقى لحظة من غير إمداده ، هو أول الخلق وآخره ، بمعنى أنه السبب فى خلقه ، والغاية التى

ينتهى اليها وجوده ، وهو الذى وضع للناس القواعد الأخلاقية الأساسية لسيرهم ، وربط الأمر والنهى بما ينفعهم وما يضرهم ، فأمر بما ينفع ، ونهى عما يضر ، وهو الذى يحاسبهم على تصرفاتهم فى دنياهم يوم يلقون ربهم « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » يقرب إليه المطيعين ، ويبعد عنه العاصين ، يريد من الإنسان أن يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته ، وأن يسعى ويجدّ فى الحياة مراعياً أوامره ونواهيه ، لايترهب ، ولكن يسعى ويعمل ، ولا يغمض عينه عن الدنيا التى يعيش فيها ، كما لا يغمض عينه عن الأخرى التى يرى فيها ربه . وقد كتب الله على نفسه أن يمد بالمعونة من استعانه فى شئونه ورعاه فى حياته ، وأن يخذل من صد عنه ، وعصى أمره ، بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

* * *

هذه العقيدة عقيدة وحدانية الله وعظمته وقدرته على هذا النحو، من شأنها أن ترفع نفس معتنقها ، فمن الذى يؤمن بإله هذه أوصافه ، ثم يذل لمخلوق أو يتنزل الى سفساف الأمور ؟ ومن الذى يؤمن بإلهٍ هذه صفاته ثم لا يتحرى الفضيلة فى حياته ويتجنب الرذيلة فى سلوكه . إن عقيدة الوحدانية تجعل الإنسان على أحسن صلة بالناس وبالحيوان وبكل الخلق ، لأنه وإياهم نتاج صانع واحد ومدبر واحد ، فاتصاله بهم وبكل موجودات العالم اتصال أخوّة . تجعله لايذلّ للغنى ولا للحاكم ، ولا لذى السلطان ، لأنه لا سلطان إلا لله ، والفروق بين الإنسان والإنسان فروق فى العرض لا فى الجوهر ، وفى الأوصاف الزائلة للأشياء لا فى الخالدة فيها ، والله لا يقوّم الناس بغناهم وجاههم ، ولكن بقلوبهم وأعمالهم . تجعله لا يحتقر الفقير ولا الضعيف ولا المرءوس لأنه أخوه أيضاً ، وشريكه فى الحياة ، وشريكه فى العبودية لله ، فهو عزيز النفس فى غير كبر ، أبىّ فى غير عتوّ ، متواضع فى غير ضعة ، ناظر إلى كل شىء نظرة عطف ورحمة ، لايرضى بالهوان ، لأنه ينتسب إلى الله العظيم ، ولا يرضى أن يَظلم أو يُظلم ، لأنه ينتمى إلى الله العادل ، يعمل ويكد فى الحياة ويبتغى أن يكون فى أعلى مقام ، بفضل عقيدته فى الله التى هى أحسن العقائد ، ويحب أن تكون أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف

وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . يطيع الله فيما أمر به ، وينتهى عما نهى عنه ، ويُعمل عقله حيث لا أمر ولا نهى ، لأن العقل منحة الله ، والله أمر باستخدامه والاستهداء به .

* * *

إن كان هذا فما الذى جعل المسلمين فى أنحاء العالم فى الذيل لا فى الصدر ، وفى المؤخرة لا فى المقدمة ، وكان مقتضى العقل أن تجعلهم هذه العقيدة فى طليعة أهل العالم ، وحاملى لوائهم وهداتهم ، والسابقين إلى الخيرات ، والآمرين لا المؤتمرين ، والقائدين الأعزة لا المقتادين الأذلة ؟ .

سؤال صعب : والجواب الصحيح أن العقيدة الصحيحة تقوّم بذاتها لا بمعتنقها فقد ينحرف أهلها عنها ، أو يحتفظون بشكلها لا بجوهرها ، ولو آمن بها أتباعها حق الإيمان لصحّ أن يكونوا مقياساً كما كان معتنقوها الأولون ، ولكن مع الأسف فقدَ المسلمون روح العقيدة وحرارتها وحياتها ، وتمسكوا بظاهرها ، والظواهر لا عبرة بها ، ولا قيمة لها ، والحق أن العالم الآن مسلمه ومسيحيه ويهوديه يعيش من غير عقيدة صحيحة ، أو من غير توفيق بين العمل والعقيدة ، أو بعبارة أخرى هم يعملون من غير أن يكون الباعث على عملهم العقيدة ، ومن غير أن ينظروا فى أعمالهم هل هى مطابقة لعقيدتهم أولا ، فالعالم صنفان : صنف من الأمم يعيش من غير دين ، أو بدين يؤمن بإله ، ولكن يجعل إلهه طرفة من الطرف فى مكان مغلق يستمتع بالنظر إليه من حين إلى حين ، ولكنه لا يُدخله فى حياته ولا فى تصرفاته ، وصنف يعتنق الدين بصفاته الصحيحة التى ذكرنا ، ولكنه يعتنقه نظرياً لا عملياً ، فالنظم الاجتماعية عند الجميع فى العالم والنظم السياسية ، قائمة على نظرات آلية ميكانيكية ليس مبعثها الاعتقاد بالله ، واتباع أوامره ، بدليل أن السياسى المتدين والسياسى الملحد يتفاهمان كل الفهم على التصرف فى الأمور ، والاجتماعى المتدين والاجتماعى الملحد سواء فى النظر إلى الأمور على وفق المصالح من غير نظر الى روح الدين .

وقد فقد الدين والعقيدة فى الله ساحة الحياة العملية ، وأصبح المتدينون على

اختلاف أديانهم لهم دين ميتافيزيقي يعيشون فيه أحيانا بتفكيرهم أو خيالهم ، ولهم حياة عملية منفصلة عن الدين بتاتاً تسيّرها الأغراض والمادة ، ويخدم كل ذلك العقل ، ولا يلاحظ فيها أي ملاحظة ، خالق الخلق ، وأوامره ، وإشاراته ، ولا ينبض فيها القلب بأى معنى من معانى العطف والرحمة والطاعة .

والفرق بين المؤمن والكافر اليوم أن المؤمن مؤمن نظريا كافر عملياً ، والكافر كافر نظرياً وعملياً ، ولذلك سيبقى العالم مضطرباً حائراً فاسداً حتى يجد روحه وقلبه ، وقد تفوق العالم المسيحى على العالم الإسلامى اليوم لأنه كان أعرف بوسائل الأعمال ووسائل الحياة ، وأكثر استكشافاً لقوانين التقدم المادى ، وقوانين القوة المادية لا لأنه أرقى ديناً وأعظم روحا ، فالعالم كله اليوم مخطىء إذا نحن نظرنا إليه نظرة روحية ، وهو شقى بتقدمه المادىّ وتقدمه العقلى من غير أن تسندهما قوة الروح ، وليس ينقص المسلمين إصلاح فى عقيدتهم ، ولا روحانية فى دينهم ، ولكن ينقصهم أمران : الأول أن يكون الدين روحا لا أشكالا ، وقلباً لا جوارح ، وحرارة لا مظاهراً ، ونبضاً لا جموداً ، وأن تكون « لا إله إلا الله » و « الحمد لله رب العالمين » معنى لا لفظاً ، وصادرة من أعماق القلب لا من طرف اللسان ، وأن يكون معنى « لا إله إلا الله » أن ليس عرض من أعراض الدنيا إلهاً فالمال والجاه والسلطان ليست آلهة تعبد ، ولا قوة يُخضع لها ، وإنما الخضوع للحق وحده لأن الله هو الحق ، ومعنى أن الله رب العالمين : أن ليس فى العالم رب يطاع وتسمع أوامره ونواهيه إلا هو — جل شأنه — ؛ والثانى : ارتباط عملهم بعقيدتهم ، وإيجاد العلاقة الوثيقة بين ما يعملون وما يعتقدون ، فليس للعقيدة من قيمة إذا حفظت فى خزانة لا تفتح ، أو قدست وأهملت . أو لفّت فى ثياب من حرير ثم تركت ، فكما أن لا قيمة للمال إلا ما انتفع به ولا لأى عرض من أعراض الحياة إلا إذا استغل للمصلحة ؛ فأهم من ذلك كله العقيدة : إذا لم يُبنَ عليها العمل كانت نجما جميلا فى السماء ، أو لوحة جميلة فى المعرض أو خيالا بديعاً من أخيلة الشعراء ، أو صورة فنية من صور الأدباء . إنما العقيدة الصالحة هى العقيدة يتبعها العمل وتبعث النور فى طريق الحياة وتهدى إلى الصراط المستقيم ؟

كيف يساير الفقه الإسلامي تطور المسلمين

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ عبد الوهاب خلاف بك

الفقه الإسلامي هو مجموعة الأحكام العملية التي شرعت لأفعال المكلفين من المسلمين تنظيما لعلاقة المسلم بربه . ولعلاقة المسلمين بعضهم ببعض . ولعلاقة المسلمين بغيرهم من الأفراد والجماعات في حال السلم وفي حال الحرب . وبعبارة أوجز هو مجموعة القوانين الشرعية التي يقضي بها في خصومات المسلمين وتطبق على أفعالهم وأقوالهم وتصرفاتهم في السلم وفي الحرب .

وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تكونت المجموعة الفقهية من الأحكام التي أفتى بها رسول الله فيما استفتي فيه . والتي أجاب بها عما سئل عنه . والتي قضى بها في الخصومات التي عرضت عليه ، وكانت هذه الأحكام تارة يتلقاها الرسول عن الله بالوحي الظاهر في آية أو آيات من القرآن الكريم . وتارة يتوصل إليها باجتهاده فيما لم يتلق فيه وحيا ظاهرا من ربه . وكان في اجتهاده ملحوظاً بالرعاية الإلهية ، إما بإلهامه بالحق والصواب إذا أخذ في اجتهاده ، وإما برده إلى الحق إذا اجتهد ولم يصل باجتهاده إلى الصواب . ولله حكمة بالغة في أنه شرع أحكامه بالوحي القرآني الظاهر تارة . وبالوحي الباطني وهو إلهام رسوله تارة وبالإرشاد إلى الصواب بعد الخطأ في الاجتهاد تارة

وهذه المجموعة الفقهية الأولى تجلت فيها عدة ظواهر :

الظاهرة الأولى : أنها كانت قليلة في عدد أحكامها ، لأنها شرعت الأحكام لما وقع فعلا من الحوادث ، ولما واجه المسلمين فعلا في حربهم وسلمهم من

الطوارىء . وما شرعت أحكاما لوقائع فرضية ، ولا لطوارىء احتمالية ، وحاجات المسلمين فى ذلك العهد كانت محدودة ومعاملاتهم كانت سهلة يسيرة ، لم تعقدها مشاكل الحضارة ولا السعة فى مبادلات التجارة ، وخصوماتهم كانت قليلة ، ولهذا نرى أن آيات الأحكام فى القرآن نحو خمسمائة آية ، أكثرها فى العبادات ، وما يلحق بها من الأحوال الشخصية ، مع أن عدد آيات القرآن كله نحو ستة آلاف ، وأحاديث الأحكام اكثرها بيان لأحكام القرآن ، أوتوكيدو تقرير لها . والأحاديث التى شرعت أحكاما سكت عنها القرآن ، تقرب من آيات الأحكام فى عددها

الظاهرة الثانية : أن أحكام هذه المجموعة مستقاة من المنبع التشريعى الأول لأنها إما من كتاب الله . وإما من سنة المعصوم ، ولهذا كانت لها قدسيتها ، ولم تكن فى حاجة إلى قوة مادية لحمل المسلم على اتباعها ، وكان قضاء الرسول أشبه بإفتائه ، فى أن كلا منهما تبيين للحق ولحكم الله ، والمسلم مدفوع بدينه إلى اتباعه

الظاهرة الثالثة : أنها ما كان فيها اختلاف ولا اشتباه . فما نص على حكمين مختلفين لواقعة واحدة وما اشتبه على مسلم فهم حكم ، لأن مصدر الأحكام الله ورسوله ، والمرجع هو رسول الله وحده . وكانت هذه الأحكام مصوغة فى قالب قانونى روحى أخلاقى وفى أكثر موادها يتبين الحكم ، وتتبين المصلحة التى شرع لها ، وما يترتب عليه من تحصيل نفع أو دفع ضرر ، وبهذا كان المسلم يفهم الحكم حق فهمه ، لأنه يعرفه ويعرف ما قصده الشارع به ، وينفذه بدافع من ضميره ووجدانه ، لأنه يتقى بتنفيذه الضرر ، أو يحصل به النفع : وأكثر أحكامها كانت مبادىء عامة وقواعد كلية : مجملة حيث المصلحة فى اجمالها ، ومفصلة حيث المصلحة فى تفصيلها . وكانت هذه المجوعة كاملة وافية بحاجات المسلمين . وخصوماتهم ، ومعاملاتهم ، ملائمة أحوالهم ، ولقد عدلت بعض أحكامها لتطور حال المسلمين فى ذلك العهد : فنسخ حكم ، وشرع بدله ما هو مثله أو خير منه فى تحقيق مصالح الافراد والجماعات من المسلمين

ولما انتهى عهد الرسول وابتدأ عهد أصحابه ، واجهت الصحابة طوارىء

لم تواجههم فى عهد الرسول ، وحدثت لهم وقائع ، وظهرت فيهم خصومات ، وجدَت لهم حاجات فنظر خاصتهم وأهل العلم والفتيا منهم فى تعرف أحكامها الشرعية ، وكان أساس نظرهم واجتهادهم المجموعة الفقهية الأولى بما سنته من أحكام وما قررته من مبادىء ، وما أرشدت إليه من مصالح ، فتوصلوا بالنظر فيها وبالاجتهاد على ضوئها الى جملة من الأحكام الشرعية العملية ، استمدوا بعضها من النصوص من طريق عبارتها أو إشارتها أو دلالتها ، واستمدوا بعضها من طريق القياس على ما ورد فى النصوص أو رعاية المصالح المرسلة أو غير هذين من طرق استمداد الأحكام التى أرشدهم إليها الله ورسوله ، ومن فتاوى الصحابة واجتهادهم فى النصوص وفيما لا نص فيه تكونت المجموعة الفقهية الثانية مبنية على أساس المجموعة الفقهية الأولى ، ومبينة وموضحة لنصوصها ومسايرة مصالح المسلمين وحاجاتهم . فكماساير الفقه مصالح المسلمين فى عهد الرسول سايرها فى عهد أصحابه وكما نما واتسع فى عهد الرسول تبعاً لنمو معاملات المسلمين واتساع دائرة حاجاتهم نما واتسع فى عهد أصحابه . وكانت هذه المجموعة الثانية على سنن المجموعة الأولى تشريعاً لحوادث واقعة ، فى قضاء فى خصومات عارضة ، وليس فيها تشريع لفروض احتمالية ، ولا إجابة عن «أرأيت» ، وإنما افترقت هذه المجموعة الثانية عن المجموعة الأولى فى أنه وجد فيها اختلاف فى أحكام بعض الوقائع تبعا لاختلاف الفتاوى التى صدرت من الصحابة فيها . وهذا الاختلاف ضرورى الوقوع إما من اختلاف المفتين فى فهم النص ، أو من وقوف أحدهم على سنة لم يقف عليها الآخر ، أو من تقديره لمصلحة لم يقدرها الآخر تقديره .

ولما انتهى عهد الصحابة وابتدأ عهد التابعين وتابعيهم والأئمة المجتهدين فى أوائل القرن الهجرى الثانى كانت الدولة الإسلامية قد اتسعت رقعتها ، وانتظمت بلادا متنائية ، وشعوبا مختلفة النظم والعادات والمعاملات بما فتح الله للأمويين فى الشرق وفى الغرب ، ودخل فى دين الإسلام أفواج من غير العرب من الفرس والروم وغيرهم ، ولكل هذه البلاد المتنائية والشعوب المختلفة نظم ومعاملات ومصالح ، ما كان للمسلمين عهد من قبل بأكثرها ، والحاجة ماسة الى التقنين لها ،

وسن الأحكام التى يقضى بها فى خصوماتها وتطبق على معاملاتها ، لهذا أخذ فقهاء التابعين وتابعيهم وعلى رأسهم فقهاء المدينة السبعة ، وفقهاء الكوفة ومكة ومصر ، وسائر الأمصار الإسلامية فى استنباط الأحكام وسن القوانين التى تقتضيها حاجات المسلمين ومصالحهم ، وكان أساس اجتهادهم المجموعة الفقهية الأولى ، والمجموعة الفقهية الثانية ، وكان ميدان اجتهادهم التشريعى فسيحاً ، وحاجات المسلمين تتطلب منهم قوانين كثيرة ، وقد وفوا بحاجات المسلمين ، واستنبطوا الأحكام التى اقتضتها وفى هذه البيئة التشريعية الخصبة ، والحركة الاجتهادية المباركة ظهر الأئمة المجتهدون أبو حنيفة ومالك والشافعى وداود والأوزاعى وأحمد وكثير غيرهم ، فاجتهدوا واستنبطوا واستضاءوا بنور المجموعات الفقهية التى تكونت من قبلهم ، وسايروا مصالح المسلمين ، وما ضاق الفقه بحاجة ولا قصر عن مصلحة بل استنبطوا الوقائع فرضية ، والخصومات احتمالية ، وما شعرت حكومة إسلامية ولا فرد أو جماعة من المسلمين بقصور الفقه عن مصالحه أو بالحاجة الى غير الفقه الإسلامى لتدبير شأن من الشئون المدنية أو الجنائية أو التجارية فى السلم أو فى الحرب ، وهذه الموسوعات الفقهية فى مختلف المذاهب تشهد بأن أولئك الأئمة المجتهدين ما جمدوا ولا وقفوا أمام حادث أو طارىء ، وكل عقد أو تصرف أو نوع من المعاملات جد فى عهدهم شرعوا له الأحكام التى تتفق والمصلحة ، وتكفل للمسلمين ضرورياتهم وحاجياتهم وتحسينياتهم .

ولما انتهى عهد الأئمة المجتهدين ونبتت فى القرن الهجرى الرابع فكرة سد باب الاجتهاد والوقوف عند اجتهادات السابقين ، والتزام متابعتهم ظهر نوع من الحرج ، لأن الأئمة السابقين رضوان الله عليهم ما استنبطوا أحكاماً لكل ما وقع وكل ما يقع ، ولأن كل عصر تولد فيه حاجات وتحدث فيه أقضيه ومعاملات ، وتتجدد له مصالح وحاجات ، فإذا لم يقنن الفقه الإسلامى لكل ما يجد قانونه ، قصر عن مسايرة الناس وتحقيق مصالحهم ، وقد وجد اتباع الأئمة المجتهدين طريقاً لرفع هذا الحرج ، والعمل على أن يظل الفقه نامياً مسايراً تطور المسلمين فاخذوا أنفسهم بأنواع من الاجتهاد ، ولكنهم لم يسموها اجتهاداً ، فنهم من أخذوا فى استنباط

الأحكام لما يجد من الحوادث والوقائع ، ولكن على أساس القواعد التى قررها أئمتهم للاستنباط ، وهؤلاء يسمون مجتهدى المذهب أو أهل الاجتهاد المقيد ، ومنهم من أخذوا فى توسعة أقوال الأئمة وتفصيل مجملها وتبيين مآخذها لتنتظم وقائع جديدة وهؤلاء يسمون أهل التخريج ، ومنهم من أخذوا فى الموازنة بين أقوال أئمتهم وترجيح أحدها بناء على أنه أرفق بالناس وأولى بالقياس .

وهذه الجهود وإن كانت جهودا محدودة ، كان فيها رفع لحرج الجمود والوقوف وأخذ من الفقه الإسلامى ليسير مع الحاجات والمصالح .

ولكن الضعف الذى انتاب المسلمين سياسياً وخلقياً وعلمياً قضى على هذه الجهود الجزئية أيضاً وسد باب الاجتهاد المقيد كما سد باب الاجتهاد المطلق ، وأصبح المسلمون وليس لهم أن يستنبطوا من الكتاب والسنة ، وليس لهم أن يخالفوا السابقين من الأئمة ، وكل معاملة تجد لهم أو حادث يطرأ لهم ، عليهم أن يرجعوا فيه الى اجتهادات الأئمة السابقين ليعرفوا منهم حكم ما لم يكن فى عصرهم ، وليطبقوا ما استنبطه السابقون لبيئتهم ولمصالحهم ، حتى شرط الواقف الذى يجب أن يفهم حسب عرفه يجب أن نطبق فيه ما قاله السابقون فى عرف سابق .

من هذا الإيجاز تبين أن الفقه الإسلامى لما كان نامياً متجدداً فى عهد الصحابة وفى عهد التابعين والأئمة المجتهدين ساير مصالح الناس ووفى بحاجاتهم ، ولما كان مرعياً بالتعهد والتجديد بعض الرعاية فى أول عهد التقليد للأئمة المجتهدين ، ظل كذلك يساير التطورات ويحقق المصالح ، ولما وقف وجمد بسد باب الاجتهاد المطلق وسد أبواب الاجتهاد المقيد وقف عن مسايرة التطور والمصالح ، وبهذا تمكن بعض ولاة الأمور من التشريع بالأهواء ، والتقنين بما يحقق أغراضهم ، سواء أخالف المجموعات الفقهية أم وافقها ، وأدى ذلك الجمود وهذه الفوضى إلى أن سنت للمسلمين قوانين من غير فقههم وأصبحوا عالة على غيرهم فى التشريع كما أصبحوا عالة على غيرهم فى الحرب والاقتصاد والتجارة وسائر مرافق الحياة ، وليس العيب عيب الفقه الإسلامى ، وإنما العيب عيب المسلمين وجمودهم واستكانتهم للضعف

وسوء الظن بأنفسهم، ولن يصلح الفقه الإسلامى لمسايرة تطور المسلمين إلا بالرجوع به إلى حالته الأولى ، ولا يتم ذلك إلا بأمرين :

أولها خدمة التراث الفقهى القديم واظهار موسوعاته للمسلمين إظهاراً يمكنهم من الوقوف على كنوزه واستثمار جهوده بحيث يتسنى لرجل الفقه والقانون أن يرجع إلى المبسوط والمدونة والأم كما يرجع إلى كتاب قانونى مرتب مفهرس مبوب

وثانيهما : تكوين جماعة من رجال الفقه والقانون للعمل بأنواع الاجتهاد المقيد فيجتهدون فى الوقائع التى لم يجتهد فيها المجتهدون المطلقون ، ويخرجون اجتهادات المجتهدين ، ويوازنون بين أقوالهم ويرجحون أنسبها بحال الأمة ومصالحها

فأما إذا ظللنا على هذه الحال : تراثنا القديم مغبر معقد لا سبيل إلى فهمه إلا لأفراد قلائل . والجديد من الوقائع ليس فينا من ينظر فيه نظرة اجتهادية مصلحية ، فسيذهب هباء كل نداء بأن يكون الفقه الإسلامى مصدر التقنين ؟

ثقة

وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق ، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنعة من كل سبيل لا يعين لها وجها ولا يخصص لها طريقا ، فإننا لا نرتاب فى عودتهم الى مثل نشأتهم ، ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيتقدمون على سواهم فى فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة ، حفظا لحقوقهم ، وضنا بأنفسهم عن الذل ، وملتهم عن الضياع .

[جمال الدين الأفغانى]

الشخصية المحمدية
تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير
الأستاذ محمد فريد وجـــدى بك
مدير مجلة الأزهر

أينما أجلت طرفك فى تاريخ الجماعات البشرية ، وفى الأفذاذ الذين أنجبتهم فى خلال تاريخها الطويل ، وأجلته فى حوادثها وانقلاباتها ، وفى الرجالات الذين تولوا كِبْرها ، فلا تصادف مَن جمع ما جمعه محمد صلى الله عليه وسلم من صفات الكمال الخلقى والعقلى ، ولا وُفق إلى مثل ما وُفق إليه من بناء أمة وتحليتها بكل ماهى فى حاجة إليه من عوامل البقاء ، ودواعى الارتقاء ، وأعدها لأن تصير أعظم أمّة استحقت أن تنال خلافة الله فى الأرض . ربما قال قائل إن هذا المآل لم يكن مقدراً لها وإنما بلغته هى اتفاقا بسبب توسعها العلمى والجغرافى ، كما بلغته أمم قبلها استعدت له بفتوحاتها ومدنيتها . يرد هذه الشبهة ما ورد فى الكتاب الكريم من قوله تعالى : « وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

فهذه المهمة الخطيرة ، مهمة تأليف أمة مثالية ، تتكون على مقتضى الأصول الاجتماعية القويمة ، والمبادىء الأدبية الكريمة ، وتحدث فى العالم ما أحدثه المسلمون من تدارك الأمم من تدهور بعيد القرار ، كان يدفعهم فيه قادة لا يهمهم إلا إشباع نهمهم ، والمتاع بشهواتهم ، ورجال أديان كانوا لايعبأون بغير مايحفظ سلطانهم ، ويستبقى الزعامة لهم ؛ قلنا هذه المهمة الخطيرة ما كان الله ليعهد بها إلا إلى رجل منحه شخصية تدرك قيمة ما يوحى إليه من أصول العلم وأسرار الحكمة ؛ رجل يستطيع بقوة ارادته ، وحسن قيادته ، أن يجمع بين القلوب المتنافرة ،

والنفوس المتناكرة ؛ رجل وُهب من الذكاء، ومُنح من سعة المدارك، ما يعرف به مكان اللين والشدة من النفوس فيضع كلا منها موضعه ممن وُكل اليه أمر جمعهم وقيادتهم ؛ رجل لا يشتبه عليه الحق بالباطل مهما كان الفارق ضئيلا بينهما فيخفى عليه حد كل منهما ؛ رجل حاضر البديهة ، ثاقب البصيرة ، يستطيع أن يدرك ما وراء المظاهر الخلابة من قوى كامنة فيتقيها ، أو يستفيد منها على حسب الأحوال الطارئة ، والشؤون المفاجئة ؛ فكان محمد صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى فى جميع هذه الصفات التى يمتاز بها كبار القادة ، وأفذاذ العباقرة ؛ ناهيك أنه استطاع أن يؤدى الرسالة العامة التى عهد اليه بها على أكمل ما يمكن أن يكون من نجاح وبُعد أثر .

كان محمد فى عهد الجاهلية على غير ما كان عليه الناس ، فى أدب نفسه ، وسمو فطرته ، فكان يشغله ما لا يشغل الناس من أمر الدين والدنيا : كان من أمر الدين حائراً لا يثلج له صدر على ما ثلجت عليه صدور الملايين حوله ؛ وكان من أمر الدنيا يرى أن الحياة على ما كان عليه الناس من التنازع والتناهب ، ومضارعة الحيوان فى سيرته ، لا توصل إلى ما خلق له الإنسان من نيل الدرجات العلى علماً وأدباً ونظاما ، وتوفراً على الخير ، فكان ينقطع عن بيته وأهله إلى نفسه فى غار فى الجبل ليالى يقضيها مفكراً متأملا ، لعله يجد مخرجا مما كان يُقض مضجعه ، ويحرمه مما كان ينعم به سواه . هذه الحاجة الملحة للوصول الى الحقيقة ، والوسيلة التى توسل بها اليها ، دلت دلالة قاطعة على أنه كان يائساً من التهدى اليها بواسطة واحد من الذين تقع عينه عليهم ، فكأنه عرض على عقله ما كانوا عليه فلم ير أنه يبلغه الغاية مما كانت فطرته العالية ترتاح اليه من المعرفة ، وهى نزعة لم يتأثر بها غيره من أهل عصره ، وطريق للبحث عن الحقيقة لم يسلكه أحد قبله فى البيئة التى كان فيها .

نعم كان رجال ينتبذون نواحى من الأرض يقضون فيها أعمارهم بعيدين عن مثار الفتن ، فى صوامع لا يبرحونها مدى حياتهم ، يمارسون فيها الدين الذى ورثوه عن آبائهم ، ولكن محمداً لم يكن من هذا القبيل ، فلم يلجأ الى الغار هربا

من فتنة العمران ، ولا ليؤدى شعائر دين موروث ، ولكنه كان ينشد الحقيقة التى يثلج عليها صدره ، فقد قضى عليه سمو عقله أن لا يرتضى ديناً من الأديان التى يرى الناس عليها فى زمنه . فإن تعجب أن يحدث ذلك لرجل ولد وتربى وكبر فى عهد الجاهلية ، وفى منأى عن ينابيع العلم والحكمة ، فأعجب منه أنه هدى الى طلبته وانكشف له من عالم الروح ما لم يكن يتوقعه ، حتى خشى أن يكون قد قُصد من الكائنات السفلية بسوء ، بسبب ما كان يوجد فيه من الظلام والوحدة .

لا جرم أننا هنا بسبيل نفس من النفوس التى لا يسمح لها بالنبوغ إلا فى أدوار الانتقالات الاجتماعيه ، وهذا لا يكون إلا فى كل عدة أجيال مرة ، وهى تمنح من المواهب النفسية مايجعل الفارق بينها وبين أعقل المعاصرين ، كالفارق بين الرجل المستكمل قواه العقلية وبين الأطفال الذين تستهويهم الشئون الصبيانية . فما ظنك بالرسول الذى أعد ليكون خاتما للرسل ، ويُكلف تربية الأمة التى أراد قيم الوجود أن تحدث أكبر انتقال عالمى بين الجماعات البشرية ؟ .

هذا أمر لا يحتمل المماراة ، فلم يبق علينا إلا بيان إلى أى مدى بلغ محمد صلى الله عليه وسلم من الميزات النفسية ، والمنح العقلية ، وعلى أى ضرب من السياسات التعليمية اعتمد ، ليصل بأمة جاهلية فى مدى ربع قرن إلى أرفع ما يمكن أن تبلغه أمة من آداب النفس ، وسمو النظر ، وشرف المقصد ، وبعد الغاية ، حتى بلغت أقصى ما ترمى إليه أمة من الحضارة والعلم والسلطان ، فى مدة لم توفق إلى مثلها أمة أخرى .

تأمل فى قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » قال ذلك تفسيرا لقوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فانظر كيف فسر هذا الحديث المبيِّن لجوهر الاسلام وحقيقته ، تفسيرا لايستطيع أعرف الناس بما طرأ على الأديان ، وأعلمهم بما يجب أن يكون عليه الدين الخالص من شوائب التحريف ، أن يزيد عليه حرفاً واحدا .

ووجه إكبارنا لهذا التفسير أن قائله يجب أن يكون عالماً بأن الخالق جل شأنه خلق الأنواع الحية ، وألهم كل نوع منها ما به حياته وكماله ، وخلق الإنسان وهو أكرمها عليه ، وفطره من الصفات والميول على ما به بقاؤه وارتقاؤه ، ووصوله الى الغايات البعيدة ، ومن هذه الميول إخباته لخالق الكون ، وتحرى محابّه ومكارهه ، ، ليصل الى ما يشعر به من سعادة الاتصال به ، واللياذ بجنابه ، إخباتاً خالصاً من الاشراك والتجسيد ، منزهاً عن التأويل والتحديد .

وقوله صلى الله عليه وسلم : وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، يُشعِر بأن الدين الحق لا يلقن تلقينا ، وإنما يُشعَر به شعورا ، فإن كان لا بد من تلقين فهو ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إليه من أن الدين هو الفطرة الخالصة من الشوائب ، وأنها هى الإسلام ، أى الاستسلام إلى إرادة الله ، والتخلق بكل ما يثبت أنه خليق بالإنسان من الصفات الحميدة ، والحالات الشريفة .

فهذا الإدراك لمعنى الدين ليس من نوع ما كانت تحوم أرقى العقول البشرية حوله فى بلاد العرب ، ولا فى أية بقعة من بقاع الأرض ، ولم يجىء مقيساً على عقلية الناس الذين عاصروا صدوره ، ولا على عقلية الذين سيخلفونهم بعد قرن أو عدة قرون ، ثم يزول ، ولكن جاء مطلقاً ليخلد خلود الحقائق العلمية ، ويؤتى ثمرته للأجيال الخالفة أضعاف أضعاف ما آتاه للذين جاء على عهدهم ، فهو حجة الإسلام الخالدة ، ووصفه المميز ، ودليله القاطع على أنه خاتمة الأديان ، وأنه أقصى ما يبلغه العقل من عرفان مصدره ، وعوامل شيوعه .

نقف هنا اليوم ، ونرجو أن نجول جولات أخرى فى تقدير الشخصية المحمدية ، وهيهات أن نبلغ كل ما نريد ؟

الفقه السياسي عند المسلمين

للباحث القانونى الكبير
الأستاذ محمد الشافعي اللبان بك
المستشار السابق بمجلس الدولة

— ١ —

١ — اطلعت على بحث قيم عن أنظمة الحكم عند المسلمين لأستاذنا الكبير حضرة صاحب المعالى على عبد الرازق باشا قال فيه : « من الملاحظ البين فى تاريخ الحركة العلمية عند المسلمين أن حظ العلوم السياسية فيهم كان بالنسبة لغيرها من العلوم الأخرى أسوأ حظ ، وأن وجودها بينهم كان أضعف وجود ، فلسنا نعرف لهم مؤلفاً فى السياسة ولا مترجما ، ولا نعرف لهم بحثاً فى شىء من أنظمة الحكم ، ولا أصول السياسة ، اللهم إلا قليلا لا يقام له وزن إزاء حركتهم العلمية فى غير السياسة من الفنون . ذلك وقد توافرت عندهم الدواعى التى تدفعهم إلى البحث الدقيق فى علوم السياسة ، وتظاهرت لديهم الأسباب التى تُعدهم للتعمق فيها . وأقل تلك الأسباب أنهم مع ذكائهم الفطرى ونشاطهم العلمى كانوا مولعين بما عند اليونان من فلسفة وعلم ، ولقد كانت كتب اليونان التى انكبوا على ترجمتها ودرسها كافية فى أن تغريهم بعلم السياسة وتحببه اليهم فإن ذلك العلم قديم ، وقد شغل كثيراً من قدماء الفلاسفة اليونانيين ، وكان له فى فلسفة اليونان ، بل فى حياتهم شأن خطير » .

وفى بحث آخر عن الديمقراطية فى الإسلام لصديق الدكتور عبد الله العربى بك أستاذ القانون العام بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول سابقا والأستاذ بكلية التجارة

بتلك الجامعة حالا ما نصه : « إن علماء الفقه الإسلامى لم يخصوا هـذه الأصول الديمقراطية بالعناية التى عرفت عنهم فى أبحاثهم حتى إن المرء ليقلب نظره فى كتبهم الحافلة بكل صغيرة وكبيرة فى شئون هذه الحياة والحياة الأخرى فلا يجد فيها تدويناً متجانسا مجتمع الشمل للدستور الإسلامى ، بل يجد معها نبذاً متفرقة عارضة وصفحات متباعدة مبعثرة هنا وهناك ، منبثة فى غير موضعها بحيث لا تبرز وهى على هذا الشتات صورة قوية كاملة للديمقراطية الإسلامية » .

* * *

٢ — وفى الحق إن هذا القول على علاته يحتاج إلى كثير من التعليق وهو إن صدق على المتأخرين من علماء المسلمين فإنه لا يصدق على المتقدمين منهم الذين عاشوا فى عصور النهضة الأولى قبل أن ينتاب البلاد الإسلامية من عوامل الضعف والوهن والتفكك ما اضمحلت معه الحركة الفكرية وقلّ به البحث والإنتاج العلمى .

لم يهمل المسلمون الأولون البحث فى نظريات الحكم والسياسة ، بل كانت لهم فى هـذا المضمار نظريات وآراء خطيرة الأثر أقاموها على أساس من مبادىء الحكم العامة التى جاء بها الكتاب ، ودعت إليها السنة ، وسار عليها الصحابة ، وأصبحت مع الزمن تقاليد ثابتة فى بناء الحكومات الإسلامية .

عنوا ببحث نظرية الإمامة والخلافة ، وما يتفرع عنها من مبادىء سياسية على وجه فصلوا فيه هذه النظم وأصولها أوسع تفصيل ، وكانوا فى ذلك متقدمين على معاصريهم من كل شعوب العالم الذين عاشوا إذ ذاك تحت سلطان الحكم المطلق وأوضاع الحكومات المستبدة ، وظل هذا السبق طويلا حتى قامت النهضة الفكرية الحديثة فى أوروبا ، وظهرت معها فى أواخر القرن السابع عشر وما تلاه النظريات السياسية الحديثة .

* * *

٣ — تقررت أصول الحكم فى الإسلام إجمالا على أساس سليم من الديمقراطية فقد جاء هذا الدين داعياً الى نظام حكومى دعامته اختيار رئيس الدولة أو الخليفة

بالمبايعة ، أو الانتخاب العـام ، ثم تقييد هـذا الخليفة فى تصريف شئون الدولة بالشورى ، وجاء فى نفس الوقت مقررا للحريات بكافة مظاهرها من حرية شخصية وحرية مسكن ، وحرية عقيدة ، وحرية رأى ، وحرية ملك ، وللمساواة بين الأفراد فى التكاليف وأمام القضاء والقوانين ، لا فرق فى ذلك بين عربى وعجمى ولا بين أمير وصغير ، ثم نسج على هـذه الأصول والمبـادىء ثوباً طهورا من الأخلاق ليكون وقاية منيعة لهذا البنيان الديمقراطى الرفيع .

وإن المطلع على كتب الفقه الإسلامى ليراها زاخرة بكثير من نظريات الحكم والسياسة بشكل تناول كل أوجه البحث والنظر ، عرضوا لذلك عند تفسير الآيات وشرح الأحاديث الخاصة بنظم الحكم وحقوق الأفراد وواجب الوالى نحو الرعية وواجب الرعيـة نحو الوالى . تلك الآيات والأحاديث التى أقامت المبـادىء الأساسية للحريات العامة ، ومبادىء المساواة وحكم الشورى ، وهى المبادىء التى انفجر فى سبيلها بركان الثورة الفرنسية بعـد ثلاثة عشر قرنا من تقريرها عند المسلمين .

ظهرت كل هذه الأبحاث فى كتب الفقه على وجه تناول أصول الحكم عنـد المسلمين ، ومصدر السلطات ، وشكل الحكومة ، وحقوق المسلمين وواجباتهم ، وحقوق غير المسلمين ، وما عليهم من تـكاليف، وضمن الحريات ، وأعلن المساواة وأمر بالعدل فى الأحكام .

ومن مجموع هذه الدراسات والأحكام المجملة الأصول ، تكونت نظرية كاملة عن الحكومة فى الإسلام فى حدود الأوضاع التى أسلفنا ، وهى نظرية نالت عناية الفقهاء فى كل العصور ، حتى صارت أوضاعها بحق خير نظم الحكم فى إجمالها .

* * *

٤ — وكان من أثر هذه العناية أن أفرد بعض الفقهاء لهذه الأوضاع كتباً خاصة بها ، فظهر أبو الحسن المـاوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هجرية ، يتحدث فى كتابه الشهير (الأحكام السلطانية) عن الإمامة وشروطها وعن الإمام وصفاته

وما يخرج به عن الإمارة ، وما يجب عليه نحو الأمة ، وعلى الأمة نحوه ، ثم عن الوزارة وأنواعها ، والولاية وأقسامها ، والقضاء وشروطه ، والخراج والجزية والدواوين ونظامها ، ويعرض لذلك كله من الناحية الفقهية فى حدود مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه . ويقول أبو الحسن الماوردى فى مقدمة كتابه عن الأسباب التى دعته إلى وضع مؤلفه « لما كانت الأحكام بولاة الأمر أحق ، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير أفردت لها كتابا امتثلت فيه أمر من لزمت طاعته ، ليعلم مذاهب الفقهاء فيما له منها فيستوفيه ، وما عليه منها فيوفيه ، توخياً للعدل فى تنفيذه وقضائه ، وتحرياً للنصفة فى أخذه وعطائه » .

وظهرت كذلك كتب أخرى نذكر منها (آراء أهل المدينة الفاضلة) وفيه يتحدث صاحبه الفارابى عن الاجتماع والتعاون وعن نشأة القرى والمدن ، وعن الفرق بين أهل المجتمع الصالح وأهل المجتمع الضال وعن خلال الحاكم وواجباته . وبعده ظهرت (رسائل إخوان الصفا) وفيها مباحث عن بعض الموضوعات السياسية كالحكمة من الملك ، وكالإمامة وشروطها وأحكامها ، وكالرياسات على الجماعات المختلفة وغير ذلك .

وفى كتاب (الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية) يتحدث مؤلفه الطقطقى عن واجبات الملك وعن حقوقه وعن أسباب ضعف الدول الاسلامية التى تقدمت عصره وسقوطها ، وعن سياسة الملك نحو مختلف الطبقات وعن خطر الانغماس فى الشهوات . وهو فى أبحاثه يخرج عن النطاق الفقهى فيعتمد على الوقائع والحوادث التاريخية لتأييد آرائه وأفكاره .

وأخيراً جاء المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون المغربى المتوفى فى مصر فى أوائل القرن التاسع الهجرى ومهد لبحوثه التاريخية بتلك المقدمة الشهيرة التى ضمنها ما أدى اليه اجتهاده من دراسات هى فى نظره علم مستقل بنفسه مستحدث

الصنعة انتهى إليه بالبحث الخاص ولم يقف لأحد قبله على كلام فيه . وهى فى نظرنا أول كتاب عرض لعلم السياسة كعلم مستقل ذى كيان خاص .

تعرض ابن خلدون فى مقدمته للعمران بصفة عامة وشرح طبيعة الاجتماع وضرورته ، وكيفية تنوعه ، وما يؤثر عليه ، من العوامل وأثر الطبيعة فى أخلاق البشر وألوانهم وأحوالهم وعن المجتمع البدوى وخواصه ، وعن الحضر ، وعن اختلاف الملك وأثر الغلبة فى الأمم المغلوبة ، وعن الدولة وقيامها بالقبيل والعصبية ، وعن خواصها وصورها ، وعن أعمارها وأسباب سقوطها وعن تحول الدول من عهد البداوة إلى عهد الحضارة ، وعن الملك وأصنافه ، وعن الإمامة والخلافة ، ورسوم الخلافة من بيعة وولاية عهد ، وعن القضاء ، وعن الادارة والوزارة والدواوين ، وعن الشرطة والجيش ، وعن الجزية والخراج ، وعن الحروب ومذاهبها ، وعن التجارة والصناعة والعلوم . عرض ابن خلدون لهذه النظريات وعالجها جميعاً كما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه عن ابن خلدون « معالجة دلت على فضله وعلو مكانته وكان فيها موفقاً غاية التوفيق » نظر ابن خلدون إلى موضوعه الاجتماعى من أفق واسع فجعل من المجتمع الإنسانى وما يعرض له من الظواهر الطبيعية مادة لبحثه وموضوعا لدراساته وكان لأبحاث علم السياسة محل كبير من عنايته فعالجها بإفاضة فى سلك منتظم الروابط والشواهد ، متخذاً من التاريخ عدته فى تأييد أفكاره ، ومن المنطق السليم طريقاً فى توضيحها وجلائها ، فكان بحق من أكبر واضعى علم السياسة وبناته .

* * *

٥ — عالج فقهاء المسلمين هذه المسائل على أساس جديد خالفوا به من تقدمهم من فلاسفة الإغريق وغيرهم : نظر فلاسفة اليونان الى العلوم السياسية نظرة اجتماعية واسعة ، ونظر إليها علماء المسلمين نظرة قانونية محضة ، وعالجوا مباحثها مع ما عالجوا من أحكام الفقه الاسلامى المختلفة ، وهو طريق سليم واتجاه لا شك

سديد أخذ به أخيرا كثير من علماء الدستور فى العصر الحديث ، وخاصة الألمانين منهم الذين رأوا أن الدولة هى الشكل القانونى لحياة الجماعة ، وأن مباحث الحكم وما يتصل به هى مباحث قانونية تتناول علاقة الدولة بالأفراد من ناحية القانون حتى لقد قالوا فى بيان أن الانسان مدنى بالطبع محتاج الى الاجتماع ببنى جنسه ـ قالوا : « إن الشعب فى الدولة يتلقى أمراً قانونياً يلزمه بأن يعيش حياة الجماعة . ـ كتاب أساس القانون الألمانى للدولة تأليف جرير » وقالوا فى شأن الدولة : « إنها شخص معنوى يستمد وجوده من القانون ، وله حقوق وعليه التزامات قانونية . — نفس المرجع — » وقرروا فى صدد علاقة الفرد بالدولة « أن مبناها ما بين الاثنين من روابط الصلة القانونية ـ نفس المرجع » .

ولعل فى هــذا الإيضاح ما يكفى للرد على ما تساءل عنه أستادنا الكبير على عبد الرازق باشا حين قال فى بحثه المشار إليه « ما لهم أهملوا النظر فى كتاب الجمهورية لافلاطون ، وكتاب السياسة لأرسطو ، وهم الذين بلغ من إعجابهم بأرسطو أن لقبوه المعلم الأول؟ وما لهم رضوا أن يتركوا المسلمين فى جهالة مطبقة بمبادىء السياسة وأوضاع الحكومات عند اليونان ؟ » .

لم يترك علماؤنا الاهتمام بعلوم السياسة عند اليونان غفلة منهم عن تلك العلوم ولكن لأن وجهة النظر فى معالجتها قد اختلفت عندهم عنها عند الإغريق .

وقد أطلق مونتسيكيو وبور لاماكى وجان جاك روسو وغيرهم من علماء علم السياسة على تلك العلوم اسم : « القانون السياسى » وقد أسماها الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى كلمة له « الفقه السياسى » وذلك تسليماً منهم بالرابطة التى تجمع بين علوم السياسة والقانون .

* * *

٦ — وإذا كانت النظرة الغالبة عند الغربيين إلى تلك العلوم السياسية قد ظلت إلى أواخر القرن التاسع عشر مبنية على أساس من السياسة والاجتماع والفلسفة ،

فإن هذه النظرة لم تلبث أخيرا ـ تحت تأثير النظريات الألمانية وقوة الحجج التى قامت عليها ـ أن تغيرت ، وأصبحت علوم السياسة تدرس من ناحيتها السياسية والقانونية معاً ، حتى لقد قال بعض العلماء الفرنسيين : « إنه من المستحيل أن نجنى أية ثمرة محسوسة من دراسة نظم الدولة إذا نحن لم نجمع بين السياسة وعلم القانون ».

* * *

٧ ـ والواقع أن أثر علماء المسلمين فى الفقه السياسى أثر ملموس كبير القيمة عظيم الخطر ، وأن الأساس الذى قامت عليه مباحثهم فى هذا الشأن من الاتجاه صوب الفقه مع مراعاة مقتضيات الأحوال ، والعدالة السياسية والاجتماعية ، وحاجات الأمم ؛ هو خير أساس عولجت به هذه الشئون .

وإذا كانت المبادىء العامة التى وضعها علماء المسلمين لم تخرج الى أوضاع ذات إجراءات مفصلة ، ومراسيم مرتبة ، وتقاليد راسخة ، بل بقيت على حالتها الأولى من التعميم والإجمال ، مما لم يجعل لها سلطانا كبيرا على عقلية جمهور المسلمين بحيث سهل صرفهم عنها بالخداع أو القوة ؛ فإن ذلك راجع ـ كما يقول بحق صديقنا الدكتور عبد الله العربى بك ـ إلى « أن الأجيال التى أعقبت الصدر الأول من الإسلام غفلت أو تغافلت عن خطر هذه الأصول ، وعن ضرورة استنباط القواعد التنفيذية والإجراءات العملية التى تكفل نفاذها فى كل نواحى سياسة الدولة ، إذ توالت الأجيال المتعاقبة ، وهى ذاهلة عن واجبها فى استخراج تلك الأوضاع والأساليب العملية التى تكفل التوفيق بين هذه الأصول العامة واحتياجات كل عصر ، فلم تلبث هذه الأصول الإسلامية لطول الترك أن اندثر أثرها فى وجدان الشعب ، ولحقها من تشويه المعنى وعبث التفسير ما جعلها مطية ذلولا لبغى الطغاة وسحق الحريات ، والمطلع على تاريخ الشرع الإسلامى لا يسعه إلا أن يقرر أن وزر هذا البلاء واقع على نفر من الخاصة استهانوا بالأصول

الديمقراطية التى دعا الإسلام الى إقامتها ، وقلبوا منصب الخلافة الى ملك أتوقراطى وهدموا مبدأ الشورى ومستلزماته » .

* * *

٨ — وإذا كان الكثير من مبادىء الفقه السياسى التى وضعها المسلمون قد جاء عاما ومجملا ؛ فان لهذا التعميم والإجمال ميزته المقصودة . ذلك أن التعميم الذى لا ينزل إلى التفصيلات الجزئية لا يقيد الأجيال المقبلة بهذه التفصيلات والتطبيقات بل يتركها حرة تقتبس الوضع الحكومى الذى توافرت فيه الملاءمة العملية لحاجات كل زمان ومكان مع التقيد بالفكرة الإسلامية بوجه عام . وتلك هى المرونة اللازمة فى المبادىء التى يراد لها الخلود ، لتكون ملائمة لتطور احتياجات البشر .

* * *

٩ — لما عهد إلىّ بتدريس القانونين الدستورى والإدارى بالجامعة الأزهرية وجدت من واجبى - وأنا أدرس فى جامعة تعتبر الحارس الأول على تراث المتقدمين من علماء المسلمين ، والعامل على نشر آرائهم ومذاهبهم - وجدت من واجبى أن أعمد على قدر الإمكان إلى البحث المقارن لأضع أمام طلبتى نظريات السياسة الحديثة وبجانبها ما جاء به المسلمون المتقدمون من آراء فى هذه الشئون .

ولا أعدو الحق إذا قلت إنى وجدت لكل حديث من تلك النظريات تقريباً بحثاً قديماً فى نفس الفكرة مما يجوز معه القول بأن أوائلنا لم يتركوا فى هذا المضمار للأواخر شيئاً يذكر ، وأن حظ العلوم السياسية فيهم كان بالنسبة لغيرها من العلوم أكبر حظ ، وأن وجودها بينهم كان أقوى وجود ، مما سأتناوله بالتفصيل والإيضاح فى مقالاتى المقبلة إن شاء الله إتماما للبحث وخدمة للغرض الذى من أجله قدمت هذه الكلمة ؛ والله الموفق وهو الهادى إلى خير سبيل ؟

الفقه والفقهاء في مصر
على عهد المماليك

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغى

الإمام الخاص للحضرة الملكية

— ٢ —

عرضت فى حديثى الماضى حول هذا الموضوع للظروف التى هُيئت لمصر لتكون زعيمة العالم الإسلامى بعد سقوط بغداد، وتحمل راية الثقافة العلمية بعد أن فتن المغول المسلمين وشردوا البقية الباقية من علمائهم، وعفّوا على آثار الثقافة الإسلامية التى كانت ميراثاً ضخما لأجيال وقرون أفنت زهرة العمر فى تحصيلها، وعرضتُ للمماليك وبلائهم الحسن فى الدفاع عن الإسلام، ولموقف العلماء والشعب إجمالا منهم.

واليوم نريد أن نعرض بشىء من التفصيل — بالقدر الممكن طبعا — لبعض هذه المواقف وأثرها على التشريع والتدوين الفقهى، وحركة التأليف بوجه عام، وأحب أن ألاحظ بادىء ذى بدء أن الفقهاء كانوا فى شىء من الحرج، وكان موقفهم فى غاية من الدقة، إذ كان عليهم أن يلائموا بين شيئين:

(١) سلطان المماليك بعد أن أصبح صولجان الحكم فى العالم الإسلامى تقريبا بيدهم، وقد كانوا كثرة يحسب حسابها، لا يتورعون عن قتل أو نفى أو سلب أو كما يصفهم شوقى:

جنود وراء كبير لهم　　من الدين قد جُردوا واُلخلق
أتوا دارنا فمضى نصفهم　　أزال العفاف ونصف سرق

وكان ذلك شأنهم فيما بينهم وبين أنفسهم ، لا فرق فى ذلك بين طبقة وأخرى من هذه الطبقات التى كان ينقسم إليها نظامهم .

(٢) ما ورثه العلماء من ميراث السلف الصالح ، وفى الحق أن مصر ظلت طول حياتها موالية للسنة ومذاهبها ، وهؤلاء هم الفاطميون عاشوا ماعاشوا فى مصر بكتبهم ودعاتهم وقضاتهم لم يستطيعوا أن يغيروا من ناحية الجوهر شيئا من العقائد السنية ، وما هى إلا أن زالت أيامهم ودالت دولتهم حتى رجع المصريون سيرتهم الأولى سنيين مخلصين .

وفى سبيل الملاءمة بين هذين العاملين سارت الناحية العلمية بين المد والجذب ، واختلف العلماء طرائق قددا : فريق لا يرى شيئا من التساهل فى سبيل سلطان المماليك إلا إذا كان تحت شرع صريح يجيزه ، وفريق كان يحاول الفينة بعد الفينة أن يجد طريقا هنا أو سبيلا هناك من مستند شرعى ولو على تأويل ضعيف لتثبيت دعائم هذه الدولة التى أبلت البلاء الحسن ، والتى كثيرا ما كان بعض سلاطينها يتظاهرون بغيرتهم على الفقه والشريعة والدين ، بل كثيرا ما كان بعض سلاطينها يجلسون للقضاء ويُجلسون بعض القضاة معهم ، كما كان يفعل الظاهر بيبرس ، والأشرف خليل بن قلاوون ، وكان إذا ما استوى على منصة القضاء قدمت إليه الخصومات على اختلاف أنواعها ، فيستشير قضاة الشرع ثم يحكم بما يمليه عليه رأيه ، وقد ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة وصفاً ممتعاً لجلوس السلطان للقضاء فى دارالعدل ، بل إن السلطان كثيرا ما كان يتدخل فى أحكام قضاة الشرع أنفسهم ويعنفهم أحيانا إذا لم يقضوا بحكم يرضيه ، وإليك ما رواه ابن إياس فى حديثه عن السلطان الغورى : « وفى صفر من عام ٩١٧ صعد الخليفة الى القلعة ليهنأ بالشهر ، وكذلك القضاة الأربعة ، فحصل فى ذلك اليوم للقاضى شمس الدين الحلبى

غاية المقت من السلطان وكاد يبطش به ، وسبب ذلك أنه حكم فى بعض الوقائع بما اعترض عليه فى ذلك ، فتغير خاطر السلطان عليه ، ولم يقبل له عذرا ، وحط على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين بن الطويل بسببه ، وكان مجلساً مهولا » .
وهم بهذا التصرف يرجعون لطبيعتهم من حب الغلب والاستبداد بالأمر مهما حاولوا ستر ذلك بالتظاهر بحب الشرع وخدمته ، وخدمة الدين وحملته ، ولم يكن موقف الخليفة الذى كانت تستمد منه فى الظاهر سلطة هذه التولية ، والأذن فى القضاء والأوقاف لتغنى فتيلا ، فلم يكن هو أسعد حالا من الفقهاء ، ولم يكن يملك من الأمر من شىء ، وكانت باسمه تؤخذ الدنيا جميعا ، وما من ذاك شىء فى يديه ، بل إن أحد خلفاء بنى العباس فى مصر نفى الى الصعيد بسبب كلمة قالها .

وكان بعض الفقهاء فى بعض الأحايين لا يرون من دين الله أن يسكتوا على ما لا يتفق وذلك الدين كما روى أن عز الدين بن عبد السلام ترك دمشق لأن سلطانها الصالح إسماعيل استعان بالافرنج وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف فأنكر الشيخ عزالدين عليه ذلك وترك الدعاء له فى الخطبة وساعده فى ذلك الشيخ جمال الدين أبوعمرو بن الحاجب المالكى ، فغضب السلطان منهما فخرجا إلى الديار المصرية ، فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين وهو فى الطريق قاصداً يتلطف به فى العود إلى دمشق ، فاجتمع به ولاينه ، وقال له : ما نريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير . فقال الشيخ له : يا مسكين ، ما أرضاه يقبل يدى ، فضلا عن أن أقبل يده ؛ يا قوم أنتم فى واد ونحن فى واد ، والحمد لله الذى عافانا مما ابتلاكم به .

وظل الشيخ عز الدين بن عبد السلام يناصب عظماء المماليك العداء لا لغرض شخصى يتعلق به ، بل لأنه كان يرى وقفته هذه خالصة لله وحده ، وكان يرى فيها نوعاً من الدفاع عن تلك الطوائف المستضعفة التى ما كانت تجد لها نصيراً إلا بين العلماء الأحرار المخلصين الجرآء فيما يتعلق بدين الله .

وكان بعض سلاطين المماليك يضيقون ذرعا بما يبديه بعض العلماء من مواقف

فإن أعياهم حلها بطريق اللطف والملاينة لجئوا إلى حلها من طريق آخر عملى نافع لهم ولا يغضب العامة ، كما حصل من الظاهر بيبرس ، فقد سأل مرة القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز فى أمر فامتنع من الدخول فيه ، فقيل له : مُر نائبك الحنفى - وكان القاضى هو الشافعى يستنيب من شاء من المذاهب الثلاثة — فامتنع من ذلك ، فلجأ الظاهر إلى تعدد القضاة الثلاثة من كل مذهب قاض ، فى القاهرة ، وفى دمشق .

هذه صورة عجلى مما كان الفقهاء يقعون تحت تأثير ظروفه ، وما من شك فى أن هذه الأشياء ما كانت تمر دون أن تترك آثاراً واضحة فى الفقه الإسلامى فقد حاول العز أن يتصدى لبيع عظماء المماليك ، وذكر أنهم لم تثبت حريتهم وأن حكم الرق باق عليهم ، فبلّغهم ذلك منظم الخطب — كما يقول السيوطى فى حسن المحاضرة — والشيخ لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحا ، وتعطلت مصالحهم ، وكان من جملتهم نائب السلطنة فاستشاط غضبا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه ، فقال : نعقد لكم مجلساً وننادى عليكم لبيت مال المسلمين ، فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجع ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة ، فلم يفد فيه ، فانزعج النائب وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ، ونحن ملوك الأرض ، والله لأضربنه بسيفى هذا ، فركب بنفسه فى جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ ، والسيف مسلول فى يده ، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى وشرح له الحال ، فما اكترث لذلك ، وقال : يا ولدى ، أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ، ثم خرج ، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال : ياسيدى ايش تعمل ؟ قال : أنادى عليكم وأبيعكم ، قال : ففيم تصرف ثمننا ، قال : فى صالح المسلمين ، قال ، من يقبضه ، قال : أنا ، فتم له ما أراد ونادى على عظمائهم واحداً واحدا ، وغالى فى ثمنهم ، ولم يبعهم إلا بالثمن الوافى ، وقبضه وصرفه فى وجوه الخير .

تأمل هذه العبارة لتعرف رأى الشيخ الفقهى فى الحرية وثبوتها والاعتماد على الظاهر أو تركه ، وفى قيام القاضى بقبض مال بيت المال وإنفاقه ،

وفى محاولة تعطيل كل التصرفات التى تمت على يد هؤلاء وتصور آثارها فى الحياة المصرية الاجتماعية والاقتصادية، ومصر كما تعلم — كلها كانت موزعة على طريق الإقطاع من بيت المال لهؤلاء المماليك، ثم هم يعطونها للفلاحين مزارعة أو مقاطعة أو غير ذلك.

وقد ذكر الأسعد بن مماتى فى كتابه: قوانين الدواوين، كشفا تفصيليا للاقطاعات استغرق جميع الأراضى فى مصر، فكيف يكون الحال لو طبق هذا الحكم الفقهى طوال عهد المماليك من الناحية الاقتصادية، والتصرفات الناتجة عن مثل هؤلاء المماليك، فى الوقت الذى كانت مصر محاطة بأعداء لها من جميع النواحى.

وعند ماتحرك المظفر قطز لقتال التتار صقع الأملاك وقومها، وأخذ زكاتها من أربابها، وأخذ من كل واحد من الناس من جميع أهل إقليم مصر دينارا، وأخذ من الترك الأهلية ثلثها — كما يقول المقريزى فى كتابه السلوك — فلما تولى الظاهر بيبرس أبطل جميع ذلك لثورة العلماء وغضب الشعب، فكان جملة ماأبطله ستمائة ألف دينار، وكانت هذه سنة أغلب المماليك الاقتصادية، مما كان يؤدى إلى إثقال كاهل الشعب بالضرائب والمكوس، وكانوا يلجئون الى ترك الأرض، وإغلاق الحوانيت، وكان لذلك أثر بين فى الأسعار، وكان بدوره يؤدى الى هبوط مستمر فى قيمة النقد، وقد ذكر المقريزى فى كتاب السلوك صورة تقليد الخليفة المستنصر للظاهر، وقد جاء فى ذلك التقليد بعد الديباجة ... ومما تؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيء السنن وجدد من المظالم التى هى من أعظم المحن، وأن يشترى بأبطالها المحامد، فإن المحامد رخيصة بأغلى ثمن: المظالم إذن كانت تتجدد فى صورة أو أخرى، وكان الشعب يئن مرة وأخرى.

ولم يكن ذلك النظام الإقطاعى الذى ساد مصر وساد أوروبا بأسرها فى العصور الوسطى ليسمح ببصيص من النور للطبقات العامة فى الشعب فهم محصورون

فى الإقطاعات يعملون فيها ولا يصل لهم شىء من نتائج ما كانوا يعملون ، بل كانوا كما يقول القائل :

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غمًّا وسط ما هو ناسجه

وما عليهم إلا أن يعملوا ، ثم يعطوا الأموال لهؤلاء الموظفين الذين كانوا يؤلفون سُلما مدرجاً يبدأ بالناظر وينتهى بالخازن والحاشر ، وقد أوضح كل هذه الوظائف صاحب قوانين الدواوين ، فكان على الفقهاء إذن أن يوجدوا حلولا شرعية لهذه الأحوال ، وأن يحدوا من طغيان هذه المظالم ، وكثيرا ما كان بعض الفقهاء يلجأ الى التشديد حتى فى المباح دفعاً للفساد بالقدر الممكن ، فقد أفتى جمهرة العلماء ـ كما قال فى المستصفى ـ بالرد على الزوجين لفساد بيت المال ، ولأن الظلمة لا يصرفونه الى مصرفه ، وقال ابن عابدين بعد نقل هذه العبارة ، فمن أمكنه الإفتاء بذلك فى زماننا فليفت بدون حول ولا قوة إلا بالله .

وقد كان لهم العذر فى التشديد فى الضرائب والأموال التى كانت تجبى ، وقد ذكر المقريزى فى الخطط نوعا من الرسوم التى كانت تتقاضى ، فقال عن واحد منها : « إنها كانت جهة تتعلق بالولاة والمتقدمين فيجبيها المذكورون من عرفاء الأسواق وبيت (الفواحش) ولهذه الجهة ضامن ، وتحت يده عدة صبيان ، وعليها جند مستقطعون وأمراء وغيرهم ، وكانت تشتمل على ظلم شنيع ، وفساد قبيح ، وهتك قوم مستورين ، وهجم بيوت أكثر الناس » .

هذا حال الفقهاء فى الزكاة والمواريث والضرائب ، أما أمرهم فى نظام الوقف والإجارة والإقطاع ، فكان أوسع مدى من ذلك ، فقد كانوا فى الأمور الأولى ينظرون إلى الشعب بدافع الرغبة فى التخفيف عليه ، وتفريج الضائقة عنه ، أما فى الأمور الأخيرة فقد فتحت لهم هذه الأوقاف والافتنان فيها وفى إشهاداتها مادة دسمة للأبحاث الفقهية وتطبيق قواعد الأصول عليها وبدأت تشعر بنوع جديد من التقنين والتشريع ، وبدأت تحس بألفاظ جديدة ومصطلحات جديدة وأساليب جديدة فى التوثيق واستتبع ذلك النضال بين الفقهاء ، كل يؤيد رأيه فى الأمر ويستوحى

القواعد العامة للتشريع ، لا بل إن بعض المسائل كان يستدعى تأليف رسالة أو كتاب بأكمله ، كما فعل السبكى فى فتاواه ، إذ ألف كتاباً قرابة خمسين من الصفحات فى مسألة وقف ، وسماه : « موقف الرماة فى وقف حماه » .

ونحن لانعدو الحق إذا قلنا إن أغلب الكتب التى عنى أصحابها بمسائل الوقف وفتاواه كانت وليدة هذا العصر الذى كثر فيه الواقفون ، وكثرت أوقافهم ، وتعددت شروطهم ، وتعقدت عباراتهم . وتعثر العلماء فى فهم وجه الأمر فيها ، لا فرق فى ذلك بين مذهب ومذهب ، خصوصاً فى الوقت الذى كان القضاء فيه فى مصر متعدداً ، فلم يكن تطبيق قواعد الفقه على الحوادث مقصوراً على مذهب دون آخر ، ولا بحث المسائل فيه خاصية لفقيه دون آخر ، ولذلك تجد فتاوى غير قليلة من علماء جميع المذاهب فى المسائل المتعلقة بالأوقاف ، سواء منها ما كان للأمراء وللأفراد ، وسواء منها ما كان على جهات لا تنقطع ، أو كان من قبل الوقف الأهلى ، حتى كان نوع التوثيق الذى كان سائداً فى ذلك العصر أنموذجا يحتذى حتى اليوم فى الوثائق الخاصة بالأوقاف وشروطها ومصارفها ، وإن كان قد حصل بالتقنين تعديل فيها ، فهو نقل من مذهب إلى مذهب ، أو عدول عن قول إلى قول ، مما كان معمولا به فى ذلك العصر الذى نتحدث عنه .

ولا نعدو الحق أيضاً إن قلنا إن الباب الوحيد الذى أفرد بالتأليف فتاوى وشروحا وتعاليق ، هو باب الوقف ، مع أن هناك أبواباً كانت جديرة بالتأليف لنوع الحياة الاجتماعية التى كانت سائدة يومذاك ، كأنواع الضرائب والجبايات ما حل منها وما حرم ، لا بل إن هناك أبواباً أخرى يعجب القارىء والسامع لعدم إفرادها بالتأليف ، كالمسائل المتعلقة بالضمانات والغرامات والالتزامات ، وإنك لتجد فيها كتباً قليلة تعد على أصابع اليد فى جميع المذاهب ، ولسنا بمستطيعين أن نعزو ذلك إلى سبب خاص ، فهناك أسباب عدة يمكن التماسها ، بعضها مادى وبعضها أدبى ، يرجع لرغبة العلماء فى حب الغلب ، والرغبة فى إظهار البلاغة والبراعة فى التفريع والتخريج ، مع أن الصلات المالية التى كانت تحكم العقود بين المقطعين والفلاحين — كما كانوا يسمونهم — والالتزامات العسكرية التى كانت تفرضها

الدولة ، كانت تستدعى كتباً لا يحصيها عد لتحفظ للتاريخ لوناً من ألوان الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى كانت تسود مصر قرابة خمسة قرون وأكثر وقد يكون سبب ذلك ما أسلفنا من أن بعض الموضوعات التى كانت بحكم الطبيعة من اختصاص قضاة الشرع قد نزعت منهم وسلمت للحجاب ، ليحكموا فيها بين المماليك لا بل بين المماليك والمصريين مما أذهب كثيراً من الأحكام دون أن تدون طبعاً لأن الفقهاء كانوا يعدونها أحكاماً جائرة ضد الشرع يجب أن تهمل .

هذه لمحة عابرة عن أثر نظام المماليك فى الحياة المالية والاقتصادية فى الضرائب ورأيهم فيها ، وفى الأوقاف ، وما تركت من آثار ، ونرجو أن يكون لنا رجعة لنتكلم عن أثر النظام فى باقى أبواب الفقه الخاصة بالمعاملات ، وعن الظاهرة التى كانت تبدو على جميع الكتب الفقهية المؤلفة فى ذلك العهد ؟

لون من التعصب

نقل الإمام الرازى عن شيخه ، فى موقف المقلدين من النصوص التى تكون مخالفة لآراء أئمتهم ، عند تفسيره لقوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قال :

قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضى الله عنه : قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله فى بعض المسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف ذلك ، فلم يقبلوا تلك الآيات ، ولم يلتفتوا إليها ، وبقوا ينظرون إلىّ كالمتعجبين ـ يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية وردت عن سلفنا على خلافها !

[تفسير الرازى]

الدّين والدّولة في مشروع الزّكاة

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستـــاذ الشيخ محمد محمد المـــدنى

المفتش بالأزهر

تتجه النية فى هذه الأيام إلى إصدار قانون يجعل جباية الزكاة إلى الدولة ، وينظم نصابها وقيمتها ، وأنواع الأموال التى تكون فيها والتى تعفى منها ، ومصارفها التى تنفق فيها ، على أن يستمد هذا القانون من أحكام الشريعة الإسلامية الغراء ، دون تقيد بمذهب معين من مذاهب المسلمين

ولا شك أن الدافع إلى ذلك دافع شريف يجب أن يحمد ويشكر ، بيد أن بعض الكتاب أثار اعتراضاً على فكرة إصدار هذا القانون ، لا من حيث موضوعه فحسب ، ولكن من حيث المبدأ الذى يقوم عليه أيضاً ، وهو مبدأ الاعتراف بالصلة بين الدين والدولة ، مع أن الواجب ـ فى نظره ـ هو قصر الدين على ميادين العبادة والأخلاق والعواطف الشريفة .

ولما كان هذا الموضوع ذا أهمية وخطر لدى المشتغلين بالفقه والقانون فى شتى البلاد الإسلامية ، وكان للزكاة نفسها شأن فى الدين والمجتمع بعيد الأثر ، فإنى أرى من الحق علىّ أن أدلى فيهما برأيى ، لعل فيه خيراً للإسلام والمسلمين . .

ينقسم البحث فى هذا الموضوع قسمين :

(١) المبادىء التى ذكرها الكاتب وبنى عليها معارضته لهذا المشروع .

(٢) رأيى فى جواز إصدار تشريع يُلزم مالكى النصاب بأن يؤدوا زكاة أموالهم للدولة .

* * *

أما القسم الأول فإنى أقدم بين يدى بحثه ، نص ما ذكره الكاتب ، ليشترك القراء معى فى فهمه ، وإدراك ما ينطوى عليه :

يقول الكاتب بعد أن ساق ملاحظة شكلية لا تتصل بالموضوع :

« . . . أما الملاحظة الثانية فهى أخطر من أختها ، لأنها لا تتعلق بالشكل والاختصاص ، بل بصميم الموضوع ، وأساس التشريع ، فالمشروع كما يظهر من اسمه ، ومن التفصيلات المحيطة باستصداره ، يستمد حكمته وأحكامه من الدين الإسلامى الحنيف ، وهنا يواجهنا بحث جد دقيق وخطير ، وهو علاقة الدولة بالدين ، وعلاقة الدين بالسياسة ، ولا يخفى أننا فى مصر نجرى فى حكمة واعتدال على فصل الدين عن أمور الحكم وخلافات السياسة ، وأن الحركة الوطنية أورثتنا مبدأ جليلا ينبغى لنا أن نعض عليه بالنواجذ ، وهو يقضى بأن الدين لله ، والوطن لجميع المواطنين ، ولقد حاول البعض أخيرا خلط الدين بالسياسة ، ودعا الى جعل القرآن الكريم أساساً للتشريع ، فما جنينا من هذه التجربة غير الشر المستطير الذى نعانى بأسه حتى الآن ، أقول ذلك وأنا أول الفخورين بدينهم الإسلامى الكريم ، أعمل مع العاملين على أن يرجع المسلمون إليه فى تهذيب نفوسهم ، وتقويم أخلاقهم وتحريك هممهم ، وبعث وطنيتهم ، ولكن الوطن المصرى ليس لأهله المسلمين وحدهم ، والدول المتمدينة كلها تحرص على فصل السياسة عن الدين ، والتجارب الماثلة عندنا جديرة بأن تفتح أعيننا على الأخطار التى تتعرض لها إذا تنكبنا هذا السبيل القويم » .

ثم طالب الحكومة بالعدول عن هذا المشروع لهذه الأسباب ، مبينا أنه لا يكره أن تضرب الضرائب المدنية مهما ثقلت ما دامت مطلوبة لحاجات الإصلاح والعدالة الاجتماعية ، وختم كلمته بقوله : « ولكنني أحرص وأخشى على مبدئنا الوطنى الحكيم : الدين لله والوطن للجميع » .

من هذا يتبين أن الكاتب يبنى معارضته للمشروع على أمور يزعم أنها حقائق مسلمة ، فرغت مصر منها ، وأصبحت أسساً ثابتة فى نظامها ، يجب أن تفتح عينها على الأخطار التى تتعرض لها إذا تنكبت سبيلها القويم .

وتلك الأسس المزعومة هى :—

(١) الفصل بين الدين والدولة ، وهو « مبدأ جليل ، نسير عليه فى حكمة واعتدال ، وقد ورثناه عن الحركة الوطنية ، وأخذناه عن الدول المتمدينة ، وحرصنا عليه فى سائر تشريعاتنا » .

(٢) وجوب قصر الدين وأحكام القرآن الكريم ، على ما يتصل بتهذيب النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وتحريك الهمم ، وبعث الوطنية .

(٣) الاعتبار بما أثبتته التجربة حينما حاول البعض الدعوة إلى جعل القرآن الكريم أساساً للتشريع ، تلك الدعوة التى ما جنينا منها إلا الشر المستطير .

* * *

ولقد أخطأ هذا الكاتب خطأ عظيما ، وضل ضلالا بعيدا ، وأساء إلى دينه ووطنه وقومه ، وهو يحسب أنه من الذين يحسنون صنعا ، وإليكم البيان :

(١) أما عن المبدأ الأول الذى زعمه متقرراً ثابتاً ، فإنه قد اشتبه عليه أخذ الدولة ببعض النظم والتشريعات التى تتنافى فى جملتها أو بعض تفاصيلها مع الشريعة الإسلامية ، فظن ذلك رفضاً للشريعة ، وفصلا بينها وبين شئون الدولة ، والواقع أن نظامنا المصرى ، منذ العهد التركى كان قائماً على اعتبار التشريع الإسلامى هو الأساس والمصدر ، فكانت الدولة العثمانية هى دولة الخلافة الإسلامية ،

وكانت تأخذ فى أحكامها وتشريعاتها بمذهب الحنفية ، وكان كل مشروع من مشروعات قوانينها يخرّج على أساس هذا المذهب غالباً ، أو على أساس غيره من المذاهب الإسلامية ، إذا مست الحاجة إلى ذلك ، ومن المعروف أن الشريعة الإسلامية صالحة لمسايرة الإصلاح والرقى ، وأن الله لم يجعلها كلها نصوصاً ، وإنما جعل شطراً عظيما منها ، بل أعظم شطريها ، راجعاً إلى الاجتهاد وتحرى المصلحة فى دائرة القواعد العامة التى ترشد إليها النصوص القاطعة ، والأصول المحكمة ، وقد كان ذلك من أسباب الخصوبة والمرونة التى اشتهر بها الفقه الإسلامى ، وأصبحنا نرى فى كثير من المسائل التى تعرض للبحث على بساط هذا الفقه ، سائر الاحتمالات التى يحكم بها العقل ، وقد قال بكل احتمال فقيه مجتهد له دليله وحجته ، حتى ليصعب أن نرى حكما من الأحكام العملية ليس له إمام يقول به من بين فقهاء المسلمين .

كانت الدولة العثمانية تسير فى تشريعاتها على هذا الأساس — ولا أقصد طبعا أنها لم تكن تشذ عنه فى شىء ما ، ولكنه كان هو الأصل والكثير الغالب — وكانت مصر تبعا لها ، بل كانت من قبلها ، تجرى على ذلك فى تشريعاتها وأحكامها وكان فيها قاض لكل مذهب من المذاهب يحكم بما أنزل الله ، وقد ظلت على ذلك رغم تقلب حكوماتها ، والدول المسيطرة عليها ، لا يستطيع أحد أن يدعى خروجها على الشريعة أو الفصل فيها بين الدين والدولة ، وإن كانوا فى بعض الأحيان يخالفون أحكام الإسلام ، ويقرون ما لا يقره الإسلام ، حتى كان عهد النفوذ الأوربى ، فعمل المستعمرون والمحتلون على إصدار بعض القوانين المستمدة من قوانينهم فى الأمور المدنية والاقتصادية والجنائية ، ليست كلها مما يخالف الشريعة الإسلامية ، وليست مبنية على تقرر مبدأ الخروج عليها ، والانفلات منها ، وبقيت مع ذلك أمور كثيرة على حالها من الصلة الوثيقة بالفقه الإسلامى ، كالوقف ، والزواج ، والطلاق والميراث ، والوصية ، وغير ذلك من الأمور التى اصطُلح فيما بعد على تسميتها « بالأحوال الشخصية » وأُفردت لها محاكم خاصة .

ولما قامت الحركة الوطنية لم يكن من أغراضها التخلص من أحكام الشريعة

الإسلامية ، ولم نسمع أو نقرأ عن أحد قوادها أنه نادى بذلك أو عمل عليه ، وكل ما حدث فى ذلك ، أن المغفور له سعد زغلول باشا نادى بعدم التفرقة بين سكان مصر من حيث الأديان ، فالجميع مواطنون لهم ما للسلمين وعليهم ما عليهم وذلك ليسد الثغرة التى كان المحتلون يودون لو استطاعوا توسيعها ، وهى ثغرة « الأقليات » وقد فوّت عليهم المصريون ذلك باتحادهم واتفاقهم على تحرير وطنهم من غير أن تسود بينهم فكرة الانسلاخ من أحكام الشريعة الاسلامية ، أو أن يشترط بعضهم على بعض أحكاماً معينه ، وليس من المعقول أن يشترطوا ذلك ، أو يتفقوا عليه ، فإنه ما دامت الأحكام المدنية فى أوروبا وفى مصر لا تستمد من مبادىء الدين المسيحى أو الدين اليهودى ، فسواء على أهل هاتين الملتين أن يُحكموا بتشريع أوربى أو بتشريع إسلامى ، وكل ما يهمهم فى ذلك أن يُحكموا بتشريع ملائم للمصلحة والعدل مطابق لما تقضى به سنن الحياة ، ولا شك أن التشريع الإسلامى كفيل بذلك بشهادة خصومه قبل أصدقائه .

ولهذن فلم تأت الحركة الوطنية فى هذا الشأن بجديد ، وإنما ذكّرت بمبدأ إسلامى مقرر منذ أول الإسلام ، هو رعاية حق المواطنين من أهل الأديان الأخرى ، والسماح لهم بإقامة سائر الشعائر ، حتى كانت الدولة ـ وما زالت ـ تقيم لهم الكنائس والمعابد ، وتنفق على مجالسهم الملية ، وتعين مدارسهم ، ولا تحول بينهم وبين ما يريدون فى أنفسهم وأموالهم وأقضيتهم وأنكحتهم وسائر نظمهم ، إلا ما تقضى الضرورة بوحدة الحكم والنظام فيه .

وقد جاء الدستور المصرى على أثر الحركة الوطنية ، فرعى هذين الأصلين ، ولم يلغ واحدا منهما : إذ اعترف بأن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، وحفظ لكل إنسان حقه فى معتقده ، وفى إقامة شعائره الدينية على ما يريد ، وتقريرُه لهذا الدين رسمياً ينافى القول بالفصل بين الدين والدولة ، لأن الدول التى قررت هذا الفصل ، لم تنص مثل هذا النص فى دساتيرها ، وإنما نص بعضها على أنها دول لادينية ، وترك بعضها الأمر دون نص على شىء إيجاباً أو سلباً ، والدول التى تجرى

فعلا على أساس الفصل بين الدين والدولة إنما تجرى على ذلك لأنه ليس فى دينها أحكام عملية تفصيلية فى شئون الحكم يمكنها أن تعمل بها ، وتسير على تفاصيلها .

وما زال رجال الدولة المصرية رسميين وغير رسميين مقتنعين بأن هذه الشريعة الإسلامية هى الشريعة الصالحة للأمه ، المسايرة لما ترجو من نهضة وتقدم ، وإن كانوا يرون أنهم مضطرون ـ الى وقت معلوم ـ لمسايرة الواقع العملى فيما لدينا من تشريعات أجنبية ، حتى تتهيأ النفوس تدريجياً للعمل بسائر أحكام الشريعة ، وإنا لنرى كثيرا منهم يبدى نشاطا محمودا فى لفت الأنظار الى الشريعة الإسلامية وفى اقتباس ما تتهيأ الظروف لاقتباسه منها .

فالقول بأن الفصل بين الدين والدولة مبدأ متقرر ثابت تجرى عليه مصر ، قول باطل لا صحة له ، وزعم جرىء لا دليل عليه ، وفيه طعن سافر على رجال الحكم والدولة ، وإغضاء عن دستورها وأحكامها .

* * *

(٢) وأما عن المبدأ الثانى وهو وجوب قصر الدين وأحكام القرآن الكريم ، على غير العمليات من شئون الحكم والسياسة ، فهو يدل على جهل هذا الكاتب بطبيعة الشريعة الإسلامية أو تجاهله ، فإن هذه الشريعة لم ينزلها الله شريعة روحية قاصرة على شئون العبادة والتهذيب ، وإنما هى شريعة عملية ، تضع أسمى المبادىء التى تكفل سعادة الأفراد والجماعات ، وتنبنى على المصالح وتقدرها حق قدرها ، ولا تتعارض مع أى أسلوب من أساليب الحكم والسياسة والنظام ما دام مبنياً على الشورى ورعاية حق الحاكمين والمحكومين ، وكفالة الطمأنينة والقرار والأمن للأمة ، وإذا كان مثل هذا المبدأ الذى يطالب الكاتب بتطبيقه يقال فى الشرائع الأخرى ، فلأنها شرائع روحية أو نصية حرفية ليست لها قوة الشريعة الإسلامية واستقصاؤها وقدرتها على مجابهة المشكلات ، ومسايرة النهضات الإصلاحية .

وإنى لأعجب كيف ينادى مثل هذا الكاتب المسلم بذلك ، وكيف يجمع بين إيمانه بالقرآن وشريعة القرآن ، وما يدعو اليه من شلّ هذه الشريعة ،

واطراح كتابها ظهريا ، وإذا كانت المسألة فى الدين والشريعة مسألة تهذيب للنفوس وتقويم للأخلاق فحسب ، فأى فرق فى هذا بين شريعة وشريعة ، ولماذا نعتز بشريعة الإسلام ، ونعتبرها أكمل الشرائع ، وأجدرها باتباع الناس والفرض أنها كغيرها مقصورة أو يجب أن تكون مقصورة على التقويم والتهذيب ؟

ولكن هؤلاء لا يقولون ما يقولون إلا تقليداً للغرب ، وإعجابا بما عند الغربيين ، فقد رأوا القوم هناك يقولون بهذا فقالوا هم أيضا به ، وفاتهم أن هناك فرقا بين الشريعة التى تؤمن بها ، والدين الذى يؤمن به القوم ، وأن ما يصلح أن يقال هناك لايصلح أن يقال هنا ، وقد كانت شريعة الاسلام سائدة أيام الراشدين والأمويين والعباسيين ، فلم تحل بين المسلمين والتقدم ، بل هى التى هيأت لهم النصر والقوة والعزة والعلم والعدل ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، وإن الأمر فى ذلك لواضح ، وإن الحقائق فيه لمشهورة معلومة ، ولكن الذين غزونا فى ديارنا وأوطاننا غزونا أيضاً فى عقولنا وثقافتنا ، وطبعوا كثيراً من شبابنا على الشعور بالنقص ، والتطلع إلى مسايرة ركب الغالبين سواء أقادونا إلى خيرنا أم إلى شرنا ولعمرى إنهم لقواد الشر ، ودعاة الفساد والانحلال .

* * *

(٣) وأما عن المبدأ الثالث فما نشك فى أن الكاتب أراد أن يستغل غضب الرأى العام على طائفة رآها تنحرف عن القصد ، وتلتوى عن السبيل ، وتجانب خطة الرشاد ، فدعا إلى الاعتبار بموقفها ، وأنذر بالشر المستطير إذا تغاضينا عنه فلم نفتح له أعيننا ، وهذا خطأ ، فما كان الاسلام ليدعو إلى الإسراف أو إلى الالتواء ، وما غضب الرأى العام لأن تلك الطائفة التى يعنيها الكاتب كانت تنفذ تعاليم القرآن ، وأحكام الاسلام ، وتسير على نهجها القويم ، وإنما غضب لأنه رآها تنحرف عن ذلك وتبعد عنه ، وتسير فى طريق لا تفضى إليه ، والله يعلم أن كل ذى عقل وإيمان من رجال الحكومة ورجال الشعب جميعاً يسره أن تسير البلاد الاسلامية فى سبيل التدرج بسائر التشريعات حتى تكون

كلها متفقة مع الشريعة ، بل إنى لأعرف بعض المسيحيين يسرهم ذلك لما عرفوه فى الشريعة الاسلامية من عدل وإنصاف ، وملاءمة لطبيعة الناس ، ومسايرة لكل خير وإصلاح .

ألا إن ما كتبه هذا الكاتب الجرىء لدليل على حاجة الأمة الاسلامية إلى من يحذرها من فتنة الغرب وضلاله ، ويبصرها بما فى دينها وشريعتها من مزايا ، ويأخذ بأيدى شبابها الذين غرتهم بهارج المدنية ، وزلزلت إيمانهم بأنفسهم وقومهم وتاريخهم وثقافتهم وأفكارهم ، ليعلموا أنهم قوة يخشاها أعداؤهم فيحاولون إضعافها ، وأن دينهم هو الدين ، وعلمهم هو العلم ، وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا إلاحين تقبلوا فى أنفسهم وفى ثقافتهم ودينهم حكم الغرب ، وتركوا دعاوته الكاذبة الخاطئة تتغلغل فى أعماق نفوسهم ، وتوحى إليهم أن يتبعوهم ويغرقوا فى لججهم ، ويتنازلوا لهم عن شخصيتهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون .

إن الأمة الاسلامية لفى حاجة الى من يبصرها بذلك ، وإن حقا على كل ذى علم وإيمان وغيرة على دينه ووطنه أن يساهم فى حمل جانب من هذا العبء ، لننهض جميعاً بأنفسنا ، ونخرج من هذه المحن المتلاحقة التى شككتنا فى أنفسنا وشككت فينا أبناءنا ونحن خير أمة أخرجت للناس .

* * *

أما التشريع المراد إصداره ، فإنى — مع إعظامى وإجلالى الروح الكريم الذى دفع إليه وأوحى به — أحسب أن ضرره أكبر من نفعه ، ذلك أن الزكاة بمقاديرها المقدرة فى نصابها ، وقيمة المخرج منها ، والأموال التى تكون فيها ، وكل ما يتصل بها فى الشريعة ، شأنٌ يجب أن يبقى له خطره وجلاله ، وألا يشوه بجعله ضريبة كسائر الضرائب ، فإن المالك هو أعرف الناس بنصابه ، وما له وما عليه ، وهو أعرفهم بمن يستحق بذله ومعروفه من جيرانه وعشيرته وذوى رحمه ، وهو أحوج الناس إلى استحضار معنى العبادة فيما يؤديه من زكاة ماله ، واستشعار روح الطاعة

لربه الذى أعطاه وأغناه ، وقد جعل الله من حكمة الزكاة أنها توجد بين الغنى والفقير صلة مودة وحب شخصى ، فالغنى يتعرف أحوال الفقير وتأخذه عليه الرحمة والشفقة ، والفقير يدرك هذه العاطفة فى الغنى فيحبه ويطهر نفسه من درن الحقد عليه ، ويتمنى له المزيد من الفضل والخير ، وبهذا يتطهر المجتمع من كثير من أسباب الشر والعداوات ، أما إذا جمعت الزكاة من ذوى الأموال بواسطة الحكومة فإن هذه المعانى تضيع ، ويشعر الناس بأنها ضريبة كسائر الضرائب ، ويأبى الفقير إلا أن يأخذ من الغنى ما تعود أن يأخذه فى كل عام ، فإما أن يعطيه وهو كاره متبرم ، وإما أن يقول له : لا حق لك عندى فقد أعطيت الحكومة زكاة مالى ، وكلا الأمرين له مرارته وغضاضته ، على أن مشروع الزكاة الذى يراد إصداره سيصطدم بكثير من العقبات فى تشريعه وتنفيذه ، كجعله على جميع أبناء الوطن دون تفريق بين مسلم وغير مسلم ، وجعله على الأرباح دون رءوس الأموال ، وجعله على نصاب غير النصاب الذى تعرفه الشريعة ، وسيحمِّل الدولة أموالا كثيرة لتحصيله وضبطه ، والفقراءُ والمساكين أولى بهذه الأموال ، وقد علل الفقهاء المسلمون أفضلية دفع المالك زكاة ماله لمستحقيها بنفسه ، بمثل هذه الأسباب التى ذكرتها ، وربما كانت أجمع عبارة فى ذلك هى عبارة موفق الدين بن قدامة فى كتابه « المغنى » جزء ٢ ص ٥٠٩ إذ يقول :

« وأما وجه فضيلة دفعها بنفسه فلإنه إيصال الحق إلى مستحقه مع توفير أجر العمالة ، وصيانة حقهم عن خطر الخيانة ، ومباشرة تفريج كربة مستحقها ، وإغنائه بها مع إعطائها للأولى بها من محاويج أقاربه وذوى رحمه ، وصلة رحمه بها ، فكان أفضل كما لو لم يكن آخذها من أهل العدل ، فان قيل فالكلام فى الإمام العادل إذ الخيانة مأمونة فى حقه ، قلنا الإمام لا يتولى ذلك بنفسه وإنما يفوضه إلى سعاته ، ولا تؤمن منهم الخيانة ، ثم ربما لا يصل إلى المستحق الذى قد علمه المالك من أهله وجيرانه شىء منها وهم أحق الناس بصلته وصدقته ومواساته » .

لهذا أرجو من أصحاب الشأن فى هذا المشروع أن يتريثوا ولا يقدموا على هذه

الخطوة ، فإن ضررها فيما أعتقد أكبر من نفعها ، ولهم أن يضربوا ما شاءوا من من الأموال غير الزكاة المعلومة المقدرة نوعا ونصابا وقدرا ، كما هو رأى كثير من الفقهاء ، يقول الغزالى فى كتاب الزكاة من « إحياء العلوم » ما نصه : « وقد ذهب جماعة من التابعين – إلى أن فى المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعى والشعبى وعطاء ومجاهد. قال الشعبى بعد أن قيل له : هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم . أما سمعت قوله عز وجل : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » – يريد مع قوله فى هذه الآية بعد ذلك « وآتى الزكاة » – واستدلوا بقوله عز وجل « ومما رزقناهم ينفقون » وبقوله تعالى : « وأنفقوا مما رزقناكم » وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة ، بل هو داخل فى حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجا أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة » .

طلائع الأعداء

« علمتنا التجارب ، ونطقت مواضى الحوادث ، بأن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذَ وكُوًى لتطرق الأعداء إليها ، وتكون مداركُم مهابطَ الوساوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون – بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واعتقاد من ليس على مثالهم – شؤماً على أبناء أمتهم ، يُذلونهم ويَحْتَقِرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت . . . ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم » .

[الشيخ محمد عبده]

نشأة الرواية وتطورها
في تاريخ الأدب العربي

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ محمد فؤاد السيد

المدرس بالأزهر

حدثنا التاريخ بأنه قد تسنّى للأمة العربية من قوة الحفظ والتحمل مالم يتسنّ لكثير من الأمم القديمة الأخرى ، وذلك لأنه قد توافر لديها أمور عدة ، جردت من ألسنتهم أقلاما وجعلت من حوافظهم صحائف ، وأوجدت من بداتهم أوعية لأفصل الحجج حداً ، وأقواها منطقاً وأنصعها بيانا ، وأسرعها انطلاقا ، وألفت من حياة كل فرد أو عشيرة كتابا أو بعضاً من كتاب ، حتى تكوّن لهم من هذا كله ذلك السجل الأدبي العظيم الذي يجمع تاريخهم ، ويشمل نسبهم وحوادثهم . وأنهم في ذلك كانوا أصحاب الشأو الأبعد ، والغاية التي ليست بعدها غاية بالنسبة لمن شا كلهم من الأمم والشعوب القديمة الأخرى كاليونان .

وإذا حاولنا حصر هذه الأمور ألفيناها أربعة هي : طبيعة بلادهم أو بيئتهم الجغرافية ، ونظامهم الاجتماعي ، ونظامهم السياسي ، وأمّيتهم . فما كانوا يقرأون إلا ما تسطّره لهم الطبيعة ، ولا يكتبون إلا ما تمليه عليهم من معانيها ، فينقلون عنها بحسّهم ومشاعرهم ، ويدوّنون بألسنتهم في صحائف أفكارهم ؛ تسعدهم في ذلك طبيعتهم المواتية ، وقرائحهم الصافية ، وحوافظهم الماضية ، واستعدادهم المتوثب المتحفز ؛ وما نعرف شيئاً غير هذا ، أو لعله لا يوجد شيء غيره نستطيع أن نجعله سبباً في قوة حفظهم التي اشتهروا بها من بين جميع الأمم ؛ كما أننا لا نستطيع أن نجرد واحداً من هذه الأمور الأربعة ونعتبره على انفراده سبباً في هذا ، فهي

على الأكثر علل تختلف قربا وبعداً من معلولها عند النظر ، ولكن لا بد منها جميعا فى إحداث هذا الأثر ، وإيجاد تلك النتيجة ؛ ولنتبيّن ذلك نقول كلمة فى أثر كل منها على حدة :

أما طبيعة بلادهم ؛ فكل ما فيها معنوى شعرى ، يداخل ثنايا النفس ، ويتغلغل فى باطن الشعور ، ويوحى بشديد التأمل ، ويرسل الفكر من كل قيد ، ويمسّ أوتار القلب ، ويصيب مباعث الوجدان ، ويبعث الخاطر قوياً حاداً .

آثارها فى النفس مفصّلة غير مجملة ، واضحة غير مبهمة ، متميزة غير مختلطة ، يعدّها العادّ إذا شاء ، فهى سبيل إلى الصفاء ، بل هى الصفاء عينه ، وذلك مما يرحّب به الطبع ، ويتلقاه القلب بأحسن القبول ، ويتركز فى النفس ، وتنتقش آثاره فى الحافظة ؛ ولا أدل على عكس هذا من حياتنا الحاضرة فى تزاحمها وتداخلها واضطرابها .

وأما نظامهم الاجتماعى : فإن الحكم القَبَلى يستتبع من الفرد الناشىء فيه حياة خاصة غير تلك الحياة التى يحياها أفراد الشعوب المحكومة بحكومات منظمة ، لأن أثره فى تربية الفرد وتقوية الذات — بالاعتماد على النفس حرة طليقة — أشد وأمعن من النظام الحكومى الواسع الذى تكون فيه السيطرة للقوانين المدّونة ، محوطة بعوامل الإرهاب ، فالوازع فيها أجنبي ضاغط مخوف ، بخلاف الحكم القَبَلى الذى كانت عليه العرب فى جاهليتها ؛ إذ هو أقرب إلى نظام الأسرة فى بساطته ، إلا بما يُؤثَر فى عشيرته أو قومه من عرف موروث ، أو عادة متّبعة ، وما هذا بالوازع الأجنبى ؛ لأنه وليد بيئته التى يعيش فيها فيشعر شعورها ، ويتجه اتجاهها بدون استيحاش أو نفار ؛ على أن سائر وجوه الارتباط فيهم بين الأفراد والجماعات بسيطة ، لا كلفة فيها ولا تعاظل ، وذلك مما يعين على الصفاء ، ويهيّء الأذهان للتأثر بما يرد عليها من المعارف والحوادث ، وبخاصة معارف الحياة العربية وحوادثها ؛ فإنها مما يهز النفوس ، ويعلق بها أشد التعلق .

وأما نظامهم السياسى : فإن طبيعة حياتهم ، وما فيها من كثرة الانتقال فى طلب العيش والأخذ بالثأر ، ورعاية الجوار ، والتساند مع الحليف ، والعصبية الممتزجه بدمائهم ، كل ذلك وما إليه أوجد لهم سياسة خاصه فى حربهم وسلمهم ، استوجبت لنفوسهم معانى قوية كثيرة لا يغنى فيها إلا الخاطر والبديهة المسعفة ، أو المفاخرة ، أو التعاير بالمثالب ، أو التنابز بالألقاب ، أو التفاضل بالأحساب والأنساب ، كل أولئك لا تفيد فيه الكتابة شيئا حتى وإن كانت من صفاتهم ، ولا ينصرهم فيه إلا الحوافظ القوية ، والألسنة الحادة ، تدرك الفرصة ، وتصيب المحزّ بأطلق حجة .

وأما أميتهم : فقد كانت عونا لهم على توجيه أذهانهم وتنشيطها فى تلقى الحوادث والتقاط المعلومات والمعارف من غير تواكل أو اعتماد على شىء آخر غير المحافظة .

هذا ما يتعلق بكل أمر من تلك الأمور الأربعة على حدته ، ولعلنا بعد فى حاجة للكلام عليها مجتمعة تحت ضوء من علم النفس ، رَوْما لتحقيق هذا البحث ، واستجلاء لهذه الآثار واضحة مؤيدة بما يتسع له المقام ، فنجد أن أقوى الوسائل وأهمها لجودة الحفظ هى :

١ — الإكثار من الروابط بين المعانى ؛ لأن ربط المعانى بعضها ببعض مما يزيدها قرارا وثباتاً فى الحافظة .

٢ — قوة الإحساس ودقة الإدراك الحسى ؛ فإذا كان الإحساس ضعيفاً كرؤية شىء أو سماع صوت من بعد ، أو كان إدراكه إدراكا حسياً مبهماً وغير دقيق أصبح من الصعب حفظه وتذكره .

٣ — استمرار المعنى وتكرر عروضه ؛ لأن الصور العقلية تضعف بمرور الزمن إذا لم تتكرر دائما خواطرنا بها .

٤ — قوة تأثير المعنى وقت ولوجه فى النفس ؛ لأن المعنى إذا اقترن به وقت ولوجه فى النفس روعة وقوة تأثير كان ذلك أدعى لتقرره ورسوخه فيها ؛ فإن الحوادث التى تهيج أنواع الوجدان لا تنسى .

٥ — انتخاب الوقت ؛ لأن ما يرد إلى الذهن وقت صفائه أشد رسوخا فيه وانطباعا به من المعانى التى ترد إليه وهو مضطرب ، ولذا اعتبروا البكرة خير وقت للحفظ والاستظهار .

فإذا نحن أردنا أن نتحقق وجود هذه الوسائل وتوافرها فى الحياة العربية ، أو إذا نحن شئنا تطبيق تلك الحياة على هذه الوسائل ، وإرجاعها إليها لتحقق لنا ذلك معهم برمّته على أدق الوجوه وآكدها .

هذا ولقد بقى أمر آخر له خطره : هو الاستعداد الطبيعى الذى خصّهم الله به من الحوافظ القويه التى امتازوا بها كما تمتاز كل أمة من الأمم بخصائص فطرية ، تكوّن مشخصاتها ، وتتزن بها قواها ، ويكمل بها تركيبها الطبيعى .

فإذا كانت تلك حالهم ، وكانت الكتابة غير طبيعية فى نظامهم الاجتماعى ، كان طبيعياً أن ينشأ فيهم الأخذ والتحمّل ، وكان طبيعياً أن يكون كل عربى راوية فيما هو من شئونه أو شئون أبناء جنسه .

رواية الشعر فى العصر الجاهلى :

ولقد كان للشعر فى الحياة العربية مكانة ممتازة ؛ لما هيأت له طبيعته السلسة ووسعه صدره الرحب ، وتسنّى له دون النثر من الترجمة عن دقيق الشعور ، والتعبير عن المعانى النفسية الشعرية التى كانت تفيض بها حياتهم فيضا ، حتى كان الشاعر فى قومه اللسانَ الناطق ، والقلب الخافق فى الدفع عن الأحساب والأنساب والاغتماز فى الأعداء ، يسجّل أيامهم وما تستتبعها من مكاره ، ويتحدث عن سلمهم وما يكنه من مباهج ، إلى غير ذلك مما تقتضيه حياتهم .

وبهذا كان للشعر مقام خاص فى الرواية ، واعتبره الرواة عموداً لها ، وكان أكثر ما يروونه للتاريخ دون سواه ، حتى اتخذوه حكماً ينتهون إليه ، ومرجعاً يستشهدون به على الزائف والجيد من الأخبار ، فكانت الرواية فيه أعم ، ونشأت له طبقة خاصة ترويه عن الشعراء الذين كانوا بمثابة المؤرخين .

رواية المثالب والمفاخر فى العصر الجاهلى :

أما المثالب والمفاخر فقد كان لها فى القبائل أفراد غير الشعراء يقومون عليها ، ويؤدون رسالتها ، ويُرجع إليهم خاصة فيها ، وطبقتهم فى الغالب من شيوخ القبيلة وسادتها من أهل أنسابها ، والقائمين على مفاخرها ، فصارت رواية ذلك غير رواية الشعر وأخص منها ، حتى تفرّغ لها ناسٌ كل همهم رواية المفاخر والمثالب ، وحفظ الأنساب ، يتنقلون لذلك فى العرب متقصصين مستوعبين حتى تطورت الرواية بعض التطور باقترابها من المعنى العلمى قبل الإسلام ، وظهرت طبقة من الجاهليين علماء بهذا النوع من الرواية تسمى : طبقة النسّابين كعُبَيْد بن شَرْيَة الُجرهمى وابن لسان الُحمَّرة وغيرهما .

الرواية فى الصدر الأول من الإسلام :

فلما ظهر الإسلام ، وكان المرجع فى أحكامه إلى القرآن والحديث ، كان الصحابة رضوان الله عليهم يأخذون ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت حلق مجالسه عليه الصلاة والسلام أول حلق علمية عرفها العرب .

ولا شك أن هذا الحدث الجلل ابتدأ يحوّل تيار الحياة العربية تحويلا كبيرا ، ظهرت آثاره على المسلمين أكثر من غيرهم ، فقد كانوا فى شغل عن حياتهم الأولى بما توجهوا إليه من أمر دينهم ليتفقهوا فيه ، وشغل المسلمون كذلك بصدّ هذا التيار القوى الذى صار يجرفهم فى طريقه ، حتى قبض النبى صلى الله عليه وسلم .

وجاء عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، فكان لا بد لهم فى حكوماتهم من الاستدلال عليها ، والفصل فيها ، بالرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لاتكون أحكامهم وآراؤهم مجردة عن التأييد بالحجة ، وكان لابد لهم فى هذا من شرط الإسناد الصحيح فى الرواية ، والتثبت فى النقل كما حصل من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، توخياً للصواب ، وصوناً للدين من عبث الفجار ومَن مردوا على النفاق ؛ حتى كان جلّة الصحابة — وفيهم عمر وعثمان وعائشة — يجلسون للنظر

فى الأحاديث وتصفّح وجوهها ، ليفرقوا بين صحيحها وكاذبها ، فاكتسبت الرواية بهذا روحا علمية جديدة ، كان للإسلام فيها كل الفضل .

وكانت الرواية الدينية الناشئة قد غلبت أختها الأدبية فى نفوس المسلمين ، وظهرت عليها ، وسترتها وراءها ، حتى صارت بسلطانها عليهم ، وقوة دواعيها فيهم ، بالمكان الأول ؛ ومع هذا كانت الرواية الأدبية إذ ذاك أقوى منها فى عهدها الجاهلى ؛ لأنها مع بقائها بحالها عند المشركين ، انتقلت كما هى إلى الإسلام ؛ فقد استمرت فى المسلمين رواية الشعر والخبر والأيام والأنساب ونحوها ، مما ورثوه عن أسلافهم فى الجاهلية ؛ ولم يهدمه الإسلام فيما هدم من الشّرك ، أو ما يؤدى إليه ، حتى كان فى عظماء الصحابة الحافظون للأنساب ، والعارفون بالأيام ، والراوون للأشعار والأخبار ، والقائفون للناس .

على أن العداوة والحرب بين الفريقين كانت سبباً فى تضخم الثروة الأدبية وتوسيعها ، وتقوية كيانها ، وزيادة فنونها ، بما استتبعته من نتائجها الطبيعية فيهم ، من مهاجاة بين الشعراء ، ومفاخرات بين السادة فى كل من الفريقين ؛ وبقيت رواية ذلك سلاحا فى يد كل خصم لمحاجة الآخر ، فضلا عما أحس به المسلمون من دواع قوية جديدة للاحتفاظ بهذه الثروة ، زادت عنايتهم بها ، وقيامهم عليها وأكدت فى نفوسهم الرغبة فى التعلق بروايتها وتلقينها مَن بعدهم خوف أن يفوت الانتفاع بها فى هذه الناحية الجديدة ، التى هى حاجتهم اليها فى تفسير القرآن والحديث

هذا ولقد بقى الحفظ عمدة الجميع فى الرواية ، كما كانوا قبل الإسلام ، حتى مضى هذا العصر من غير أن يدوّن شىء من مروّى الشعر أو الأخبار أو غيرهما .

الرواية فى العصر الأموى وبدء تدوينها فيه :

ثم جاء العصر الأموى ، وظهرت الكتابة ، وابتدأ تدوين العلوم التى اقتضاها الإسلام من شرعية ولسانية وغيرها من العلوم الأخرى التى اشتغل بها المسلمون فى ذلك العصر كالتاريخ والكيمياء والفلك والطب .

فكان النحو أسبق هذه العلوم فى التدوين ، وكان أول الكتب فيه صحيفة أبى الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ ﻫ وهو أحد التابعين بالبصرة ، لما كثرت الدواعى بانتشار الفتح الإسلامى ، واختلاط الأعاجم بالعرب ، فسرى اللحن فى اللغة ، وبدأت الألسن تلتوى بالعجمة ، وخشى المسلمون أن تمتد سراية اللحن إلى القرآن والحديث فى القراءة ؛ لما امتازت به اللغة العربية من اختلاف حركات الإعراب ؛ ثم كان من الطبيعى أن يبدأ أمر التدوين لسائر العلوم الأدبية الأخرى ؛ لما بينها من الارتباط ، ولأن الحاجة إلى الجميع كان قد أحسها القوم ، فقد دُون فى عهد معاوية بن أبى سفيان بأمره كتاب فى التاريخ لعُبَيْد بن شَرْية الجُرهمىّ النسّابة الاخبارى ، وكان قد استقدمه معاوية مع من استقدمه من علماء القوم ؛ ليقصوا عليه أخبار الماضين من العجم والعرب ؛ وكذلك دونت كتب تاريخية أخرى ذكرها ابن النديم عن هذا العصر لم يوقف لجميعها على أثر ، وقد وُضع فى الأنساب والمثالب كتابان ، وضعهما زياد ابن أبيه لابنه عبيد الله ، أحدهما فى نسبته إلى أبى سفيان ، والثانى فى مثالب القبائل العربية ، ليستظهر به ولده على العرب ، وكانوا قد أنفوا لنسبته إلى أبى سفيان وناءروه فانتصروا عليه ، فعمد بعد الى وضع هذين الكتابين ليكونا سلاحا فى يد ولده عليهم ؛ وفى هذا العصر أيضا ألّف فى السيرة عروة بن الزبير المتوفى حوالى سنة ٩٣ ﻫ ؛ وهكذا ابتدأ التدوين يأخذ مكانه فى العصر الأموى ، بجانب الحفظ ويزاحمه إلا أنه ــ نظراً لبدء نشأته إذ ذاك ــ لم يكن فى مثل هذه الكتب التى ذكرناها تدوينا بالمعنى العلمى التأليفىّ وإنما كان جمعاً لما يصيبه العلماء من الشعر والخبر وغيرهما مجرداً عن التبويب والتهذيب .

هذا وقد كان من الطبيعى أيضاً ـ تبعاً لمقتضيات ذاك العصر ـ تدوين العلوم الأخرى ، وكان أسبقها من العلوم الشرعية الحديث الشريف الذى كانت روايته بعدُ مثلا يحتذى فى رواية الأدب ، إسنادا وتدوينا وحفظا للسند ؛ إلا أنهم لم يبلغوا بها فى شىء من ذلك مبلغ الدقة فى رواية الحديث ؛ لما للحديث من شأن خاص

فى أصل الشريعة ، وبذا أخذت رواية الأدب طريقها إلى الصناعة العلمية ؛ ولقد نهض بها علماء الحديث ، بجانب من تفرغ لها من علماء اللغة والأخبار والأيام والمغازى والأنساب والمثالب والمفاخر ؛ وذلك لأنهم جميعا كانوا يطلبون رواية الأدب للاستعانة به على تفسير ما يشتبه عليهم من غريب القرآن والحديث ، وهما أفصح الكلام العربى على الإطلاق ، فكان من الضرورى رواية هذا النوع ، والاستزادة منه ، مع شديد العناية به ، والاحتياط فيه بالمقدار الممكن ، حتى تستقيم آراؤهم ، وتنهض حجتهم فيما هم بسبيله من تفسير الغريب والمشتبه ، ولا يتم لهم ذلك إلا بما يحتجون به من الشعر العربى والكلام العربى الصحيح ، مدعما بالسند ، دفعاً لما قد يتهمون به من الوضع والاختلاق .

ولا ريب أن الاتصال الشديد القائم بين الأدب والدين على النحو الذى ذكرنا جدير بحثّ العلماء فى ذلك العصر على اتخاذ الحيطة ، وصيانة الأدب مع الحديث من عبث أهل الأهواء ، وذوى الأغراض من الزنادقة والملاحدة الذين كثروا بكثرة الفرق الإسلامية ، وتحزّب الناس شيعاً ، إذ كان من همّ هؤلاء وهؤلاء أن يتصيدوا الفرص لإشباع أهوائهم بالدسّ والكذب والاختلاق فى الحديث وفى الأدب ، إما للتشنيع على أهل الإيمان كما كان يفعل الزنادقة ، وإما لاستدرار ما عند القوم واستمالتهم كما كان يفعل القصاص وأهل الأخبار .

لذلك دعت الحاجة الى السلوك بالأدب مسلك الحديث إلى أن صارت روايته مثل روايته صناعة علمية محضا فى عهد بنى مروان ، وكانت قد نشطت فيه الحركة العلمية نشاطاً قوياً ، وظهرت فيه الطبقة الأولى من الرواة أمثال عامر الشعبى المتوفى سنة ١٠٤ هـ ، وحماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هـ ، وأبى عمرو بن العلاء المتوفى حوالى سنة ١٥٧ هـ ؛ فإنهم تصدوا للرواية وعقدوا لها مجالسهم الخاصة ، فكانوا بهذا المعنى العلمى فى أول تاريخها ، ولذا كان يكتفى فى رواية الأدب بإيصال الإسناد إليهم (١) ، ولأنهم — لقرب العهد — كانوا يدعون أنهم نقلوا معظم ما يروونه عمن أدركوا الجاهليين ، أو عمن بعدهم ممن أدركهم ، هذا مع ما ذكر

(١) وقد اشتهر الاسناد بعد فى كتب الأدب الى من ولى هؤلاء كالأصمعى وأبى عبيدة وابن الكلبى

بعد من أنه لم يصح فى رواية الأدب سند يتصل بالعصر الجاهلى ، ولعل هذا هو الوجه المعقول .

وكان قد سبق هؤلاء طبقة أخرى هى التى أخذت النحو عن أبى الأسود ، ومنهم ميمون الأقرن ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر العدوانى .

كانت هذه الطبقة كغيرها ترجع إلى الشعر والخبر ، وتتبع لغات العرب ، وتسمع منهم ، التماساً للشاهد ، واصطياداً لشارد المثل ، إلا أنهم لم يشتهروا باسم الرواة كغيرهم ، لأن ذلك غلب على أهل الأدب .

من ذلك العهد ابتدأت مذاهب الرواة تتفرع ، واتجاهاتهم تختلف بسبب ما قام بينهم من المناظرات فى تعليل النحو وتفريعه ، وابتداء القول بالقياس فى اللغة وفى النحو ؛ ومرجعهم فى ذلك كله كلام العرب ولغات قبائلها ، وكانت اللغة قد ضعفت فى الحضر واستعجمت ، فصاروا يطلبونها فى المناطق الخالصة من شوب اللحن ، وهجنة الدخيل ، فى بطون البوادى وأطرافها ، يأخذون عن الأعراب ، ويروون عنهم للقصد العلمى ، حتى اتسعت فنون الأدب ، وتعددت نواحيه ، وتشعبت أطرافه واصطبغت كل طائفة من الرواة إذ ذاك بصبغة خاصة ؛ بما غلب عليها من بعض فنون الأدب ، دون بعض ، إلى أن ظهر ذلك جليا فى أئمة الأدب ، وهم أهل الطبقة الثالثة التى هى أبعد طبقات الرواة شهرة فى تاريخ الأدب العربى ، ألا وهى طبقة الخليل وأبى عمر بن العلاء وأبى زيد وأبى عبيدة والأصمعى الذى هو أتقن القوم وأبعدهم صيتا وأكثرهم حظاً وشهرة ؛ فعن هؤلاء أُخذت جميع فنون الأدب من لغة وشعر وأخبار ، وفى عهدهم دونت .

وكان ذلك فى العصر العباسى الأول ؛ لأن الوضاعين من الرواة قد كثروا فيه ، وأكثروا من الروايات المكذوبة ؛ طمعاً فى بذل الخلفاء الذين اشتدت عنايتهم فى ذلك العصر بأمر الرواية والرواة فضلا عن اهتمام الأمراء والوزراء والعظماء وسائر الأمة بهما ، وبذلك انتهى أمر الرواية إلى التدوين واقتصر فيها بعد على ضبط الأداء ، وتصحيح النطق فيما هو مدوّن على الشيوخ الذين يجيزونها كما سمعوها ؟

دنيا الذرة

للدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

وكيل مصلحة النقل

قدماء المصريين ودوران الكواكب — دوران الألكترونات داخل الذرة — بوهر ووثبات هذه الكواكب نحو نواة الذرة — علاقة ذلك بفكرة الكم — تشابه حركة الكواكب فى الكون وحركة الكواكب فى الذرة — هذى هى الدنيا ليست هادئة .

متنقلين بين معابدهم فى الليل البهيم على ضفاف النيل ، أدرك الكهنة من قدماء المصريين ، أن للنجوم حركة تستمر طول الليل ، وأنها تتكرر من ليل إلى آخر ، ويقيني أنهم أدركوا أيضاً ، أن للكواكب حركة تختلف عن هذه الحركة للنجوم .

ألم يعرف المصريون القدامى فى سنة ٢٦٥ قبل مولد المسيح ، دوران عطارد حول الشمس ؟ . هذا الكوكب الذى سماه المصريون « سوبكو » ، والذى يتم دورته حول الشمس فى ٨٨ يوما ، بينما اعتقد خطأ الذين عاشوا بعد ذلك العهد القديم — متأثرين بفكرة لأرسطو — أن الأرض مركز للكون .

أليس من العجيب أن يخطىء فلاسفة الإغريق فيما لم يخطىء فيه المصريون ؟ هؤلاء علموا الناس قاطبة أن عطارد كوكب دوار حول الشمس ، وسابح مخلص دائم الدوران ، هؤلاء علموا الناس هذه الحقائق ، رغم أن عطارد لا يرى إلا فى شهرى ابريل وسبتمبر قبل طلوع الشمس بقليل ، وفى شهرى يناير ويونيو وقت الغروب .

إنى أذكر مع الإعجاب معارف المصريين عن هذا الكوكب الذى لم يره فى القرون الوسطى إلا «سكوت أوريجين» فى القرن التاسع الميلادى ، و « براهيه » فى القرن السادس عشر . هذا الكوكب الذى كان لرؤية «كاسندى» له عند مروره أمام قرص الشمس فى ٧ نوفمبر سنة ١٦٣١ قصة رائعة ؛ رآه المصريون وعرفوا دورته حولها قبل ذلك بما يقرب من ألفى عام .

* * *

مضطجعين حول أغنامهم فى الليل الساكن على ضفاف الفرات ، يرقبون السماء بعيونهم ، ويتأملون الكون على حد عقولهم ، أدرك رعاة الغنم من الكلدانيين هذه الحركة للنجوم ، ولا ندرى ، أأدركوا أيضاً هذه الحركة للكواكب ؟

وفى الساعة الزمنية التى يُخيَّل إلى أنها لاتنتهى، أدرك المصريون والكلدانيون وغيرهم أن هذه الحركة للنجوم وللكواكب لا تتبع فى سيرها الصدفة العمياء ، وإنما تسير وفق قوانين ثابتة لاتتغير ولا تتبدل ، هذه القوانين لم تتضح بطريق لايقبل الجدل إلا بعد الأعمال الخالدة التى خطَّها «كوبرنيك» البولندى منذ خمسة قرون ، وهو الذى لم ير عطارد طول حياته ، تلك الأعمال التى أثبت فيها أن أرضنا التى نعيش عليها ليست مركزاً للكون ، إنما هى تابع لإحدى نجومه : الشمس ، وأن هذه الحركة للنجوم التى نراها ليلا من الشرق إلى الغرب ، ما هى إلا دورة للأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق .

* * *

ومر الزمن وكرّ ، وتوالت القرون ، وتتابعت الأحقاب ، وجاء الفرنجة ورثة الإغريق ، فأدركوا أمراً آخر له خطره ، وفطنوا إلى تشابه عجيب بين الكواكب السيارة فى دورانها حول النجوم وبين المادة التى يتكون منها كل شىء فى الكون ، ذلك أن المادة صلبة كانت أم سائلة أم غازية تتركب مما نسميه ذرات «جمع ذرة» وهذه الذرة التى كانت فى نظر العلماء إلى عهد قريب جزءا لايتجزأ ؛ باتت فى نظر العلماء المحدثين عالماً شمسياً كاملا ، فكل ذرة لأى عنصر

فى الوجود تتكون على ضآلتها من نواة وسطى هى شمس الذرة يدور حولها سيارات متناهية فى الصغر يسمونها « الكترونات » كل سيار منها أى كل « الكترون » يدور حول نفسه ويدور حول النواة ، كما تدور الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وإنى أرجع القارىء فى دوران هذا الكوكب الصغير حول النواة المتناهية فى الصغر الى أعمال خالدة « لرذر فورد » و « نايلز بوهر » الذى سنأتى على ذكره فى هذا المقال ، كما أرجع القارىء فى دوران هذا الكوكب حول نفسه خلال دورانه حول نواة الذرة الى أعمال « لأهلابك » .

وهكذا أيقن العلماء أن الذرة على صغرها ، وهى التى يتسع الملليمتر الواحد فى الطول لعشرة مليون منها ، تتكون من نواة وسطى يدور حولها كواكب ، ويطول الشرح إذا أردنا أن نوضح فى هذا المقال لماذا افترض رذرفورد منذ حوالى أربعين سنة هذا النظام الشمسى للمادة ، فعند رذرفورد ومدرسته تتكون ذرة الهيدروجين من جسيم واحد فى الوسط شحنته الكهربائية موجبة يسمونه البروتون يدور حوله الكترون واحد كما تدور الأرض حول الشمس ، بينما تتكون ذرة الكربون من نواة وسطى لا ندخل فى تركيبها الآن ، يدور حولها ستة كواكب ، أى ستة الكترونات ، ويدور فى ذرةِ غازِ النيون الذى نراه ليلا يتوهج فى تلك الأنابيب الحمراء على واجهات دور السينما والبيوتات التجارية ، عشرةُ الكترونات ، ويدور فى ذرة الذهب ٧٩ ، وفى الزئبق ٨٠ ، بينما يدور فى أفلاك مختلفة حول نواة ذرة اليورانيوم أثقل العناصر ٩٢ الكترونا ، وهكذا تكون الذرات المختلفة للعناصر المكونة للخليقة ، وعدها ٩٢ عنصرا ، شموساً مختلفة ، كل عنصر يتميز بعدد من الكواكب الدوارة حول نواة ذرته ، ويختلف عدد هذه الكواكب فى العناصر المختلفة من كوكب واحد إلى ٩٢ كوكبا .

ويمكن تمييز هذه العناصر بعضها من بعض بالوسائل الكيميائية المعروفة ، كذلك يمكن تمييزها بالوسائل الفيزيائية بامتحان أطيافها ، والطيف هو ما نراه لحزمة ضوئية من الألوان والخطوط بعد مرورها فى منشور زجاجى أو غيره من

الأجهزة التى تعمل على تحليل الضوء وتبيان ألوانه وخطوطه ، ولا ندخل هنا فى ذكر ما يسمونه خطوط الامتصاص ، ونكتفى أن نذكر أن لكل عنصر من العناصر الممثلة بهذه المجموعات الشمسية المتقدمة طيفاً معيناً ، وخطوطاً معينة تميزه عن غيره مهما قلت المادة الموضوعة تحت الاختبار .

* * *

وهكذا عكفت جمهرة كبيرة من العلماء وطلاب المعرفة على دراسة الذرة ودراسة هذه الحركة للسيارات حول النواة ، ولا يكفى كتاب بَلْهَ مقال لوصف المناسبات المختلفة التى أجريت فيها هذه البحوث ، أو الأسباب التى ألجأت الباحثين إليها ، أو النتائج الهامة التى توصلوا إليها خلال بحوثهم ، إن دراسة الألكترونات التى تدور فى هذه الأفلاك حول شمس الذرة ، ودراسة نوع هذه الأفلاك بالرجوع إلى الأسس العلمية الصحيحة من الأمور التى شغلت كثيرا من الباحثين ، والتى كان لها نتائج هامة فى التعرف على دنيا الذرة والتقرب ما أمكن من حقيقتها .

ولعل أهم ماحدث فى العلوم خاصا بحقيقة هذه الدنيا للذرة هو تلك الخطوات الجريئة والممتعة التى خطاها عالم معاصر ما زال ينعم بما ننعم به من حياة ، هو : « نايلز بوهر » الدنمركى ، ذلك أنه استخدم فكرة الكَمّ عند « ماكس بلانك » لتفسير مواضع الخطوط الطيفية . ولقد تطلع « بوهر » الى « الالكترون » هذا الكوكب السيار حول نواة الذرة محاولا أن يحدد له نموذجا يتفق وفكرة الكم نموذجا يفسر به الانبعاث الضوئى ، ويفسر به مواضع ما نراه من خطوط الطيف مع استبقاء فكرة دوران الالكترون حول النواة ، وهى الفكرة التى تتمشى مع حالة عامة نلاحظها فى الكون ونلاحظها فى دوران الكواكب حول الشمس ، فكرة لاحظها أجدادنا من قدماء المصريين منذ أكثر من ألفى سنة .

وإنى أذكر للقارىء فى اختصار ما هى فكرة الكم عند « بلانك » فالطاقة عنده فى الكون ظاهرة غير متصلة ، ونحصل عليها بوحدات تسمى الواحدة منها « كمًّا » معينا .

لقد أفهمنا العلماء أن المـادة لا توجد إلا بكم ووحدة معينة هى واحدة من جسيمات ذرة العنصر كالبروتون أو النترون ، وهى الجسيمات المكونة للنواة فى جميع العناصر ، فلا يوجد نصف بروتون أو ربع نترون ، وإنمـا تختلف العناصر بعضها عن بعض أيضا بعـدد ما يوجد داخل نواتها من بروتونات أو نترونات ، كذلك أفهمنا العلماء أن الكهرباء لا توجد بدورها إلا بكم معين أى وحدة لا تتجزأ هى الألكترون ، هى هذا السيار الدائرحول نفسه الحائر حول النواة الموجود فى جميع العناصر ، وتختلف العناصر بعضها عن بعض أيضاً بعدد ما يدور حول نواتها من الكترونات ، وهذا الألكترون وحدة لا تتجزأ ، فلا يوجد نصف الكترون أو ربع الكترون ، ويحدثنا « ماكس بلانك » أن الطاقة فى هـذا الكون مهما كان نوعها لا توجد بدورها إلا بكم معين لا ينقسم الى كمين أى الى وحدتين .

ولكى ندرك ذلك أذكر على سبيل المثال أننا إذا أردنا أن نلعب الكرة فاننا مخيرون أن نكون ١١ لاعبا أو نزداد واحدا فيصبح عددنا ١٢ أو ننقص واحدا فيصبح عددنا ١٠ ، ولكننا لا نستطيع بأى حال أن نزيد العدد نصف لاعب ، إن لاعبى الكرة لا يوجدون فى الكون إلا بوحدات معينة ، كل وحدة منها هى الإنسان الكائن الحى الذى لا يمكن أن يوجد بنصف وحدة ، فهـذا الإنسان موجود فى الخليقة بوحدات معينة ، ويستحيل وجوده بأنصاف أو أرباع هذه الوحدات ، كذلك الحال فى الطاقة لا توجد فى الخليقة إلا بوحـدة معينة ، وكم معين .

ونعود الآن إلى الفكرة عنـد نايلز بوهر من الإحتفاظ بالنموذج الشمسى للذرة مع تفسيرمواضع خطوط الطيف ، فقد نظر بوهر إلى الألكترون أنه يدور ولكنه يدور فى مدار ذى قطر معين أو مدار آخر ذى قطر آخر معين أيضاً ومحدد وحسب أن لكل مدار كمية معينة من طاقة الكترونية تزداد بازدياد المسار ، وفى هذا ازدياد لطاقة الألكترون الكامنة ، وهى الطاقة التى يعطيها كاملة فيما لو وقع فى النواة مثلا ، وهنا أدخل بوهر فرضا جريئاً له علاقة بِكَمِّ بلانك الذى تقدم

ذكره ، ففرض أنه لا توجد مسارات للألكترون ، إلا تلك التى تطابق التغيير فى الطاقة بمقدار كَمٍّ واحد ، وقد حسب هذا الكم الذى يرتبط بمقدار المسار ، وتتبع فى ذلك الأعداد الصحيحة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ الخ .

وكأنى به ، قد فرض فى الحيز حلقات معينة حول النواة لا يمكن للألكترون أن يدور إلا فيها .

وفى ظنى أنه يمكننا أن نفترض فى الحيز هذا النوع من عدم الإتصال بجوار المادة ، وهو فرض يبدو غريبا على الذهن ، ولكن يصح لنا أن نفكر كما فكرت لنفسى أن وجود المادة تفرض على الحيز الموجودة فيه فرضية بوهر المتقدمة ، هذا الرأى خطر لى وسبق أن ذكرته وأرجو أن ينال موافقة العلماء المعاصرين .

ولقد حاول بوهر أن يفسر عملية انبعاث الضوء التى لم يعزُها إلى دوران الألكترون ، وإنما عزاها إلى حادث عظيم وقع لهذا الكوكب الصغير ، حادث لم يقع على الأقل لكوكبنا الأرضى منذ دورانه حول الشمس ، بل لم يقع لعطارد منذ دار أيضاً حول هذه الشمس ، وهذا الحادث الجسيم الذى وقع لكوكب نواة الذرة هى وثبة له من إحدى المدارات التى يدور فيها إلى مدار آخر ليس له أن يتعداه إلا بحادث آخر مماثل للأول .

على أن هذه الحوادث وأمثالها التى أحدثت تغييراً فى طاقة الألكترون هى التى سببت لنا على شبكة العين ما نراه من الأثر الضوئى فى خطوط الطيف المعروفة ، هذا الأثر الذى يرجع فى أصله إلى هذا الإضطراب الألكترونى فنرى للصوديوم مثلا خطوطه الطيفية ونرى هذا أحمر وذاك أصفر .

هنا يحررنا بوهر من كل قيودنا العلمية ويبعد بنا عن كل معارفنا وعن كل ما ورثناه وورثه فيزيائيو هذا العصر من علوم ، فمثلا كيف يمكننا أن نتصور مع بوهر الكترونا دائرا فى مدار معين لا يرسل أمواجا كهربائية وفق نظرية مكسويل ، تلك النظرية التى اضطر بوهر إلى هجرها مع ما لها من قيمة علمية ، بل إننا نصادف

بعد ذلك صعوبات جمه ، أولها أننا لاندرى لماذا تعطى وثبة الألكترون إشعاعا ؟ وثانيها لماذا يتبع نظام المسارات وحدة بلانك ؟ وأخيراً يقصر بنا الفكر أن ندرك ـ دون أن نقع فى الحيرة ـ لماذا وثب هذا السيار ؟

ومهما يكن من خطورة هذه الأسئلة فإن بوهر لم يعرها انتباها ، وربما كان هذا سر عظمته ، وهكذا كلما عارضته فكرة قديمة عمد إلى ترك القديم ، وهكذا أحدث ثورة علمية كبرى .

وقد تخلل عمل بوهر صعوبات علمية . فبينما لا يشمل حساب مجموعتنا الشمسية إلا تسعة كواكب هى : عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل وإيرانوس ونبتون وبليتون ، يشمل حساب المجموعات الشمسية للعناصر عدداً أكبر من الكواكب . كلنا يعلم اليوم أن عدد هذه الكواكب يصل فى اليورانيوم مثلا إلى ٩٢ كوكبا ، من هنا نرى صعوبة يعرفها أولئك الذين وهبوا حياتهم لتتبع رياضيات بوهر المتقدمة .

وتنحصر صعوبة الحساب فى تحديد مالهذه الكواكب (الألكترونات) من أثر لبعضها على بعض ، وفى ميل مسارات الواحدة منها على الأخرى ، بل فى اختلاف درجة هذا الميل من كوكب إلى آخر .

ولعل أروع ما يتصوره القارىء الآن أن يتصور أن كل هذا يجرى فى عالم صغير جداً ، فقد سبق أن ذكرت أننا لكى نتصور ضآلة عالم الذرة المكون من شمس وسطى يدور حولها كواكب يجب أن نعلم أن هذا العالم من الصغر بحيث إنه يجب وضع عشرة ملايين منه الواحدة جوار الأخرى ، لكى نشغل ملليمتراً واحداً فى الطول .

هذا العالم الصغير له شمسه وله كواكبة بما لها من مسارات وما لهذه المسارات من ميول .

ورغم أن الموضوع يعتبر من الموضوعات العسيرة ، فقد اندفع جيش

من الفيزيائيين النظريين فى كل جامعــات الأرض محاولين تتبع أعمال بوهر وتطبيقها ، ومحاولين الإضافة إلى معارفنا ، وذلك بدراسة العناصر المختلفة ودراسة أطيافهـا ، متنقلين من عنصر إلى عنصر ، ومتغلبين فى ذلك على صعوبة كبرى فى الحساب ، وتعددت الرسائل العلمية فى هذا الباب لسنين طويلة بعد بحوث بوهر التى ظهرت فى سنة ١٩١٣ ، حتى أننى صادفت فى السوربون سنة ١٩٢٥ والسنوات العشر التى تلتها ، عشرات من طلاب البحث المشغولين بموضوع طيف العنـاصر والرجوع بخطوط الطيف إلى مواضع هذه السيارات الحائرة حول النواة ، وإلى وثباتهـا العجيبة نحوها،وهؤلاء الطلاب تصادفهم فى المكتبة ، وتعرفهم فى معامل البحث ، فترى بعضهم يتابع النظر إلى طيف العناصر ، وبعضهم يتابع الحساب ويقابل النتائج التى يصل إليها بالنتائج التى تفرضها التجـارب ، وما زال من بين هؤلاء أصدقاء لنا عكفوا على أعمالهم أعواما ليجدوا حلا موفقـاً بين ما يصلون إليه من طريق الرياضيات ، وما يعثرون عليه أو يعثر عليه غيرهم عن طريق العلم التجريبى ، وما له اليوم من قوة .

* * *

هذه هى الألكترونات الحائرة تدور حول النواة فى الذرة كما تدور الأرض حول الشمس أو القمر حول الأرض ، بل هى تدور حول محورها أيضاً ، هذه الألكترونات من الصغر بحيث إن النسبة بين كتلة إحداها وكتلة حبة المسبحة كالنسبة بين هذه الحبة والكرة الأرضية التى نعيش عليها . هذه الكواكب الصغيرة أصبحت معروفة فى كتلتها ، فى مقدار ما تحمله من شحنة كهربائية فى دورانها حول محورها ودورانها داخل الذرة ، بل إنها باتت معروفة فى وثباتها داخل هذا العالم الذرى .

وبعد فأى تشابه عظيم بين ما فى الكون فى مجموعه ــ بين ما فى العالم الشمسى مثلا ــ وبين أصغر ما فى هذا العالم وهو الذرة .

أى عظمة بلغت قوة العلوم النظرية والتجريبية فى تتبع هذا النظام للعالم الكبير والعالم الصغير ، ومعرفة هذا النظام معرفة بلغت حد اليقين .

هذى هى الدنيا ـ دنيا هادئة وهى ليست بهادئه ـ شمس تبدو أنها تشرق علينا فى الصباح حتى لقـد ظننا خلال أجيال طويلة أنها هى التى تشرق علينا ، وهـذه الشمس تغرب فى المساء ، حتى لقد اعتقدنا خلال هذه الأحقاب أنها هى التى تغيب عنـا ، والواقع أن الأرض هى التى تدور أمامها ، ومن دورانها يتكون الليل يتلوه النهار .

هـذى هى الدنيا ، وما الشمس إلا نجم فى مجرة من ألف مليون نجم ، وفى المجرة ماهو أكبر منها وما هو أصغر ، وما المجرة إلا واحدة من مائه ألف مليون مجموعة مماثلة لها ، وهذه الشمس تدور حول محورها وهى ليست ثابتة ، بل تسير نحو ذات الكرسى المعروفة بهرقل ، وهذه المجرة بما فيها من مائة ألف مليون نجم تدور حول نفسها وهى فى الوقت ذاته تبتعد فى الفضاء المطلق عن مثيلاتها من المجموعات الأخرى . وهذه الشمس التى نراها تشبه النواة داخل الذرة ، ألم تنفلق هذه النواة فأخرجت ضياء كضياء الشمس وطاقة فوق الوصف .

هذى هى الدنيا لا تعرف للهـدوء سبيلا ، بل هى دائمة الحركة ، وهذا هو الألكترون السيار الدوار حول نفسه وحول نواة الذرة ، وكأنى بها تشرق عليه وتغرب ، وهو لا يكتفى بدورانه بل له وثبات خطيرة يقف عندها الفكر حائرا .

هذى هى الدنيـا ليست هادئة وهذى هى المـادة : ملايين من المجموعات الشمسية تذكرنا بمـا قاله الهاتف الأصفهانى فى شعره منذ قرابة قرنين ، وهو من شعراء الفرس : « إذا شـققت قلب كل ذرة وجدت فى جوفها شمسا » .

هـذى هى دنيا الذرة « ما أشبهها بالدنيا التى نعيش فيها ، حدثتك عنها حديثاً لم يخل من صعوبة ، وإنى لأرجو مخلصاً أن يفيدك أيهـا القارىء العزيز .

ولنا رجعة إلى المواضيع التى تشغل بال العالم اليوم إن شاء الله ؟

زيد بن علىّ

لحضرة القاضى عبد الله الجرافى الصنعانى
مندوب وزارة المعارف اليمنية بمصر

ذكرنا فى العدد الأول طرفا من أخبار اليمن ، وأشرنا إلى المذهب الزيدى ، ونذكر فى هذا العدد نبذة من أخبار الامام الشهيد زيد بن على

مولده ونشأته :

ولد الإمام الشهيد زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام، سنة خمس وسبعين من الهجرة ، وقتل سنة اثنتين وعشرين ومائة ، فمدة حياته أقل من خمسين سنة ، ولكنها وقعت فى فترة من تاريخ الأمة الإسلامية حافلة بألوان من الحوادث والتقلبات ، والحروب الداخلية والخارجية ، ذات طابع معين من النشاط الفكرى الإسلامى فى العقائد والكلام والفقه والاجتهاد . وزيد بن على هو غصن من تلك الدوحة الطاهرة الزاكية ، نشأ بين الغرّ الميامين من آل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، يقتبس من معين النبوة الصافى ، ويروى عن أعلام العلم والحق ، ويتخلق بأخلاق أهل الشجاعة والصدق ، ويشهد بلاء المؤمنين الصابرين ، وتنفعل نفسه بظلم الظالمين المتسلطين ، فلا غرو إذا كان هذا الإمام الشهيد درة فى جبين الزمان ، وانحازت إليه صفات العلم والفقه والورع والشجاعة والصبر ، حتى انتهى كما ينتهى كل مجاهد فى سبيل الله ، آثر الموت الكريم على حياة الذل والمهانة ، والضيم والاستكانة .

خروجه واستشهاده :

كانت المظالم فى بنى أمية قد عمت وطمت ، وكان أهل البيت على وجه أخص هم هدف هؤلاء الظالمين يخشونهم ، ويبثون عليهم العيون والأرصاد ، ويضطهدون من يواليهم ، ويتعقبونهم فى كل أمر ، وكانت الأمة تحمل من ذلك عنتا شديدا ، وإرهاقا وإزعاجا ، ومحاربة فى عاطفتها الدينية وميولها الطبيعية لآل الرسول : فالفىء لا يقسم بالسوية ، والمظالم لا ترد ولا تدفع ، والجيوش والبعوث تبقى الزمان الطويل مُجمَّرة فى أرض العدو لا تُقْفَل ، ولا يُستَبْدل بها ، وعلىٌّ وأبناء على يلعنون ويطاردون ، وتحاك من حولهم الدسائس ، ويضطهدون فى أموالهم وأهليهم وضياعهم وعلومهم وذكراهم وأتباعهم ، وكانت مقاتلهم ومذابحهم ومظالمهم هى هِجِّيرى هؤلاء ، وقصارى ما يفكرون فيه ، ويشتغلون به ، وقد جعلوها مباراة يتبارى فيها كلٌّ من شفَّه الشوق الى النباهة بعد الخمول ، والقرب بعد البعد ، والصولة بعد الضعف من هؤلاء القواد المحترفين ، والوزراء المتملقين ، وعلماء السوء ، ورواة الكذب ، والبَرعة فى التلفيق والتشقيق ، وكانت عين الزمان ماتزال باكية تتهاطل دموعها على الإمام الشهيد السبط سيد الشباب أبى عبد الله الحسين وكأن كل ما فى الأرض من حى أو جماد ، وكل ما فى السماء من طير أو كوكب ، ألسنة تنادى بالفجيعة فيه ، وعيون تبكى ، وقلوب تخفق ، وصدور تضيق ، وجباه تقطب ، وأعصاب تهتز وتضطرب أنْ أوذى ابن رسول الله ، وقطِّعت بأهله وأصحابه الأرض ، ومُوِّت الوفاء والرحم والقربى بهم تمويتاً ، وفُوِّت الحق والعدل والإنصاف تفويتاً ، فهل يَقَر - وهذه هى الحال - سيفٌ من سيوف الله كزيد بن على فى قرابه ؟ وإبان إذن ينتضى ويستل ؟ .

جاشت بذلك نفس زيد ، وأنها لجيَّاشة بالحق ، فوَّارة على الباطل ، فاعتزم أمراً عظيما ، هو الخروج على هذه الدولة الظالمة الباغية ، وصادف أنه كان قد ذهب إلى العراق فى خصومة بينه وبين خالد بن عبد الله القسرى ، إذ ادعى عليه زوراً وبهتاناً وديعة ستمائة ألف درهم . ليجعل ذلك عليه نكاية ، ويدبر له به ظلما وإثقالا

فلما كان فى العراق لهذا ، اتصل به أهل الكوفة ، وألحوا عليه فى الخروج على الأمويين ووعدوه النصر ، ولكن هشاما تنبه لما يحيط بالبطل ، وأحس نشاطه ونشاط الناس من حوله ، فأمر عامله على العراق يوسف بن عمر الثقفى أن يخرجه على عجل ، فأمره يوسف بالرحيل ، فرحل ولكنه لم يقطع بالعراق صلته ، ولم يكف عن بث دعاته ، والخوض فى أمر بنى أمية ، وذكر مظالمهم ، واستحقاقه للأمر من دون هشام ، وقد قال مرة : « والله لايحب الدنيا أحد إلا ذل » فبلغت هشاما ، وعرف ما تنطوى عليه نفس زيد ، فقال له ذات يوم : لقد بلغنى يازيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولست هناك وأنت ابن أمة — وكانت أمه سندية — قال : لقد كان اسحق ابن حرة ، واسماعيل ابن أمة ، فاختص الله ولد اسماعيل فجعل منهم العرب ، فما زال ذلك ينمى حتى كان منهم رسول الله !

ولم ينشب بعد لأى أن خرج ودعا الناس إلى بيعته وكان يقول لهم : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفىء بين أهله بالسواء ، ورد المظالم وإقفال المجَمَّر — أى إرجاع الجيش من أرض العدو بعد مدة لا تطول — ونصرنا أهلَ البيت على من نصب لنا وجهل حقنا — أتبايعون على ذلك ؟ » فإذا قالوا : نعم ، وضع يده على يدهم .

ووصلته البيعة من كثير من الفقهاء والقراء وأهل البصائر (١) ، فلم يلبث بنو أمية أن بعثوا إلى الكوفة بالجيوش لمناجزته ، فخرج معه بعض أهل الكوفة وتخلف عنه آخرون ، وكانت المعارك ما بين الكوفة والحيرة ، فلما جد الجد تفرق

(١) وقد روى أبو الفرج الأصبهانى فى مقاتل الطالبيين إن أبا حنيفة كان ينصر زيداً ويميل إليه ، وأنه أرسل إليه يقول : « إن لك عندى معونة وقوة على جهاد عدوك فاستعن بها أنت وأصحابك فى الكراع والسلاح » وبعث بمال إلى زيد فتقبله منه . وقال الزمخشرى فى الكشاف « وكان أبو حنيفة يفتى سرا بوجوب نصرة زيد بن على ، وحمل المال إليه ، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمى بالامام والخليفة » .

عنه أكثر من بايعه ، ولم يبق معه إلا ثلثمائة أو أقل ، وكانت بينهم وبين يوسف ابن عمر قائد هشام ملحمة ثبت فيها زيد ومن معه ، حتى إذا جنح الليل رُمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى ، فلما انتُزع قضى ، وفاضت روحه الطاهرة ، ومات شهيدا حميدا ، فلما دفن استدلوا على قبره فأخذوه منه وصلبوه على خشبة بالكناسة ، ومكث مصلوباً حتى مات هشام ، ثم أمر به الوليد فأنزل وأحرق .

فشلت يمين الحادثات فقد رمت فأصمت شهاباً عالى القدر ساميا

مناقبه وشمائله :

كان ، سلام الله عليه ، جم المناقب ، فخم الشمائل ، لايزيده الوصف عرفانا ، وكان فى العترة الطاهرة علماً بارزاً يعرف له الجميع قدره ، ويذكرون فضله وعلمه ، ومن بينهم الإمام جعفر بن محمد الصادق ، عليه السلام .

وقد أثنى عليه علماء الحديث ممن تكلم عن الرجال جرحا وتعديلا ، وأجمعوا على جلالته وإمامته ، واعترفوا بثقته وأمانته ، وكان بريئاً من البدع والأهواء التى انتحلها أبو الجارود وغيره ممن ينتمون إليه ، بريئاً من الذين شبهوا الله بخلقه ، ومن الذين حملوا ذنوبهم على الله ، ومن الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله ، ومن الذين كفَّروا علياً أو أبا بكر وعمر . ومن قوله فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما : « غفر الله لهما . ما سمعت أحداً من أهل بيتى تبرأ منهما . لا أقول فيهما إلا خيرا ، وإن كانوا قد استأثروا بهذا الأمر علينا ، ودفعونا عنه ، فقد وُلّوا فعَدَلوا وعملوا بالكتاب والسنة » .

مشايخه ومن روى عنه

روى الإمام زيد بن على عن أبيه زين العابدين على بن الحسين ، وأخيه أبى جعفر محمد بن على الباقر وعروة بن الزبير، وعبد الله بن أبى رافع ، وأبان بن عثمان وغيرهم وروى عنه جم غفير منهم ابن أخيه جعفر الصادق ، ومنهم أبناؤه : الحسين بن زيد وعيسى بن زيد ويحيى بن زيد ، ومنهم خالد بن صفوان ، وأبو مسلم راشد بن سعد ،

وسليمان الأعمش ، وشعبة بن الحجاج ، وعبّاد بن كثير ، وأبو خالد عمرو بن خالد الواسطى ، وأبو الجارود ، وزياد بن منذر ، والحسن بن صالح بن حى ، وغير هؤلاء .

وأخذ عنه الإمام عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، واخذ عن الإمام عبد الله بن الحسن أولاده الأئمة أولو الشأن : النفس الزكية محمد ابن عبد الله ، وابراهيم بن عبد الله ، ويحيى بن عبد الله ، وادريس بن عبد الله ، واتصلت أقوالهم بالإمام القاسم بن ابراهيم الرسى ، وأحمد بن عيسى بن زيد بن على ، والفقيه محمد بن منصور المرادى ، كما اتصلت أقوال الجميع بالإمام الهادى يحيى بن الحسين صاحب اليمن واختار اختيارات كثيرة ، وألف المؤلفات النافعة ، وصارت زيدية اليمن والحجاز على مذهبه فى الفقه ، وظهرت مؤلفاته بجيلان وديلمان من بلاد إيران وسار اليها حفيده يحيى بن المرتضى ، وأخذ عنه السيد أبو العباس الحسنى ، وأخذ عن أبى العباس من أئمة جيلان وديلمان الإمامُ المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهارونى والإمام أبو طالب يحيى بن الحسين ، وكان الاتصال بين اليمن وجيلان وديلمان فى تلك العصور فما بعدها .

وله قراءة مفردة مروية جمعها إمام النحاة أبو حيان فى كتاب سماه : « النيّر الجلىّ ، فى قراءة زيد على » وروى صاحب الكشاف كثيرا منها ، كما روى كثيرا من علمه ورأيه ورأى أهل العلم والفقه فيه ، ومنهم أبو حنيفة النعمان كما قدمنا .

مسند الإمام زيد ومذهبه :

مسند الإمام زيد بن على المعروف بالمجموع الفقهى من أقدم ما ألف فى الإسلام ، وقد جمع بين المسائل الفقهية والأحاديث النبوية والآثار العلوية ، وخرج أحاديثه شارحوه من الدواوين الإسلامية وأثبتوا شواهدها ، وكان أحسن شرح له الروض النضير طبع بمصر فى سنة ١٣٥٠ فى أربعة أجزاء ، ومؤلفه القاضى الحسين ابن أحمد السياغى من علماء اليمن بالقرن الثالث عشر ، ومسند الإمام زيد بن على هو من معتمدات علماء الزيدية باليمن ، واليمن من الأقطار الاسلامية التى حافظت

على معالم الدين تحت رعاية أئمة آل البيت قرونا طويلة ، ولا تزال كذلك إلى انقضاء الدهر ، ويشهد لذلك ماقاله الحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ فى فتح البارى شرح صحيح البخارى تعليقا على الحديث الذى أورده البخارى فى باب الأمراء من قريش من كتاب الاحكام ، ورواه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى منهم اثنان . ونصه : ويحتمل أن يكون بقاء الأمر فى قريش فى بعض الأقطار دون بعض ، فإن بالبلاد اليمنية النجود منها طائفة من ذرية الحسن بن على لم تزل مملكة تلك البلاد معهم منذ آخر المائة الثالثة ، وهم قائمون بالعدل . انتهى .

ويقرر السيد صارم الدين رحمه الله عن شيوخ العترة ، أن الهادى هو أول من رتب كتب الفقه من الأئمة وجمعها ، ومن هنا سمى كتاباه « المنتخب والجامع » بالجامعين لجمعهما أبواب الفقه والفرائض ، وبالجملة فإن الأئمة الكبار بعد زيد بن على كالقاسم بن ابراهيم والناصر الأطروش وغيره من الأئمة والهادى عليه السلام اعتزوا فى فتاويهم وعلومهم إلى زيد بن على حتى قيل لهم الزيدية ، وانجر هذا الاسم الى جميع الأئمة وشيعتهم ، والمراد أنهم قائلون بإمامته وإمامة سائر الأئمة ، ومعتزون إليه ، وسالكون منهاجه وعلى طريقته فى أصول الدين ، وجملة الشريعة ، والمخالف له فى شىء من أفراد المسائل الفرعية لا يخرجهم عن تلك النسبة ، وعن ذلك الاعتزاء ، كما فى حق غيرهم من أتباع الفقهاء الأربعة ، فإنه يقال فى حقهم حنفية وشافعية ومالكية وحنبلية مع مخالفة كثير من أتباعهم لهم فى كثير من فروع المسائل ، وقد ينفصل الأتباع بعضهم عن بعض بنسبة أخرى باعتبار اعتزاء خاص إلى بعض أتباع الإمام القديم ، ونصرة مذهبه ، ومذاكرة فيه ، وتفريع عليه ، وتخريج من أصوله .

وقال الحاكم : إن الذى يجمع مذهب الزيدية هو القول بالعدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، وتفضيل على عليه السلام وأولويته بالإمامة وقصرها فى البطنين ، وأنها تُستحق بالفضل والطلب لا بالوراثة . . . الخ .

وقال السيد صارم الدين أيضاً : إن الهادى عليه السلام هو الذى صار زيديةُ اليمن على مذهبه فى الجملة ، وبه يقتدون وإليه يعتزون ، ثم إن الأئمة الكبار قد اشتغلوا بذكرمذهبه ، وشهروا أصوله ، وقاسوا عليها ، وحصلوا منها كولديه الناصر والمرتضى ، وكالأخوين الإمامين المؤيد وأبى طالب ، وكالسيد العباسى، حتى صارت طبقات هؤلاء يأتمون ذلك بعضهم الى بعض سلفاً بعده خلف (١) .

طائفة من أحاديث المسند :

ونسوق هنا بعض الأحاديث والفتاوى التى احتوى عليها هذا المسند العظيم ، مثبتين فى أولها سنده المتصل إلى أحد رواته وهم كثير مذكورون فى الإثبات ، وهذه هى :

١ — باب ذكر الوضوء : أخبرنا على بن العباس العلوى فى داره بظاهر قصر الإمارة ، قال حدثنا عبد العزيز بن إسحاق بن جعفر بن الهيثم القاضى البغدادى قال حدثنا أبو القاسم على بن محمد النخعى الكوفى قال حدثنى سليمان بن ابراهيم ابن عبيد المحاربى قال حدثنى نصر بن مزاحم المِنْقرى العطار قال حدثنى ابراهيم ابن الزِّبْرِقان التيمى قال حدثنا أبو خالد الواسطى قال حدثنى زيد بن على عليه السلام عن أبيه عن جده الحسين بن على عن على بن أبى طالب قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ فغسل وجهه وذراعيه ثلاثا ثلاثا وتمضمض واستنشق ثلاثا ثلاثا ، ومسح برأسه وأذنيه وغسل قدميه ثلاثا . قال أبو خالد : وسألت زيد ابن على عليه السلام عن الرجل ينسى مسح رأسه حتى يجف وضوؤه . قال : يعيد مسح رأسه ويجزئه ولا يعيد وضوءه (٢) .

٢ — باب نكاح الإماء والعبيد — حدثنى زيد عن أبيه عن جده على عليه السلام أنه قال : لا تتزوج الأمة على الحرة ، وتتزوج الحرة على الأمة ، ولا

(١) راجع فى ذلك كله نسخة المجموع ومقدماتها المطبوعة فى ميلانو سنة ١٩١٩ م .

(٢) ص ٤ من المجموع طبعة ميلانو

يتزوج الرجل المسلم اليهودية ولا النصرانية على المسلمة ، ويتزوج المسـلمة على اليهودية والنصرانية ، وللحرة يومان من القسم وللأمة يوم [ص ١٩٨] .

٣ — حدثنى زيد عن أبيه عن جده عن على عليه السـلام ، أن رجلا أتاه فقال : إن عبدى تزوج بغير إذنى ، فقال على عليه السـلام : فرّق بينهما ، فقال السيد لعبده : طلقها يا عدو الله ، قال : فقال على عليه السـلام للسيد : قد أجزت النكاح ، فإن شئت أيهـا العبد فطلّق ، وإن شئت فأمسك [ص ١٩٩] .

٤ — حدثنى زيد عن أبيه عن جده عن على عليه السلام قال : خرجت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من منزل رجل من الأنصار عُـدناه فإذا رجـل يضرب غلاما له ، والغلام يقول : أعوذ بالله أعوذ بالله ، كل ذلك لا يكف عنـه سيده ، قال : فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعوذ برسول الله فكفّ عنه الرجل ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم تعلم أن عائذ الله أحق أن يجار ؟ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : أرقاءكم أرقاءكم ، إنهم لم يُـشْجَروا من شجرة ، ولم يُنحتوا من جبل ، أطعموهم مما تأكلون ، واسقوهم مـا تشربون ، واكسوهم مـا تلبسون » [ص ٢٧٢] .

٥ — حدثنى زيد عن أبيه عن جده عن على عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من دعا عبداً مشركا إلى الإسلام كان له من الأجر كعتق رقبة من ولد اسماعيل . قال : وقال على بن أبى طالب : من دعا عبداً من ضلاله إلى معرفة حق فأجابه ، كان له من الأجر كعتق نسـمة ، قال : وقال زيد عليـه السلام : من أمر بمعروف أو نهى عن منـكر أطيع أو عصى ، كان بمنزلة المجاهد فى سبيل الله [ص ٢٧٣] .

إندونيسيا

للأستاذ أحمد محمـــد عيسى

أمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

بين الطرف الجنوبى الشرقى لقارة آسيا والساحل الشمالى لأستراليا وعند ملتقى مياه المحيطين الهادى والهندى ، تنتشر مجموعة عظيمة من الجزائر الكبيرة والصغيرة قد تُقارب الألف عدّا ، وتسمى جزر الهند الشرقية ، ويطلق على المجموعة الغربية منها اسم الأرخبيل الإندونيسى أو إندونيسيا ، وهى تتكون من جنوب شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطرة ، وجاوة ، ولُومْبوك ، وسومبا ، وتيمور ، وموُلقَّة ، وسِيلِيبِيس ، وبورْنيُو ، ومجموعة جزائر أخرى موزعة الى الشرق والغرب ، وإلى الشمال والجنوب من تلك الجزر السالف ذكرها .

وتقع تلك المجموعة الهائلة فى منطقة خط الاستواء بين خطى عرض ١٠° شمالا وجنوبا على وجه التقريب ، وتعادل تلك المسافة ، المسافة بين الخرطوم وقبرص ، أما المسافة بين شرق الجزر وغربها فتقرب من المسافة بين كراتشى والإسكندرية ، ويتضح لنا من هذا التحديد الجغرافى أن إندونيسيا مزرعة استوائية من النوع الممتاز ، هذا فضلا عما تخفيه فى جوفها من مصادر الثروة المعدنية الهائلة ، على أن وقوعها فى قلب المنطقة الاستوائية لم يمنع تعشق الأوربيين لها ، فإن سطحها المرتفع ، وصغر مساحة أغلب هذه الجزائر ، والسطح المائى الكبير الذى يحيط بها ، كل ذلك جعل جوها صالحا لسكان العروض الشمالية الباردة .

والشعب الإندونيسى من أصل أسيوى ، رحل الى تلك الجزائر فى قرون ما قبل الميلاد المسيحى ، وكان الهنود من أوائل المهاجرين ، ثم أعقبهم الصينيون ،

واستقر هؤلاء وأولئك على الشواطىء ، وقامت بينهم وبين إخوانهم فى القارة الأسيوية صلات وعلاقات تجارية مستديمة ، وصحب هؤلاء المهاجرون معهم ألوانا من الحضارة الهندية والصينية كما نقلوا دياناتهم التى ورثوها عن أجدادهم ، وهى الهندوكية والبوذية ، واستقروا هنا وهناك يزرعون الأرض ويرعون الماشية . ومرت بهم الأجيال جيلا إثر جيل قبل أن يسطر لهم التاريخ فى كتابه أحداثا هامة حتى كان القرن الخامس الميلادى حين تأسست أول إمبراطورية إندونيسية فى جزيرة سومطرة ، وقد قوى نفوذ تلك الإمبراطورية واتسع سلطانها ، وشمل كثيرا من الجزائر المحيطة بها ، وقامت بينها وبين الهند والصين علاقات تجارية واسعة ، ثم نشأت عدة ممالك أخرى متفرقة تختلف قوة وضعفا حسب من يلى أمرها من الملوك ، وحسب الظروف المحيطة بها ، ومدى طمع الجيران الأقوياء فيها .

ومن بين الإمبراطوريات القوية المشهورة إمبراطوية ماجاپاهت التى سيطرت على جاوة كلها ، وعلى كثير من الجزر المحيطة بها فى الفترة ما بين سنة ١٢٩٣ ، وسنة ١٤٧٨ ميلادية ، وتعد فترة سيادة هذه الإمبراطورية فترة تقدم حضارى يفخر به الإندونيسيون اليوم لما شمل البلاد حينذاك من تنظيم الشئون المالية ، وتنسيق العلاقات الخارجية .

ويتضح لنا رقى الحضارة فى ذلك العصر مما بقى من آثار المعابد الرائعة الضخمة ، فهى تدل على رخاء مادىّ نعمت به البلاد ، وإدراك قوى للمعانى الدينية ، وعلم دقيق بقواعد فن البناء ، كما تدل على أن حضارة إندونيسيا حتى القرن الثالث عشر الميلادى كانت مزيجاً من حضارات الهند والصين التى انتقلت اليها مع المهاجرين الأولين منذ فجر التاريخ .

وقبيل انقضاء القرن الرابع عشر الميلادى كانت تلك الجهات مناطق نفوذ واستغلال للتجار العرب الذين توطدت صلاتهم بأهل البلاد نتيجة للرحلات المتبادلة ، وكان استيطان الكثير منهم فى مدن الملايو وسومطرة وجاوة وسيلة من وسائل نشر الإسلام هناك .

ومنذ القرن الخامس عشر أصبح للإسلام مركز ممتاز فى البلاد وأصبح معتنقوه أغلبية على حساب الهندوكية والبوذية ، ونحن هنا بحاجة إلى أن نذكر أن معرفة إندونيسيا للاسلام ترجع إلى القرنين الثانى والثالث الهجرى أى التاسع الميلادى ولكن سيادة الإسلام كدولة إلى جانب سيادته كدين لم تكن إلا منذ القرن الخامس عشر الميلادى .

وقد سيطرت الحضارة الإسلامية على تلك الجزائر وثبتت أصولها وامتلأت نفوس أهلها حباً للإسلام وتعلقاً بالقرآن الكريم ؛ ومما هو جدير بالإشارة اليه أن الإسلام لم يدخل إندونيسيا فى ظل سيف ولا حمله إليها جيش قاهر ولا عملت على انتشاره بعثات منظمة تمدها الحكومات المختلفة بالمال ، وتؤيدها بالسلطان ولكنه دخل هذه الجهات عن طريق أهلها أنفسهم ، فقد أعجبهم الإسلام وبهرهم صفاؤه وفتنتهم مبادئه حينما رأوا أهله الذين كانوا يتاجرون معهم إما على سواحل الهند وبلاد العرب وإما على الشواطىء الإندونيسية نفسها .

وبينما إندونيسيا وممالكها الإسلامية وغير الإسلامية تعيش عيشة الاطمئنان والرخاء ، كانت حكومات أوروبا الغربية تغلى حقداً على محتكرى تجارة الشرق الشرق من المماليك والعرب وأهل البندقية ، وقد دفعها تسلط تلك القوى على التجارة الشرقية وطرقها إلى التفكير فى كشف طريق لا تكون فيه تحت رحمة هؤلاء ، وكان فى طليعة المهتمين بتلك الحركة الكشفية البرتغال ثم أسبانيا ثم بعد ذلك هولندة وبقيه الدول الأوروبية الأخرى .

وكان وصول البوكرك البرتغالى إلى الأرخبيل الإندونيسى سنة ١٥١١ إيذاناً بعصر ملىء بالأحداث والمآسى إذ وقعت تلك الجهات تحت نير الاستعباد الأجنبى الذى أذاق أهلها ألواناً من البؤس وسخرهم كالسوائم لاستخراج خيرات الأرض دون أن يصيب الإندونيسيين من ذلك الخير ما يمسك رمقهم .

ومنذ اللحظة التى دخلت فيها قوات المستعمرين إندونيسيا أخذت إرساليات التبشير للمسيحية ترتاد تلك الجهات تؤيدها حراسة عسكرية تمنع عنها عدوان الأهالى .

على أن نشاط جماعات التبشير لم يثمر الثمرة المرجوة منه إذ يدلنا إحصاء سنة ١٩٤١ على أن المسيحيين فى إندونيسيا لم يزيدوا كثيراً على مليونى نسمة أربعة أخماسهم من البروتستانت والخمس الباقى من الكاثوليك ، وهذا العدد يعادل ٣ ٪ من مجموع السكان البالغ ٧٠ مليون نسمة ويكوّن المسلمون من هذا العدد ٨٥ ٪ أى ما يوازى ٦٠ مليون نسمة هم الذين يحملون اليوم علم الثورة فى وجه الطغيان الهولندى .

وقد أغرت تجارة التوابل والعطور وواردات الشرق عامة أهل أوربا ، ولذلك تكونت بهولندة عدة شركات تجارية تركزت أخيراً فى شركة الهند الشرقية الهولندية وانضم إلى الاهتمام بالتجارة الاهتمام بالزراعة أيضاً ، فأدخلت أنواع جديدة فرض على الإندونيسيين زراعتها لحساب هذه الشركة ، وفى ظل سياسة السخرة والاحتكار أثرت الشركة ثراء عظيما ، ولكن كثرة الأرباح زينت لكثير من موظفيها أن يستلبوا منها ما كونوا به ثروات خاصة بهم ، وأدى هذا التصرف إلى تدهور مركز الشركة ، وانتهزت انجلترا هذه الفرصة فاستولت على بعض أملاكها ، وانتهى الأمر بانحلالها فى بداية القرن التاسع عشر ، وبعد حروب نابليون استطاعت هولندة أن تسترد سيطرتها على إندونيسيا ، وتسير فى تصريف شئونها سيرتها الأولى .

ولم تكن كل تلك الأساليب الجشعة بهينة الوقع على الإندونيسيين ، فقد دفعهم الجوع والحرمان والحسرة إلى ثورات متكررة ، ولكن قوتهم كانت دون قوة المستعمر البغيض دائماً ، ومن أبرز تلك الثورات الثورة التى أشعل نارها الأمير «ديبونيجورأورلج» فى وجه الهولنديين وفى وجه المتخاذلين من أبناء وطنه . وانتهت حركات هذا الأمير بالقبض عليه خدعة ، ونفيه وإيداعه السجن حيث مات سنة ١٨٥٥ وخضع الناس لبطش القوى ، وعادت حكومة البلاد إلى سابق سيرتها البغيضة .

إن شقاء الشعب الإندونيسى يتجلى بوضوح ، إذا علمنا أن مساحة الأراضى التى تسيطر عليها هولندة وتسخّر فيها الإندونيسيين تزيد على مساحة ألبانيا

وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وبلجيكا وسويسرا مجتمعة . ويبدو لنا ذلك الشقاء أكثر وضوحا أو أكثر قسوة حين نعلم أن الحكومة تثقل الفلاح الإندونيسى بالضرائب مع أن دخله لا يزيد كثيراً عن جنيه فى الشهر ، وتفرض عليه أن يعمل فى أراضيها دون أجرة مدة شهرين كل عام ، ولذلك نرى دخلها فى ازدياد مستمر ، فنى سنة ١٩١٣ بلغ دخلها ١٧٥ مليون دولار ، على حين وصل إلى ٤٣١ مليون دولار سنة ١٩٢٩ ، ومع ذلك فقد كان الجوع يقضى على الكثير من أهل إندونيسيا .

وهذه السياسة الفاسدة وثورات الإندونيسيين المتعاقبة حركتا معتدلى الهولنديين الى التفكير فى الإصلاح ، ولكن محاولات هؤلاء ذهبت أدراج الرياح وظل المحافظون من أرباب المصالح يمتصون دماء إندونيسيا دون رادع أو دافع .

وقد شهد القرن العشرون حركات استقلالية عديدة فى إندونيسيا كان بعضها مسالما كتلك الحركة التى تزعمتها السيدة رادِن كارتينى ، التى كانت ترمى الى تعليم الشعب ، لأن التعليم هو السلاح الوحيد لنيل الحق من المغتصب ، ثم تلا ذلك تكوين عدة أحزاب وجمعيات سياسية وثقافية كحزب جاوة الفتاة وجمعية عائشة للسيدات و« شركت إسلام » أى الحزب الإسلامى وغيرها ، وكانت ثورة سنة ١٩٢٦ نتيجة طبيعية لأحداث ما بعد الحرب العالمية الأولى ، ذلك أن الوعود المعسولة التى بذلتها هولندة والمبادىء الخداعة التى أعلنت من أجلها الهدنة فى أوروبا ، وصيحات الرئيس ويلسن بحق تقرير المصير : كل ذلك لم يسفر عن شىء ، اللهم إلا زيادة الفقر والجوع والمرض .

ثم فشلت تلك الثورة ، وزج بجميع المشتركين فيها فى السجن ، وسخرت الحكومة الهولندية جانبا منهم فى استغلال الأراضى البور فى الجهات التى نفوا إليها غير أن هذا لم يمنع قيام ثورات أخرى ، اشترك زعماء الجمهورية الإندونيسية الحالية فيها ، ولكن الحكومة تمكنت من القبض عليهم ونفيهم ، ثم وجهت عنايتها لمراقبة الأهالى والحد من نشاطهم ، فصادرت اجتماعاتهم وجمعياتهم ، وكمت أفواه الصحف ، وشردت المشتغلين بالسياسة ، وسيطرت على الموقف بدكتاتورية قاسية ، وسكن الإندونيسيون انتظارا لفرصة جديدة .

وقد جاءت تلك الفرصة عند ما شبت نار الحرب العالمية الثانية ، واكتسحت الجيوش الألمانية هولندة ، وفرت حكومتها الى لندن ، عندئذ رأت حكومة إندونيسيا الهولندية أن الموقف فى حاجة الى تكييف جديد ، لأنها معرضة لخطر لا يقل عما تعرضت له هولندة نفسها إن لم يكن أعظم منه ، فقد كانت اليابان تنظر الى إندونيسيا بكثير من الاهتمام لتوفر المواد اللازمة للحرب بها ، ولكى لا تكون نقطة ارتكاز للحلفاء ، ولتؤمن طريق وصولها الى الهند حيث تضع بريطانيا أحد قدميها ، وأحست حكومة إندونيسيا بذلك ، ورأت ضرورة الدفاع عن البلاد ، واحتالت على الأهالى لتقنعهم ، وعادت الوعود المعسولة الى الظهور فأصدرت الملكة « ولهلمينا » من مركز حكومتها فى لندن فى ٣٠ يوليو سنة ١٩٤١ هذا التصريح :

« حالما تتحرر هولندة من سيطرة المعتدين فستتألف حكومة جديدة ، وسيعهد إلى تلك الحكومة أن تقوم فى الحال بمراجعة الدستور مراجعة كاملة تنظم على أساسها العلاقات بين هولندة نفسها وبين باقى أجزاء الأمبراطورية »

واستجاب الإندونيسيين للموقف وتكونت فرق عسكرية منهم ، ولكن حين حانت ساعة الكفاح هرب الهولنديون من الميدان واضطر الإندونيسيين إلى التفاهم مع اليابانيين الذين أنزلوا قواتهم فى كثير من الموانىء الإندونيسية . وحاولت اليابان إقناع الأهالى بأنها إنما تطهر آسيا من الأوربيين ، وأنها إنما تبقى آسيا للآسيويين وفى ظل وعود أخرى كاذبة استطاعت اليابان أيضاً الاستيلاء على كثير من موارد البلاد ، وأن تصدر إلى جزائرها الماشية والأغنام والمطاط والقصدير والزيت وغيرها .

ولم يكن جهاد الإندونيسيين فى سبيل استقلالهم إبان احتلال اليابان لبلادهم بأقل من جهادهم ضد الهولنديين ، ولكن اليابان لم تلق إليهم بالا إلا حين أصبح الموقف العسكرى فى الشرق خطراً عليها ، فأصدرت فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ أول تصريح تعد فيه بمنح إندونيسيا استقلالها ، ولكن سير الحوادث غير الموقف كثيراً إذ لم

بعض غير قليل حتى استسلمت اليابان . وعندئذ أعلن زعماء الشعب استقلال البلاد وميلاد الجمهورية الإندونيسية فى ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٥ ، واختير لرآسة الجمهوريه زعيم قديم هو المجاهد الدكتور أحمد سوكارنو .

وفى اللحظة التى انصرف فيها الإندونيسيون لتدبير شئون جمهوريتهم الجديدة دهمتهم قوات هولندية وانجليزية كبيرة بحجة الرغبة فى تجريد اليابانيين من أسلحتهم والقبض عليهم كأسرى حرب ، وإطلاق سراح أسرى الحلفاء . وقاوم الإندونيسيون هذه الحجة الباطلة فأسكتتهم طلقات المدافع ، وعادت هولندة الى احتلال البلاد بفضل مساعدة انجلترا لها .

تجدد الصراع بين الجمهورية الإندونيسية وبين الحكومة الهولندية ، واتخذ شكلا أكثر عنفاً ، وفى خلال ذلك اعترفت بعض الدول بالجمهورية الإندونيسية ، فاضطرت هولندة بعد ما أصابها من خسائر الى الاعتراف بالأمر الواقع والاتفاق مع الإندونيسيين لوقف الأعمال العدوانية فى اكتوبر سنة ١٩٤٦ ، ولكن هذا الاتفاق كان ينطوى على غدر من جانب الهولنديين إذ عادوا الى قتال الإندونيسيين وأصلوهم وابلا من قنابل طائراتهم ، وهدموا كثيرا من المبانى والمساجد والآثار القيمة ، هذا فضلا عما حل بالأهالى من تقتيل وتشريد .

وقد أغضب الإندونيسيين أن تكون ملكة هولندة رئيسة للاتحاد المزمع إنشاؤه ، وهو الاتحاد الذى أسمته اتفاقية ١٥ نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، بالاتحاد الإندونيسى الهولندى ، ورأوا أن يذهبوا بقضية بلادهم إلى هيئة الأمم المتحدة فلعلها تضع حداً للمذابح الدائرة فى بلادهم ، ولعل الدول المجتمعة فى مقر هيئة الأمم من أجل السلام تستطيع أن تنشر السلام على ربوع إندونيسيا . ولكن المصالح والأغراض اتفقت ضد إندونيسيا وعجزت هيئة الأمم أن توقف هولندة المستعمرة المحتكرة المستبدة عند حدها ، ولم يعد أمام الإندونيسيين إلا مواصلة كفاحهم من أجل الحرية فى أرض الوطن نفسه . . لا فى مسرح هيئة الأمم ؟

صوت من وراء البحار :

الإسلامُ في أميركا

للأستاذ الأديب محمد على الحومانى

رائد المهاجرين فى أمريكا إلى الشرق

لا أعرف عهداً ، قصر فيه المسلمون بين يدى رسالتهم القائمة على الدعوة إلى الله ، كهذا العهد الذى كثر فيه الدعاة لكل فكرة وكل مذهب ، حتى زاحم الباطل الحق ، والشر الخير ، والفساد الصلاح .

ثم لا أعرف بلاداً خليقة بهذه الدعوة إلى الله ، وجديرة بعناية الإسلام ورسالته القائمة على الحق ديناً ومدنية ، غير البلاد الأميركية ، شمالها وجنوبها ، فقد رأيت بعينى ولمست بروحى ، هذا العالم ، فوجدته خالى الصدر من كل ما يحول بينه وبين الإذعان للحق إذا تبين له الحق ، والتنكر للباطل إذا تحدد له الباطل ، ورأيت أن الدين الذى ينبت فى صدور أهله ثم ينمو ، هو الذى يجمع المادة إلى الروح ، ويقرن العلم بالعمل ، وهذا هو الدين الإسلامى فحسب .

فما بال أقوام يعلمون أن دينهم حق ، وأن الدعوة إليه لازمة فى أعناقهم وأن فى طوقهم العمل على نشر هذه الدعوة ، ثم يدعوهم الداعى إلى العمل عليها والتضحية فى سبيلها فيقفون حائرين ، ويعرضون ذاهلين

لقد وفدتُ على المؤتمر الإسلامى المنعقد فى القدس عام اثنين وثلاثين وتسعمائة وألف ، باسم الهيئات الإسلامية التى تعيش فى العالم الجديد « أميركا » ورفعت

للمؤتمر يومئذ سجلا ضافياً يكشف للمؤتمرين أحوال هذه الفئة الحية ، على قلتها ، وكيف تنشأ أعقابهم فى محيط لايعرف غير المادة ديناً ولامدنية ، وأقنعت رجال المؤتمر بضرورة العناية بما يزيد عن مليون مسلم منتشرين فى هذا العالم ، لو عنينا بهم لأغنونا عن دعاية ترزح تحتها أضخم الثروات التى يضحى بها اليهود فى سبيل دعايتهم تحت سماء ذلك العالم .

مئات الألوف من شبابنا المسلم الأميركى يجهلون التراث الدينى والقومى المنحدر إليهم من أصلاب آبائهم ، ومئات الألوف من هؤلاء الآباء الذين هاجروا منذ خمسين عاما إلى عالم بعيد عنهم فى الخلق والدين ، كل أولئك معرّضون للفناء خلال عشرين أو ثلاثين عاما إن لم نتداركهم بالبعثات دينية وقومية ، لنتخذ من هديهم قوة تعزز آمالنا باستعادة مجدنا فى ديننا ودنيانا .

كل ذلك أعلنته فى المؤتمر الإسلامى ، والمؤتمرات التى تلته من دينية وقومية ، وقدمت للأزهر والنجف من جمعيات المسلمين فى أميركا رسائل تفيض رجاء واستغاثة منذ عشرين سنة . ولم ألق من الأمة جمعاء غير الإهمال والإعراض الذى لا يقره دين ، ولا يسيغه عقل .

وهأنذا أعود اليوم من جديد الى مصر فأختلف ليل نهار ، وصيف شتاء ، الى رجال الأزهر ومؤسسات الشباب المسلم القائم على تعزيز الدين فى نفوس الأحداث ، وعلى تربية النشء تربية صالحة تعصمه من مضلات الفتن ، أقول : لا أزال منذ سنة أختلف الى الأندية والمحافل مثيرا قضية المهاجر المسلم ، وداعيا الى العناية بنشئه قبل أن يفنى الآباء ، ونصبح فى عجز عن أن نعيد الأبناء الى حظيرة آبائهم .

ثم هأنذا أجدد الصيحة على صفحات هذه المجلة العالمية « رسالة الإسلام » ، فهل هى واجدة صداها لدى المؤمنين بهذا الدين ؟ ؟

صـــوت التقريب :

أعزز علينا أن نرى أنفسنا مضطرين إلى إرجاء ما تهيأ لهـذا العدد من «صوت التقريب» فقد توارد على المجلة كثير من المقالات الممتعة والبحوث القيمة بأقلام جهابذة العلم ، وفطاحل القانون والأدب والاجتماع ، ولم نجـد بدا من الإذعان لهذا الروح الـكريم ، روح الرغبه فى المعاونة والإقبال على المساهمة ، فضحينا بالصفحات المعـدة لصوت التقريب ، ثم زدنا عن صفحات العـدد الأول ثمانى صفحات ، ولم نستوف مع ذلك كل ما لدينا من بحوث .

فإلى العدد القادم إن شاء الله تعالى ومنه نستمد التوفيق والرشاد .

مكتبـــة التقريب :

ينص قانون الجماعة فى مادته الرابعـــة على أنه (تكون للجماعة دار تسمى « دار التقريب بين المذاهب الإسلامية » ومكتبة تحوى كتب المذاهب الإسلامية والمراجع التى تحتاج إليهـا فى بحوثها الدينية والاجتماعية) .

ويسرنا أن أهل العلم والفكر من كافة الطوائف الإسلامية ، بين أفراد وهيئات رسمية وشعبية ، يدركون ما لهذه المكتبة الجامعة من أهمية ، وأنها ستكون بعون الله طرازاً فريداً بين المكتبات تلم المتفرق وتجمع الشتات . وتسعف العلمـــاء والباحثين بمـا لايجدونه مجتمعاً فى سواها ، وهم لذلك يغذونها بكل نافع ، ويحرصون على أن تلتقى لديها أفكار علمائهم وأدبائهم وباحثيهم فى القديم والجديد .

وإن دار التقريب لتشكرهم أجزل الشكر ، وتحيي فيهم جميعاً هذا الشعور الكريم .

فهرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى . مدير الادارة : عبد العزيز محمد عيسى

الادارة رقم ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك ـ القاهرة ـ تليفون : ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة : فى البلاد العربية خمسون قرشا مصريا

وفى أمريكا أربعة دولارات ، وفى البلاد الأخرى ليرة انجليزية

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣



تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الأولى — رمضان ١٣٦٨ هـ
العدد الثالث — يوليو ١٩٤٩ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

" قرآن كريم "

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

تجتاز الشعوب الإسلامية فى هذا العصر مرحلة من أدق مراحلها، وتمر بطور خطير ربما كان أخطر أطوارها . ذلك بأنها استفاقت بعد عهد طويل من السبات أو الخدَر كانت فيه رازحة تحت كابوس من الجهل والاستعمار والتفرق بين كثير من أمرها لا تدركه ، وقليل تدركه ولا تملكه ، فكان عليها أن تصلح شئونها فى مختلف النواحى ، وأن تجارى الأمم القوية فى الأخذ بأسباب التقدم الملائمة للعصر ، المناسبة للظروف والأحوال العالمية، وعليها قبل ذلك أن تحتفظ بمقوماتها فلا تذوب فى غيرها معنى ، وقد وقاها الله أن تذوب فى غيرها حساً وفعلا .

وهذه المرحلة فى الأمم والشعوب أشبه بمرحلة الرشد فى حياة الأفراد ، تكتنفها الخطورة والدقة والصعاب من جميع نواحيها ، فإن الفتى الذى عاش دهراً فى حماية وصيه أو وليه ثم سُلم إليه أمر نفسه ، يشعر بأنه مقبل على ما لم يألف ، مكلف بالفصل فيما لم يعهد ، مضطلع بألوان من التدبير والتصرف تحتاج الى كثير من النظر والتأمل والإقدام والتجرؤ ، فإذا لم يكن حصيفاً واسع الحيلة قوى العارضة مقداماً على الأمور غير هياب ، فإن الدهر لا يُنظره ، والأحداث لا تمهله .

ولقد ثقلت ـ لذلك ـ أعباء الحكومات فى البلاد الإسلامية ثقلا شديدا ، وأصبح الحكام والرؤساء فيها أولى الناس بالإشفاق والرثاء ، لكثرة ما يحملون فوق كواهلهم من أمانات كتب الله عليهم أن يؤدوها كاملة غير منقوصة ، والأمور أمامهم مشتبهة ، وميادين الإصلاح والجهاد متعددة ، ومطالب الحياة السعيدة الراقية متكاثرة ، وثمن الأمن والطمأنينة غالٍ غالٍ حتى إنه ليصل إلى الأرواح تبذل بذل السماح ، والدماء تراق كما يراق الماءً ، وليس رجال الحكم وولاة

الأمر بالجبال ولا الحديد ، وإنما هم رجال كسائر الرجال إذا تراكمت عليهم الأعمال ، واستُنزِفت منهم القوى أكْدَت ملكاتهم ، وضعف نِتاجهم ، وقل غناؤهم ، وهذا هو السر فيما نراه من بطء وعقم وتراخ فى تنفيذ خطط الإصلاح .

والشعوب الراقية تيسر على الحكومات أمرها ، وتعينها على أداء واجبها بما تبثه فى نواحى الحياة من نشاط ، ولقد نعلم أن فيها لكل فرع من فروع العلوم العلمية أو النظرية مؤسَّسة تهتم به وتدرسه وتحيط بدقائقه وتفاصيله ، ونعلم أن بعض هذه المؤسَّسات تقوم على مايجود به رجل واحد ممن آتاهم الله المال ، وآتاهم مع المال حب العلم والإصلاح ، فكأنما كل واحد منهم بما يقدمه إلى الناس أمة برأسها.

ولقد كنا كذلك حين كانت أمورنا إلينا ، فكانت المساجد جامعات ، والمجالس معاهد ، وبيوت العلماء والأدباء نوادى للبحث ، وكان فينا من يرحل لتحقيق رواية ، وضبط كلمة ، وسماع حرف ، ومن يتبتل فى سبيل العلم كما يتبتل الرهبان فى الصوامع والبِيَع ، ومن يخرج من ماله وما يملك لعالم أو أديب رفع له كتابا ثم لا يجد ذلك كفاء لفضله ، ولا عدلا لجميله ، فيعتذر إليه ، ويُغضى حياء منه ، وقد زخرت المكتبة العربية الإسلامية بآثار هذا النشاط وثمار تلك الجهود ومن بينها تلك « الموسوعات » الجامعة المستقصية فى مختلف العلوم والآداب ما بين فقه وتاريخ وأدب وتفسير وحديث ولغة وتجارب وغيرها ، وكل كتاب منها — لعمرى — بحر لا يدرك غوره ، وكنز لا تفنى أعلاقه ونفائسه ، وهذا مجمع الضاد يأتلف فيه عقد الفطاحل من أبناء الشرق والغرب فيدرسون إلى اليوم قرابة عشرين عاما ولمّا يُبرزوا معجمهم الوسيط بَلْه الكبير ، وبين أيديهم « لسان العرب » و « الصحاح » و « المخصص » و « النهاية » و « القاموس » وكل واحد منها ثمرة من ثمار رجل واحد .

فياليت قومى يعلمون أن « الحكومات » لن تغنى عن الشعوب إذا نامت الشعوب ؟

رئيس التحرير

محمد محمد المدنى

تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

سورة البقرة

سبب هـذه التسمية .
قصـة ذبح البقرة .
منـاهج النـاس فى
فهم القصص القرآنى .
عرض لمقاصد السورة .

— ١ —

سورة البقرة أطول سورة فى القرآن الكريم ، فقد استغرقت جزءين ونصف جزء من ثلاثين جزءا قسم إليها القرآن . وهى من أوائل ما نزل بالمدينة . وسميت بهذا الاسم لأنها انفردت بذكر حادثة قتل وقعت فى بنى اسرائيل على عهد موسى عليه السلام ، وكان للبقرة ـ وهى الحيوان المعروف الذى اتخذ بنو اسرائيل من نوعه إلها فى وقت ما يعبدونه من دون الله ـ شأن إلهى عجيب فى هـذه الحادثة : وقعت الجناية ، وقتل القتيل ، واختلف أهل الحى ـ الذى لوثت أرضه بدم الجناية ـ فى القاتل : من هو ؟ وأخذ كل يدفع الجناية عن نفسه ويتهم بها غيره ، وفيهم من يعلم عين الجانى ويكتم أمره « وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيهـا والله مخرج ما كنتم

تكتمون ، وترافع القوم إلى موسى عليه السلام ليحكم فى هذه الجناية التى خفى مرتكبها ، فأمرهم صلوات الله وسلامه عليه عن ربه جل وعلا أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا القتيل ببعضها فيحيا بإذن الله ويخبر بقاتله ، ولما طبع عليه بنو إسرائيل من العناد فى تنفيذ الأوامر ؛ وقفوا كالساخرين أو الهازئين من الأمر بذبح البقرة فى هذا المقام ، حتى لقد قالوا لموسى : أتتخذنا هزوا ؟ وما كان لنبى الله أن يسخر أو يهزأ ، ولكنها القلوب الملتوية تنصرف عن الحق وتعاند فى قبوله فسألوا عن البقرة : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى » . « ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها » . « ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا » أكثروا من السؤال وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم جزاء تنطعهم وتلكئهم فى تنفيذ الأمر ، شأنه فى كل متشدد متنطع ، وحددها لهم فى دائرة ضيقة من السن والأوصاف والعمل : « قال إنه يقول إنها بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك » « إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » . « إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها » وأخيرا وبعد حيرة ومشقة عثروا عليها « فذبحوها وما كادوا يفعلون » ثم ضربوا القتيل بجزء منها فأحياه الله وأنبأهم بالمجرم الجانى « كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » .

انفردت هذه السورة بذكر تلك القصة ومن أجلها سميت « سورة البقرة » .

ويجدر بنا أن نقف هنا وقفة نبين فيها مناهج الناس فى شأن هام يتعلق بفهم القصص القرآنى . فإن مما قيل فى هذا القصص : إن كثيرا مما قصه القرآن لم يكن معروفاً من قبل ، لا فى الكتب الالهية ، ولا فى الآثار التاريخية ، وقد قيل هذا فى تلك القصة بالذات .

وقد خرّج الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده هذه القصة على أنها نوع من التشريع الذى كان موجوداً فى زمن بنى إسرائيل لغرض الوصول الى معرفة القاتل المجهول فى مثل هذه الحادثة ، وشدَّ أزره فى ذلك الأستاذ الشيخ رشيد رضا حيث ساق نصوص التوراة الواردة فى هذا التشريع الذى يشير إليه :

قال الأستاذ الإمام : يقول أهل الشبهات فى القرآن : إن بنى إسرائيل لا يعرفون هذه القصة إذ لا وجود لها فى التوراة فمن أين جاء بها القرآن؟ ونقول أن القرآن جاء بها من عند الله الذى يقول فى بنى إسرائيل المتأخرين إنهم نسوا حظا مما ذكروا به ، وإنهم لم يؤتوا إلا نصيبا من الكتاب ، على أن هذا الحكم منصوص فى التوراة ، وهو أنه إذا قتل قتيل ولم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول فى واد دائم السيلان ، ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتَل أيديهم على العجلة التى كسر عنقها فى الوادى ، ثم يقولون إن أيدينا لم تسفك هذا الدم ، اغفر لشعبك اسرائيل : ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل فى هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء ، فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هى السبب فيه .

ويقول الأستاذ رشيد رضا : إن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو فى أول الفصل الحادى والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه :

١ — إذا وجد قتيل فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعا فى الحقل لا يعلم من قتله .

٢ — يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون الى المدن التى حول القتيل .

٣ — فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالنير .

٤ — وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة فى الوادى .

٥ — ثم يتقدم الكهنة بنى لاوى لأنه إياهم اختار الأب إلهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب ، وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة .

٦ — ويغسل جميع الشيوخ فى تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق فى الوادى .

٧ — ويصرخون ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر .

٨ — اغفر لشعبك إسرائيل الذى فديت يارب ، ولا تجعل دم برىء فى وسط شعبك إسرائيل . فيغفر لهم الدم اه .

ثم قال الشيخ رشيد : والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء عند التنازع فى القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ، ولم يعرف قاتله ليعرف الجانى من غيره ، فمن غسل يديه وفعل ما رسم لذلك فى الشريعة برىء من الدم ، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية ، ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف فى قتل تلك النفس ، أى يحييها بمثل هذه الأحكام ، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » وقوله : « ولكم فى القصاص حياة » فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى فى الآيتين ، ثم قال : « ويريكم آياته » بما يفصل بها فى الخصومات ويزيل من أسباب الفتن والعداوات ، فهو كقوله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » وأكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير فى آيات الله فى خلقه الدالة على صدق رسله . وليس عندى شىء عن شيخنا فى تفسير هذه الجملة ، ولكنه قال فى تعليلها مايرجح القول الأول ، وهو : « لعلكم تعقلون » أى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة ، فلا تتوهمون أن ما وقع مختص بهذه الواقعة فى هذا الوقت ، بل يجب أن تتلقوا أمر الله فى كل وقت بالقبول من غير تعنت .

والذى حمل الأستاذ الإمام على هذا فيما نظن هو رغبته فى التخلص من الاعتراض الذى ذكره بعض المستشرقين مع وجود النص التشريعى الذى أشار إليه الشيخ بمعناه ونقله الشيخ رشيد بنصه .

هـذا صنيعهما ، وبذلك يتبين أنهما توافقا على أن الآيات مسوقة لبيان حكم تشريعي لا لبيان حادث تاريخي . لكننا إذا نظرنا إلى النص فى هذه الآيات وما ذيل به الكلام من قوله تعالى : « قلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » وجدنا هذا النص إن لم يمنع من الحمل على إرادة الحكم التشريعي فلا أقل من أن يبعده إبعادا ، ذلك بأن كلمة « اضربوه » واضحة فى أن يضرب المقتول ببعض البقرة المذبوحة ، وليس فى الكلام إشارة تتعلق بالقاتل الخفى ولا إشارة إلى غسل أيدى أهل الحى من دماء البقرة ، وقوله تعالى « كذلك يحي الله الموتى » يدل على أن الإحياء المشبه به — وهو الإحياء فى هـذا المقـام — إحياء حقيق بعد موت تسلب فيه الروح ، وليس إحياء حكميا يحصل بمعرفة القاتل والاقتصاص منه حتى يكون بمثابة « ولكم فى القصاص حياة » كما يريد الشيخان ، ولو كان الأمر كما يقرران لما صح تقرير إحياء الموتى للبعث والجزاء بهذا النوع من الإحياء الحكمى المجازى ، ولو أن قائلا قال : إن الله يحي النفوس الجاهلة بالعلم ، وكذلك يحي الموتى من قبورهم لما كان مثل هذا التشبيه والقياس سائغا . وإن قوله تعالى « ويريكم آياته » لواضح فى الإراءة البصرية للآيات الكونية لا فى الإراءة العقلية للأحكام الشرعية حتى يكون من قبيل « لتحكم بين الناس بما أراك الله » وإن قوله بعد ذلك « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » ليدل على أنهم رأوا حالة مادية من شأنها أن تؤثر فى النفوس ومن شأن القلوب أن ترق لها وأن تتجرد من القسوة والعناد عندها . ومع ذلك لقد قسوا واشتدت قسوتهم وكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد ، وكل هذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعي ، فهـذا الحمل تأويل منهما ولكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة وما هو المعهود من كلام العرب .

هذا أحد المناهج التى عرفناها للناس فى فهم القصص القرآنى ، وهو « صرف الكلام عن مدلوله اللغوى إلى معنى آخر دون ما يدعو إلى هـــذا التأويل »

وصاحبه قد يُحَكِّم فيه مجرد الأستبعاد لما يؤديه الكلام من المعنى الظاهر ، وكثيرا ما يقصده بعض الباحثين دفعا لما يثيره خصوم القرآن على القرآن ، ويدخل فى هذا القسم تأويل إحياء الموتى المنسوب لعيسى بالإحياء الروحى . وحمل النمل فى قصة سليمان على أنه قبيلة ضعيفة . وتأويل الكواكب فى قصة إبراهيم بأنها جواهر نورانية نورها عقلى لا حسى . وما نقله البيضاوى عن بعض الصوفية فى معنى المائدة التى أنزلها الله حيث يقول « وعن بعض الصوفية : المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن ، وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا فى حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها فقال لهم عيسى : إن كنتم حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها ، فلم يكفوا عن السؤال وألحوا فيه فسأل لأجل اقتراحهم ، فبين الله تعالى أن إنزاله أياها سهل ولكنْ فيه خطر وخوف عاقبة ، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر به فيضل به ضلالا بعيدا » .

وهذا المنهج هو من طريقة التأويل التى أسسها الباطنية فى القرآن الكريم وصرفوه بها عن دلالته العربية ، وفيه احتفاظ بمدلول للكلام وواقع يدل عليه ولكنه صرف للفظ عن معناه الوضعى إلى هذا المعنى الواقعى الذى يزعمه المؤول مدلولا للكلام .

والرأى فى هذه الطريقة أنه يجب أن يطبق عليها قانون التأويل الذى يتلخص فى أنه إذا كان التأويل لا يقضى على أصل دينى ولا يمس عقيدة ثابتة ، وهو فى الوقت نفسه يحتفظ للعبارة القرآنية بواقع تعبر عنه تعبيرا صادقا ، وكانت اللغة تسمح به ، فإنه يكون مقبولا من الوجهتين الدينية واللغوية ، وإذا لم تسمح به اللغة فهو مرفوض من هذه الجهة ، صادر عن جهل من صاحبه بقانون التأويل ومرفوض أيضا من جهة ما يلزمه من الحكم بصدور التلبيس من الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، أما إذا كان يقضى على أصل دينى أو يمس عقيدة فإنه يكون مرفوضا أيضا من الوجهة الدينية .

أما المنهج الثانى من المناهج التى عرفناها للناس فى فهم القصص القرآنى فهو يتفق مع المنهج الأول فى ناحية ويخالفه فى ناحية ، إذ هو صرف للألفاظ عن معانيها الحقيقية كما فى المنهج الأول ولكن لا إلى واقع يُزعم ويدعى أنه مراد ، وإنما إلى تخييل ما ليس بواقع واقعا ، فلا يلزم فيه الصدق ولا أن يكون إخبارا بما حصل ، وإنما هو ضرب من القول شبيه بما يوضع من حكايات بين أشخاص مفروضين أو على ألسنة الطيور والحيوان ، للإيحاء فقط بمغزى الحكاية من الإرشاد إلى فضيلة ، والحث عليها أو التحذير من رذيلة والتنفير منها .

وقد حكى ابن تيمية فى أول كتابه (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) أن من جماعة الفلاسفة فرقة جعلت ما رأته بعقولها أصلا لما جاءت به الأنبياء ، فما وافق قانونهم هذا قبلوه ، وما خالفه رفضوه . قال : « ومنهم أهل الوهم والتخييل الذين يقولون : إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر ، وعن الجنة والنار والملائكة بأمور غير مطابقة للأمر فى نفسه ، لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون ويتوهمون من أن الأبدان تعاد ، وأن لهم نعيما محسوسا ، وعقابا محسوسا ، وإن كان الأمر ليس كذلك فى نفس الأمر ، لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون ويتخيلون من أن الأمر هكذا ، وإن كان هذا كذبا فهو كذب لمصلحة الجمهور ، إذ كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذه الطريقة » .

ولا شك أن القرآن إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط والادعاء ، فقد اقتحمت قدسيته ، وزالت عن النفوس روعة الحق فيه ، وتزلزلت قضاياه فى كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار .

وشبيه بهذا ما فعله قوم زعموا أن ما جاء فى الكتاب الكريم من الآيات الدالة على أن الله يعلم جزئيات الأشياء وتفاصيلها ، لا يراد به معناه الظاهر ولا معنى آخر وإنما سيق ليورث رغبة ورهبة فى قلوب الناس ، وفى هؤلاء يقول الإمام الغزالى « وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل ولكن قالوا لما كان صلاح الخلق فى أن يعتقدوا أن الله عالم بما يجرى عليهم ورقيب عليهم جاز الرسول أن يفهمهم ذلك ،

وليس بكاذب من أصلح غيره فقال ما فيه صلاحه ، وإن لم يكن كما قاله ، وهذا القول باطل قطعا . لأنه تصريح بالتكذيب وطلب للعذر فى أنه لم يكذب ؟ ويجب إجلال منصب النبوة — ونقول نحن : وأولى مقام الألوهية — عن هذه الرذيلة فنى الصدق وإصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب » .

أما المنهج الثالث ، فهو منهج جمهور المفسرين ، ويقوم على الإفراط فى تحكيم الروايات الواردة من طرق مختلفة فى فهم القصة القرآنية ، واعتبار كل ما ورد متصلا بالقصة بيانا وتفصيلا لما جاء فى القرآن ، كما أتخذ الفقهاء الأحاديث المتصلة بآيات التشريع بيانا وتفصيلا أو تكميلا لما ورد فى الآيات من أحكام . وكما اعتبر الفقهاء الأحاديث مصدرا ثانيا للتشريع اعتبر هؤلاء الروايات الواردة فى القصة مصدرا ثانيا للقصة بعد القرآن الكريم .

والرأى السليم أنه إذا صح اتخاذ الأحاديث التشريعية مصدرا ثانيا للأحكام مبينا أو مفصلا أو مكملا لأن العلماء بحثوها وميزوا صحيحها من ضعيفها ، فلا يصح ذلك فى الروايات القصصية لأنها لم تبحث كما بحثت هذه ، فهذا المنهج فيه إفراط أى إفراط ، وذلك يتمثل فى كثير من كتب التفسير حينما تصل إلى قصص الأنبياء مع أممهم كما نراه فى حالة بنى إسرائيل فى التيه وكما نراه فى وصف المائدة التى أنزلها الله . ولنضرب تفسير أبى السعود — وقد يكون من المقلين فى الرواية — مثلا فى هذا إذ يقول فى وصف المائدة وما عليها من طعام :

« والصحيح الذى عليه جماهير الأمة ومشاهير الأئمة أنها قد نزلت ، روى أنه عليه السلام لما دعا بما دعا وأجيب بما أجيب إذا بسفرة حمراء نزلت بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال « اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة للعالمين ولا تجعلها مثلة وعقوبة ثم قام وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل وقال بسم الله خير الرازقين فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسما وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكرات وإذا

خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون رأس الحواريين ياروح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة ؟ قال ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله تعالى بالقدرة العالية كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله فقالوا يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال يا سمكة احيي بإذن الله فاضطربت ثم قال لها عودى كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا فمسخوا قردة وخنازير ، وقيل كانت تأتيهم أربعين يوما غبا يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون فى ظلها ولم يأكل منها فقير إلا غنى مدة عمره ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبدا ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أن اجعل مائدتى فى الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم من مسخ فاصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ويأكلون العذرة فى الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا على الممسوخين فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيبكون ويشيرون برءوسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن عيسى عليه السلام قال لهم صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ما شئتم يعطكم فصاموا فلما فرغوا قالوا إنا لو عملنا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا ، وسألوا الله تعالى المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم ، قال كعب نزلت منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل الطعام إلا اللحم . وقال قتادة كان عليها ثمر من ثمار الجنة وقال عطية العوفى نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شيء . وقال الكلبى ومقاتل نزلت سمكة وخمسة أرغفة فأكلوا ما شاء الله تعالى والناس ألف ونيف فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقالوا ويحكم إنما

سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن أراد فتنته رجع إلى كفره فسخوا خنازير فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ .

هذه المناهج الثلاثة مترددة بين إفراط وتفريط فى شأن القصص القرآنى ، وما ينبغى أن يستقبل به حتى يحقق الغاية المقصودة من قصه على الناس بالعبرة والموعظة ، وحتى يحدث التسلية للدعاة والمصلحين ، وحتى يتبين للناس أنه القصص الحق المطابق للواقع الذى لا مرية فيه ولا تزيد ولا تخييل .

وعلى أساس أن الحق وسط بين باطلين نقرر المنهج الرابع الذى يجب استقبال القصص القرآنى على أساسه وهو المنهج السليم والصراط المستقيم إن شاء الله ، وخلاصته الوقوف عند ما ورد فى القرآن الكريم ، مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها وإفادتها لواقع هى تعبير صحيح عنه دون تزيد عليه بما لم يرد فيه اعتمادا على روايات لا سند لها كما صنع المفْرطون ، ودون تحيف لمعانيها ، باعتبار أن الكلام تخييل لا يعبر عن واقع كما فعل المفَرّطون ، ودون صرف للألفاظ عن معانيها الوضعية الى معان أخرى من غير صارف يمنع إجراء الكلام على ظاهره كما فعل أهل التأويل الذين حرفوا كثيراً من القرآن عن مواضعه ، وتنكبوا قانون العربية التى نزل بها .

— ٢ —

وسورة البقرة من أجمع سور القرآن ، فقد احتوت على أصول العقيدة ، وعلى كثير من أدلة التوحيد ، كما ذكرت مبدأ خلق الانسان ، ثم وجهت عنايتها إلى أمرين اقتضت الإفاضةَ فيهما حالةُ المسلمين التى صاروا إليها بالهجرة من مكة الى المدينة .

أحدهما : أن المسلمين تركزوا جماعة مستقلة لأول دخولهم المدينة ، فبنى النبي مسجده ليؤدى فيه مع المؤمنين الصلوات المفروضة ، وليكون بمثابة ندوة

جامعة لهم ، فيها يتعلمون ، وفيها يتشاورون ، وفيها يتحاكمون ، وآخى النبى صلى الله عليه وسلم فى الوقت نفسه بين المهاجرين والأنصار ، وصاروا جبهة واحدة تؤمن بالله وتدعو إلى الخير والفضيلة ، وتحتاج تشريعاً تنظم به شئونها .

ثانيهما : أنه قد صار لهم جوار فى المدينة غير جوارهم فى مكة : جاوروا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد جوارهم للمشركين فى مكة . وبهذين الأمرين نجد السورة تهدف فى جملتها إلى غرضين : هما : توجيه الدعوة الى بنى إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه ، وفى سبيل ذلك أخذت تذكرهم بنعم الله على أسلافهم ، وبما انتاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين ، وارتكبوا ما ارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة ، واقرأ فى ذلك من قوله تعالى فى السورة « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون » إلى آخر آية البر فى منتصف السورة تقريبا « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » .

وهذا هو الغرض الأول الذى استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب ، أما الغرض الثانى فهو التشريع الذى اقتضاه تكوُّن المسلمين جماعة متميزة عن غيرها فى عباداتها ومعاملاتها وعاداتها .

وقد ذكرت السورة من ذلك القصاص فى القتل العمد العدوان ، وذكرت الصيام ، والوصية ، والاعتكاف ، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل . وذكرت الأهلة ، وأنها جعلت ليعتمد الناس عليها فى معرفة أوقات العبادة والزراعة وغيرها ، وذكرت الحج والعمرة ، وذكرت القتال وسببه الذى يدعو إليه وغايته التى ينتهى إليها ، وذكرت الخمر والميسر واليتامى ، وحكم مصاهرة المشركين ، وذكرت حيض النساء والتطهر منه ، والطلاق والعدة والخلع والرضاع وذكرت الأيمان وكفارة الحنث فيها ، وذكرت الإنفاق فى سبيل الله والربا والبيع ، وذكرت طرق الاستيثاق فى الديون بالكتابة والاستشهاد والرهن .

ويبدأ هـذا السياق من قوله تعالى بعد آية البر : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى إلى قبل آخر السورة ، وكان يتخلل كل ذلك على طريقة القرآن ما يدعو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام وعدم الاعتداء فيها ، من قصص ووعد ووعيد ، وإرشاد إلى سنن الله فى الكون والجماعات ، ثم تختم ببيان عقيدة المؤمنين على نحو ما بدأت فى بيان أوصاف المتقين « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون »

وبذلك يؤكد آخرها أولها ، ويؤسس أولها لآخرها وتصير السورة كتلة واحدة ، ينتفع المسلمون الذين يهتدون بالكتاب بأحد غرضيها فى معاملة من يخالطون من أهل الملل الأخرى ، وينتفعون بالغرض الآخر فى تنظيم أحوالهم من عبادة ومعاملة . ويأتى الغرضان فى آية البر مجملين بين « ليس » و « لكن » فتنفى « ليس » أن يكون البر شيئا مما درج عليه هؤلاء الحرفيون أصحاب المظاهر الجوفاء ، الذين يتمسكون بمثل تولية الوجوه قبل المشرق أو المغرب ، وتثبت « لكن » أصول الإيمان الحق والعمل الصالح على أنها هى البر الصحيح ، والواقع العملى للتقوى والمتقين « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

ثم يكون الختام الأخير تعليم المؤمنين دعاءً من شأنه أن يغرس فى نفوسهم سنة الله فى التشريع لهم وبناء أحكامه وتكاليفه على اليسر والوسع ودفع الحرج ، ومن شأنه متى أخلصوا فيه أن يأخذ بأيديهم الى حياة سعيدة سهلة ميسرة ، وييسر لهم وسائل المغفرة والنصرة « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

الإسلام
الأزهر
التقريب

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر والمعاهد الدينية (١)

ثلاث كلمات يسيرات على السمع واللسان ، راجحات فى القيمة والميزان ، يتلاقين غاية ومقصدا ، وإن اختلفن مدلولا ومعنى ، وفيهن لو علم الناس شفاء هذا الشرق الذى تحالفت عليه الأدواء ، وألحت به العلل والأسقام ، حتى أعياه الضنى ، وبرحت به الأوجاع والآلام .

* * *

بزغت شمس الهداية الاسلامية من هذا الشرق على حين فترة من الرسالات ، وضلالة من الناس ، واختلاف بالأهواء والشهوات ، وظلم من الأقوياء للضعفاء ، واستبداد من الحاكمين بالمحكومين ، وسيطرة لقوى الفساد ، وعوامل الضعف والانحلال ، وتردّ فى مهاوى الرذيلة أصبح به الانسان الناطق أحط درجة من

---

(١) حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز هو أحد الأعضاء المؤسسين لجماعة التقريب .

الحيوان الأعجم ، واضطربت به شئون الحيـاة ، واختلت موازينها ، ووقف به العالم على شفا حفرة من النار والدمار ، فلما بزغت هذه الشمس الساطعة بدد الله بها هذا الظلام الدامس ، وأحيا بها تلك القلوب الميتة ، وسلط شعاعها الوهاج على كل ناحيـة من نواحى الحياة ، وألف بها بين المتنافرين ، وأصلح بين المتخاصمين ، واستل العـداوات التى أنهكت القوى ، وانتزع السخائم التى عطلت المواهب ، وطغت على العقول ، فإذا أمة ناشئة فتية متحدة متعاونة ترفع بيمينها راية الإصلاح العالمى فى العقيدة والشريعة والنظام والسياسة والعلم والخلق ، وتهدى للتى هى أقوم ، وتنادى بالحق والعدل ، وتحارب الفساد والظلم ، وتعلن لأول مرة حق الانسان فى أن يعيش حراً كما خلقه الله ، وحق العقل فى أن ينطلق حراً فى مجال الـكون ، يفـكر ويتتبع ويستقرىء فيستدل ويستنبط ، وحق المجتمع فى نعمة الأمن والطمأنينة والقرار .

انطلق المسلمون الأولون يحملون هـذه الراية ، وينشرون هـذه الرسالة ، فتفتحت أمامهم أبواب العـالم ، وانطوت فيهم المـدنيات ، وتمثلت فى ثقافتهم الثقافات ، كما تتمثل فى جنى النحل أزاهـير النبات ، وأعاصير الثمـار ، وولجوا بالقرآن كل باب ، واستجلوا بالسنة المطهرة كل غامض ، وكانت عقولهم صافية ، وقلوبهم صافية ، فـلم تعبث الأوهام والخرافات بالأولى ، ولم تُفسـد الأضغان والأحقاد أمر الثانية ، فـكانوا فى العـلم والفـكر هداة راشدين ، وفى التعاون والتضافر على الحق والخـير مثلا عليا للمتقين ، ووقف العـالم ينظر إليهم مذهولا مشدوها ، وأحس أرباب السلطان وأعوان الطغيان ، بالأرض تميد من تحتهم ، وتضطرب بهم ، وأدرك الباطل والفساد أن قوةً لا تقاوم تزلزل عليهما عرشهما ، وتقوض بناءهما ، وأن مصيرهما أمام هـــذه القوة هو الانهزام والاندحار ، أو التسليم والاستخذاء ، فآثرا الأخرى على الأولى ، وخفضا رأسيهما الى حين ، حتى إذا واتتهما الفرصة حين أثمرت عوامل التفرق الأول بين المسلمين ثمـارها ، وتقطعت الأواصر ، واستُلت سيوف الإخوة على الإخوة ، بدا قرن الفتنـة ،

وتحركت الأفاعى الكامنة المتلبدة ، وانطلقت من مكانها ، تلبس لباساً يوارى سوآتها ، وتظهر فى صور شتى ، وألوان مختلفة ، مرة فى السياسة بإثارة الأحقاد ، وبث الفتن والمكائد ، وإذكاء نيران العصبية ، وتخويف كل فريق من الآخرين ، ومرة بافساد العلم والفكر ، عن طريق الوضع والافتراء والتأويل الفاسد ، وإثارة الشبه ، والخوض فيما نهى الله ورسوله عنه ، وتحرج المسلمون الأولون منه ، وبهذا وجدت الأحزاب السياسية ، وانبعثت العداوات القديمة والإحن الماضية من مراقدها .

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وبهذا وجدت الفرق الدينية ، واشتغل الناس عن المثمر من العلم والنظر بالخلاف فيما لا يغنى ولا يجدى ، وامتلأت البلاد من أقصاها الى أقصاها بالفتن السياسية والعلمية ، وشحنت الكتب بآثار هذا الخلاف فاختلط الحق بالباطل ، وشيب الصالح بالفاسد ، وتوالت على ذلك القرون والأجيال ، والضعف يتبع الضعف ، والداء يسرى من جانب الى جانب ، حتى أفضى الضعف السياسى إلى تلك النكبات التى يلاقيها المسلمون على أيدى المستعمرين ، وأفضى الضعف الفكرى إلى تبلبل أفكار الأمة ، وتفاوت النظر فيها ، فمن عالم ينادى بأن كذا هو الحق ، وما سواه باطل ، بل هو الدين وما سواه كفر وإلحاد ، ومن آخر يعكس القضية ويزرى على الأولين ، ومن طائفة تعكف على نفسها ، وتؤمن بما عندها ، وتخاف من كل طائفة سواها ، الى طائفة تظن بها الظنون ، وتفرض فيها السوء ، وتحمل عليها ، وتنبز علماءها ، وتحقر أهلها .

وقد غذيت هذه الخلافات ، وهذه السياسات بكثير من الروايات الملفقة ، والأحاديث الموضوعة ، والأخبار المفتراة ، وامتلأت كتب التفسير والمغازى والمناقب بما لا يحصى من الأكاذيب ، وأصبح بجوار كل آية فى كتاب الله رواية من الروايات تحمل عليها ، بل تلوى إليها ، وفسر القرآن بما يوافق أصحاب الآراء ، وقبل من الأحاديث ما يؤيدهم ، وطعن فيما يخالفهم ، واشتبه الأمر فيما

يقبل وفيما يرفض ، وفيما يصح وفيما لا يصح ، ليس على الوسط من الناس فحسب ولكن على بعض ذوى العقول الراجحة والذكاء الألمعى أيضاً ، ولم يسلم من ذلك إلا من عصم الله وقليل ما هم .

وقد شهدت الأمة الإسلامية مع هذا نوعا آخر من أنواع الخلاف والتفرق هو خلاف الأتباع والمتعصبين للأئمة الذين ظنوا التزام مذهب من المذاهب بعينه دينا لا يجوز للمسلم أن يخالفه ، وأدرجوا ذلك فى حكم العقائد ، ورتبوا عليه مسائل فقهية بحثوا فيها حكم من قلد غير الأربعة ، ومن قلد غير إمامه حتى من الأربعة ومن لفق فى العبادة أو المعاملة بين مذاهب عدة ، ومن أفتى بغير الراجح أو المعول عليه أو المفتى به ، أو بتعبير أدق ، بغير ما وصف فى الكتب بأنه كذلك ، إلى غير هذا من المسائل التى ما أثارها إلا العصبية المذهبية ، والتى قامت بنصيبها فى تفريق الأمة الأسلامية .

بات المسلمون من ذلك كله فى ضعف ، وقاسوا منه أهوالاً شدادا ، وأدرك المخلصون من أبناء هذه الأمة أن لا نجاة لها مما وقعت فيه إلا إذا عادت إلى ما كانت عليه فى عهدها الأول ، حين كان الشمل مجتمعا ، والعلم صافيا ، والدين واضحا ، والمرجع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التى صحت روايتها ، واستقامت دلالتها ، ينزل على حكمها المختلفون ، ويصطلح عليها المتخاصمون . وذلك فى نظرنا يستدعى أمرين عظيمين ، يجب على كل مؤمن أن يكون له مساهمة فى نجاحهما :

الأمر الأول : إصلاح الحالة العلمية ، والعمل على إنشاء جيل من العلماء يكثر به سواد المصلحين ، وتعزز به جهود أولئك الدعاة إلى الحق ، المجاهدين للباطل والفاسد ، الذين يلاقون من خصومهم ما يلاقون من الرمى والنبز والتأثيم لمجرد أنهم تجرءوا على خلاف ما درجوا عليه وورثوه .

إن أعداء الإسلام ينظرون إلينا فرحين مستبشرين ، إذ يجدون التفاوت

العقلى فى معارفنا التى يغلو بعضنا فيسميها عقائد تفاوتا واسع المدى ، من شأنه أن يجعل الدين الواحد أديانا مختلفة ، وقد قالها بعض المستشرقين للمغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى فضرب المثل فى هذا التفاوت الواسع ببعض العلماء من القدامى والمحدثين ، وبعض الطوائف الحاضرة والماضية متسائلا : مَن مِن هؤلاء هو الذى يمثل الإسلام الصحيح ، وكلهم يدعى الإسلام الصحيح ؟

إن الأمل فى تحقيق هـذا الأمر العظيم لمعقود بالأزهر تلك الجامعة الكبرى التى أنشأها المعز لدين الله الفاطمى ، فكان للشيعة فضل إهدائها للثقافة الإسلامية وتوالى عليها فضل الملوك والعلماء من أهل السنة فكان لهم فضل بقائها وازدهارها .

إن الأزهر هو الوارث الوحيد للثقافة الإسلامية ، منه نبتت ، وعلى أيدى شيوخه وتلاميذه ترعرعت ، وهو الذى آواها حين تنكر لها الناس ، وحفظ أماناتها حين ضيعت الأمانات ، وفى أروقته ، وعلى بساطه ، نثر العلم ، واشتجر الرأى بالرأى ، وشهدت الحرية الفكرية أزهى عصورها ، وأمنع حصونها ، والعالم الآن يرقبه فإن هو أدرك واجبه لهذا العصر ، وقام بحق الدين والعلم والإصلاح والتقويم ، فقد أثبت أبناؤه أنهم ورّاث هذا المجد التليد عن جدارة وفضل لا عن تشبه وتمثل ، وإن تكن الأخرى فإن العالم لا يمهل المتخلفين ، ولا يعذر المقصرين وما واجبه إلا أن يعكف على درس علومه الدينية والعربية دراسة قوية ، يكون الغرض منها الوصول إلى معرفة الحق دون تعصب ولا تحيز ، وتجلية الإسلام وجميع معارفه فى الثوب الناصع القشيب ، الذى لم يغبر بغبار الأوهام ، ولم يصبغ بغير صبغة الله .

أما الأمر الثانى : فهو العمل على جمع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وتصفية الخلافات القائمة بينهم بعرضها على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه السلف الأول من المؤمنين ، وسوف يظهر أنهم فى الحقيقة متحدون غير مختلفين فالأصول واحدة ، والوسائل واحدة ، وما الخلاف إلا فى التطبيق ، ولعمرى إذا جاز اختلاف المسلمين فى الفقه والفروع ، فكان منهم الحنفى والمالكى

والحنبلى والشافعى والزيدى والإمامى ، وأزال الله فى هذا العصر ما كان بينهم من عداوة وبغضاء ، فلم لا يجوز بينهم اختلاف هادئ عفّ فيما هو وراء الأصول المتفق عليها من ألوان المعارف الفكرية التى ليست من العقائد ؟

ولقد ندب الله لهذه الغرض الشريف ، والمقصد الأسمى ، تلك الجماعة الموقرة : جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، التى تؤذن بتكوينها من جميع الطوائف المؤمنة بالقرآن والرسالة المحمدية ، بعهد جديد من التآلف والتآزر بين المسلمين سيكون إن شاء الله خيراً وبركة على العالم الإسلامى أجمع .

وإنى أسأل الله جلت قدرته أن يهيء للمسلمين من أمرهم رشدا ، وأن يوفقهم إلى صراطه المستقيم فى الحق والعلم والدين ، وأن يجمع بين قلوبهم ، وينقذهم من نار الخلاف والشقاق ، كما أنقذ آباءهم الأولين ؟

من مضار التفرق

التفرق يوزع القوى ، فشخص يبنى وشخص يهدم ، وشخص يهاجم وآخر يدافع . أما الوحدة فتجمع القوى ، وتوجد التعاون بين الأفراد لبلوغ الغايات وتسنم أرفع الدرجات . والتفرق أمارة من أمارات عدم النضوج ، فإن العقل الناضج يلازمه عادة حب الانصاف ، حتى إذا طرح شيء للبحث وكانت هناك عقول ناضجة واتجاه للحق لا تصده الأهواء ، لا يلبث الحق أن يظهر مشرقا أبيض الوجه ، ولا يلبث الخلاف أن يزول .

وقد عمل الاسلام على الوحدة فى كثير من المظاهر ، فخليفة واحد تتجه إليه الأنظار ويكون قبلة الجميع ، أفضل من خلفاء متعددين . وصلاة الجماعة خلف إمام واحد يضمهم ويوحدهم ، أفضل من الصلاة مع التفرق . وقد أمر المسلمين بالاجتماع فى الجمعة والعدين والحج . كل ذلك تنمية للوحدة وتقوية لها . وقد هدم نظام الجنسيات والعصبيات ، وساوى بين الجميع فى الأخوة ، وجعل الفضل للتقوى . وهكذا عند التأمل نجده يرمى إلى الوحدة فى جميع التكاليف ذلك لأن الوحدة أساس الاصلاح فى الحياة الدنيا ، وأساس العزة والسلطان .

[الشيخ المراغى]

الاجتهاد في الشريعة
بين السنة والشيعة

لحضرة صاحب الفضيلة العلامة الكبير

الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

من أهم الموضوعات الحية التى تتصل بالفقه الإسلامى اتصالا عملياً موضوع « الاجتهاد » وإنما كان هذا الموضوع من أهم الموضوعات ، لأن عليه يترتب أهم وصف يوصف به الفقه الإسلامى ، من حيث صلاحيته لكفالة الحياة السعيدة للعاملين به المنظمين شئونهم على أساسه ، فمن المقرر أن شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان ، وأن لله فى كل واقعة حكما حتى أرش الخدش ، وما من عمل من أعمال المكلفين من حركة أو سكون إلا ولله فيه حكم من الأحكام الخمسة : الوجوب ، والحرمة ، والندب ، والكراهة ، والإباحة ، وما من معاملة على مال أو عقد نكاح ونحوهما إلا وللشرع فيها حكم صحة أو فساد .

ولما كانت الأعمال غير محدودة ، ووجوه التصرفات غير منحصرة ، وإنما هى متجددة بتجدد الأزمان والأمكنة والأحوال ، وقد يوجد فى عصر لاحق ما لم يوجد فى عصر سابق ؛ فإما أن يقف الناس أمام تلك الأمور حائرين مشدوهين ، لا يجدون من يفتيهم فيها بحكم الله ، ويبين لهم ما عليهم أن يفعلوه ،

وما عليهم أن يتركوه ، فتكون دعوى الصلاحية لكل زمان ومكان فى موضع الشك والتزلزل عند عامة الناس وخاصتهم ، ويلتمس الناس لأنفسهم فقهاً وضْعياً ملائماً لهم ، قادراً على تلبية حاجاتهم ، وإما أن يستقبل العلماء كل حادثة تجدّ ، وكل قضية تعرض ، بما كان يستقبل به الفقهاء الأولون حوادثهم ، ووجوه التصرفات والمعاملات فى زمانهم ، فيستنبطوا حكم الله ، ويبينوا للناس ما نزل إليهم ، ويدخلوا بهذا الفقه كل مجال ، ويطرقوا به كل باب ، ويحملوا أمتهم وحكامهم ونوابهم عليه حملا ، لا بالقوة ولا بالثورة ، ولكن بالاقناع والتوجيه وإبراز محاسنه ، والتخلص من الجمود والتعصب ، والضيق والتبرم ، وحينئذ تصدق دعوى الصلاحية لجميع الأزمان والأمكنة علماً وواقعاً ، ويتجلى للناس فضل الفقه الإسلامى ، وسعة أفقه وطواعيته ، وحسن تقبله لكل ما يفيد الأمة ، ولا يخرج عن الاصول المحكمة التى هى أساس الشريعة

وليس الذى يدعو إلى الاجتهاد هو حاجة الناس إليه فحسب ، وإنما هو أمر تقضى به طبيعة الشريعة نفسها ، ويؤذن به أن الله ختم بها النبوات ، وجعلها آخر الرسالات ، وأنه تعالى تكفل بحفظ كتابه الكريم إلى يوم الدين عزيزا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولم يكن الخلود والعصمة لمجرد أن يتعبد الناس بتلاوته ، وليست العزة لكتاب ّما فى مجرد تبرك الناس به ، وإنما كان هذا وذاك عن حكمة أسمى ، ورحمة أعم وأشمل ، ذلك أن يظل الناس أبد الدهر منتفعين بكتاب ربهم فى جميع شئونهم وأحوالهم ، وأن تبقى الحجة به قائمة على صدق الرسول ، وحقية الشريعة ، فما دام فى المسلمين عقول تفكر ، وقلوب تفقه ، فلا بد لهم من النظر فى كتاب ربهم ، وإلا كانوا منتسبين إلى القرآن بالاسم والميراث دون أن يكون منهم فرقة متفقهة فى الدين ، ينفرون إليه بعقولهم وقلوبهم وأجسامهم قائمين وراحلين فحصا وعلما ودرسا ونظرا وتبيينا وعرفانا واستنباطا لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون .

ثم إن الله جلت حكمته قد أودع نبيه جميع أحكامه وأسراره وعرفها له

بالوحى والإلهام . فكانت سنته عليه الصلاة والسلام هى الركن الثانى بعد القرآن ، وهى البيان له والتفصيل والكشف .

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يختلفون فى فهم نصوص الكتاب والسنة حسب اختلاف مراتب أفهامهم وقرائحهم « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » .

ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم

وقد يسمع الصحابى من النبي فى واقعة حكما ، ويسمع الآخر فى مثلها خلافه وتكون هناك خصوصية فى أحدهما اقتضت تغاير الحكمين ، وغفل أحدهما عن الخصوصية أو التفت إليها وغفل عن نقلها مع الحديث ، فيحصل التعارض فى الأحاديث ظاهرا ، ولا تنافى واقعا ، ومن هذه الأسباب وأضعاف أمثالها احتاج الأصحاب أنفسهم ، وهم الذين فازوا بشرف الحضور ؛ احتاجوا فى معرفة الأحكام إلى الاجتهاد والنظر فى الحديث ، وضم بعضه إلى بعض ، والالتفات إلى القرائن الحالية ، فقد يكون للكلام ظاهر ، ومراد النبي خلافه اعتمادا على قرينة كانت فى المقام ، والحديث نقل ، والقرينة لم تنقل ، وكل واحد من الصحابة ممن كان من أهل الرأى والرواية — إذ ليس كلهم كذلك بالضرورة — تارة يروى نفس ألفاظ الحديث للسامع من بعيد أو قريب ، فهو فى هذه الحال راو ومحدث وتارة يذكر الحكم الذى استفاده من الرواية أو الروايات حسب نظره واجتهاده ، فهو فى هذه الحال مفت وصاحب رأى ، وأهل هذه الملكة مجتهدون ، وسائر المسلمين الذين لم يبلغوا تلك المرتبة إذا أخذوا برأيه فهم مقلدون ، وكل ذلك قد جرى فى زمن صاحب الرسالة ، صلوات الله وسلامه عليه ، وبمرأى منه ومسمع .

وإذا أنعمت النظر فى هذا اتضح لك أن الاجتهاد كان مفتوح الباب فى زمن النبوة وبين الأصحاب فضلا عن غيرهم وفضلا عن سائر الأزمنة التى بعد ذلك ، غاية الأمر أن الاجتهاد يومئذ كان خفيف المؤنة جدا ، لقرب العهد ، وتوافر

القرائن ، وإمكان السؤال المفيد للعلم القاطع ، ثم كلما بعد العهد من زمن الرسالة وتكثرت الآراء ، واختلطت الأعارب بالأعاجم ، وتغير اللحن ، وصعب الفهم للكلام العربى على حاق معناه ، وتكثرت الأحاديث والروايات ، وربما دخل فيها الدس والوضع ، وتوافرت دواعى الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أخذ الاجتهاد ومعرفة الحكم الشرعى يصعب ويحتاج الى مزيد مؤنة واستفراغ وسع ، وجمع بين الأحاديث ، وتمييز الصحيح من السقيم ، وترجيح بعضها على بعض ، وكلما بعد العهد وانتشر الاسلام وتكثرت العلماء والرواة ، ازداد الأمر صعوبة ولكن مهما يكن من شيء فباب الاجتهاد كان فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم مفتوحا ، بل كان أمراً ضرورياً عند من يتدبر .

ومن مفاخر الشيعة الإمامية : أن باب الاجتهاد ما يزال عندهم مفتوحا ، ولن يزال إن شاء الله حتى تقوم الساعة ، بخلاف المشهور عند جمهور المسلمين من أنه قد سد وأغلق على ذوى الألباب ، وما أدرى فى أى زمان وبأى دليل وبأى نحو كان ذلك الانسداد ؟ .

وقد بين كثير من حذاق العلماء فى مذاهب أهل السنة أن هذا زعم باطل ، وتضييق لا دليل عليه ، وأن هذا إنما كان يقال به فى عصور الضعف الفقهى ، والتعصب المذهبي ، وبعض القائلين به إنما يريدون أنه لم يعد بين المسلمين من من يصلح لهذا المنصب ، لقصور الباع ، وقلة المتاع ، لا لأن بابا قد أقفل ، أو واسعاً قد حُجِّر ، والأمر على هذه الصورة قريب ، ومدى الخلاف فى شأنه ليس بعيداً ، فمن المتفق عليه : أن المجتهد هو من زاول الأدلة ومارسها واستفرغ وسعه فيها ، حتى حصلت له ملكة وقوة يقتدر بها على استنباط الحكم الشرعى من تلك الأدلة ، وهذا أيضاً لا يكفى فى جواز تقليده ، بل هناك شروط أخر ، أهمها : « العدالة » وهى ملكة يستطيع معها الكف عن المعاصى ، والقيام بالواجب كما يستطيع من له ملكة الشجاعة اقتحام الحرب بسهولة بخلاف الجبان ، وقصاراها أنها حالة من خوف الله ومراقبته تلازم الإنسان فى جميع أحواله ، ولم تضق رحمة

الله ونعمته حتى تحجر على عصر دون عصر ، أو تفرض على قوم دون قوم ، أو توضع لها السدود والأقفال من الأزمان والحساب .

ولقد حملت إلى مجلة « رسالة الإسلام » فى عددها الأول بشرى من أعز البشريات ، عن حضرة صاحب الفضيلة أخى فى الله العالم الجليل الشيخ عبد المجيد سليم رئيس لجنة الفتوى بالأزهر ، وكبير فقهاء أهل السنة فى هذا العصر ، تلك هى قوله فى بيانه للمسلمين : « ولقد أدركنا فى الأزهر على أيام طلبنا العلم عهد الانقسام والتعصب للمذاهب ، ولكن الله أراد أن نحيا حتى نشهد زوال هذا العهد ، وتطهر الأزهر من أوبائه وأوضاره ، فأصبحنا نرى الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى إخواناً متصافين وجهتهم الحق ، وشرعتهم الدليل ، بل أصبحنا نرى بين العلماء من يخالف مذهبه الذى درج عليه فى أحكامه ، لقيام الدليل عنده على خلافه ، وقد جريتُ طول مدة قيامى بالافتاء فى الحكومة والأزهر — وهى أكثر من عشرين عاما — على تلق المذاهب الاسلامية — ولو من غير الأربعة المشهورة — بالقبول مادام دليلها عندى واضحاً ، وبرهانها لدىّ راجحاً مع أننى حنفى المذهب ، كما جريتُ وجرى غيرى من العلماء على مثل ذلك فيما اشتركنا فى وضعه أو الإفتاء فيه من قوانين الأحوال الشخصية فى مصر ، مع أن المذهب الرسمى فيها هو المذهب الحنفى وعلى هذه الطريقة نفسها تسير « لجنة الفتوى بالأزهر » التى أتشرف برياستها ، وهى تضم طائفة من علماء المذاهب الأربعة » .

ألا إن هذا لهو الفتح المبين لما زعمه الزاعمون مغلقا ، والفسح والبسط لما حسبوه ضيقا .

ولقد كنت أعرف ذلك فى فضيلة الأستاذ الجليل ، وفى فريق صالح من إخوانه العلماء الأزهريين ، ولكن نشوة من الفرح والأمل يجب أن تغمر كل مسلم لإعلان هذا بلسان هذا العالم الكبير المسئول ، ولذلك لا يسعنى إلا أن أعلنه فى الناس مرة أخرى ، وأن أوجه إلى الشيخ وأصحابه ـ مع شديد الإعجاب ـ أكرم التحيات ، والحمد لله رب العالمين ؟

التسامح الديني في الإسلام

لصاحب العزة الكاتب الكبير الأستاذ أحمد أمين بك

نعني بالتسامح الديني أن يكون لكل فرد في الأمة حق في أن يعتقد ما يراه حقاً وأن تكون له الحرية في تأدية شعائر دينه كما يشاء ، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء . ولننظر إلى الإسلام في ضوء هذا التعريف نر أنه من حيث مبادئه وتعاليمه الأصلية هو أرقى الأديان في تحقيق هذه المبادىء . والباحث في التسامح الديني في الإسلام مضطر أن ينظر إليه من ناحيتين : ناحية المذاهب المختلفة في الإسلام نفسه ، وناحية نظرة الإسلام لأهل الأديان الأخرى .

فأما الناحية الأولى فالمسلمون في عهد نزول القرآن أي عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا إلا مذهباً واحداً ولذلك لانتوقع أن يكون في القرآن نفسه نصّ على التعامل بين المذاهب الإسلامية المختلفة . قد يكون هناك بينهم اختلاف في الاجتهاد أو اختلاف في تطبيق المبادىء الإسلامية ولكن لم يتعد هذا أن يكون في مسائل جزئية لا ينطبق عليها كلمة مذهب . وهناك أقوال مأثورة تدعو إلى التسامح مثل ما شاع بين المسلمين « اختلاف أمتي رحمة » وكان هذا سببا في سعة الصدر بين أهل المذاهب المختلفة من حنفي وشافعي ومالكي الخ ... ومثل ما روى عن الشافعي من قوله : « مذهبي صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيري خطأ يحتمل الصواب » وهو قول لطيف يدل أيضاً على قدر كبير من التسامح . ومن هذا القبيل أيضاً ما شاع بين المسلمين من قولهم : « لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب غيرَ

مُسْتَحِلّ » أى أنه لا يكفر مسلم بارتكابه ذنباً ما دام غير مستحل له ، وأولى من ذلك أنه مهما اختلف المسلمون فى المذاهب والآراء والاقوال فيما هو محل للاجتهاد والنظر ، فلا يصح ان يكفَّر احد منهم .

أما نظر الإسلام إلى الأديان الأخرى فهو نظر سمح ، فقد سمى اليهود والنصارى أهل كتاب ، وسمّاهم أهل الذمة ، وهما تسميتان فى منتهى اللطف . والآيات التى وردت فى القرآن فى أهل الكتاب تدل على قدر كبير من التسامح خصوصاً فى العهد المكى فيظهر أن اليهود والنصارى قابلوا الاسلام فى العهد المكى بشىء من حسن الاستقبال فكان القرآن فى ذلك العهد سمحاً كريماً وقد بنى فى أساسه على أن القرآن يؤيد الكتب السماوية الأخرى ويتفق معها فى أغراضها ، وأن الشريعة الإسلامية وارثة لما قبلها ومكملة لتعاليمها « والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير » ؛ « ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » . والاسلام يعترف بنبوة الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس . ويقرر أن أساس تعاليمهم واحدة وكلها من عند الله فلا غرو بعد ذلك كله أن يكون الاسلام سمحاً مسالماً حتى لقد نصح أتباعه بأنهم إذا دخلوا فى جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين ، جادلوهم بالحسنى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » . بل نرى فى العهد المدنى ، فى أول الأمر مثل قوله تعالى : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد أهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » . وقوله : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . ولكن يظهر أن اليهود والنصارى فى العهد المدنى ، بعد ذلك وقفوا أمام الدعوة الاسلامية يهاجمونها

ويضعون الخطط لخنقها ويتحالفون مع الوثنيين فى الكيد لها والنيل منها فاضطر الاسلام أن يقابل الشدة بالشدة والكيد بالكيد، فعلت نغمة القرآن فى التنديد بأهل الكتاب ووصف أساليبهم القديمة وخاصة اليهود وما فعلوه مع أنبيائهم . . فكان موقف المسلمين منهم موقف الدفاع لا الهجوم ومع ذلك فقد سمح لليهود والنصارى أن يؤدوا شعائرهم فى المدينة ، ونصح الرسول معاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن بألا يكره يهودياً على الإسلام ، وفى كتابه إلى نصارى نجران سمح لهم أن يؤدوا شعائرهم وأن يتبعوا دينهم وأن تحفظ لهم كنائسهم وألا يُتدخل فى شئونهم ما وفوا بعهودهم .

وسار الفقهاء من المسلمين على هذه التعاليم فى فقههم من حسن معاملة أهل الكتاب ، وأن يكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، بل لما فتحت فارس عومل أتباع زرادشت معاملة أهل الكتاب ، ولئن قسا الإسلام بعض الشيء على الوثنيين دون أهل الكتاب ، فلأنه يرى أن الوثنية انحطاط فى الانسانية يجب علاجها ، وانتشال الإنسانية من حضيضها ، وعلى هذا سار المسلمون فى أكثر تاريخهم على حسن معاملة أهل الكتاب ، يحمونهم ما دفعوا الجزية ، ويسمحون لهم بالعبادة فى بيعهم وكنائسهم ، وهذه الجزية إنما شرعت بدل تجنيدهم لأنهم لا يأمنون جانبهم إذا جندوا ، ولا يثقون بغيرتهم الحربية ، فليدفعوا بدل القتال شيئاً من المال لحمايتهم . ولو قرنت معاملة المسلمين فى دولهم لليهود والنصارى بمعاملة النصارى للمسلمين فى دولهم ، لتبين إلى أى حد كان التسامح عند المسلمين ، وفقدانه عند النصارى ، حتى ليصح للمسلمين أن يفخروا بتشريع الفقهاء الاولين فى معاملة أهل الذمة ، وبتطبيق ذلك عليهم فى مختلف العصور .

* * *

نعم حدث فى التاريخ أحداث كثيرة لا تتفق وهذا التسامح الكريم ، ولكن إذا دققنا النظر فيها وجدناها ترجع إلى أسباب أكثرها غير دينى ، سواء فى ذلك الاضطهاد الذى حدث بين المذاهب الإسلامية بعضها وبعض ، أو بين المسلمين

وغيرهم من اليهود والنصارى . من أهم هذه الأسباب : السياسة ، فالنزاع بين الحكومة الاسلامية والخوارج فى العهد الاموى وصدر العباسيين سببه أن الخوارج بتعاليمهم يريدون أن يتولى الحكم أصلح الناس ولو كان عبداً حبشياً ، ولا يعترفون ببيت أموى ولا بيت عباسى ، ويريدون أن يصلوا إلى مبدئهم بالقوة ، فاضطرت الحكومة الأموية والحكومة العباسية أن تحفظ كيانها ، وتحمى بيتها فى الخلافة بمحاربة الخوارج والقضاء عليهم ، وهذا سياسة لا دين .

وانظر الى النزاع الحاد ، والدماء المسفوكة بين السنية والشيعة طول العهد الاموى والعباسى ، وبعد ذلك ، وما جرى بسببه من دماء تجرى أنهارا ، تجد سببه أن أهل السنة من أمويين وعباسيين وغيرهم يرون الحق فى خلافتهم ، ويرى الشيعة أن لا حق لهؤلاء فى الخلافة ، وإنما الحق لأهل البيت ، وكلّ يعمل على أن يصل إلى حقه بقوة السلاح ، فالنزاع إذن نزاع على من يتولى الحكم ، وهذه سياسة لا دين ، وأحياناً يقوم بالدعوة الدينية رجال يدعون إلى مذاهب هدامة ، ويتسترون باسم الدين ، وتخشى الحكومة إن سادت تعاليمهم أن تنهار قوتها ، فتضطر إلى محاربتهم ، وشكل الحرب شكل دينى ، وحقيقته حقيقة سياسية ، وكثير ممن خرجوا على الدولة العباسية كانت حقيقة أمرهم الرغبة فى إعادة الحكم للفرس ككثير ممن قتلوا تحت ستار الزندقة فى عهد المهدى العباسى ، وبتهمة المانوية ، وقد يستثنى من ذلك الاضطهاد الذى حدث من المأمون والواثق لمن لم يقولوا بخلق القرآن ، فقد كانت هذه نظرة دينية خاطئة من المأمون ، إذ ظن أن من لم يقل بالاعتزال وبخلق القرآن فقد أفسد دينه ، فهو يريد إصلاح العقيدة قسراً وقهراً كما فعل المسلمون الأولون إزاء الوثنيين ، وهذا خطأ فى التفكير نتج عنه أضرار جسيمة للمسلمين .

ومن العداء السياسى ما كان بين الدولة العثمانية والدولة الإيرانية فالعداء بينهما عداء سياسى اتخذ شكلا دينياً . يريد العثمانيون الأولون أن يمدوا سلطانهم على الفرس ويأبى الفرس إلا أن يحتفظوا باستقلالهم فيؤول ذلك إلى البغض الذى

بلغ مداه فى عهد السلطان سليم الأول حتى كان من اضطهاده للشيعة فى مملكته أن قتل وسجن ما يقرب من أربعين ألفاً . ولكن من الخطأ تحميل الدين جرائر السياسة بدليل أن كثيراً من هذه الخصومات السياسية حدثت بين أمم إسلامية مختلفة تعتنق عقيدة واحدة سنية أو شيعية ، وإنما كان الخلاف بينها على السلطان وسعة الحكم ونحو ذلك .

ولسنا ننكر أن كثيراً مما حدث في التاريخ من إضطهاد المسلمين للنصارى واليهود ، كان ناشئاً عن كراهية دينية وغيرة إسلامية ، ولكنها كانت غيرة عمياء من بعض من أصيبوا بضيق النظر ، وفهم الدين فهماً خاطئاً أو كان رداً لما يبلغهم عن اضطهاد المسيحيين للمسلمين ، فيضطرون أن يعاملوهم معاملة المثل جزاء وفاقا ، ولكن من الظلم أن نحمّل الدين الإسلامى هذه الأخطاء أيضاً .

وأحيانا كان يكون السبب فى اضطهاد المسلمين لليهود والنصارى سبباً اقتصاديا فكثيراً ما كان يحدث ، أن تولى الحكومات الاسلامية بعض اليهود والنصارى زمام الأمور المالية فى الدولة فيسرفون فى تعيين أقاربهم وأصهارهم فى الوظائف المالية كما يسرفون فى بذل المال لهم ، وبعد قليل ينظر المسلمون فيرون أن الغنى والترف ، وحياة الفخفخة ، والأبهة والعظمة ، فى جانب اليهود والنصارى ، وحياة البؤس والفقر فى جانب المسلمين ، فيثور ثائرهم ، ويحطمون هذا الوضع الاقتصادى الظالم ، كما حدث ذلك فى العهد الفاطمى . وقد كانت الدولة العثمانية فى أول أمرها من أكثر الدول تسامحاً لرعاياها من اليهود والنصارى ، ومنحتهم من الامتيازات ، ما لم يعهد له نظير فى الدول الأخرى ، ولكن انقلبت هذه الامتيازات ، معاول لهدم الدولة العثمانية ، واتخذت الدول الأجنبية من روسيا وانجلترا وفرنسا وغيرها ، هذه الامتيازات التى لرعاياها وسيلة لنشر الدسائس وتدبير المؤامرات ، وخلق الفتن ، فاضطرت الدولة بعدُ إلى استعمال كثير من العنف دفاعاً عن كيانها ، ومواجهة لنقض الدسائس التى تحاك حولها وكل هذا سياسة لا دين .

وأحياناً يكون سبب القتال والخصام ، تجارة رؤساء الدين ، فيرون أن قوة مركزهم ، وبسطة نفوذهم ، متوقفة على تعصب عوامهم ، فهم يستغلون ضيق نظر أتباعهم ، ويبثون فيهم روح التعصب حفظاً لمركزهم ، ونفوذهم وسيطرتهم ، علماً منهم بأنه إذا ساد التسامح ، وكان الناس أخوانا ، فقدوا عزتهم الوهمية ، ومكاسبهم الفانية ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

* * *

وبعدُ فإن أوروبا مع تقدمها فى فهم الحرية ، وجدها المتواصل فى بناء حياتها على العلم لا على العواطف ، ما زالت بعيدة عن تحقيق التسامح الدينى بالمعنى الذى شرحناه فى صدر المقال ، فبالأمس قرأنا كيف فعل هتلر بيهود ألمانيا وقرأنا كيف اضطهد الشيوعيون الدين وحاربوا شعائره ، ونقرأ فى الصفحات الاخيرة كيف حاربت أوربا المسلمين العرب فى فلسطين ، ونصرت اليهود عليهم ، وعرفنا كيف تخلط أوربا المنفعة السياسية بالعواطف الدينية فى معاملتها للمسلمين .

وأخيراً فهل للمسلمين أن يشتد وعيهم القوى ، ويفهموا بعد طول هذه التجارب التى ذكرنا بعضها أنه لم يعد هناك وجه للخلاف بين سنى وشيعى وزيدى وغير ذلك من المذاهب ، لأنهم لو رجعوا إلى أصل دينهم ما وجدوا لهذا الخلاف محلا ولوجدوا أنه خلاف مصطنع لا خلاف أصيل ، وأن الأمم الاسلامية فى موقفها الحاضر أحوج ما تكون إلى لم شعثها وإصلاح ذات بينها ، وتوحيد كلمتها ، وهى ترى كيف تُهاجَم من كل جانب ، وكيف يتخذ إسلامها وسيلة من وسائل الكيد لها ، وإذا اتحد أهل الباطل على باطلهم ، فأولى أن يتحد أصحاب الحق على حقهم ؟

رمضان

رمز تقريب القلوب وتأليف الشعوب

لحضرة صاحب السماحة العلامة الجليل

السيد هبة الدين الحسينى الشهير بالشهرستانى

من كبار العلماء فى العراق

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن
هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان »
قرآن كريم

كم لهـذا الشهر الكريم من مزايا فى الدين والتاريخ : فيه بدأ نزول القرآن ، وهو دستور الإسلام ، ومنبع علومه ، وحارس شريعته ، وفيه انتصر المسلمون فى أول غزوة وهى غزوة بدر الكبرى ، فاستقرت دولتهم ، وقويت شوكتهم ، وأمر أمرهم ، وأصبحوا أمة ذات سلطان وهيبة ، بعـد أن كانوا قوما مهاجرين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، وفيه ليلة القدر التى هى بنص القرآن الكريم خير من ألف شهر .

يمتاز شهر رمضان فى الدين والتاريخ بهـذه الميزات الثلاث ، وكل واحـدة منهن ذات معنى خاص ، وشأن خطير :

فأما القرآن الكريم فإنه أفضل كتب الله أنزله على أفضل رسله ، فكان آيته الكبرى الخالدة على الزمان ، ولم يكن خلود هذا الكتاب وإعجازه لقوى البشرية راجعاً فحسب الى البلاغة وقوة البيان مما أدى الى سجود العرب البلغاء له ،

وخفضهم للرءوس إذعاناً واعترافاً ، وإنما كان أيضاً لما أودعه الله إياه من علم وإيحاءات وإرشادات ، ومن تهذيب للنفوس وتقويم للأخلاق ، وأنه لا ينافى علماً ثبتت صحته بالدليل والبرهان ، ولا يعارض صلاحا يمكن للبشر أن يعتمدوا عليه فى ترقية شئونهم ، وإقرار السلام والأمن بينهم ، وما تزال مبادئه ومثله وقواعد أحكامه ومناهجه هى النور الذى يهدى الحيران ، ويرد الشارد ، ويضىء آفاق الحياة ، ولن يزال كذلك فى مستقبل الدهور والأزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

وليس القرآن وسيلة الهدى للعرب فقط — وإن بدىء بهم — بل اهتدى بأنوار معارفه العالية عامة البشر ، كما أنه ليست الاستفادة من القرآن مقصورة على إصلاح العقائد والعادات فقط ، بل أفاد العالم فى توجيههم الى علوم الطب والطبيعة وأسرار كائنات الأرض وكامنات السماء ، وأفاد العرب خصوصاً فى تقويم اللسان وتقوية البيان وتوسيع فنون اللغة والبلاغة والأدب .

فاذا أهلّ شهر رمضان فانه يذكر المسلمين بهذا ، وينبههم إليه تنبيهاً قويا ، وكأنى بالقرآن الكريم يطل من علياء سمائه على المسلمين فى كل بقعة من بقاع الأرض مع هلال رمضان فيناديهم : أنا الهدى فهل من مهتد ؟ أنا النور فهل من مستضىء ؟ أنا شعار مجدكم ، وعنوان عزكم ، ورمز عظمتكم ، أنا هدية الله إليكم ، أنا رحمة الله فيكم ، أنا المنهاج القويم ، أنا الصراط المستقيم ، بى تعزون ، وبمبادئى تسودون ، فاعتصموا بى فأنا حبل الله ، واستظلوا بلوائى فأنا ظل الله « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

فإذا أنصت المسلمون إلى هذا النداء ، وأجابوا داعى الله فأصلحوا أنفسهم ، ورجعوا إلى كتاب ربهم ، فأجدر بهم أن ينالوا مجد الدنيا ومجد الآخرة !

أما إذا استقبلوا القرآن على أنه كتاب يتلى لمجرد التعبد بتلاوته ، أو كان تكريمهم إياه مقصوراً على عدم مسه إلا على طهارة ، أو على حمله تفاؤلا باستصحابه أو دفعاً لما يتوقع من أخطار ، أو كتابة بعض آياته فى مصاحف منسقة بخط جميل ،

ورسم جميل ، وتعليقها على حوائط البيوت والمحالّ ، أو كانت عنايتهم به فى حدود التمرن البلاغى ، والتطبيق الأدنى ، كما تدرس النصوص الأدبيـة دراسة لفظية ، فأهون بهذا كله ، وما أبعده عما أَنزل الله له كتابه العزيز .

وأما غزوة بدر الكبرى فما أعظمها فى تاريخ الإسلام فخرا ، وما أجدرها بالبقاء والخلود ، وأن نحتفل بذكراها كما نحتفل بأعز شىء فى هذا الوجود ، إن المسلمين قبل بدر كانوا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس ، لم تكن لهم دولة يخشى بأسها ولا يحسب حسابها ، كانوا فى « يثرب » ضيوفا على الأنصار يشاركونهم مساكنهم وأقواتهم ومتاعهم ، وكانت تأتيهم الأنباء من مكة بأن القوم قد استبدوا بأموالهم وبيوتهم ، وآذوا كل من ينتسب إليهم ، فكانت قلوبهم تنزى ألماً ، وصدورهم تغلى حقداً على هؤلاء المبطلين الذين لم يرعوا جانب الحق ، ولم يُبقوا على الرحم ، ولم يحسبوا حساباً لأى معنى من المعانى الإنسانية الشريفة : حتى إذا واتتهم الفرصة فى بدر انتهزوها فضربوا فى صدر الكفر ، وفلقوا هام المشركين ، وأفهموا مكة أنهم قوة تُخاف ، وأن الله سيجعل من هذه الحفنة المشتتة المبعثرة أمة قوية تعلى كلمة الله ، وتنشر عدل الله ، وتبث رحمة الله ، وتخدم شريعة الله .

فلنذكر برمضان هـذه الذكرى بعـد ذكرى نزول القرآن ، فهى ذكرى التوطيد والتشييد بعد اعتناق شرعة الحق ، واستقبال الدستور الإلهى الخالد !

وأما « ليلة القدر » التى أنزل الله فيها كتابه ، واختارها ظرفا لأعظم حادث يعرفه الناس من صلة الأرض بالسماء ، فقد جعل الله ظرفها هو هذا الشهر أيضاً ، وجعل لها فضلا على سائر الليالى حيث تضاعف فيها الحسنات ، وتفاض الرحمات ، فهى بما أنزل الله فيها من كتابه رمز لأعظم هبـة رحمانية وهبها الله للعقول ، وهدى بها الانسانية ، وأخرجها من الظلمات إلى النور ، وهى بما يفيض الله فيها رمز لأكرم معاملة بين الخالق والمخلوق ، والرب والمربوب : وإلا فأى فيض أعظم من هذا الفيض ؟ يقوم العبد لله ليلة خاشعاً خاضعاً متبتلا فيقبل الله عليـه بإحسانه ، ويضاعف له فى جزائه حتى يمنحه على ليلة واحدة ثواب ألف شهر ، وحُقّ لهذه الليلة أن تكرّم ، فإنها ليلة القرآن وكفى .

تلك مزايا ثلاث من مزايا « رمضان » ، ومن أهم مزاياه أيضا أنه ربيع اتحادنا ورمز تقريب القلوب ، وتأليف الشعوب ، وموسم اجتماعى تعمر فيه المساجد والمعابد ، وتكثر فيه أندية الخلطاء والخلصاء ، ويتزاور الإخوان والجيران ، وحدانا وزرافات مما يؤدى الى تصفية القلوب ، وتزكية النفوس ، وغسل الصدور من حفائظ الأحقاد والإحن ، باعتذار هذا لذاك ، وحنان ذاك على هذا ، وحركات جاذبية الحب من كلٍّ إلى كلٍّ ، وكثرة التردد والتودد ، وبذلك صار سيد الشهور ، كما فى الحديث المأثور .

ومن مزايا هذا الشهر المبارك فرض الصيام فى أيامه ، والصيام خير وسيلة لإصلاح النفس ، لإصلاح الجسم ، لإصلاح المجتمع .

وفيه إشعار المسلمين بأنهم أمة واحدة ، لا فرق بين قاصيهم ودانيهم ، ولا بين غنيهم وفقيرهم ، يصومون معاً ، ويفطرون معاً ، ويشعر بعضهم بشعور بعض .

وقد أشار الإمام جعفر بن محمد عليه السلام إلى أهم الغايات فى فلسفة الصوم قائلا : « إنما فرض الله على عباده الصوم ليستوى الأغنياء والفقراء فى هذا البلاء ، وليدرك الأغنياء ما يجرى على هؤلاء ، فيؤثروهم على أنفسهم رحمة وحنانا فتزول أخطار المجتمع .

فيأيها المسلمون :

ها هو ذا قد أظلكم شهر رمضان ، شهر الهدى والفرقان ، وفى هدى القرآن كل الخير والبركة من صلاح وإصلاح ، وتعاون وتضامن ، فوحدوا صفوفكم ، ووحدوا قلوبكم ، ووحدوا شعوبكم « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » ؟

الشخصية المحمدية
تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة
منزلة العلم فى الاسلام

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير
الأستاذ محمد فريد وجـــدى بك
مدير مجلة الأزهر

أثبتنا فى المقال الذى تقدّم هذا ، ما شرح به النبى صلى الله عليه وسلم آية الفطرة الدينية ، وبينا الآفاق العالية التى جال فيها فهمه القويم ، فى تحديد هذا المعنى الخطير الذى أصبح الأساس العلمى الركين للدين فى الفلسفة الحديثة .

ولكن الأوهام المتغلبة كثيرا ما تشتبه بالشعورات الفطرية ، وتجد لدى مروجيها ما تستند إليه من الأهواء الموروثة ، فما الذى يفرق بين ما هو هوى موروث ، وما هو ميل فطرى فى النفس كسائر ميولها الفطرية ؟ لاشىء غير العلم ، العلم المستند إلى الحقائق الطبيعية ، وهذا هو ما عمد إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، فشرع يدعو إليه فى ألوان من التعبير ، وضروب من التحضيض ، لم تؤثر عن غيره إلى عهده فى العالم كله ، فأما بلاد العرب فإن هذه الدعوة لم تؤثر فيها عن أحد غيره ، وكانت غريبة لدى قوم ظلت الأمية صفة مميزة لهم قرونا كثيرة ، وأما فى أوروبا حيث نشأت الفلسفة اليونانية ، والمدنية الرومانيه ، فإن التعصب للدين فى ذلك العهد كان آخذا بمخنقها إلى حد عادَى معه أهلُها العلم ، واعتبروا المشتغل به والداعى إليه زنديقاً ؛ وبقيت هذه الحالة قائمة الى نحو القرن الخامس عشر الميلادى ، وما زالت تشتد حتى كانوا يحرقون المشتغلين بالعلم ، ويمثلون بأجسادهم وقد أحصى متأخرو المؤرخين ضحاياه فبلغوا أكثر من ثلاثمائة ألف فى نحو ثلاثة قرون !

فهذه الصيحة بالعلم كانت لا تجد لها صدى إلا لدى أتباع محمد صلى الله عليه وسلم فى بلاد العرب ، التى كانت لا تمت الى مصادر العلم بسبب ، وقد أثمرت ثمرتها قال العلامة (دريبر) المدرس بجامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة الامريكية فى كتابه : (المنازعة بين العلم والدين) :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ أى بعد وفاة محمد بست سنين ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية ، وقدروها قدرها الصحيح . الخ » . وأنت خبير أن المسلمين انتهت إليهم بعد ذينك القرنين زعامة العلم فى العالم كله ، وكانت مدنهم فى آسيا وأوروبا مثابة للأمم كافة يقصدها مريدو الاستفادة من سائر بلاد العالم ، فيشركونهم فيما حصلوا عليه من أنوار المعارف ، ليخرجوا بلادهم الأوروبية من ظلمات الجهل ، وقد شهد علماء أوروبا وفلاسفتها أن بلادهم مدينة للمسلمين بعلومها وفلسفاتها وصنائعها ، وهى شهادة تؤيدها الأسانيد التاريخية ، والكتب المترجمة عن العربية التى لاتزال ماثلة فى مكتباتهم ، والتى لا يزال بعضها يدرس فى جامعاتهم الى اليوم .

ليس غرضنا هنا أن نبين مدى تأثير العلوم التى أقام دولتها المسلمون فى مدنية أوروبا ، وإنما مقصدنا أن نجلى الفطرة العلوية للشخصية المحمدية التى اصطفاها قيم الوجود للقيام بخاتمة الأديان الإلهية .

إنى أستطيع أن أؤكد ـ وعهدة هذا التأكيد علىّ ـ أن العلم لم يجد داعيا إليه ، ومحببا فيه ، فى جميع بلاد العالم من أول عهد الناس به إلى يومنا هذا مثل ما وجده فى محمد صلى الله عليه وسلم . ذلك لأنه أدرك لسمو فطرته ، أن العاطفة الدينية المجردة عن العلم ، قد تستجيب لباطل مموه ، وقد تصبو لهوى مزخرف ، وقد يدعوها حب البحث إلى الخوض فى الشئون العلوية ، فتتردى فى مهاوى الضلالات وتجمد عليها ، وأنت خبير أن الأديان السابقة على الإسلام قد خرجت بتحريف الجاهلين عن صُرُطها القيمة ، بل استحالت إلى وثنية بحتة ؛ ويريد الحق أن

يحفظ للإسلام طابعه الإلهى ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا أحيط بسياج من العلم ، وتجلى كل هذا على حقيقته لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان باعثا قويا له على الدعوة إليه ، فى ألوان شتى من البيان ، فكان مما أثر عنه أنه قال : « أطلبوا العلم ولو بالصين ، فإن طلبه فريضة على كل مسلم » وهذا أول تصريح لداعية دينى بأن يستنفد الإنسان وسعه لطلب العلم حتى لو كان لا سبيل إليه إلا بالانتقال إلى أبعد بلاد العالم.

وانظر إلى قول محمد صلى الله عليه وسلم : « ليس منى إلا عالم أو متعلم » ، وقوله : « كن عالما أو متعلما ولا تكن الثالثة فتهلك » تجده يجرد من الانتساب إلى الدين ، الجاهلَ الذى رضى بجهله فجمد عليه ، وينذر بالهلاك ، من اكتفى بالدخول فى الإسلام وأهمل أن يزداد علما .

ومن أعجب ما يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قول يدل على غاية لا تدرك من سمو الإدراك ، وعلى بعد فى النظر ليس بعده مرمى ، قوله : « من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ، ووضعه فى غير منزلته التى وضعه الله بها حيث يقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . فلعمرى إذا كان هذا القول حقا ، وهو حق لا مرية فيه ، فهو ليس من مدارك أمة لقبت بالأمية ، ولا من حظ بلاد ليس بها أثارة من علم ، بل ليس من مألوفات الأمم كافة فى عهد عرف قادته بمحاربة العلم ، والحط من سمعته فى سبيل ترويج مزاعمهم الدينية .

هذا ولم يُغفل محمد صلى الله عليه وسلم وجها من وجوه الحث على الاستزادة من العلم إلا أتى به . من ذلك قوله : « ليس الحسد والملق من خلق المؤمن إلا فى طلب العلم » .

ولما خشى أن يطغى الميل إلى العبادة على الميل الى العلم ، صرح بأن طلب العلم من أَجل حزوب العبادة ، وأكثرها ثوابا ، فقال : « مجالسة العلماء عبادة » وقال : « العلم أفضل من العبادة وملاك الدين الورع » . وقال فى رفع أقدار العلماء ، والإشادة بكرامتهم : « بين العالم والعابد سبعون درجة » . ومن هنا أخذ ابن عباس رضى الله عنه تفسيره لقوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين

أوتوا العلم درجات » ، قولـه إنها سبعون درجة ، أى أن درجة العلماء أرفع من درجة المؤمنين غير العلماء سبعين ضعفا . وقال صلى الله عليه وسلم - وهو قول لا يتذوقه إلا من عرف أثر العلم فى بناء الأمم وفى تقويم أمورها - : « لموت عالم أيسر من موت قبيلة » أى أن المجتمع يُنكب من موت عالم أكثر مما يُنكب من موت قبيلة ، وهذه غاية لا تدرك فى تعظيم شأن العلم .

فلا غرو بعد كل هذا أن يندفع المسلمون فى طلب العلم اندفاعا لم يؤثر عن أمة قبلهم ، فحذقوا كل ما كان شائعا منه بعد أن ترجموه إلى لغتهم ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل نقبوا عن مصادره فى المكتبات الأجنبية فأخذوا منها كل ما وجدوه لليونانيين والسريانيين وغيرهم وترجموه إلى لغتهم وتدارسوه بهمة لا تعرف الملل حتى أتقنوه وعملوا به وزادوا مادته ثروة ، واكتشفوا علوما جديدة سجلت لهم فى صحائف الخلود . كان هذا كله ببركة العبقرية المحمدية التى تجلت فى شخصيته الكريمة تجليا لم يحفظ مثله لرجل غيره من الناس أجمعين . م

الى الكاتب الكبير فريد بك وجدى :

جاء فى مقالكم القيم « لا خلاف فى الدين الحق » الذى نشر بالعدد الأول من هذه المجلة : ﴿ أن الحدود الفاصلة بين الفرق الإسلامية ستزول لاشتغال العقول بالعلم الذى يجب أن تتألب جميع العقول البشرية لدفع خطره عن العقول الشرقية . وأن الله لو وفقنا لصيانة الإسلام منه نكون قد أدينا للإسلام خدمة ... الخ ﴾ .

وقد كانت هذه الفقرات من المقال موضع نقاش طويل فى بعض الأندية العلمية شأن جميع ما يكتبه البحاثة المدقق فريد وجدى بك ، فهل يتفضل أستاذنا الجليل ببيان : ماهو العلم المقصود ؟ وما خطره على العقول الشرقية ؟ وعلى الإسلام دين العلم والعقل ؟ وكيف يمكن أن تتألب لدفع هذا الخطر « جميع العقول البشرية » ومن بينها العقول القوامة على إزجاء هذا الخطر ؟

محمد فؤاد السيد
المدرس بالأزهر

أمة واحدة وثقافة واحدة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد تقى القمى

السكرتير العام لجماعة التقريب

جرى الحديث بينى وبين العلامة الشهير المغفور له الإمام الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر (١)، وكأنى أرى هذا الحديث أمامى كما لو كان بالأمس القريب، والحال أنه قد مر عليه زمان لا يقل عن عشرة أعوام .

كان موضوع الحديث هو المشكل الخطير الذى على المسلمين أن يعالجوه إذا أرادوا نهضة موحدة تشمل جميع شعوبهم وبلادهم : وهو توحيد المسلمين ثقافياً .

كان الكلام بيننا فى أن المسلمين لا يعرف بعضهم بعضا ، وأن الصلة منقطعة بينهم ، ولا بد من تقريبهم ثقافياً ، ليعرف كلّ ما عند الآخر ، وبذلك يحصل التوحيد المنشود ، وترتفع المنازعات والخلافات فى كل المسائل أو فى أكثرها ، أو تقف — على الأقل — عند حدودها الحقيقية .

---

(١) وكان ثالثنا فى هذه الجلسة هو حضرة صاحب السعادة محمد خالد حسنين بك (باشا) كبير مفتشى الأزهر حينذاك .

ذكرنى هذا الكلام يومئذ بقصة ذكرها فى أحد كتبه عارفٌ إلهى عظيم (*)، فى سياق أراد به استنتاج بعض المعانى العرفانية السامية، فذكرت لفضيلته هذه القصة، ولا أرى بأساً من أن أعيد ذكرها للقراء لأنها تعبر عما نحن فيه أصدق تعبير، وتوحى بمعالجته من أقرب سبيل :

كان أربعة من الفقراء جالسين فى طريق، وكل منهم من بلد : أحدهم رومى، والثانى فارسى، والثالث عربى، والرابع تركى، ومر عليهم محسن فأعطاهم قطعة من النقد غير قابلة للتجزئة، ومن هنا بدأ الخلاف بينهم، يريد كل منهم أن يحمل الآخرين على اتباع رأيه فى التصرف فى هذا النقد، أما الرومى فقال : نشترى به (رستافيل) وأما الفارسى فقال : أنا لا أرى من (لانگور) بديلا، وقال العربى : لا والله لا نشترى به إلا (عنبا)، وقال التركى متشدداً فى لهجة صارمة : إن الشىء الوحيد الذى أرضى به هو (أوزوم)، أما ما سواه فإنى لا أوافق عليه أبدا، وجر الكلام بين الأربعة الى الخصام، وكاد يستفحل الأمر لولا أن مر عليهم رجل يعرف لغاتهم جميعاً، وتدخل للحكم بينهم، فبعد أن سمع كلامهم جميعا، وشاهد ما أبداه كل منهم من تشدد فى موقفه أخذ منهم النقد واشترى به شيئا، وما إن عرضه عليهم حتى رأى كل منهم فيه طلبته، قال الرومى : هذا هو (رستافيل) الذى طلبته، وقال الفارسى : هذا هو (الانگور) وقال العربى : الحمد لله الذى آتانى ما طلبت ! وقال التركى : هذا هو (أوزوم) الذى طلبته، وقد ظهر أن كلا منهم كان يطلب « العنب » من غير أن يعرف كل واحد منهم أنه هو بعينه ما يطلبه أصحابه .

لسنا فى هذا المقام بصدد بيان ما دار فى هذه الجلسة أو فى الجلسات الأخرى الممتعة التى كنت أجتمع فيها بفضيلة الامام المراغى، ولسنا أيضا بصدد بيان ما وصلنا إليه فى نفس تلك الجلسة من إقرار تدريس بعض اللغات الإسلامية كوسيلة للتفاهم بين البلاد الإسلامية المختلفة، كما أننا لسنا بصدد أن نقول : هل واصلنا السير الى الأمام منذ ذلك الوقت أو رجعنا القهقرى ؟ ومهما يكن من

(*) هو مولانا جلال الدين البلخى الشهير بالرومى فى كتابه العرفانى الجليل « المثنوى »

شيء فإن أمامنا فى اللجنة الثقافية لجماعة التقريب مشروعا يرمى الى توحيد المسلمين ثقافياً ، أو إن شئت فقل توحيـد الثقافة الإسلامية بين المسلمين : فكرة ضخمة ، ومشروع جليل ، ينظر الى المسلمين كأمة واحـــدة ، لغاتها محترمة عند الجميع ، آدابها للجميع ، رجالها للمسلمين عامة .

ليس أحد ينكر على المسلم أن يعرف الأدب الغربى ، لكن عليه فى الوقت نفسه أن يعرف شيئاً عن أدب رجال نشئوا فى الإسلام ، ونبغوا فى البلاد الإسلامية . لا مانع يمنع المسلم أن يعرف اللغة الغربية ، ولكن مما ينكر عليه ألا يعطى قسطا من اهتمامه للغات الإسلامية — ولعل منها ما يتكلم به أكثر من مائة مليون من المسلمين — فتكون لغة التخاطب بين كثير من المسلمين بعضهم وبعض إحدى اللغات الغربية ، لأن كلا الطرفين المسلمين لا يعرف من لغة الآخر شيئا .

ليس بمنكر على المسلم — بل من المستحسن — أن يعرف كثيرا عن القارة الأوربية أو الأمريكية أو غيرهما ، غير أنه بوصفه مسلما عليه أن يعرف أكثر مما يعرفه الآن عن البلاد الإسلامية وأقطارها .

أن توحيـد المسلمين ثقافيا لا ينـافى أن تعمل كل طائفة من الطوائف الإسلامية ، بما ثبت عنـدها واعتقدته ، مادام هذا لا يمس العقائد الأساسية ، التى يجب الإيمـان بها ، ولكن من الواجب أن تعرف كل طائفة من المسلمين حقيقة عقائد الآخرين ، لعلها تجـد فيها ما تستفيد منه ، أو — على الأقل — إذا أراد أحد باحثيها أن يكتب عنهم شيئا ، أو ينقل بعض فتاواهم ، فلا يكتب « وأما ما سمعنا عنهم أنهم يقولون كذا وكذا أو أنه يقال عنهم كذ وكذا » ولعمرى إن هذا لسبة فى جبين العلم : أن لا يتعب رجاله أنفسهم بالبحث عن كتاب يجدون فيه كل ما يبحثون عنه ، من غـير أن يسندوا أقوالهم إلى السماع ، وكثيرا ما يجيء هـذا القول المسموع من ذوى الأغراض الخبيثة .

ومما هو واضح أنه ليس معنى توحيـد الثقافة ، توحيـد اللغة ، وليس هـذا أمراً ممكنا ، ولعله لا يفكر فى هـــذا ، ولا يتفوه به ، إلا من يريد أن يبعث

التعصّب للغات أيضا ، أو يريد أن يستعمر الآخرين ، ولكن المهم هنا أن يفهم بعضنا بعضاً ، وهذا ممكن جداً إذا وجد فى البلاد العربية مثلا رجال يعرفون لغات الآخرين وعند الآخرين من يعرف العربية ويتحدث بها ، وهذا ما كان فى العصر الذهبي للإسلام : شعوب لم يصطبغوا بالصبغة العربية ، واحتفظوا بلغتهم القوْميـة إلا أن رجالا منهم — وهم علماؤُهم عامة — كتبوا ودونوا العلوم بالعربية ، وخدموا اللغة العربية نفسها أية خدمة ، من دون أى تعصب ، أو أقل تحيز ، ألاَ وإن الترجمة ممّا لا بد أن يهتم به ، وكثيرا ما نترجم آثارا من الغربيين بأنواعها ، فنجد فيها ، ما يفيد ولا ننكره ونجد فيها ما يفسد الاخلاق وينشر الخلاعة حيناً ، والإلحاد والمادية حيناً آخر ، ولا يشك مسلم فى خطر هذا النوع على الدين والآداب الإسلامية .

وما دام عندنا هذا الاستعداد للترجمة ، وليس لدينا مانع من أن نعطى لفكرة نشأت فى بيئة مغايرة لبيئتنا وصيغت فى جو تقاليد غير تقاليدنا الدينية والقومية ؛ صورة مناسبة أو أقل بعدا . — نقول — ما دام عندنا هذا الاستعداد أليس من الخير أن نوجهه الى الصحيح من الأدب الغربى ، وأفكار أهله ، والى الآثار الإسلامية بما فى ذلك ترجمة الكتب والدواوين والحكم والقصص وأخبار التاريخ السائرة بين الشعوب الإسلامية ، وإن منها لكتباً لو كان أحدها هو الكتاب الوحيد فى لغته ، ولم يكن سبيل لترجمته ، الا بتعلم اللغة ، لكان على الإنسان أن يتعلم تلك اللغة ليعرف ذاك الكتاب ويلتذ بما فيه !

ان فى البلاد الإسلامية معادن وكنوزاً ، وأن للسلمين رجالا نابغين ، وعلماء أكفاء عاملين ، وأدباء قديرين ، فهل يعرفهم العالم الإسلامى ، وهل يعرف عنهم عشر ما يعرف عن بعض علماء المادة وكتاب السوء ؟ وهل سمع عن آثارهم ؟ وهل عرف أن منهم مؤلفين خلفوا مجلدات من الكتب ، يعد كل واحد منها ، مرجعا من المراجع ودليلا قائما بذاته ، لفكرة ناضجة عند المسلمين .

إن للمسلمين جامعات علمية كبرى فى مختلف البلدان ، وإن فيها لما يجتمع

به أكثر من ألفين من طلاب علوم الدين ، وإن النظام الدراسى فيها نظام حر ، فهل عرفت الأغلبية من المسلمين عنهم شيئاً ؟

لو أن التعارف بين المسلمين تم على أساس توحيد الثقافة ، بما فى ذلك التبادل الثقافى ، وتأليف كتب عن كل طائفة لإعطاء صورة صحيحة عنها ، وتعليم اللغات الإسلامية فى جامعاتهم وترجمة آثارهم ورجالهم : لعرف المسلمون أنفسهم ، وعلموا قوتهم ومقدرتهم ، وأنهم مسلمون قبل كل شيء ، مسلمون فى كتاباتهم وتآليفهم ، مسلمون فى قصصهم وأشعارهم ، وأنهم أمناء فيما يكتبون .

لا بد أن يلتقى المسلمون بعضهم ببعض ، وهل من منكر أن خير اللقاء هو اللقاء عند الثقافة — الثقافة الصالحة لأن تكون ثقافة إسلامية بعيدة عن كل تعصب أعمى ، ثقافة تحت ظل الدين . ثقافة يجتمع المسلمون فى ظلها مثلا « بالحافظ الشيرازى » المتوفى فى القرن الثامن و « حافظ إبراهيم » المصرى ، المتوفى فى القرن الحاضر ، ومحمد إقبال المسلم الهندى المتوفى أخيراً ، مع اختلاف لغاتهم وتفاوت درجاتهم .

وإذا كان هذا شأن الآداب لدى المسلمين ، فأسهل منه شأن الفقه وعلوم الدين ، والعلماء كلهم من أى مذهب من المذاهب الإسلامية ، قد استمدوا علومهم من الكتاب والسنة ، واللغة العربية هى لغة الدين ، وبما أن المصدر واحد واللغة واحدة ، فإن أقل تبادل ثقافى ، يكفى لأن تحترم كل طائفة ما عند الأخرى ولأن يمحى كثير من الخلاف الذى نحن فى غنى عنه .

هذا ما نبغيه ، وهذا ما نسعى إليه ، وإن لنا فى توحيد الثقافة الاسلامية ، الذى يجعل كلاًّ منا يعرف ما عند الآخرين لأملا كبيراً فى أن يرجع للمسلمين مجدهم ، ويجعل الأجانب والمستعمرين ، يحسبون لهم ألف حساب ، وترجع للعلم الاسلامى قدرته على إنتاج أطيب الثمار . وبالله التوفيق وهو ولينا ونعم النصير .

الفقه السياسي عند المسلمين

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغى

الإمام الخاص للحضرة الملكية

كنت على أن أتابع البحث فيما بدأته من أحاديث حول (الفقه والفقهاء فى عهد المماليك) ولكن مقالا شائقا تحت هذا العنوان الذى أعلنت به مقال اليوم كتبه صديقى الفاضل العالم الأستاذ شافعى بك اللبان صرفنى عن الكتابة - مؤقتاً - فى التشريع فى عهد المماليك لأقف مع الزميل الفاضل وقفة قد يكون فيها شىء من النصفة لقوم كتبوا كثيراً، ولكنهم ظلوا أكثر، وجاهدوا كثيراً ولكن حقهم قد غمط أكثر، ولست أريد فى ذلك المقال أن أُثَـرِّبَ على أحد، ولكنى أريد أن أقولها صريحة: إن هؤلاء الذين حملوا راية العلم الإسلامى فى شتى نواحيه، كانوا جديرين بشىء من التقدير أكثر من هذا الذى قوبلوا به، وذلك لا يستدعى إلا عناءاً يسيراً فى الرجوع إلى ما كتبوا، وقد ظهر بعضه، ولكن ما بقى مخطوطاً يعدو الآلاف ويحوى ذخائر دفينة، لو كان عند أمة عشر معشارها لأقامت لأصحابها الأعياد الفضية والذهبية والماسية، وما إلى ذلك، والأمر قديم، فقد قيل منذ سنين: ليس للعرب علم، وقيل ليس لهم سياسة، حتى الفقه قيل عنه: ليس لهم فقه، وما هو إلا ثوب مهلهل استعاروه من الرومان وما ذنبهم:

إذا كان المحب قليل حظ فما حسناته إلا ذنوب

ويخيل لى أن الموضوع — إن سُمح لنا باستعمال التعبير الأزهرى — لم يحرر فيه المراد، أو بعبارة أدق لم يتلاق السلب والإيجاب على جهة واحدة، فإن كان النافون يعنون أن العرب ليس لهم علوم سياسية أو فقه سياسى على معنى أنهم

لم يصوغوها فى شكل مواد ، ولم يبوبوها ولم يعطوها الشكل القانونى ؛ فنحن نوافقهم . وإن كانوا يعنون أن موضوع السياسة ـ أو كما سماه صديق شافعى بك : الفقه السياسى ـ لم يدرس عند المسلمين ، فذلك ما نقف معهم فيه كل وقفة ، ونقعد لمن يريد المناقشة فيه كل مرصد ، فما الذى يعنون بالفقه السياسى ؟ إن كان شكل الحكومة فقد أفاض فيها علماء المسلمين كل إفاضة ، وقرروها من الناحية النظرية ، بل ومن الناحية العملية ، فما كان النزاع بين المهاجرين والأنصار ، وما كانت الشورى ، وقد انتهت بانتخاب عثمان ، وما كانت حروب على ومعاوية ، وما تلا ذلك فى العصر الأموى من ولاية العهد الإفراديه والثنائية فى عهد العباسيين ، ما كان كل ذلك إلا تقريراً لشكل الحكومة وأوضاعها ، وممن يكون الخليفة ، وكيف ينتخب ، وهل الخلافة انتخاب أو وراثة ، إلى غير ذلك ، حتى إذا جاء عهد الدويلات التى تفرعت من جذع الدولة العباسية بدأ العلماء يقررون مركز الخليفة ومركز السلطان ومركز الأمير وأمير الأمراء ، ولعل هذا هو السبب فى أنك بدأت ترى كتباً فى الفقه السياسى تظهر فى ذلك الوقت ، أحدها عرض له صديق الشافعى بك ، وهو الماوردى ، أما الآخر فهو صنوه القاضى أبو يعلى الحنبلى ، ولعل المصادفة المحضة هى التى دعت لتأليف الكتابين فى ذلك الوقت ، وإن كان من الممكن تعليل ذلك تاريخياً ، فعصر الماوردى وعصر أبو يعلى هو العصر الذى بدأ فيه السلطان محمود الغزنوى تكوين امبراطورية ، وكان فيه البويهيون سادة الموقف ، والخليفة تحت سلطانهم ، وذلك بدوره دعا الخليفة القائم بأمر الله وابنه لمحاولة تأسيس الخلافة العباسية على أساس قانونى تدعمه أسانيد قانونية وتحدد مركز الخليفة والسلطان ، وتشرح إمارة الاغتصاب أو الاستيلاء كما سماها الماوردى وأبو يعلى ، ومن ذلك الوقت بدأت تظهر كتب لا عداد لها فى الفقه السياسى سنعرض لشىء منها فيما بعد .

وكان الأمر من قبل ذلك نصوصاً منثورة فى كتب الفقه والحديث ، وبعبارة أدق فى كتب التوحيد ، فقد كان كثير من العلماء ولا يزالون حتى اليوم يدرسونها على أنها جزء من التوحيد ، فقد دخلت نظرية الخلافة بثورة الخوارج تحت نطاق

العقيدة ، أكثر منها تحت نطاق الفقه والسياسية ، ولم يكونوا فى الواقع قبل ذلك بحاجة لإفرادها كما أسلفنا من اعتبار ، ولأن العلوم فى الواقع حتى ذلك الوقت لم تكن متمايزة الموضوعات ، والعرب — كانوا كما كان اليونان من قبلهم — لم يميزوا بين الأخلاق والسياسة ، فكانت المادتان مادة واحدة ، ويكفى الرجوع للعصر اليونانى وتراثه ليعلم صدق هذه النظرية ، والفقه الإسلامى كله لا يمكن أن نعزل فيه الفقه عن الأخلاق ، بل إن كل نظرية فقهية يشع عليها مبدأ أخلاقى ، والدارس للفقه الإسلامى دراسة حقة لا أظنه ينكر ذلك .

وقد عرض الأستاذ « جب » لدراسة نظرية الماوردى السياسية ، وعرض الأستاذ خدا بخش لدراسة ابن خلدون ، وعرض الأستاذ الشّروانى لدراسة الفارابى ، وعرض غيره لدراسة نظام الملك الطوسى والغزالى ، وقارن بينهما ، وقد نشرت كل هذه الدراسات فى مجلة Islamic Culture Review التى تظهر فى حيدر أباد ، وذلك حوالى سنة ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ .

وقد عرض الذى درس نظام الملك والغزالى الموضوع عرضاً حقاً ، وقارن بين الفقه السياسى الإسلامى والنظريات السياسية الأوروبية بما لا يدع مجالا لاتهام العرب أنهم قصروا فى تلك الناحية ، بل إن بعضهم حاول إرجاع كل النظريات الأوربية للنظم الإسلامية ، وقد وصلتهم عن طريق أسبانيا .

والأستاذ الصديق شافعى بك قد ذكر عرضاً بعض الكتب ، ولكنْ ثمت كتب أخرى منها المطبوع ومنها المخطوط ، فقد كتب ابن جماعة فى الأحكام السلطانية ، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكتب ابن حبيب البغدادى المتوفى سنة ٢٣٥ كتاباً منه نسخة مخطوطة فى المتحف البريطانى ، تضمن مسائل عابرة مما يمس موضوعنا ، وكتب الغزالى والطرطوشى ، وكتبت كل كتب الفقه والتوحيد .

وهناك كتب أخرى بعضها عربى والآخر فارسى لا أريد أن أُمِلَّ القارىء بذكرها ، وقد علمت أن لإمام الحرمين كتابا باسم (غياث الأمم) فى هذا الموضوع أوَ لا تكفى هذه الكتب لتقرير فكرة عن المسلمين ، وفهمهم لشكل الحكومة

ونظام الملك بَلْـهَ ما تعرضت له هذه الكتب وغيرها ، مما يدخل فى نطاق تنظيم القانون الإدارى ، وتحديد أعمال السلطة التنفيذية ، مما لا أظن أن من تعرض لهذا الموضوع لم يره ، وقد ظهر أخيرا كتاب طبع فى كمبردج تعرض فيه مؤلفه لوظائف المحتسب مما لا يمكن أن يكون فى عصور النور — كما يسمون عصرنا — خير منه .

فإن انتقلت من شكل الحكومة إلى تحديد الحريات التى يكلفها الدستور ، وواجبات السلطات بعضها إزاء بعض ، رأيت فى كتب الفقه والحديث عجبا من وإن لم تخنى الذاكرة فأظن أن أستاذنا العلامة السنهورى باشا فى كتابه عن الخلافة عرض لمقارنة حجة الوداع ، وما حوت من أحكام تحدد الحريات بنظام ماجنا كرتا الانكليزى Magna Carta وكذلك بالحقوق التى قررتها الثورة الفرنسية ، ومن قبله عرض جمهرة المحدثين لخطبة الوداع وأوفوها شرحا وتبيانا .

وقد لا نعدو الصواب إذا قلنا أنه لم تظهر وثيقة قررت ماقررته ، خطبة حجة الوداع حتى اليوم ولا أخذت وثيقة من العناية والدرس ما أخذته الخطبة المذكورة ، لأنها دستور لايزال المسلمون يذكرونه بالفخر والإعجاب فما الذى بقى من الفقه السياسى ؟ وهل ترك المسلمون تحديد السلطات والصلات بينهما ؟ ومن شك فى ذلك فليدرس بعناية (سياست نامه) التى كتبها نظام الملك الطوسى وآراء الغزالى ، وهما فى الواقع متلاقيان متقاربان ، وليرجع للمجلة التى أسلفنا الإشارة إليها ، إن لم يتسع له الوقت والفكر لدراسة الموضوعات فى مكانها من كتبها : سياست نامه ، وكتب الغزالى .

وإن أراد صديق الشافعى بك زيادة فى ذلك ، فليرجع لكتاب أنا أعتقد أنه خير كتاب ظهر فى موضوعه حتى اليوم ذلك هو كتاب « التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية ، التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية » جزءان طبعا فى فاس تحت ذلك العنوان الطويل ، وقد حاول فيه مؤلفه الفاضل ، إرجاع كل ما نراه من نظم اليوم ، لا لوقت تأسيس الدولة فى عهد الخلفاء ومن بعدهم ، بل للعصر النبوى

نفسه ، ولم ينقل الكلام من غير سند ، ولم يرتجله ارتجالا ، وإنما دعم كل ما يذكره بالدليل ، وفى الحق أن الرجل أفلح أيما فلاح ، ومن قبله كتب العلامة الخزاعى كتابه « تخريج الدلالات السمعية » ولو أن الكتاب مخطوط إلا أن صاحب التراتيب ، وهو السيد عبد الحى الكتانى ، محدث فاس قد نقله وزاد عليه ، وما أظن شيئا مما يتكلم عنه الناس اليوم ويخوضون فيه إلا وللموضوع أساس فيه فى العصر الإسلامى وما أريد أن أنقل شيئا من خطبته فقد يحلو لقائل أن يتهمنى بالتعصب والإفراط فى تقدير ذلك العصر ولكنى أحيله على ذلك الكتاب ، إن لم يكن على موضوعه فى ثناياه ، فعلى الأقل للفهرس ولثبت مراجعه الذى ذكره فى مقدمته ، والكتاب بحمد الله مطبوع ، ومن السهل الرجوع إليه ، فإن لم يصدق الخَبَر الخُبر ، فلينح باللائمة علىَّ من شاء .

وبالأمس القريب ، نشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر كتابا فى الدبلوماسية الإسلامية ، فوق عشرات من الروايات المنثورة هنا وهناك فى هذا الموضوع .

ولعل كثيراً من القراء الكرام ، اطلعوا على كتاب الوحى المحمدى ، للسيد رشيد رضا ، ورأوا فيه الموضوعات السياسية التى قررها القرآن والسنة ، مما يعد دستورا كاملا ، لا ينقصه إلا أن يقال المادة واحد إلى كذا من المئين كما تصاغ الدساتير والقوانين .

إذن فما الذى ينقصنا من ناحية النظام السياسى وتقريره من الوجهة النظرية ؟ الحق أنه ينقصنا شىء مهم ، وهو فى الواقع كل شىء ، وهو البحث وراء ما تركه العلماء الأجلاء من تراث فى هذا الموضوع ، ثم تقديمه للناس مهندما مهندسا منمقا تحيط به هالة من حسن الطبع وجودة الترقيم ، وذلك كل ما تمتاز به كتابات العصر الحديث .

وأنا جد واثق أن فى سعة علم صديقى الشافعى بك ، ما يجلى غوامض الموضوع الذى وعد بالكتابة فيه ، وقد وضعت بين يديه شيئا من المراجع ، ووراء ذلك — إن أحب — عشرات وعشرات ، فليزدنا من علمه وفضله ، نزده من استماعنا وعنايتنا بما يكتب لينصف قوما ظُلموا ، ولعل الله أراد لهم المعدلة على يديه ، بوافى التقرير ، وجيد التحبير .

تعليـــــــــــق

رأت هيئة التحرير بالمجلة أن ترسـل إلى سعادة الأستاذ الـكبير محمـد الشافعى اللبان بك بصورة من مقال فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز المراغى لعله يرى أن يـكتب فى الموضوع شيئا .
وقد جاءنا من سعادته هذا التعليق : [المحرر]

تفضلت رياسة التحرير مشكورة فأطلعتنى على البحث العلمى المدقق لصديقى العـالم المحقق الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغى ، وإنى لأبادر فأشكر له اهتمامه بالموضوع الذى عرضت له فى كلمتى الأولى عن « الفقه السياسى عند المسلمين » وأحمد له تقديره للرأى الذى انتهيت إليه ، وإن فى تلاقيه معى فى الفـكرة لخير حافز لى على موالاة الـكتابة فى هـذا الشأن ، وإلى الاستزادة من البحث ، وما عرضت إلا الفـكرة العامة من أن الإسلام قد عرف نظرية كاملة عن الحـكومة وأوضاعها ، وأن فقهاء المسلمين نظروا إليها نظرة قانونية لا اجتماعية عامة ، أو بعبارة أخرى ان شـكل الحـكم والخلافة وأوضاعها عند المسلمين هو من النظم القانونية المحددة ، وانها قد استبقت اتجاه القوانين الوضعية التى اتجهت نظرياتها الحديثة نحو الأخذ بذلك النظر .

وإذا لم يـكن المجال بذلك مجال تفصيل لتلك النظريات ومقارنتها بالأوضاع الدستورية الوضعية ، فلم أفسح فى تلك الـكلمة محلا للمراجع التفصيلية ، واقتصرت على الإشارة تاركا التفصيل إلى التفريعات التى وعـدت بعرضها فى مقالات تالية ، وإنى أكرر شـكرى لأخى العالم الـكبير أن فتح لنا مزيداً من هذه المراجع ، فإنه إذا كان قد أتيح لى الاطلاع على بعضها فإن صديق قد أوضح لى غيرها ممـا تفيد الاستعانة به .

وإذ كنت أشعر بأن هـــذا الموضوع قد أخذ قسطه من هذا العدد ، فإنى أستميح حضرات القراء العذر فى إرجاء مقالاتى الى فرصة قادمة إن شاء الله ؟

محمد الشافعى اللبان

أمالى المرتضى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ أبى محمد العرجاوى
من علماء المعهد الدينى بالاسكندرية

أيسمح لى السادة الأماثل القائمون على تحرير مجلة ﴿ رسالة الإسلام ﴾ أن أروّح عنهم وعن قرائهم قليلا بحديث ليس من أحاديث الفقه ، ولا من أحاديث التقريب ، ولكنه حديث يتصل بالأدب والشعر ، فانهم ليعلمون أن السائر فى طريق إذا جعل يغذ السير ويلح فيه ، فلا يستجم ، ولا يعرج عنه يميناً ولا شمالا ، فهو حرىّ أن يمل ؟

ولن يكون حديثى أدباً صرفاً ، ولا شعراً صرفاً ، وإنما هو أدب وشعر ممزوجان بالعلم ، فإنى رأيت خير الأدب ما أعان على العلم ، وأوفى بلذة العقل .

* * *

بكّر علىّ منذ علقت بالأدب والشعر شادياً ، كتاب جيد لعالم أديب لم أزل أدرسه وأقلبه وأتأمل ما فيه وأصاحبه فى غدواتى وروحاتى ، وفى حلى وترحالى ، وأتخذه جليساً آنس إليه ، وأقبل عليه ، حتى ألفيتنى بعد حين أكاد أحفظه ، وأدرك جميع مراميه ، وقد أثر فىّ منهجه وأسلوبه ، فإنى لشديد الإلف لهما ، عظيم الحرص عليهما .

ولقد يعلم كل مكابد لصناعة ، أو مزاول لبضاعة ، ما هى النقطة التى بدأ منها

عهده ، وكانت فاصلة فى توجيه حياته ، وما من أديب أو عالم أو مفكر أو مخترع أو مصلح إلا كان لشىء ما قد اعترض سبيله ، تأثير فى نفسه ، وتوجيه لقلبه ، علم أو لم يعلم ، وقد كان لهذا الكتاب فى حياتى الأدبية — إن صح أننى من عشاق الأدب — هذا التأثير ، وكان لمؤلفه العظيم الفضل الأول فى ذلك التوجيه .

أما الكتاب فهو « أمالى السيد المرتضى » وأما صاحبه فهو الأديب العالم ذو المجدين أبو القاسم على بن الطاهر أبى أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ابن أمير المؤمنين زوج فاطمة البتول على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم أجمعين .

وإنما ذكرت نسبه ليعلم الناس أى عرق من البيان والعلم دَسّ إليه ، وأى دم طاهر نقى جرى فى أعراقه ، فيحبوه كما أحببته ، ويدرسوه كما درسته .

وللكتاب طريقته الفريدة الفذة فى الجمع بين العلم والأدب فهو مجالس املى فيها السيد مسائل متفرقة فى تأويل بعض الآيات أو الأخبار النبوية ، أو أحاديث الأدب أو طرف الشعر ، فتراه يبدأ بأحد هذه فيصور لك معناها فى عبارة واضحة جلية ، أو يوقفك على عقدة فيها تستحق السؤال والنظر ، ثم يمضى بك بعد ذلك فى رحلة فكرية شائقة كل خطوة من خطواتها متاع لنفسك وروحك ، وغذاء لعقلك وقلبك ، فلا تنتهى رحلة منها إلا وقد تزودت زادا قيما صافيا متنوعا ، تشعر معه بالغبطة والسعادة والرضى .

وهذه الرحلات الممتعة التى سماها المؤلف « مجالس » لأنه أملاها على تلاميذه فى بعض مجالسه ، تصل عدتها إلى الثمانين ، وتقع فى أجزاء أربعة متوسطة هى ما يعرفه الناس باسم « أمالى المرتضى » .

وبين يدى الآن الجزء الأول من هذا الكتاب ، وهذا هو المجلس التاسع من مجالسه الممتعة :

بدأه المؤلف بقوله :

« إن سأل سائل : ما وجه التكرار فى سورة « الكافرين » وما الذى حسّن

إعادة النفى لكونه عابدا ما يعبدون ، وكونهم عابدين ما يعبد وذكرُ ذلك مرة واحدة يغنى ؟ وما وجه التكرار فى سورة « الرحمن » لقوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟

هذا هو السؤال الذى طرحه على المجلس ، السيد المرتضى ، فأثار به معنى يراود النفوس ويداخلها وكثيرا ما يسأل عنه السائلون ، لا ترددا فى بلاغة القرآن وسمو بيانه ، ولكن تطلعا إلى دَرْك أسراره ، وتذوق معانيه ، ولم يزل ذلك لونا من ألوان التطبيق البلاغى والأدبى تمرَّن به الملكات ، وتشحذ العقول وتطمْأنُ القـــلوب .

ثم بدأ الشيخ يلقى الجواب ، فلخص أولا ما ذكره ابن قتيبة فى معنى التكرار وهو أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة ، وإنما كان نزوله شيئا بعد شىء ، فكأن المشركين أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا له : استلم بعض أصنامنا حتى نؤمن بك ونصدق بنبوتك ، فأمره الله تعالى بأن يقول لهم « لا أعبد ما تعبدون » ثم غبروا مدة من الزمان وجاءوه فقالوا : اعبد بعض آلهتنا واستلم بعض أصنامنا لنفعل مثل ذلك بإلهك فأمره الله تعالى بأن يقول لهم « ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » .

ولكن السيد المرتضى لم يعجبه هذا التوجيه فرده وأبطله ، وتالله إنه لمحق ، فما كان الكتاب الكريم ليخضع لمثل هذا التمزيق الذى يريد أن يمزقه به هؤلاء وأمثالهم ، وما كان هذا وجها يرتضيه الذوق الأدبى والبلاغى فى أسمى كتاب جاء مطابقا للبيان الشريف ، والأدب الرفيع . ولذلك رده السيد ، وانتقل إلى غيره فذكر أوجها ثلاثة كل واحد منها أوضح مما ذكره ابن قتيبة ، ولا نطيل بذكر الأوجه الثلاثة وإنما نذكر أولها فحسب ، وهو ما حكى عن ثعلب من قوله : « إنما حسن التكرار لأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى ، وتلخيص الكلام : قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الساعة وفى هذه الحال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فى هذه الحال أيضا ؟ وقال من بعد : ولا أنا عابد ما عبدتم

فى المستقبل ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فيما تستقبلون ، فاختلفت المعانى ، وحسُن التكرار فى اختلافها » .

ثم مضى المؤلف فى تعداد الأوجه الأخرى ، حتى إذا انتهى منها ، تحدث عن التكرار فى سورة الرحمن ، فبين أنه إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها قرر عليها ، ووبخ على التكذيب بها ، كما يقول الرجل لغيره . ألم أحسن إليك بأن خولتك الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن خلصتك من المكاره ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت كذا وكذا ، فيحسن منه التكرير لاختلاف ما يقرره به ، وهذا كثير فى كلام العرب وأشعارهم .

قال مهلهل بن ربيعة يرثى أخاه كليباً :

وهمامَ بن مرة قد تركنا ... عليه القشْعمان من النسور
على أن ليس عِدلا من كليب ... إذا طرد اليتيم عن الجزُور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ما ضيم جيران المجير
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا خرجت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ما أعلنت نجوى الأمور

وقالت ليلى الأخيلية ترثى تَوْبة بن الحُمَيِّر :

لنعم الفتى يا توبُ كنت ولم تكن ... لتسبق يوماً كنت فيه تحاول
ونعم الفتى يا توب كنت إذا التقت ... صدور الأعالى واستشال الأسافل
ونعم الفتى يا توب جاراً وصاحباً ... ونعم الفتى يا توب حين تناضِل
لعمرى لأنت المرء أبكى لفقده ... بجد ولو لامت عليه العواذل
لعمرى لأنت المرء أبكى لفقده ... ولو لام فيه ناقص العقل جاهل
لعمرى لأنت المرء أبكى لفقده ... إذا كثرت بالمُلْحمين البلابل
فلا يبعدنك الله يا توبُ إنما ... لقيتَ حِمام الموت والموت عاجل
ولا يبعدنك الله يا توبُ إنما ... كذاك المنايا عاجلات وآجل
ولا يبعدنك الله يا توبُ ، والتقت ... عليك الغوادى المدجنات الهواطل

فخرجت فى هذه الأبيات من تكرار الى تكرار لاختلاف المعانى التى عددتها على نحو ما ذكرناه .

وقال الحارث بن عباد وكان قاضى العرب :

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيالِ

ثم كرر قوله : « قربا مربط النعامة منى » فى أبيات كثيرة من القصيدة بالمعنى الذى ذكرناه .

وقالت ابنة عم للنعمان بن بشير ترثى زوجها :

وحدثنى أصحابه أن مالكا أقام ونادَى صحبُه برحيل
وحدثنى أصحابه أن مالكا ضَروب بنصل السيف غير نَكُول
وحدثنى أصحابه أن مالكا خفيف على الحُدَّاث غير ثقيل
وحدثنى أصحابه أن مالكا جواد بما فى الرحل غير بخيل
وحدثنى أصحابه أن مالكا صروم كماضى الشفرتين صقيلِ

وهذا المعنى أكثر من أن نحصيه » .

ثم استطرد السيد المرتضى من ذلك إلى لون آخر فقال : « وكما أنه فى الجاهلية وقبل الإسلام وفى ابتدائه قوم يقولون بالدهر وينفون الصانع ، وآخرون مشركون يعبدون غير خالقهم ، ويستنزلون الرزق من غير رازقهم ، أخبر الله عنهم فى كتابه ، وضرب لهم الأمثال ، وكرر عليهم البينات والأعلام ؛ فقد نشأ بعد هؤلاء جماعه ممن يتستر بإظهار الإسلام ، ويحقن بإظهار شعائره والدخول فى جملة أهله ، دمَه ومالَه زنادقة ملحدون وكفار مشركون ، فمنعهم عز الإسلام عن المظاهرة ، وألجأهم خوف القتل إلى المساترة ، وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ ، لأنهم يدغلون فى الدين ويموهون على المستضعفين بجأش رابط ورأى جامع ، فعلَ من قد أمن الوحشة ، ووثق بالأنسة ، بما يظهره من لباس الدين الذى هو منه على الحقيقة عار ، وبأثوابه غير متوار . كما حكى أن عبد الكريم بن أبى العوجا قال لما قبض عليه محمد بن سليمان ، وهو والى

الكوفة من قبل المنصور ، وأحضره للقتل ، وأيقن بمفارقة الحياة : لئن قتلتمونى لقد وضعت فى أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة . والمشهورون من هؤلاء : الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، والحمادون : حماد الراوية ، وحماد بن الزبرقان ، وحماد عجرد ، وعبد الله بن المقفع ، وعبد الكريم بن أبى العوجا وبشار بن برد ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد الحارثى ، وصالح بن عبد القدوس الأزدى ، وعلى بن خليل الشيبانى ، وغير هؤلاء ممن لم نذكره ، وهم وإن كان عددهم كثيراً ، فقد أقلهم الله وأذلهم وأرذلهم بما شهدت به دلائله الواضحة وحججه اللائحة على عقولهم من الضعف ، وآرائهم من السخف ، ونحن نذكر من أخبار كل واحد ممن ذكرناه وتهمته فى دينه ، نبذة نومىء فيها الى جملة كافية ، والذى دعانا إلى التشاغل بذلك وإن كانت عنايتنا بغيره أقوى ، مسئلة من نرى إجابته ونؤثر موافقته ، فتكلفناه له من أجله ، مع أنه غير خال من فائدة ينفع علمها ، ويُتأدب بروايتها وحفظها » .

ومضى بعد ذاك يقص أخباراً عمن ذكر ، ويعدد هنات ، فكان منها ما يروى عن الوليد بن يزيد من أنه نشر يوماً المصحف ، وكان خطه كأنه أصابع ، وجعل يرميه بالسهام ويقول :

يذكرنى الحسابَ ولست أدرى أحقاً ما يقول من الحساب ؟
فقل لله يمنعنى طعامى وقل لله يمنعنى شرابى

قال الشريف المرتضى : ويله من هذه الجراءة على الله ويلا طويلا ، وما أقدر الله أن يمنعه طعامه وشرابه وحياته ، وما أولاه اللعين بأليم العذاب ، وشديد العقاب لولا ما تتم به المحنة ، وينتظم به التكليف ، من تأخير المستحَق من الثواب والعقاب ، وتبعيدهما من أحوال الطاعات والمعاصى » .

ثم قال :

« وأما حماد الراوية فكان منسلخاً من الدين ، وزارياً على أهله ، مدمناً لشرب الخمور ، وارتكاب الفجور ، وقال أبو عمرو الجاحظ : كان منقذ بن زياد الهلالى ،

ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، وحفص بن أبى وَدّة وقاسم بن زنقطة ، وابن المقفّع ، ويونس بن أبى فروة ، وحماد عجرد ، وعلى بن الخليل ، وحماد بن أبى ليلى الراوية وحمّاد بن الزبرقان ، ووالبة بن الحبّاب ، وعمارة بن حمزة بن ميمون ، ويزيد بن الفيض وجميل بن محفوظ المهلبى ، وبشار بن برد المرّعث ، وأبان اللاحق ، يجتمعون على الشرب وقول الشعر ويهجو بعضهم بعضا وكل منهم متهم فى دينه .. وعمل يونس ابن أبى فروة كتُابا فى مثالب العرب وعيوب الإسلام بزعمه وصار به إلى ملك الروم فأخذ منه مالا .. وقال أحمد بن يحيى النحوى قال رجل يهجو حمّادا الراوية :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ويقيم وقت صلاته حماد
بسطت مشافرَه الشمولُ فأنفه مثل القدوم يسنها الحداد
وأبيضّ من شرب المُدَامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد
لا يعجبنك بزُّه ولسانه إن المجوس يرى لها أسباد

وكان حماد مشهورا بالكذب فى الرواية ، وعمل الشعر ، وإضافته إلى الشعراء المتقدمين ، ودسه فى أشعارهم ، حتى إن كثيرا من الرواة قالوا قد أفسد الشعر لأنه كان رجلا يقدر على صنعته فيدس فى شعر كل رجل ما يشاكل طريقته ، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم ، وهذا الفعل منه وإن لم يكن دالا على الإلحاد ، فهو فسق وتهاون بالكذب فى الرواية » .

وهكذا مضى السيد المرتضى فى طرائف تتلوها طرائف ، مما لا يتسع المجال لبسطه ، حتى ختم هذا المجلس بقوله عن بشار بن برد :

« وكان بشار مقدما فى الشعر جدا حتى إن كثيرا من الرواة يلحقه بمن تقدم عصره عليه من المجوّدين .. وأخبرنا المرزبانى عن محمد بن يحيى الصولى قال حدثنا محمد بن الحسن اليشكرى قال . قيل لأبى حاتم من أشعر الناس ؟ قال الذى يقول :

ولها مبسم كثغر الأقاحى وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القلب ، ونالت زيادة المستزيد

عنـدها الصبر عن لقاىَ وعنـدى زفرات يأكلن صبر الجليـد

يعنى بشارا ، قال : وكان يقدمه على جميع الناس . ولما قال بشار :

بنى أميـة هبوا طـال نومكم إنـ الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خـلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين النـاى والعود

بلغ المهدى ذلك ، فوجد عليه وكان سبب قتله .

أما بعــد :

فهذا لون من ألوان الأدب الرفيع : أدب يفتح الشهية للعلم ، ويزجى إلى قارئه كثيرا من الفوائد التى تخرّجه وتثقفه ، وتزيد فى عمله ، وتربى ذوقه ، وتثير مواهبه ، وتنشط ملكاته ، أدب دسم كالطعام الجيد الذى يفيد منه الجسم ، وليس كهـذا الأدب الصحفى الذى بلينا به فى حياتنا الحاضرة ، فأفسد الأذواق ، وقتل المواهب ، وتحيف حق اللغة فى ألفاظها الرصينة ، وأساليبها القويمة ، وحق الشداة والمتأدبين فى أنـ يجدوا بين أيديهم مُثُلا تطبيقية عالية ، تكون لهم أسوة ، وتصلح لهم قدوة .

لقـد استطاع السيد المرتضى أن يمنح تلاميذه فى مجلس واحـد ، قسطا من دراسة القرآن ، وقسطا من التاريخ الأدبى لجماعةمن الأدباء والشعراء ، وشيئا عن تاريخ الملوك والخلفاء ، وأمثلة من جيد الشعر ، واستطاع أن يفتح عيونهم على ما كان يتصف به بعض أهـل الرواية من انحـلال أو تحلل فى النواحى الشخصية والعلمية والدينية ، حتى يفتح أمامهم باب الحيطة والنقـد الصحيح ، ويعودهم أن يقيسوا كل شىء بحساب ، واستطاع مع هذا كله أن يظفر بإقبالهم وشغفهم .

أفليس هذا الكتاب جديرا بأن نجول فى مغانيه ، ونتدبر فى معانيه ، فنمتع به العقول والقلوب؟ بلى ورب البيت ؟

لا تنابزوا بالألقاب

للعلامة الكبير الأستاذ

الشيخ عبد الكريم بن جهيمان

من أفاضل العلماء فى نجد (*)

قبل أن أكتب فى هذا الموضوع يسرنى أن أرحب بهذه المجلة المباركة (رسالة الإسلام) وأن أزجى إلى أولئك النفر الذين فكروا فى إنشائها أطيب الثناء ، فقد جاءت فى أوانها ، فإن كثيراً من المفكرين من جميع أرباب المذاهب والنحل قد شعروا بضرورة التفاهم والتقارب فى الآراء ، سواء أكان ذلك من الناحية الدينية أم من الناحية السياسية .

وقد علمتهم التجارب أن الطريق التى كانوا يسيرون عليها لا تؤدى بهم عاجلا وآجلا إلا إلى الضعف والانحلال والاضمحلال .

فما لهم إذاً لا يرعوون إلى داعى الوئام ، ويصيخون إلى « رسالة الإسلام » وقد نهجت منهجاً حسناً ، وسارت إلى غرض سام ، ودعت الى حق واضح يعترف به كل صاحب فكر مستنير ، ويؤمن به كل منصف نحرير ؟

فسيرى أيتها المجلة المباركة فى طريقك موفقة راشدة إن شاء الله ، تلمين شعث المسلمين ، وتقربين بين فرقهم ، وتوحدين كلمتهم فى أناة ورفق « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

(*) فضيلته مدرس أنجال حضرة صاحب السمو الملكى الأمير عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود ــ بالرياض .

بعد هذا أعود إلى الألقاب الشنيعة وآثارها السيئة فى عداء بعض فرق المسلمين لبعض ، وتباعد كثير من الناس عن دعاة الحق والهدى بسبب ما رموا به من الألقاب الشنيعة ، وما أشيع عنهم من الأعمال التى تخالف ما درج عليه جمهور الناس وألفوه .

فالناس — كما يقول المثل — أعداء ما جهلوا ، وهم لا يملكون الحواس التى يميزون بها بين الحق والباطل ، وليس لديهم إلا مقياس واحد هو ما ألفوه ودرج عليه الآباء والأجداد فما وافقه فهو حق ، وما خالفه فهو باطل « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » وأغلبية الناس يرون أن الحق مع الكثرة وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » وقوله : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

ونبز دعاة الحق بالألقاب المنفرة طريق مسلوك منذ قديم الزمان ، وهو طريق من طرق الدعاية السيئة التى يتبعها غالباً الرؤساء الدينيون والسياسيون الذين يرون فى انتصار الحق وانتشاره نقصاً من سلطانهم أو هضما من مراتبهم أو تقليلا من معاشهم فيرسلون تلك الألقاب بين العوام ، فتنطلى عليهم وتروج فيما بينهم ، وتكون سداً منيعاً بينهم وبين فهم الحقائق ، ولذلك ورد فى الأثر : « صلاح أمتى بصلاح العلماء والأمراء » أو كما قال .

ولما أرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى قومه ودعاهم إلى الدين الحق ، وكانوا من قبل يلقبونه بالأمين ، فلما دعاهم إلى ما دعاهم إليه ، نفروا منه ودعوه مذمما ، ولقبوه بأنه ساحر ، وبأنه شاعر ، وبأنه مفتر ، وأن ما جاء به ما هو إلا أساطير الأولين وخرافات السالفين .

وهكذا يعنون فى اختراع الألقاب وإلصاقها به صلى الله عليه وسلم ، حتى ينفروا عنه سواد الناس ، ويحولوا بينهم وبين فهم ما جاء به ، فلا يسمعوا دعوته وإن سمعوها ، لم يستجيبوا لها ، ولم يحاولوا فهمها على وجهها .

ومن هذا القبيل ما يُرمى به أهل السنة والجماعة ، الذين يثبتون لله ما أثبته

لنفسه من صفات الكمال ، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه ، من صفات النقص فإن منافسيهم يرمونهم بأنهم مجسمه وبأنهم مشبهة وبأنهم حشوية .

فإذا سمع أكثر الناس هذه الألقاب ، نفر ممن رُمى بها ولو كان من أصلح الناس وأتقاهم . وقد قال أحد العلماء : —

فإن كان تجسيماً ثبوت استوائه على عرشه إنى إذاً لمجسم
وإن كان تشبيها ثبوت صفاته فمن ذلك التشبيه لا أتلعثم

ومما ينسب إلى الإمام الشافعى رحمه الله :

يا راكبا قف بالمحصب من منى واهتف بقاعد خيفها والناهض
إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

ومن هذا ما رمى به شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، فإنه لما دعا الناس إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ، وترك البدع والخرافات ، تبعه كثير من الناس ولقيت دعوته قبولا حسناً ، لم يرض منافسيه ، فراحوا يرمونه بالألقاب الشنيعة وينسبون إليه كثيراً من الحوادث المشوهة ، فيسمون مذهبه بالمذهب الوهابى ، ويصفونه بأنه مذهب خامس ، وينسبون إلى أتباعه كثيراً من الأمور التى هم منها برآء ، مثل عدم محبة الأولياء ، أو أنهم لا يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ، أو أنهم يلزمون من يدخل فى الدين أن يكفر آباءه وأجداده ، وكثيراً من أمثال هذه الخزعبلات ، التى لا نصيب لها من الصحة ، وإنما حملهم عليها الحسد والخوف على مراكزهم . وإلا فإن الوهابية ليس لهم مذهب خاص ، لا فى الأصول ولا فى الفروع ، فهم فى المعتقدات يرجعون إلى مذهب السلف الصالح المستند على جاء فى القرآن الكريم ، وعلى ما ثبت من سنة سيد المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما فى الفروع ، فهم يرجعون إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وهم لا يتعصبون لهذا المذهب ذلك التعصب المذموم ، بل من طريقتهم ، إذا رأوا فى

مسألة أن مخالفيهم أرجح دليلا ، أنهم لا يأنفون من الأخذ بقولهم ، والانصياع إلى الحق ، فإن الرجوع إلى الحق أولى من التمادى فى الباطل . وهم فى هــذا يقتفون أثر الأئمة المجتهدين فى تعاليمهم ، فقد ورد عن الإمام الشافعى رحمه الله أنه قال : « إذا قلت قولا يخالف قول رسول الله ، فاضربوا بقولى عرض الحائط وخذوا بقول رسول الله » أو كما قال ، وقد روى عن كل إمام من الأئمة مايقارب هذا الـكلام فى أن قولهم إذا خالف شيئاً من كلام الرسول يجب رفضه ، واتباع ما ورد عن الرسول .

وإن تعجب فعجب من أمة واحدة هذا قول أئمتها ، وهى تدين بدين واحد وتعبد رباً واحداً ، وتتبع نبياً واحداً ، وتهتدى بكتاب واحد ، ثم يكون بينها هذا التفاوت العظيم ، وتتسع الشقة بين فرقها هـذا الاتساع الشاسع ، مع أن دينها دين الفطرة الذى لا تعقيد فيـه ولا غموض ، وكتابها واضح وقد تـكفل الله بحفظه وصيانته من التغيير والتبديل .

ولـكن هذا مصداق ما ورد عن الرسول من أن هذه الأمة « ستتبع سنن من كان قبلها من الأمم حـذو القذة بالقذة » إلا أن علينا أن نسعى جهدنا فى تقليل الخلاف ، وأن يكون رائدنا الحق نتبعه أيا كان مصدره .

والطريق الوحيد الذى تصلح به هــذه الأمة هو الرجوع إلى كتاب الله ، والى ما صح من سنة رسوله « فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولهـا » فهل لنا أن نرجع الى أصل ديننا ، وأن نستقى أوامره من مناهله العذبة الصافية التى لم يشبها شيء من أهواء النفوس ونزغاتها ، وأن نرمى بجميع الألقاب الشنيعة وراءنا ظهرياً ، وأن ننظر إلى حقـائق الأمور دون ظواهرها ، وأن نعرف الحق لأنه حق بالبرهان ، لا لأنه قول فلان أو فلان ، وأن نعرف الباطل لأنه باطل بالبرهان لا لأنه قول فلان أو فلان ؟! .

نرجو ذلك ونسأل الله أن يجمع كلمة المسلمين ، وأن يوحد صفوفهم وأهدافهم إنه على ما يشاء قدير ؟ .

اقتراح على الأزهر

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز محمد عيسى
المدرس فى كلية الشريعة

كان المسلمون الأولون فى شغل عن الخلاف وعن المسائل الكلامية ، بما هم فيه من جهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وتوطيد دعائم الدين ، وكانوا يميلون إلى التفويض فيما يمر بهم من المسائل التى يحتاج ظاهرها إلى تأويل أو تفسير ، ثقة منهم بأن هذا الدين قد أنزله الحكيم العليم ، وما داموا قد آمنوا به إيماناً راسخاً ، ولابسوا رسوله الكريم منذ نشأته وفى كافة أحواله ، فعرفوا فيه الأمانة والبعد عن التكلف والتصنع ، فليسوا فى حاجة الى الخوض فيما قد يثير بينهم نزاعا ، أو يفتح عليهم أو على من تبلغه أقوالهم أبواباً من الشك أو التحير .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدون من بعده ينهون عن الخوض فى أحاديث القدر أو المغيبات التى لا سبيل إلى تحديد معنى بذاته فيها ، وإذا رأوا من تكلم فى شىء من ذلك أعرضوا عنه أو انتهروه ، وبلغ من شأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يعاقب على ذلك ، ويضرب بدرته من يقدم عليه ، وجاء رجل إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فسأله عن الحساب قائلا : كيف يحاسب الله جميع الخلق فى وقت واحد حتى يظن كل إنسان أنه هو المحاسب وحده ؟ فلم يزد على أن أجابه جوابه المسكت المعروف : « يحاسبهم كما يرزقهم » فاقتنع الرجل بذلك ، ولم يخض مع أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فى بحث فلسفى ، أو استطلاع تحليلى ، يعرف به كنه ما هنالك .

وكذلك كان شأن أهل البصر من علماء التابعين رضى الله عنهم ، وقد

اتخذت قولة مالك بن أنس رضى الله عنه فى الرد على من سأله : كيف استوى الله جل جلاله على العرش ؟ مبدأ من مبادىء الإيمان الصحيح فى كل ما ورد به الكتاب والسنة من المتشابهات ، واقصد بها قوله : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، واخرج أيها السائل » فهذا المبدأ هو الصراط المستقيم فى كل مايعترضنا مما لاندرك حقيقته ، وما علينا إلا أن نؤمن بما جاء فيه عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، ونكف عن التزيد فيه أو محاولة إدراك كيفيته .

من هذا يتبين أن المذاهب الكلامية لم يكن لها وجود فى العهد الأول للسلمين ، وأنها لم تنشأ — حين نشأت — كاملة فى جميع أبوابها ومسائلها وأدلتها وتفاصيل الكلام فيها ، وإنما نشأت فى أول الأمر عن سؤال أو بحث كهذا الذى أشرنا إليه ، وقد وَجد ذلك من يستمع إليه ، ويناقش فيه ، ويكوّن له رأيا عنه ، وتعدد ذلك فى المجالس العلمية ، واستفاض بين العلماء ، فوُجدت آراء انحاز إليها بعض الناس ، وخالفها آخرون ثم أخذوا يتبادلون الجدل ، فيفضى بهم إلى وجوه جديدة من الخلاف .

وهذه المذاهب كسائر الأفكار والآراء تتطور على الزمان ، ويصيبها التغيير أو التعديل بالزيادة أو النقص ، أو الشرح أو البيان على أيدى رجالها المتتابعين جيلا بعد جيل ، فلو أننا وازنا بين مذهب من المذاهب فى أول نشأته ، وبينه بعد مرور قرن أو قرنين عليه مثلا ، لوجدناه يبتعد كثيرا عن أصله ، ويضاف إلى آراء الأولين فيه قيود أو تفسيرات ربما جعلته مذهبا جديدا ، وربما ضيقت نقط الخلاف بينه وبين غيره من المذاهب .

وكما يحدث التطور فى المذاهب والآراء على هذه السنة ، يحدث أن ينقرض بعض المذاهب فلا يبقى له أتباع فى أى بلد من البلاد الإسلامية ، أو أن يبقى له أتباع ينتسبون إليه إنتسابا اسميا جغرافياً لأنهم لا يدركون منه قليلا ولا كثيرا ولكنهم ورثوا الانتساب إليه عن آبائهم ، كما ورثوا أموالهم وديارهم وألقابهم وتقاليدهم ، ومع ذلك يبقى هذا المذهب فى الكتب التى تحدثت عنه ، ووصفته

مبادئه وأصوله ، فإذا اطلع عليها أحد من الناس ، حكم على الحاضرين المعاصرين بأحكام هذه الكتب على آبائهم وشيوخهم ومفكريهم ، دون أن يلاحظ التطور الذى حدث أو أن يسائل نفسه : هل ظلت هذه البلاد أو هذه الطوائف على قديمها ، فلم تتحرر منه ولو بعض التحرر ، ولم تزد فيه أو تنقص أو تعدل ؟

ثم إننا نجد الطائفة الواحدة تتنوع إلى طوائف ، وتفترق إلى فرق ، فأهل السنة مثلا أشاعرة وماتريدية ، وعلماؤهم فى كل فرقة من هاتين قد يختلفون فيما بينهم ، وقد يشذ بعضهم عن رأى الآخرين فى مسألة مّا ، وقد يعتنق فى خصوص قضية من القضايا رأيا يماثل رأى الذين يخالفون هذا المذهب . وقل مثل ذلك عن الشيعة ، فإن لفظ « الشيعة » قد حُمِّل على مرور الزمان واختلاف المواطن والسياسات دلالات مختلفة ينطوى تحتها الإمامية والزيدية ، كما ينطوى تحتها القرامطة والباطنية والإسماعيلية وغيرها مما تكفلت بذكره كتب الفرق . فإذا أخذنا أى موضوع من الموضوعات الكلامية ، بالفكرة العامة عن الشيعيين أو السنيين ، ولم نحدد أى فرقة من فرق هؤلاء أو أولئك نريد ، فإننا نقع فى الخطأ ونسند إلى فريق مقالات الفريق الآخر ، ولعلنا نأتى إلى بعض الفرق الميتة التى انقرضت وذهب أربابها فنحكم بها على الفرق الحية الحاضرة التى لا تشارك الميتة إلا فى الاسم العام ، بينما تخالفها فى كثير من الأصول والتفاصيل ، وقد نأخذ بقول عالم من علمائها شط فيه أو انحرف أو ضل السبيل فنحكم به على الطائفة كلها ونقول : « إذا كان فيهم من يقول كذا كذا فانهم ولا شك قوم ضالون » دون أن نحقق هل القائل بهذا القول يمثل فكرة القوم أجمعين أو لا يمثلها ، وهل قبل قوله ، واعتنق رأيه عند طائفته أو رد عليه ؟

ثم إننا نجد الطوائف تنقسم إلى خاصة مفكرة ، وعامة مقلدة أو متعصبة ، وقد يرى الخاصة من أرباب مذهب آراء معقولة ربما يوافق عليها الخاصة من أرباب المذاهب الأخرى ولا يخالفون فيها ، بينما نرى العامة من أهل هذا المذهب نفسه يؤمنون بفكرة معينة ، ولا يقبلون فيها نقاشا ولا جدالا ، ويتوارثها

أبناؤهم وأحفادهم ولا يحيدون عنها ، وليس من الإنصاف أن نقول : إن أمثال هؤلاء العامة أرباب مذاهب بالمعنى العلمى ، وإنما هم قوم حادوا عن الطريق فى ناحية ما ، وهم بحاجة إلى من يبصرهم بالصواب ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

من هذا كله يتبين أن الأحكام الارتجالية أو الجمليه ، التى تعود الناس أن يحكموا بها على أرباب المذاهب والطوائف الحاضرة اعتمادا على ما فى بعض الكتب القديمة ، أو استنادا إلى بعض الآراء الخاصة أو ملاحظة للرأى العام المقلد المتعصب ، إنما هى أحكام جائرة ، يجب أن يتنزه عنها أولو العلم والنظر ، ذلك بأن هذه الأحكام لم تستوف خطواتها الصحيحة ، ومقدماتها التى يجب أن تسبقها ، وقد أغفلت فيها سنة التطور والتغيير والتبديل ، والانقلاب الفكرى الذى يكون بين عصر وعصر ، وبين جيل وجيل .

لو أننا أردنا أن نعرف الحال العلمية والفكرية للجامع الأزهر فى عصرنا هذا مثلا ، فاستمددنا معلوماتنا عنه من كتاب ألف فى القرن العاشر ، يذكر علومه وكتبه ونظمه وأفكار رجاله وطلابه ، وقطعنا النظر عن الحاضر الماثل بيننا الآن من شئونه العلمية والفكرية ، ونظمه التعليمية والإدارية ، فلا شك أننا بهذا نحكم حكما فاسدا لا يمثل الواقع ولا يتحدث عنه ، ولعل أهل الأزهر لو سمعوا بباحث عنهم يسلك فى تاريخ الأزهر هذا المسلك ، وينشر ما ينشر على أنه صورة للأزهر الحاضر لعجبوا ودهشوا ، وربما رموا هذا الباحث بأنه عابث أو جاهل أو مخبول .

من الواجب إذن أن ندرس قبل أن نحكم ، وأن ندرس الجديد ولا نكتفى بالقديم ، وأن نعلم عن يقين ما الذى تحول وما الذى بقى دون أن يتحول ، وأن نتابع الأفكار من مصادرها الأصلية ، ومن معينها الذى تنبع منه . وأن نفرق بين ما يراه الخاصة الذين لهم حق التحدث باسم العلم والفكر ، والرأى والمذهب ، وبين العامة الذين ليس لهم إلا التقليد والتعصب ووراثة الآراء دون وقوف عند ما يعطيه الدليل أو يهدى إليه البحث .

وهذا متناول لا يسمو إليه الأفراد ، ولا تصل إليه الجهود المبعثرة ، والقوى المتفرقة . وإنما السبيل إلى بلوغه : هو أن يُنشأ معهد للدرس والبحث ، على نمط المعاهد التى تنشئها الأمم الراقية لتبحث فى ناحية من نواحى الصحة أو الاجتماع ، وتكون مهمة هـذا المعهد — الذى يقصر على الباحثين والعلماء دون طلاب يتعلمون — أن يبحث فى شئون الطوائف والبلاد الاسلامية المعاصرة من حيث الفكرة الدينية عقيدة وشريعة ومعارف كلامية ، وأن ينظر فى علاقة أهلها بالمذاهب السابقة ، ومدى هذه العلاقة ، وأن يفحص ما عسى أن يكون عندها من مؤلفات ورسائل ومقالات ، وأن يتابع فى ذلك الخاصة من أهل العلم والفكر ويعرف لم اختلف هؤلاء مع العامة فيما يتعصبون له ، ويجعل لكل طائفة وبلد سجلا خاصا يحوى جميع البحوث والمعلومات التى تتعلق بهذه الطائفة أو بهذا البلد ، ويحوى مقارنات بين الماضى والحاضر إلى غير ذلك من الدراسات العلمية المنظمة التى تصور لكل من يريد العلم الصحيح والحكم الصادق صورة الحياه الدينية فى كل ناحية من نواحى الأمة الإسلامية ، ولدى كل طائفة تنتسب إليها .

بذلك يمكننا فى سهولة ويسر أن نعرف أوجه الوفاق والخلاف على صورة محدودة ، وأن نصلح ما أفسده الدهر ، ونحقق مازوره التاريخ وننشر فى ربوع كل دولة ما عند الأخرى ، فيتبادل المسلمون الثقافة الصحيحة ويعرف بعضهم بعضا على حق . وتزول من بينهم الجفوة والقطيعة ، ويأخذوا سبيلهم إلى الوحدة والألفة التى لا يصلح أمرهم إلا عليها ، ولا يستقيم شأنهم إلا بها .

وإن هذا المعهد ليحتاج إلى قوة ثابتة متركزة لها إشراف دينى ومركز ثقافى ، ومال ضخم ، وصلات متوثقة بالعالم الإسلامى ، ومقام كريم بين أهله ؛ لأن ذلكٌ كله مما يعين هذا المعهد على النجاح فى فكرته ، والقيام بها على وجه مثمر ، ويفتح الآفاق ويذلل الصعاب أمام رجاله ، فى بحوثهم وفى رحلاتهم وفى مراسلاتهم.

وأعتقد أن الأزهر هو أولى الهيئات بإنشاء هذا المعهد العظيم ، وأنه خير من يعهد إليه بالقيام على هذه الفكرة الجليلة ، العظيمة الآثار ، فهل يكون ؟

التاريخ والتقريب

لحضرة صاحب الفضيلة الدكتور محمود فياض
أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

حملت إلينا « رسالة الإسلام » كثيرا من الآمال التى ينشدها — من زمن بعيد — كل مسلم غيور على دينه وعزته . وإنا إذ نحييها نرجو أن تكون عامل حياة وقوة للأمة الإسلامية ، ودعامة من دعائم وحدتها التى تعيد إليها عزتها ، وتهديها إلى الرشد فى شعاب الحياة وسبلها المختلفة .

وإنى لأشهد أن الأقلام الرفيعة التى دبجت صفحاتها ، قد أروت الظمأ ، ورسمت منهج الوحدة مستقيما غير ذى عوج . . ولكن التاريخ . ! التاريخ صانع الشعوب ، وبانى الوحدات ، التاريخ الذى لجأت إليه الشعوب المتحضرة فى عمليات البناء والتوجيه والبعث فوصلت إلى ما وصلت إليه .

هذا التاريخ الإسلامى لا يمكن الإغضاء عنه فى التقريب ، إلا إذا كان هو المقصود الأول « بوحدة الثقافة » . فتاريخنا المدون ، خضع لكثير من عوامل الترغيب والترهيب ، فجاء مفرقا للجمع ، لا جامعا للشمل ، ولا أحسبنى مغاليا إذا حمّلت التاريخ الإسلامى المدّون ، وكتّاب التاريخ الأقدمين والمحدثين معظم التبعة فى الجفوة التى ظلت قائمة بين شعوب الإسلام ، هذه الجفوة التى تدفع المصلحين اليوم من أئمة المسلمين إلى محاولة التقريب بين المذاهب لتقترب الشعوب ، كذلك لا أحسبنى مغاليا ، إذا قلت إن التاريخ الإسلامى ودراسته على أسس جديدة . بعيدة عن التعصب والزيف كفيل بالتقريب بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم . فإن كل من عانى دراسة التاريخ الإسلامى ، يجد أمورا جديرة بالنظر والتأمل ، سيما فى مواطن النزاع بين السلف الصالح — قد ألبست غير ثيابها أو

غطيت ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ بغطاء كثيف يحجب الحقائق فى كثير من الأحوال . وفى اعتقادى أن ذلك إن لم يكن مرد التناحر بين المسلمين ، فهو أهم عوامل الفرقة والخلاف . ولنضرب لذلك مثلا :

رياسة المسلمين بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام .

اختلف آراء زعماء الصحابة فيمن يلى إمرة المسلمين بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فذهب أغلب الأنصار بادى الرأى ، إلى أنهم أحق بالامرة ، ثم رجعوا إلى رأى زعماء قريش الذين قالوا بأولوية قريش ؛ وظل سعد بن عبادة ، زعيم الأنصار من بنى الخزرج مقيما على رأيه وأقسم ألا يبايع الصديق ، « حتى يناجزهم بأهل بيته » . « ولو أنه يجد القوة لحاربهم حتى ينتصر أو يموت فيعلم حسابه عند ربه » وذلك لأن سعدا رضى الله عنه لم يقتنع بما اقتنع به غيره من الأنصار وتبعه فى ذلك أهل بيته مجاملة له أو عن رأى . وظل سعد هكذا أمة وحده . لم يبايع لأبى بكر ولا لعمر من بعده . حتى قتل فى عهد عمر قتلة يحوطها شىء من الغموض ـ فمات وليس فى عنقه بيعة لإمام على حد تعبير المحدث ابن كثير . ومع ذلك كله . لم يحكم ـ أبو بكر ولا عمر ولا غيرهما من الصحابة والتابعين حتى الساعة التى نحن فيها ـ على سعد بن عبادة بكفر أو الحاد أو مروق من الدين ، واستقر عند الجميع أن سعدا من ذوى الآراء الذين لا يتراجعون عن رأى لهم بغير حجة ظاهرة واقتناع بيّن ، لا سيما والخلاف على أمر سياسى ـ هو إمرة المسلمين . وهو لايتعلق بأصول الاسلام حتى يكون الخلاف فيه . خلافا فى الدين ، وداعيا للتنابز بالردة أو الكفر ـ بين المسلمين .

سلم الانصار إذن بإمرة المهاجرين واتحدت كلمة المسلمين . ولكن كتّاب التاريخ قالوا : إنه لم تكد تسلم إمرة المسلمين للمهاجرين حتى اختلفوا . فالكثرة قالوا : إنها فى قريش عامة دون تخصيص . وقال الهاشميون انهم اهلها وأحق المسلمين بها . ثم رووا لنا فى موقف شيخ بنى هاشم على بن أبى طالب رأيين . أحدهما : أنه امتنع عن بيعة أبى بكر زمنا ما ثم راجع نفسه وبايع لأبى بكر قائلا : « كنا نرى لنا فى الأمر حتما » وثانيهما : أنه لم يمتنع بل بادر إلى بيعه أبى بكر .

ومهما يكن من أمر فقد بايع عليّ لأبى بكر. وسلمت وحدة المسلمين وذهب النزاع. وإذن فاختلاف الآراء على حكم المسلمين أو إمرتهم أو الخلافة كما سميت، كان خلافا عاديا فى وجهات بين الانصار والمهاجرين، ثم ثاب الأنصار إلى رأى المهاجرين مختارين لا مكرهين فذهب الخلاف ولم يبق إلا سعد بن عبادة مصرا على رأيه غير متهم فى دينه وعقيدته، وخالف عليّ أو لم يخالف وبايع للصديق راضيا، وبذلك سلمت وحدة الامة من خلاف عابر لا صلة له بأصل من أصول الاسلام. وهو خلاف يحدث بين زعماء الفكر والسياسة فى البلد الواحد فى مختلف العصور، ابتغاء الصالح العام للأمة. وهو شبيه باختلاف الاحزاب السياسية على الوسائل فى الوصول إلى هدف متفق عليه فى العصر الحديث. أو اختلاف العلماء فى الفروع الفقهية اختلاف رأى لا اختلاف دين، لا إثم فيه ولا تثريب على أحد.

هذه المسألة بالذات « مسألة الخلافة » وهى من أمهات المسائل التى فرقت وحدة الامة. أو هى أم مسائل التفريق قد عولجت فيما بعد — فى عصر التدوين والتفرق والتعصب الجنسى وضعف وازع الدين فى قلوب المسلمين — علاجا يوحى إلى القراء بانقسام المسلمين انقساما دينيا خطيرا حول « الخلافة » ثم صبغوا هـــذا الانقسام بصبغة عقدية ظلموا بها السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وولدوا الروايات لتبرير ما زعموه خلافا فى الدين، وقالوا: إن التشيع لآل البيت ظهر فى المدينة بمجرد موت الرسول وجعلوا للشيعة إذ ذاك وجودا مذهبيا، وفاتهم أن المسلمين جميعا شيعة للرسول منذ بعث ولآل بيته؛ وتحدثوا عن إمرة المسلمين (الخلافة) وهل هى جزء من الدين وركن من أركانه. أو هى أمر يقره الدين ويقتضيه وجود جماعة للمسلمين متميزة بكيان خاص وتشريع خاص، أو هى شيء لا لزوم له اطلاقا فى الدين. ثم فرقوا فى المعنى بين حكومة المسلمين (الخلافة) وحكومة غيرهم تفرقة تعسفوا فيها، وربطوها بالدين، وهكذا جروا الآراء المتأخرة التى انتجها عصر الضعف وفرضوها وفسروا بها الحوادث فى عصر لم يعرفها ولم تعرفه، وفاتهم أن الشورى. ووجود جماعة من ذوى

الآراء والعلم والخبرة . وحرية الفرد وعظم مسئوليته عن الجماعة : كل ذلك ينتج خلافا فى الرأى . لا فى الدين ، ولا يصدع وحدة . وأن كل أمة متمدنة لا بد لها من حكومة . والحكومة فى كل مكان وزمان هى الحكومة . وإنما تختلف بالمبادىء والدساتير التى تحكم بها وترعى بمقتضاها المحكومين .

وفى العصر العباسى الأخير استشرى الداء وعظم البلاء بقيام عدة أمراء للمسلمين . فى بغداد وفى القاهرة وشمال إفريقية ، وفى الأندلس . بل وغير هؤلاء من الأمراء المتغلبين الذين استقلوا بالأطراف فى شرق الدولة وغربها . فاستبيح الوضع فى الحديث والتاريخ . بل زُوِّر التاريخ فى ماضيه وحاضره ليوافق الأهواء المختلفة لأمراء المؤمنين المختلفين .

ثم جاء كتّاب التاريخ المحدثون . فزادوا النار ضراما ، ولونوا الخلاف الذى زعمه الأقدمون ، بلون جديد تبعا لأساتذتهم من غير المسلمين فصوروا الخلاف تصويرا عصريا : فقالوا مثلا : حزب الأحرار (عن الانصار) ويرون كذا وكذا وهم أمعن فى الديمراطية من غيرهم . وقالوا . الحزب الأرستقراطى (عن قريش) ويرون كيت وكيت . وقالوا : الحزب الهاشمى المتحد وهو أمعن فى الأرستقراطية إذ يرى لزعمائه حقا إلهيا مقدسا . . إلى آخر ما قالوا ، وبهذا يفهمون الناشئة أن ذلك الخلاف الأول كان خلافا على المبادىء الجوهرية ، مع أنه إن صح وجود خلاف فهو على الوسائل لا على المبادىء ، فالدين واحد وأحكامه ومقرراته واحدة عند الجميع لم يقع فيها خلاف حتى الآن .

وقد لاحظت أن المؤرخين الأقدمين من الفرق المختلفة كتبوا ما كتبوه تحت ضغط التعصب ، وسلطان التفرق ، فتنابزوا ، وجرَّح بعضهم بعضا ، واندفعوا فى مخالفات للواقع اصطنعوا لها الأدلة ، ونسب كل منهم الى الآخر ما يحرمه الدين بل يكاد كل منهم يفرض على أشياعه كراهية المخالفين لهم كراهية دينية ، ولعل بعض هؤلاء وبعض أولئك كانوا يتقاضون أجر تجريح المخالفين لحكامهم ، وثمن الوضع والتزييف ، ولعل بعضا آخر كان معذورا أمام تغالى المخالفين ، فقد يعذر

المؤرخ السنى إذا كان قد عاصر مثلا بعض الطوائف التى انتسبت إلى الشيعة ، من هذه التى ذكرها المؤرخ الشيعى الجليل أبو الحسن النوبختى فى كتابه « فرق الشيعة » فقد ذكر عشرات من الفرق ونسب إليها مقالات غريبة عجيبة علق عليها هو ، ووصف أصحابها فى كثير من الأحيان بالكفر ؛ قد يكون هذا — سيما والعصر العباسى الأخير عصرُتهم ، وتنابز بالباطل ، خفَت فيه صوت الدين ، وهبط الوازع الدينى عند الحاكمين والمحكومين ومعظم العلماء السلطانيين — وقد يعذر الشيعى بتعصب أمثال الإمام الهيثمى السنى .

أما المحدثون من كتّاب التاريخ فما عذرهم ، وقد تحرر العلم من سطوة الحكام وانقشعت السحب ، وبادت معظم الفرق المغالية ، ولم يبق الآن تقريباً غير السنيين والشيعة ، إلا انهم إذا أخذوا عن الأقدمين دون ضبط وتثبت ، فلست أفهم لهم عذرا إلا إذا رجعوا إلى مكتبات المخالفين ، واستجلوا آراء علمائهم فى كل ما يتعلق بالسياسة أو أصول الدين .

ولا شك أن دراسه التاريخ الإسلامى - سيما تاريخ صدر الإسلام - على هذا المنهج التعصبي الذى لا يقوم على أسس صحيحة هنا وهناك ، يسمم أفكار النابتة ، ويربى البغض فى نفوس المتعلمين لمخالفيهم فى الرأى . بغضاً يستند الى الدين فيَقر فى النفس ماقر فيها الدين ، بينما هم يبغضون مستعمرى بلادهم المخالفين لهم فى أصل الدين وجرثومته . والجنس واللغة ، بغضاً توحى به اعتبارات وطنية ، وسرعان ما يزول بزوال الاستعمار ، وقد تنبه المستعمرون الى هذا فأذكوا نيران الخلف بين طوائف المسلمين ، وباعدوا فيما بينها بعدا قطع كل الصلات .

لست أدرى كيف استقام هذا المنهج قديماً وحديثاً ، فى الوقت الذى نجد فيه سلوك الأئمة الأخيار من رجالات الإسلام يرفضه ويناقضه ، فقد ساد بينهم التعاون على البر والتقوى ، ونشر كلمة الله فى ربوع الأرض دون تنابز أو اتهام ، فهل لدى إنسان أن مسلماً منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى الآن طعن فى دين سعد بن عبادة لخلافه لأبى بكر وعمر ؟ أم لأن عقب سعد لم يكن فى كثرة نسل

على بن أبى طالب ، ولأن سعداً لم يبارز الخلفاء على « الخلافة » ومات قبل الفتنة الكبرى طويت صفحته من الخلاف ، حتى لا تكاد جمهرة المسلمين يعلمون أنه خالف أبا بكر وعمر ، ومات وليس فى عنقه بيعة لإمام .

ونظرا لأن على بن أبى طالب أعقب كثيرين من النابغين الطموحين إلى الرياسة ، ولأن إمرته للمؤمنين بعد عثمان حُفَّت بها الفتن ، اصطنع خلافه للأئمة الأولين ، وألبس لباسا عقديا أدى إلى (إيذاء) الثلاثة الخلفاء الراشدين السابقين عليه ، ليثير ذلك قوما من أنصارهم فيدفعوا عنهم ويتهموا غيرهم بمثل ما اتهموا به ، وغاب عن الجميع أن الخليفة الرشيد على بن أبى طالب كان خير معوان لأبى بكر وعمر وعثمان ، لم يعرف عنه اتهام لهم فى دينهم أو سياستهم ، وأن عليا ليس أقل من سعد بن عبادة فلو أنه رأى رأيا غير رأى الجماعة لأصر عليه كما أصر سعد على رأيه على الأقل ، ولكنه رأى مصلحة الاسلام والمسلمين فى البيعة فبايع ، ثم فى أى زمن ؟ فى عصر بلغت العاطفة الدينية فيه أوجها ، والقوم جميعا يعرفون مكانة علىّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجهاده فى سبيل الله مما يرجح لدينا أن عليا لو خالف لوجد الانصار كثيرين والأعوان كثرة فى كل مكان ، وأن الأمر كما قال سيدنا زيد بن على زين العابدين « إن الخلافة فوضت لأبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائر الفتنة وتطييب قلوب العامة فإن عهد الحروب النبوية كان قريبا وسيف أمير المؤمنين (على) من دماء المشركين من من قريش لم يجف بعد ، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى — إلى أن قال : فكانت المصلحة أن يتوم بهذا الشأن من عرفوا باللين والتودد والسبق فى الاسلام والقرب من الرسول ، ولم يكن أحد أقوى على ذلك من أبى بكر » وكما يقول الإمام ابن أبى الحديد فى مؤاخذته للسابقين من السنيين والشيعة : « ولقد كان الفريقان فى غنية عما اكتسباه واجترحاه ، ولقد كان فى فضائل علىٍ الثابتة الصحيحة ، وفضائل أبى بكر المحققة المعلومة مايغنى عن تكلف العصبية لهما » فهل نستطيع القضاء على هذا التعصب فى دراسة التاريخ والتفرغ الى اجتثاث أصل البلاء ؟

الحق أن مرد البلاء كله فى اختلاف المسلمين ، يرجع إلى غير المسلمين أولا ، وإلى غفلة المسلمين ثانياً ، ويفصح لنا عن ذلك قول الإمام ابن الجوزى فى المنتظم : « لما جاء النبي وقهر الاملاك ، وقمع الإلحاد ، اجتمع جماعة من الثنوية والملحدين ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين ، لا شك أن جميع فرق المسلمين تبرأ منهم ، فأعملوا رأيهم وقالوا : ثبت عندنا أن جميع الأنبياء كذبوا ومخرقوا على أممهم وأعظم الكل علينا بليه محمد فانه نبغ بين العرب العظام ، وخدعهم بناموسه ، فنصروه وبذلوا أموالهم وأنفسهم ، وأخذوا ممالكنا وقد طالت مدتهم ، والآن فقد تشاغل أتباعه . ومنهم مقبل على كسب المال ، ومنهم على تشييد البنيان ، ومنهم على الملاهى . . . وقد ضعفت أبصارهم ، ونحن نطمع فى إبطال دينهم إلا أننا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم ، فليس إلا إنشاء دعوة والانتماء الى فرقة منهم لنستعين بهؤلاء على إبطال دينهم » وإذن فهذا هو السر فيما أحيط به تاريخنا ، وهو السر فى إظهار خلافات الرأى العادية على أنها اختلاف فى الدين .

وهكذا ترون الى أى حد ساهم التاريخ وكتابه القدماء فى القطيعة بين المسلمين وسيظل هكذا عامل تفرق ما دامت دراسته قائمة على هذا المنهج التعصبي الذى يجافى الحقيقة والواقع ، وما سيطرت عليه أهواء أرباب الأهواء البائدة ، فأى خير نقدمه للمسلمين لو أننا درسنا التاريخ دراسة تجنح الى الحق والتقريب بعيدة عن التعصب المذهبي ، وزيف الملفقين من ذوى الأهواء الأقدمين والمحدثين ؟ فهل لنا أن نعيد كتابة تاريخنا بعد تخليصه من الشوائب ، وتنقيته من أكدار الوقيعة ولوثة العصبية ونتحرى فى كتابته الدقة وفق أصح أو أرجح ما يتفق والحقيقة التى أعتقد أنها ستجمعنا على كلمة سواء ؟ وهل آن لنا أن ندرس علوم الشيعة ، ويدرس الشيعة علومنا على منهج علمى صحيح لا تحيز فيه ولا محاباة ؟ أرجو أن يهتم المسئولون بذلك فإنهم لو فعلوا ما يوعظون به لكان قاضياً على أسباب الكراهية والنفرة والجفوة بين المسلمين ، ولاستطعنا أن نوجد عند الأخوة المتعلمين روحاً من المحبة والألفة ، ونظر كل الى الآخر نظرة إسلامية لا طائفية « والله لا يضيع أجر من أحسن عملا » ؟

من أحاديث الجد فى باريس

لحضرة صاحب الفضيلة الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين بالأزهر

وللطلاب العرب فى باريس حياة غير حياتهم فى الشرق والغرب من بلاد الإسلام ، حياة تقوم على تصوّر آخر لمفهوم « الإنسان » على غير ما نعرف من « مفهوم » هذه الكلمة فى بلادنا .

وللطلاب هناك أيضاً أحاديث منها الجاد ومنها الهازل ؛ منها ما يدور حول العلم والحرية ؛ ومنها ما يدور حول اللهو واللعب ؛ ومنها ما يدور على المقارنة بين الحياة التى ألفناها فى شرقنا المنكوب ، والحياة الصحيحة الأوضاع التى يجب أن نحياها ، الحياة التى ينال الفرد فيها حقه كاملا فى غير ماعنت ، ويؤدى واجبه على أحسن ما يكون فى غير ضجة أو إعلان .

وهذه الأحاديث لا تدور كما يجب أن يكون ، فى ناد يضم هؤلاء الطلاب . وكيف تريد أن يكون لبلد عربى دار تضم ابناءه فى مدينة باريس الجامعية ، ومصر بميزانيتها الضخمة لم تفكر جدِّياً حتى الآن فى شيء من هذا ، وأبناؤها الطلاب هناك يعدون بالمئات ؟ هذا ، بينما بلد صغير كجمهورية كوبا ، لها دار من أفخم الدور فى هذا الحى ، وليس لها من الطلاب إلا طالب واحد بباريس ، وهذه الدار وسعتنى ونفرا من الإخوان منذ حللنا باريس حتى عودتى منها ، ولا تزال تضم خمسة من المواطنين .

إن دارا لطلاب مصر فى المدينة الجامعية ، حيث يعيش آلاف وآلاف من

الطلاب من كل جنس ودين ، يكون لها فى باب الدعاية لمصر والعرب والإسلام أثر أكبر بلا شك ، وأفضل عائدة من كثير من دورها الرسمية فى أوربا . هذه حقيقة لا ريب فيها ، شغلنا الحديث طويلا فيها هناك ، حتى لقد كتبت أنا واثنان من إخوانى بذلك رسميا للقاهرة مباشرة ، ثم للسفارة المصرية بباريس . ولكن من يسمع ؟

والطلاب المصريون فى باريس ، وإن كان لكل منهم نهجه الخاص فى فهم الحياة ، يسعى بعضهم للقاء بعض ، ويجتمعون جميعاً جماعات حين تنوب نائبة أو يحدث حدث فى مصر أو فى غير مصر من بلاد العروبة والإسلام : يجتمعون ويتناقشون فى الأمر ، حتى يخلص لهم الحق أو ما يرونه حقا ؛ وحينئذ يُحسُّ كل منهم أنه سَرَّى عن نفسه ، وأرضى عاطفته الوطنية والقومية .

كم كان لنا اجتماعات ، وجدل وقرارات ، بخصوص فلسطين ! وكم أثلج منا الصدور ، وأحل فيها السكينة والثقة ببلوغ الهدف ، إعلان مصر — ممثلة فى رجالها وكبرائها المسئولين — الجهاد فى سبيل فلسطين ، متضامنة فى هذا مع بلاد العروبة جميعا ! حينئذ كان كل عربى يفخر بجنسه ، وكان المصرى خاصة يرى أن أمته فى طليعة الأمم جميعا فى الشرق والغرب . ولكن ما كان أسرع زوال هذه الأحلام !

والآن أنقل لقراء « رسالة الإسلام » حديثا من تلك الأحاديث التى كانت تدور بيننا . والأمر فى هذا الحديث يتصل بى وبزميل كريم فحسب ، ومداره شىء آخر غير فلسطين ومشاكل العروبة المعروفة عامة :

ذات مساء حيث الليل هادىء ساكن ، وقد أوى القوم إلى مضاجعهم يستريحون من نصب النهار ، إلا طالب علم أو طالب لهو ، يدخل الىّ هذا الصديق فأفرح للقائه كعادتى ، ظنا أنه جاء يشاركنى ما أنا فيه من مُتعة روحية ، بعد أن أجهده من العمل ما أجهدنى . بَيد أنى لا ألبث أن أتبين أنه جاء لغير ما قدّرت ؛ جاء لينتزعنى من هذا الجوّ الحالم العُلوْى السعيد الذى كنت أحياه آنئذ ، ولينقلنى إلى جو آخر إن يكن جدا وحزما ، فإن له للوعة وألما .

يبدؤنى بهـذه الأسئلة : هل نحن حقا خير أمة أخرجت للناس ؟ وهل ما نحن عليه من دين هو خير الأديان كما اعتدنا ان نقول ؟ وإذا كان الإسلام هو الدين الحق الذى ارتضى الله لنا ، وكانت الأمة الإسلامية هى خير الأمم ، فلِمَ يرضى الله لنا أن نظل قرونا طويلة طويلة دون الغربيين ، بل مُستعبدين لهم ؟ ولم لا يغيّر الله من أنفسنا حتى نكون حريّين بلطفه وعونه ، وحتى لا يظن الأجانب بجنسنا وبديننا الظنون ؟

هذه الأسئلة ونحوها تتوالى من صديق دون أن أستطيع وقفها ، حتى ينتهى مما يسأل عنه ، وحتى يُرضى نفسه بالتدليل على ما يَعتلِجُ فى صدره من آراء . وبهذا تنتهى ثورته ويجلس فى هدوء منتظرا ما عساى أن أقول ، وهو يرجو أن تعود إلى روحه الطيبة السكينة والاطمئنان إلى ما اختار الله له من دين .

نعم يا صديق — هكذا بدأت الحديث معه — ويا أخى فى الله وحافظ حق الوطن على القرب منه والبعد ؛ نحن خير أمة أخرجت للناس ، ولكن ما دمنا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله حقا كما جاء فى القرآن ، وما دمنا نعرف الحق ونعمل بما نعرف . وهذا الشرط الثانى — وهو عرفان الحق وبيانه للناس ، أرضاهم هذا أو أغضبهم ، والعمل بما نعرف منه — هو لب الإيمان وأساسه ، وما لا قوام له إلا به .

ومن ثم نعرف أنه لا تناقض بين عقيدة أن الإسلام هو الدين الحق الذى ارتضى الله لنا ، وبين ما نحن عليه الآن من هَوانٍ لم يرضه الله لنا ، بل نحن الذين رضيناه لأنفسنا ، وإليك أمرا واحدا فيه مقنعٌ لنا الآن ، وفيه تفصيل بعض ما أشير إليه .

روى عن ابن عمر عن الرسول الحكيم أنه قال : « السَّمْع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ أو كرِه ما لم يُؤْمَرْ بمعصية ، فإذا أُمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . هذا حديث يجمع المسلمون على صحته ، ونخضع له جميعا ؛ ولكن خضوع علم ومعرفة ، لا خضوع عمل وتطبيق .

أريد أن أقول إننا نعرف الدين : أركانه ومبادئه معرفة نعتقد أنها تصل إلى اليقين ؛ ولكن عند العمل فى مختلف ظروف الحياة ومشاكلها نسير على غير هذه المبادىء التى جاء بها الإسلام ، ونرى مع هذا أننا مسلمون . أى أن معرفتنا بالإسلام وأصوله هى معرفة بالقلب . لا معرفة تنتهى بالعمل ، وذلك فيما أرى ليس الإسلام وليس الإيمان . من الحق أن ندرك المعنى الكريم الذى ينطوى عليه قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « الناس هلكى إلا العالِمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر » .

أو أن ندرك ما يدركه هؤلاء الغربيون من قول سقراط « إن الفضيلة هى المعرفة ، وكل معرفة لا تؤدى للعمل فليست فى شىء من المعرفة الحقة » وإذاً ، فكل من لا يعمل بأصول الإسلام ليس مسلما أو مؤمنا حقا ، ليس مؤمنا كامل الإيمان . الإيمان يقين وعمل ، لا يقين فقط ؛ ومن هنا كان الإيمان يزيد وينقص كما جاء بذلك القرآن ، وكان تفاضلُ المؤمنين فى الإيمان .

إنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ـ كما يقرر الرسول ـ وهذا مبدأ نؤمن به جميعا ونعتقد أنه من أصول الدين ، ولا يمكن أن يقوم مجتمع سليم إلا به ، ومع هذا ، فإن كثيرا من إخواننا فى الدين يرون ـــ وربما نرى أحيانا معهم ـــ أنهم مؤمنون حقا وأن إسلامهم لا ترْقى إليه الظنون . إن الواحد منهم ليصلى على أحسن ما تكون الصلاة ؛ ويصوم راضيا ما يلقى من جهد ومشقة احتسابا لوجه الله : ويؤدى الزكاة ويتطوع بالصدقات سعيدة بذلك نفسه ؛ ثم يذهب لحج بيت الله الحرام خاشعا ، قد تجردت روحه من المادة وظلماتها ، وسمت إلى الملكوت الأعلى ، ويعود إلى أهله وقد تجرد ـ كما يعتقد ـ من ذنوبه وصار كيوم ولدته أمه . لكن الواحد من هؤلاء لا يخطر بباله ، مع ذلك كله ، أنه ينال من إيمانه حين يشارك بحكم عمله الرسمى فى منح رخصة لبغىّ أو خمّار مثلا . أو يشارك فى ظلم ، أو يغض الطرف عن إثم آثم فى حق وطنه ، أو يستر على سارق من مال أمته . غافلا هذا المسلم الطيب عن أنه بعمله هذا قد عصى الله ورسوله وأثم

إثما كبيرا ، إن كان فعل ما فعل عن غفلة ؛ وإلا إن كان فعله مُستحلا له فقد مرق من الدين ، وخرج عن الإيمان باستحلاله حراما بنص الكتاب : وليس لهذا المسلم أن يتعلل بأنه يطيع رئيسه فى ديوانه ؛ فإنه كما قال الرسول لا سمع ولا طاعة حين يُؤمر المسلم بمعصية ، وكما جاء فى حديث آخر « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ».

وهنا بدأ صديقى تنفرج أسارير وجهه ، وتزول حدة ثورته ، كما أخذت رغبته فى الحديث تزيد وتزيد . فقلت له : على أن الأمر لا يقف عند هذا الحدّ من المشاركة فى منح الإذن لبغىٍّ أو خمّار أو غير ذلك مما ضربته لك مثلا ، ولكن الأمر أخطر من هذا بكثير .

إن أوربا وإن يكن لها أسْرُها وفتْنتها وعُلوها بما وصلت إليه من علم وصناعة ؛ فلا ينبغى أن يخدعنا ذلك عن سُموِّ ما نعتزّ به من دين وقوًى روحية لا يسعد العالم إلا بها ، لكن قوما من المسلمين فَتَنَتْهُم أوربا فى هذه النواحى من الحياة ، فظنوا أن الغرب له العلو فى كل شىء حتى فى باب الشرائع والقانون .

من هذا الاعتقاد أُتِىَ هؤلاء القوم . لقد راح بعضهم يقتبس لنا من شرائعهم ويجعل من هذه المِزَقِ المختلفة التى يأخذها من هنا ومن هناك شريعة تُفرض علينا فرضا ؛ كما لم ير بعض آخر أى بأس فى أن يدافع بهذا القانون المجلوب إن كان إليه الدفاع ، أو يطبقه فى أحكامه إن كان اليه القضاء .

إن هؤلاء الإخوان فى الدين ، بصنيعهم فى ناحية التشريع أو الدفاع أو القضاء ، قد جعلوا ـ بلا ريب ـ الشرائع الوضعية فى مرتبة أعلى من الشريعة الاسلامية التى تستند إلى القرآن والحديث . وإنه لا يستطيع إنسان أن يظلم نفسه بأكثر من أن يرى هذا الرأى ، وإن هذا لا يمكن أن يتفق ووصف المرء نفسه بالاسلام .

ثم يا أخى هناك مُثل أخرى لا نستطيع أن نعدها ولكن نعدّ منها ، تقع ونحن شهود ، ونعرف منها كيف نبتعد عن الإسلام من يوم إلى يوم .

وهنا قال صديقى : على رِسْلك الآن ، وحَسْبى اليوم ما سمعت ، ولعل الله يجعل لنا من أمرنا رشدا ؟

ماذا تخبئه نواة الذرة للإنسان

للدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

وكيل مصلحة النقل

لقد ألقيت فى موضوع نواة الذرة أكثر من عشر محاضرات ، أولاها بعنوان « عالم الذرة » ألقيتها فى قاعة فيصل فى بغداد سنة ١٩٤١ ، وثانيتها عنوانها : « من أخبار العلماء المحدثين » ألقيتها فى القاعة ذاتها سنة ١٩٤٣ ، والثالثة عنوانها : « الذرة » ألقيتها فى الجمعية الرياضية والطبيعية فى كلية العلوم بمصر ، والمحاضرة الرابعة فى المجمع المصرى للثقافة العلمية فى قاعة الكيمياء ، وكانت عن الذرة والقنبلة الذرية ، وقد ألقيتها فى ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ ، ولم أنشرها لضيق الوقت ، وأما المحاضرتان الخامسة والسادسه فقد ألقيت إحداها فى ٣ مارس سنة ١٩٤٦ ، بدعوة من جمعية المهندسين الملكية ، وعنوانها : « القوى الذرية والقنابل النووية » ذكرت فيها بإسهاب المتساويات النووية ، وقد أصبح يهم الكثير معرفتها والاطلاع عليها ، وأرجو أن تتاح الفرصة لنشرها قريباً ، والأخرى ألقيتها بدعوة من زملائى المهندسين فى الزقازيق ، وفى العام الماضى ألقيت محاضرة سابعة حول هذا الموضوع بعنوان : « القوى الذرية فى السلم والحرب » بدعوة من جمعية المهندسين بالإسكندرية ، وألقيتها فى كلية الهندسة بجامعة فاروق الأول فى ١٨ مايو سنة ١٩٤٨ ، ومحاضرة ثامنه ألقيتها فى المجمع المصرى للثقافة العلمية فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، وهذه المحاضرة نشرها المجمع فى كتابه للمؤتمر السنوى الثامن عشر ، ثم ألقيت محاضرة تاسعة فى كلية الهندسة بجامعة فاروق ، وأخرى عاشرة بالجامعة

ذاتها فى كلية العلوم ، وألقيتها عن : « دنيا النواة » فى ٢مايو سنة ١٩٤٩ ، وأخيرا ألقيت فى الاسكندرية وفى جماعة الصداقة الفرنسية فى ٣١ مايو الماضى ، بدعوة من رئيسها الدكتور حسين فوزى بك ، محاضرة باللغة الفرنسية عنوانها : « الطاقة الذرية ومستقبل المدنية » تحدثت فيها عن هذا الموضوع ، وخصصت بالذكر : الدور العظيم الذى لعبه العالم الفرنسى « جوليو كورى » وقرينته « أيرين كورى » كريمة مدام كورى المعروفة .

ولقد نشرت فى مجلة الكاتب المصرى عدة مقالات عن الذرة ، كذلك خصّصتْ مجلة رسالة الإسلام فى عدديها السابقين مكاناً فسيحاً لبحث هذا الموضوع ، واليوم أكتب فى هذه المجلة مقالى الثالث عن نواة الذرة ، وماذا تخبئه للإنسان ، وبهذا العرض لا تنتهى بحوثى عن الذرة ونواتها ، فقد أصبح موضوع النواة من المواضوعات الهامة لمستقبل البشر ، ويرتبط بسلم العالم ورفاهيته ، لذلك سأتابع بحثه واستعراضه أمام أكبر عدد من مواطنى الأعزاء ، ومن قراء العربية لارتباطه بسلامتنا وسلامة البشر .

ولقد وصفت الذرة بأنها عالم شمسى صغير يتكون من شمس وسطى يدور حولها جسيمات صغيرة يسمونها الكترونات ، وقلت إن هذا العالم الشمسى من الصغر بحيث أن المليمتر الطولى يتسع لحوالى عشرة مليون من هذه العوالم ، ولما يقرب من مليون المليون من هذه الشموس ، ولعل وصفنا للذرة بأنها عالم شمسى يتكون من شمس وسطى هى النواة يدور حولها جسيمات كالكواكب ، تدور هذه حول نفسها وتدور حول النواة هو أول وسائل التبسيط فى هذا العرض ، فهذه الجسيمات سواء الموجود منها داخل النواة أو الدائر منها فى أفلاكها ليست جسيمات فحسب ، وإنما هى جسيمات وموجات فى الوقت ذاته ، فهى على حد تعبير « دى بروى » صاحب الميكانيكا الموجية وأستاذ الفيزياء النظرية فى السوربون ، جسيمات تستصحب أمواجا ، وإنى لا أشرح فى هذا المقال الفكرة عند دى بروى ، كما لا أشرح هنا مبدأ « بولى » الذى يقرر أن الألكترون الدائر الحائر لا يمكن

وجوده فى حالة كمٍّ معين ووجود غيره فى حالة الكمِّ ذاته (لقد اتيت فى مقالى السابق بشرح وجيز عن فكرة الكمِّ عند « بلانك ») ، بل سوف لا أشرح ما يسمى عدم التعيين عند « هيز نبرج » الذى يقول إننا لا نستطيع كما اعتدنا فى الميكانيكا أن نعين موضع هذا السيار الصغير وسرعته فى آن واحد ، فإن نحن حدَّدنا موضعه فإننا لا نحدد سرعته إلا باحتمال معين ، وإن نحن حددنا سرعته فإننا لانحدد موضعه إلا باحتمال معين ، بمعنى أننا لا نستطيع أن نتكلم عن الموضع والسرعة لهذا السيار الصغير داخل المادة بالدرجة ذاتها من التعيين .

إنما أذكر ذلك حتى لا ننظر لهذا الكوكب الصغير نظرتنا للأجسام التى اعتدناها من حيث هى أجسام مادية ومن حيث التعرف على مواضعها وسرعتها ، وهكذا نبتعد عن بعض النقط العويصة مكتفين بالإشارة إليها .

* * *

ونعود الآن لدراسة هذه النواة داخل عالم الذرة ، فقد ذكرنا أنها تتكون من نوعين اثنين من الجسيمات ، النوع الأول هو البروتون وهو نواة ذرة الهيدروجين وشحنة هذا الجسيم موجبه ، والنوع الثانى إسمه « النيترون » ولا شحنة له ، وكتلته تساوى كتلةالبروتون تقريباً . ولأهمية هذا الجسيم « النيترون » الذى يلعب حاليا أكبر دور على مسرح العمليات النووية وطاقتها الأزلية ، التى يسعى العلماء إلى فك عقالها ؛ أذكر عنه بعض المعلومات الهامة :

ظل العالم يعتقد خطأ أن الذرة مكونة من بروتونات وألكترونات دون معرفة لوجود هذه النيترونات ، فهى لم تُكتَشف إلا سنة ١٩٣٠ ، ولا نذكر هنا لماذا طال الزمن على هذا الخطأ فى معرفة تركيب الذرة ، والواقع أن التأخير فى الكشف عن النيترون كان مبعثه أن هذا الجسيم عديم الشحنة ، ولقد كان « لبوث » و « بكر » ثم « لآيرين كورى » و« جوليو » وأخيرا « لشادويك » الفضل فى الكشف عن النيترون ، وإنه لما يوجب الأسف أن الكثير من الكتب والمراجع ، أهملت ذكر بعض هؤلاء العلماء الخمسة عند التحدث عن الكشف عن

النيترون ، أو ذكرت بعضهم وأغفلت البعض الآخر ، وإنى ألخص حقيقة الأمر فى فقرات ثلاث ، ويتفق معى مؤلف « جريمزيل » فى جزئه الخامس :

(١) كشف بوث وبكر وجود النيترون إلا أنهما اعتقدا أنه الأشعة المسماه أشعة جما .

(٢) أكدت إيرن كورى وزوجها جوليو بعد ذلك بقليل أن طبيعة هذه القذائف جسيمية وليست إشعاعية .

(٣) اعتبر شادويك عام ١٩٣٢ أنها نيترونات وأعطاها هذا الاسم .

* * *

وللنيترون أهمية خاصة كقذيفة موفقة فى البحوث النووية ، ذلك أنه بينما تصلح القذائف الأخرى ـ كالبروتون (وهو شمس أو نواة ذرة عنصر الهيدروجين ، وللعلماء وسائل فى فصل هذه الشمس عن عالمها الذرى واستخدامها كقذيفة) ، وجسيم الفا (وهو شمس ، أى نواة ذرة الهيليوم العنصر الثانى فى جدول العناصر) ـ لتحويل ١٥ عنصرا من عنصر إلى عنصر ، فان النيترون يصلح لقذف جميع العناصر وعددها ٩٦ وتبدأ من الهيدروجين ، وتنتهى بعنصر الكوريوم ـ نسبة لكريمة مدام كورى التى كشفته ـ ما عدا تسعة عناصر لا تتأثر بهذه القذيفه ، ومن هذه العناصر التسعة الكربون والأكسجين ، وطالما فكرت أن هذه الحقيقة قد تكون فى صالح الخليقة ، إذ أن أولها مكون هام للمادة الحية ، وثانيهما عنصر هام لاستمرار الحياة فيها .

وطفرت الدراسات عن النيترون ، وأضحى له فى الجامعات متخصصون يكونون ما نستطيع تسميته مدارس أو حلقات النيترون ، ولعل أهم هذه الحلقات تلك التى كان يرأسها فى جامعة روما العالم الإيطالى الشهير « أنريكو فرمى » المقيم الآن فى أمريكا ، ولقد سمعت هذا الرياضى سنة ١٩٣٤ يستعرض أمام علماء السوربون بحوثه العلمية ، وكنا نعد أهمها فى ذلك الوقت غريباً عن المنطق السليم ،

ذلك أنه كشف أن للنيترون البطىء أثرا على النواة أكبر من أثر النيترون السريع ، ومن الصعب أن نتصور فى ذلك الوقت أن لسلسلة من الأحجار البطيئة أثرا أكبر فى هدم حائط عن سلسلة متساوية فى عددها ، وفى كتلة كل منها من الأحجار السريعة .

وقد لفت « فرمى » بهذا نظر العلماء المعاصرين الفرنسيين أذكر من بين الحاضرين أستاذى الكبير « كوتون » الذى كشف مع المرحوم « موتون » الألترا ميكروسكوب ، والذى ضغط معه الذرة ، وأذكر من بين الحاضرين المرحوم « شارلز فابرى » الذى له فى قياس سرعة طرفى قرص الشمس بحوث معروفة ، ذكرها حديثاً فى مصر العالم الفلكى جورجيو أبتِّى مدير مرصد فلورنسا بإيطاليا ، بل أذكر المرحوم « جيبه » كذلك « ايرين كورى » و « جوليو » و « جان بيران » وكثيرا غيرهم ممن أجلهم ، وممن عاشوا لزمانهم ويعيشون أبدا لغير زمانهم .

* * *

ونستطيع أن نلخص جوهر الدراسات الأولى لفرمى وغيره عن النيترون فيما يلى : —

(١) يمكن الحصول على نيترونات سريعة تقرب سرعتها من سرعة الضوء وتصل طاقتها إلى ١٥ مليون إلكترون فولت ، وتنفذ فى ٣٠ س . م من الرصاص ، ويمكن جعل هذه النيترونات تبطىء بوضع ستائر من البارافين أو الماء الثقيل أو غير ذلك من المواد فى طريقها .

(٢) تصل النيترونات إلى مسافة قدرها ١٠٠ مرة قدر قطر النواة ، وهى مسافة كافية لإيقافها .

(٣) ثمة حالات تتصادم فيها النيترونات بعضها ببعض كما تتصادم كرات البلياردو ، وتغير طريقها كما تغير طريق النواة (بحوث إيرين كورى) وثمة حالات تُمتَص فيها هذه النيترونات .

(٤) تُحدث النيترونات البطيئة بنوع خاص أثرا شديداً فى النواة ، فهى

تحدث تهدماً ، وتُحدث أحياناً انفلاقاً كما حدث فى تجارب « أوتوهان » الألمانى وهى التجارب التى تكلمنا عليها فى مقالنا المنشور بأول عدد لمجلة « رسالة الاسلام » وهى التجارب التىأمكن بعد معرفة نتائجها صناعة القنابل الذرية التىأفضل تسميتها القنابل النووية .

وقد يعن لنا أن نسأل كيف السبيل للعلماء للحصول على النيترونات وهى أحد نوعين من الأحجار المكونة للنواة ، والجواب على ذلك أننا نجدها فى كثير من التحولات النووية التى لاحظها العلماء حيث تخرج من نواتها خلال عملية التحول هذه النيترونات ، وحيث يمكن استخدام هذه النيترونات المطرودة من النواة كقذائف لنوى تصاب بواسطتها .

مثال ذلك : إذا ضربنا عنصر البريليوم بجسيمات ألفا ، التى هى نواة عنصر الهيليوم تحول البريليوم إلى كربون ، وخرجت من نواته نيترونات . وقد لوحظ أننا لا نحصل فى العملية المتقدمة إلا على حوالى بضع عشرات من النيترونات لكل عشرة مليون قذيفة من جسيمات ألفا ، بحيث إن هذا التفاعل النووى السابق لا يصلح وسيلة عملية للحصول على النيترونات بكمية كافية . وقد وجد أخيرا : أنه يضرب البريليوم ؛ ويسمونه الحليسنيوم ؛ بالديترونات التى هى نواة الماء الثقيل ، أو إذا خلطناه بالرادون المتخلف عن إشعاع الراديوم نحصل على كميات أكبر من النيترونات ، وأعتقد أن هذه الوسيلة كانت على قدر ما أعلم إلى عهد قريب خير الوسائل للحصول على النيترونات بكميات وفيرة لأغراض البحث العلمى .

* * *

ومهما يكن من الأمر فقد مهد « فرمى » بدراسته للنيترون وللنيترون البطىء على الخصوص لكشف هام لعالم ألمانى هو « أوتوهان » عن انفلاق خطير فى نواة الذرة ونوع من الانفجار فى هذه الشمس الصغيرة ، ولملاحظات هامة لعالمين فرنسيين هما جوليو كورى وقرينته إيرين كورى عن وجود سلسة من الانفلاقات

المتابعة وعدوى تسرى إلى غير النواة المنفلقة ، وهو ما تناولته بشيء من الشرح فى مقالى الذى كتبته فى أول عدد لمجلة رسالة الإسلام ، وفى ظنى أننا لو استطعنا فهم هذه السلسلة ومتابعة الكتابة فيها ، واستطعنا فهم هذا الكشف الجسيم ، أدركنا لماذا نستطيع الحصول على طاقة فوق الوصف من قليل من المادة ، وأدركنا ما يحدثه ذلك من تقدم فى حياة البشر ومن أثر فى المدنية القادمة ، وأكرر القول الذى ذكرته فى مقالى بأول عدد لهذه المجلة وعلى غلاف كتابى الذى يصدر هذا الأسبوع « إما مدنية فوق التصور نصبح فيها كالملائكة نستطيع ما لا نستطيعه اليوم ، وإما مفاجأة محزنة قد ينمحى معها الكوكب الوديع الذى نعيش عليه » .

* * *

والآن نورد كلمة عن العمل العظيم لأوتوهان الألمانى خاصاً بانفلاق أو انشطار نواة اليورانيوم : يحوى جدول العناصر ٩٦ عنصرا ، تبدأ من الهيدروجين أخفها ، وتنتهى بالكوريوم أثقلها ، وإذا اعتبر الوزن الذرى للهيدروجين ١,٠٠٧٨ باعتبار الوزن الذرى للأكسجين ١٦ فإن الوزن الذرى للكوريوم أثقل العناصر يكون ٢٤١

وقد لوحظ فى جميع عمليات تحول العناصر ، وبجميع الوسائل المختلفة ، سواء ضرب النواة بالبروتونات أو بجسيم ألفا أو بالديترونات أو النيترونات ، أن العناصر التى نحصل عليها هى عناصر قريبة فى جدول العناصر من العنصر الذى أصبناه ، فقد استطاع « رذرفورد » مثلا عندما تمكن لأول مرة سنة ١٩١٩ من أن يحول ذرة العنصر الى ذرة عنصر آخر ؛ أن يحصل من عنصر النيتروجين ، ووزنه الذرى ١٤ على مماكن للأكسجين ، ووزنة الذرى ١٧ ، أى اكسجين يختلف عن الاكسجين العادى بوحدة واحدة فى الوزن الذرى ، وفى أعمال « إيرين وجوليو كورى » الشهيرة تحول الألومنيوم ووزنه الذرى ٢٧ الى عنصر قريب منه هو السليسيوم ووزنه الذرى ٣٠ ، وحصل لكل قذيفة واحدة من

قذائف ألفا على نيترون واحد ، وفى عملية تحضير النيترونات نحصل من البريليوم ووزنه الذرى ٩ على البور ووزنه الذرى ١٠ ، كذلك نحصل من كل قذيفة ديترونية على قذيفة واحدة نيترونية وهكذا .

ونرى فى النشرات العلمية آلاف التحولات المتشابهة التى يصادف الباحثون فيها دائماً أوزانا ذرية متقاربة ، بمعنى أننا ننتقل عادة من عنصر الى عنصر آخر وزنه الذرى لا يفترق إلا بعدد قريب جداً من الوزن الذرى للقذيفة ذاتها التى أثقلها جسيم ألفا حيث يبلغ وزنه الذرى ٤

ولم يحدث قط أن ضربنا عنصرا وزنه الذرى ٨٠ لحصلنا على عنصر آخر بعيد جدا عنه فى جدول العناصر يكون وزنه الذرى ٥٠ مثلا ، وعلى عنصر ثان يقرب وزنه الذرى من ٣٠ ، بمعنى أننا لم نحصل على قسمة عنصر الى عنصرين متباعدين عن العنصر الأصلى .

وكأننا أمام منزل خشبي من تلك اللعب التى يلهو بها الأطفال ، يمكن تكوينه من عدد من المكعبات الخشبية تبلغ الـ ٢٣٩ مثلا ، « وهو عدد مابنواة البليتونيوم من بروتونات ونيترونات » واستطعنا حتى الآن أن نزيد هذا المنزل مكعبا أو اثنين أو ننقصه مكعباً أو اثنين ، ولكننا لم نوفق قط إلى أن نجعل هذا المنزل ينهار أو ينقسم قسمين كبيرين بضربة من مكعب واحد ، أو بوضع مكعبين مثلا فوق سطحه يقومان بعمل هذه القسمة ، بل إننا لم نوفق إلى أن نجعل منازل أخرى تنهار ، منازل موجودة فى البلدة ذاتها ولدى أطفال آخرين وبعيدين جدا عنه .

* * *

• هنا وقف العلم سنين طويلة من أيام « بكارل » سنة ١٨٩٦ ، و « رذرفورد » سنة ١٩١٩ ، ولم يقع الحادث الهام إلا سنة ١٩٣٩ ، إذ حدثت لفيزياء النواة مفاجأة كبرى ، وكان حدوثها دون قصد من العالم الألمانى « أوتوهان » فقد ضرب المكعب الذى جعل المنزل الكبير ينقسم الى منزلين كبيرين ومنازل أصغر منها ، بل قذف بالمكعب الذى جعل منازل أخرى بعيدة جدا من المنزل الأول ينقسم

الواحد منها بعد الآخر . ووصل إلى ذلك بضربة واحدة أصابت أول هذه المنازل فخرج منه مكعب يصيب من تلقاء ذاته المنزل المجاور وهكذا .

كان أمام «أتوهان» عنصر البليتونيوم من - اسم الكوكب بليتون آخر الكواكب التي تدور حول الشمس - باعتبار أن هذا آخر العناصر التي تيسر للإنسان الحصول عليها في ذلك الوقت ، والبليتونيوم هـو عنصر جديد وزنه الذرى ٢٣٩ يزيد بوحدة عن الوزن الذرى لليورانيوم ، وعدد الكتروناته ٩٤ مقابل ٩٢ لليورانيوم .

قذف « أتوهان » البليتونيوم بنيترون بطىء ليحصل بهذه القذيفة على مماكن آخر لليورانيوم يزداد فى وزنه الذرى بوحدة ، ولكنه عوضا عن أن يحصل على يورانيوم ٢٤٠ مثلا ، أو عوضا عن أن يعود إلى اليورانيوم ٢٣٨ الموجـود فى الطبيعة حصل على عنصرين لم يكن يتوقعهما بعيدين جدا فى جدول العناصر ، وهذان العنصران هما الكريبتون ووزنه الذرى ٨٤ والباريوم ووزنه الذرى ١٣٨ كما حصل على هيليوم ، كذلك حدث من دخول هـذا النيترون الواحـد المقذوف خروج ثلاثة نيترونات أخرى من نواة البليتونيوم ، نيترونات متطوعة تضرب كما ذكرنا آنفا وفى مقال سابق ثلاثة نويات أخرى ، وقد حدث من جراء عملية التقسيم الجـديدة نقص واضح فى كتلة النواة الأصلية ، نقص يساوى ١ على ٢٠ تقريبا من كتلة هذه النواة ، وهذا النقص المـادى فى نواة البليتونيوم تحول كله إلى طاقة إشعاعية تبعا لعلاقة « أينشتاين » المعروفة .

ومعنى ذلك أن البليتونيوم ووزنه الذرى ٢٣٩ وعـدد ما يدور حول نواته من الألكترونات ٩٤ عندما يُقذف بنيترون بطىء وزنه الذرى واحد وليس له شحنة - أى عدد الكتروناته صفر - نحصل على عنصر الكريبتون ووزنه الذرى ٨٤ وعدد الكتروناته ٣٦ وعنصر الباريوم ووزنه الذرى ١٣٧ وعـدد الكتروناته ٥٦ وعلى هيليوم وزنه الذرى ٤ وعـــدد الكتروناته ٢ ، ونحصل على ثلاثة نيترونات متطوعة ، الوزن الذرى لكل منها ١ ، ولا شحنة لها أى عدد إلكتروناتها صفر ، ثم نحصل على طاقة نووية فى شكل إشعاع تعادل مادة وزن نواة ذرتها ١٢ تحولت كلها إلى طاقة .

ونلاحظ إذن أننا إذا جمعنا الأوزان الذرية فى الطرف الأول وجدنا أنها تساوى مجموع الأوزان الذرية فى الطرف الثانى زائد النقص المـادى وقدره ١٢ ، كما أننا إذا جمعنا عـدد الألـكترونات فى الطرف الأول وجدناه مساوياً لعـددها فى الطرف الثانى .

		الوزن الذرى
	٨٤	
	١٣٧	
	٤	
٢٣٩	٣	
١	١٢	
٢٤٠ =	٢٤٠	

		عدد الاكترونات أى الكواكب الدائرة
	٣٦	
٩٤	٥٦	
٠	٢	
٩٤ =	٩٤	

وإذا تأملنا فى المتساوية النووية السابقة نجـد أن الوزن الذرى لمجموع المادة قد تغـَيـر من ٢٤٠ إلى ٢٢٨ بنقص ١٢ فى الوزن الذرى ، أى أن نسبة ما فقدته المادة ١٢ على ٢٤٠ يساوى ١ على ٢٠ ، ولعل هذا النقص الذى أصاب المادة من أعظم ما حدث فى العلوم ، وقد ظهرت أول نشرة فى هذا الموضوع لأتوهان منذ عشر سنين ، ونظار العالم بشىء من الاهتمام لمـا حدث فى هذه التجربة بالذات من دخول هذا النيترون أو هذا الجاسوس فى النواة وقسمتها وخروج طاقة عظيمة منها ، قدرت هذه المرة بحوالى ٢٠٠ مليون إلـكترون فولت للنواة الواحدة .

وكان يساعد أوتوهان عالمان هما « ستراسمان » والسيدة السويدية « ليزمايتنر » وقـد أكدا هما أيضا وجود عنصرى الـكريبتون والباريوم ، كما أكدت هـذه الوقائع معامل عديدة من معامل البحث العلمى فى أنحاء أوروبا .

« حدث كل هذا فى سرعة ولعل الذى تابع مقالاتى السابقة يدرك الآن ما دلت عليه « إيرين كورى » وزوجها « جوليو » فى السوربون من أحداث جسام خلال عملية الانفلاق المتقدمة وملاحظتهما لخروج ثلاث جواسيس متطوعين من النواة المصابة وضربهم نويات أخرى تخرج كل واحـدة منها ثلاثة نترونات جـدد كل واحدة من هذه تخرج ثلاثة نترونات أخرى وهكذا تعم عدوى الضرب ويتكاثر

بسرعة عدد المتطوعين وفى كل حالة فردية تخرج طاقة نووية وفى النهاية تصبح الطاقة من قطعة صغيرة من المادة فوق الوصف .

وطفق العلماء فى أوروبا فى ذلك العهد من سنة ١٩٣٩ يعيدون التجارب ، وظهرت نشرات علمية كثيرة تؤكد صحة الملاحظة التى أبدتها إيرين كورى من وجود ثلاثة نيترونات مطرودة لكل نيترون يدخل النواة .

ولقد سافرت السيدة ليز مايتنر إلى الدنمرك ، وبعد مقابلة « نيلزبور » الذى ذكرنا فى مقالنا الثانى طرفا من بحوثه فى تفسير الانبعاث الضوئى بوثبات للالكترونات ، سافر هذا ليجتمع بعلماء الانجليز أولا وعلماء القارة الأمريكية ثانيا ، حيث بدأ هذا الجزء الأخير من العالم يكون مسرحا هاما لصناعة القنبلة النووية .

أى فارق بين هذه النتائج العظيمة وبعد حدوث هذه السلسلة النيترونية العظيمة وتلك النتائج الضئيلة التى حصل عليها العلماء باستخدام البروتونات (البرتون نواة ذرة الهيدروجين) كقذائف لضرب نواة العناصر المختلفة .

كان رذرفورد يضرب حوالى عشرة مليون قذيفة بروتونية فى اتجاه النوى فتصيب قذيفة واحدة من هذا العدد الكبير نواة واحدة ، وهذه الإصابة النادرة لا تحدث عطبا يذكر ، والآن نضرب بالقذائف النيترونية فتحدث إحداها إصابة جسيمة فى النواة يتبعها بلايين البلايين من الإصابات المماثلة ، دون أن نبعث من ناحيتنا بقذائف أخرى .

لقد ذكر « أينشتاين » أننا كنا كمن يريد أن يصيب طيورا فى ليال مظلمة فى بلاد تندر فيها الطيور ، ولنا أن نذكر الآن أننا تعلمنا نوعا جديدا من الصيد لم يخطر على بال إنسان ، وهو أننا إن أصبنا طائرا واحدا خرج هذا الطائر ليصيد هو نيابة عنا الكثير من الطيور ، بل خرج لتحريض طيور البلدة كلها ليصيدوا طيور البلاد المجاورة لبلدتهم وغيرها من البلاد ، حيث يعم الصيد المملكة بأسرها .

لقد وضع العلماء لأول مرة ، وبصورة جلية أيديهم على الطاقة النووية ، وعرفوا إحدى الطرق الفعالة لفك عقالها ، وعاش « أينشتاين » ليشهد بنفسه نتيجة نظريته الخطيرة ، وليشهد بنفسه كيف تمكن الإنسان أن يعيد المادة سيرتها الأولى ـ طاقة خطيرة فى هذا الكون الفسيح .

☆ ☆ ☆

لقد شرحت النواة وما جدث فى دنيا النواة ، ولعلنا قد أدركنا أن المادة قوة عظيمة مدخرة من الأزل ، لانعرف لها بداية ، ولا ندرك لها نهاية ، هى طاقة متبلورة من العصور الغابرة ، وكنز خطير لا يفنى على الزمن ، هذه المادة بدأنا نلهو بها ، وبدأنا نتعلم كيف نعيدها سيرتها الأولى .

وها نحن أولاء لا ندرى ما ذا تخبئه نواة الذرة للانسان فى المستقبل القريب أو البعيد ، أمدنية نووية ؟ أمعارف جديدة فوق تصورنا الحالى ؟ أدنيا غير التى عهدناها ؟ ، أم نهاية لحياة الجنس البشرى على هذا الكوكب مع بقائه دون أى نوع من الحياة عليه ؟ أم فناء لنا ولهذا السيار الوديع ؟ وكل ما أبتغيه من محاضراتى العديدة وكتاباتى المستمرة ، أن يؤمن القارىء معى أن ثمة احتمالات للانقسام فى نواة الذرة أو للانفلاق فى هذه الشمس داخل الذرة كثيرة ، والواقع أن الرواية لم تتم فصولا ، وإذا استبعدنا حدوث سلسلة من نوع خطير فى الأكسجين أو الماء وكلاهما لازم لاستمرار الحياة ، كما يستبعد ذلك غالبية العلماء المعاصرين فإننا نؤمن فى الوقت ذاته أن هذه العلوم ما زالت فى بدايتها ، وأن أحدا لا يجزم بما يخبئه القدر للعلماء ، وللناس عامة من مفاجآت .

وعلى آية حال فالعناصر الثقيلة الأخرى ومماكناتها قد تكون قابلة للانفلاق بوسائل لا نعرفها اليوم ، وقد نصادف انقساماً ثلاثياً أو رباعياً أو كثير الحدود .

ومع ذلك فإنه يجب أن لا نعتقد خطأ ، بأن حياتنا كجنس محتوم لها الدوام

على هذا الكوكب الأرضى ، فقد تكون زيارتنا له قصيرة قاربت الانتهاء ، وقد تدوم زيارتنا له أطول مما نظن .

* * *

والآن نحن على مفترق الطرق : إما العقل والهناء ، وإما الجنون والفناء ، لقد حققت العلوم أحلام الرجال ، ووصل الإنسان إلى أعظم ما كان يحلم به كيميائيو القرون الوسطى عن حجر الفلاسفة .

وها هى الدنيا بخير : الشمس تشرق صباحا وتغرب مساء ، والنبات ينمو والشجر يزدهر ، والنساء تلد أطفالا ، والأطفال تضحى شيوخا ، وعجلة الحياة دائما فى حركة وفى تجديد ، فلنحافظ عليها وعلى أنفسنا — لقد ذكرت لك أيها القارىء العزيز أنه يجب أن نحب السلام ، وأن نعمل للسلام ، ونحب الحياة ونعمل من أجل الحياة ، وترانى ما زلت عند رأيي وإلى لقاء معك فى جولة أخرى من الفكر فى وقت قريب ؟

كتاب جديد

يسرنا أن نبشر قراءنا فى أنحاء العالم الإسلامى ، وكل مهتم بالبحوث العلمية بأن حضرة العالم الكبير الدكتور محمد محمود غالى كاتب المقالات التى نشرت فى أعدادنا الثلاثة عن الذرة ، سيصدر فى وقت ظهور هذا العدد كتاباً نفيساً بعنوان

ما ذا تخبئه نواة الذرة للانسان

والكتاب بحث طريف فى أسلوب مبسط يفهمه العامة والخاصة ، ويروق الأديب كما يروق العالم ، وهو يقع فى ٦٠ صفحة ، ويحتوى على ١٣ صورة ، وقد قامت بنشره « مكتبة النهضة » ٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة وطبعته بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعا أنيقا ، وثمن النسخة منه ١٤ قرشا عدا أجرة البريد

ومجلة « رسالة الإسلام » تلفت قراءها الكرام ، إلى هذا المؤلف النفيس وترجو له الذيوع بين أكبر طائفة من العلماء وطلاب المعرفة .

رحلة إلى إيران

لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور يحي الخشاب

أوفد معهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد الأول حضرة الدكتور يحي الخشاب رئيس فرع الدراسات الاسلامية بهذا المعهد إلى إيران للتعرف على مافيها من آثار أدبية وعلمية وقد رأت المجلة أن تتصل بحضرته لتنشر على الناس مايصح أن يعرفوه عن حضارة هذه البلاد ، ومقال هذا العدد هو أول ما تفضل به . [المحرر]

دنت السيارة من حي المسجد ، وكانت الشمس ضاربة فوق مآذن المسجد وقبابه ، فإذا الذهب يلمع لمعاناً أخاذاً ، وإذا القيشاني الذى يغطيها قد بدت منه أزهى الألوان .

كنت أقصد السوق القديم العامر ، وقد وقفت السيارة فى نهاية شارع ناصر خسرو ، ثم نزلت السلالم عند (جلو خان مسجد شاه) حيث الصحن الذى يشعرك بمقدمة سوق كبير ، واجتزته الى بوابة أدت بى إلى فناء « مسجد شاه » الفسيح ، وقد لفت هذا المسجد العظيم نظرى ووددت لو أقضى بعض الوقت فيه ، ولكننى كنت على موعد مع الحاج حسين آقا ملك ، وهو من أثرياء إيران ومن أدبائها الممتازين وله مكتبة خاصة تحوى آلافا عدة من الكتب الاسلامية ، ومنها طائفة من المخطوطات النادرة التى لاتوجد فى غيرها ، ولم يكن بد من اجتياز ساحة المسجد ، والاكتفاء مؤقتاً بنظرة عابرة إلى هذا البناء الضخم ذى القباب الذهبية المغطاة بالقيشاني الجميل .

ومررت إلى السوق القديم المسقوف . إلى الشرق فى أبهج حلته وأصدق صورته ، إلى هذه الحياة الإسلامية القديمة التى آخت بين المسلمين مهما تفاوتت درجاتهم ، والتى جعلت الصدق والامانة والعفة والاستقامة والتعاون أساس المعاملة بين الناس ، هنا المقام الأسمى لرجل الدين ، هنا العمامة السوداء تشير الى قرابة صاحبها من النبي عليه الصلاة والسلام ، هنا التقاليد المرعية والأصول الثابتة هنا الثروات الضخمة التى يطهرها أهلها بالزكاة ، هنا الدين والدنيا قد اجتمعا ، هنا المدنية الحقة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، خلت من الزيف والتقليد السقيم !

وانتهت زيارتى « لمكتبه الحاج حسين » وخرجت مسرعا إلى المسجد ، فلم أكد أبلغ ساحته حتى كان المؤذن (اردبيلى) يؤذن لصلاة الظهر فى صوته العذب الرخيم . الله أكبر الله أكبر . وتطلعتُ إلى مصدر الصوت ، فإذا هو ينبعث من مئذنة طويلة غطتها النقوش الجميلة من القيشانى ، وقد علتها قمة من ذهب ، انعكست عليه أشعة الشمس فتوهجت إشعاعا .

إن هذه الساحة الحجرية العظيمة قد اكتظت بالناس . إنهم يَرِدون الفسقية الكبيرة التى تفيض بالماء حيث يتوضؤون ، إن صوت الاردبيلى يجلجل فى الآذان فيملأ النفوس خشوعا ويملأ الجو جلالا ، إن المئذنتين والقباب قد انعكست صورها فوق صفحة الماء فى وسط الفناء . وقد أخذت صورها تتأرجح من تموج الماء ، كأنها تطرب لصوت الرجل يدعو إلى الصلاة ، وإنها لتطرب فى وقار وقنوت !

الله أكبر الله أكبر ! كثر الوافدون ، وأحاط المتوضئون بالفسقية ، ومن خلفهم جماعة ينتظرون ، وهناك ، خلف شبائك الحديد ، فى ردهات المسجد جماعة الركع السجود .

هنا الناس يجتمعون فى أزياء متفاوتة ، هنا أهل المدينة الجديدة بقبعاتهم وأزيائهم الحديثة ، هنا أهل المدينة القديمة وقد علت رءوسهم العمائم واكتسوا بالعباءات الفاخرة من صوف نايين . هنا الناس فى أحلى زينة ، وعلى أنظف حال ، إنهم أتوا إلى حضرة ربهم الأعلى فلا عجب أن تراهم وقد علت وجوههم نضرة النعيم .

إن الإسلام موزع بين أمم كثيرة تختلف فى تقاليدها وأهدافها وسياستها ، ولكنها تتفق فى مثلها الأعلى المستمد من الدين ، وكفى بالإسلام أنه السلامة والسلام ! وقام الامام بقامته الفارعة ومحياه الجميل ، وعلى رأسه عمامته الكبيرة ، وأخذ يعظ الناس فى صوت جهورى ، يعلو حينا ويخفت حينا ، والجميع من حوله فى صمت الخاشعين . وأمَّنا وصلينا .

أتدرى ياصاحبى من هو هذا السيد ؟ إنه « إمام الجمعة »(*) . هو الرجل الذى

(*) لجماعة التقريب صلة بفضيلة السيد حسن « إمام الجمعة » وهو أحد الأعضاء المراسلين للجماعة بطهران .

يصلى بالناس فى الصلاة الجامعة . نشأ فى ايران رجلَ دين ، ثم انتقل إلى أوربا حيث درس دراسته العالية فى القانون . وعاد يحمل إجازة الدكتوراه من فرنسا ثم تنقل فى وظائف الدولة حتى بلغ منصبا رفيعا فى القضاء . ومات عمه « إمام الجمعة » فاختارته الدولة مكان عمه . فهو حاضر فى المسجد كل وقت ، وهو يعظ الناس ، ويؤمهم فى هذا المسجد بطهران .

وسرت والشيخ وبعض المصلين من الهنود إلى جناح له بالمسجد ، وجلسنا على أرائك من الخشب فى غرفة فرشت بالسجاد النفيس ، وأمر بتحية الضيف وقدم الشاى ، فإن الدين يسر لا عسر فيه . كنا من أمم مختلفة ، من مصر والباكستان وايران ، وكنا جميعا مأخوذين بعظمة الله ونحن فى بيته ، وأحسسنا جميعا بأرواحنا صافية من الشوائب طاهرة راضية واعية . وأدركنا جميعا أن ما نحن عليه من صفاء روحى جدير بأن يحفزنا على أن نكون جميعا ! أن نكون جميعا ما دام الإسلام ديننا . ألسنا نقف إلى قبلة واحدة ، ونصلى صلاة واحدة ، وندعو إلها واحدا ، وندين برسالة نبى واحد ، ونقصد كعبة واحدة ! ألسنا نفزع إلى رب واحد إذا مسنا ضر أردنا كشفه ؟ ألسنا نحمد إلها واحدا إذا حمدنا ؟ وبين صحونا ونومنا ألسنا ننهج فى الحياة هديا واحدا نستمده من قرآن واحد ؟ كنا شعوبا مختلفة ، ولكننا أمة مسلمة واحدة !

قال السيد « إمام الجمعة » إننا أمة واحدة ، وإن الدين كفيل بأن يصل ما انقطع من صِلاتنا . وإنا نعمل على أن يتعلم التلاميذ والطلاب آداب دينهم ، نختار لهم من آيات القرآن ما يحفظون وما يهذب نفوسهم فى المدارس الابتدائية ، ونعلمهم قواعد الدين فى التعليم الثانوى ، ولدينا مدارس خاصة تدرس فيها علوم الدين دراسة عقلية ونقلية ، ويتبع هذا كله أن يتعلم الطلاب لغة القرآن ، فنحن نُعلم اللغة العربية فى المدارس الثانوية ، وفى بعض المدارس العالية ، ولا تجد إيرانيا مثقفا لا يقرأ العربية ويفهمها . ونحب حرية الرأى ، والاجتهادُ بابه مفتوح عندنا ، وقد ترجم القرآن للغة الإيرانية ليكون فى متناول الإيرانيين جميعا . وأحَب شىء

لدينا هو أن تزول هذه الخلافات من بيننا ، وإن اتفاقنا على الجوهر كفيل بأن يذهب بالخلاف فى الفروع .

قال الباكستانى : إن الخلاف فى الفروع لا يعتد به ، وإن الهدف الذى نتوجه إليه هو اتحاد هذه الأمة حول الأركان ، ولقد كنا أعز أمة فى الأرض يوم كنا نتبع قواعد الدين ونعمل بهديه . وإن الأصالة التى فى الشرق ، والقوى الروحية الكامنة فيه ، وما لقيناه من الزيف فى المدينة الغربية ، كل هذا يؤدى إلى رفعة الأمة المسلمة ، إذا استغل استغلالا حسنا .

قلتُ هذا صحيح . وإن مصدر الألم واحد عندنا جميعا . وأملنا واحد أيضا . والطريق إلى بلوغ ما نصبو إليه جد يسير . ولقد كنا ، فى الهند وفى ايران وفى تركيا ، وفى مصر ، رسلَ الحضارات القديمة قبل الإسلام ؛ فلما انتشرت رسالة النبى عليه الصلاة والسلام ، كانت أممنا حفظة لحضارة الإسلام ، وبلغاتها دونت المدنية الإسلامية . ولا أشك فى أن إذكاء الروح الدينى فى نفوس المتعلمين ، سيوجد جيلا من المسلمين يعمل على أن تتحد الأمة ، وتكون للإسلام الكلمة العليا ، على الأقل بين أهله . وإذا كان الحلفاء فى الحرب الأخيرة قد أعلنوا أن حربهم إنما هى حرب المسيحية ضد النازية ، فلتكن وحدتنا الإسلامية أيضا قوة ضد من يعتدى علينا ، ولتؤازرنا فى النهوض بشعوبنا ، والدفاع عن مصالحها . وإن أمة تمتد من المحيط الأطلسى حتى الصين ، كفيلة لو اتحدت كلمتها ، أن ترفع صوتها فى عالم يسعى اليوم إلى التكتل سعياً ، وليس لتكتله من أساس كالدين الذى ندين به جميعا .

وخرجنا من « هذا المسجد » ونحن نتفرس فيه ، ونجيل النظر فى أبهائه ، ونرفعه إلى قبابه ومآذنه . وما خرجت منه مرة إلا وأنا أنظر إليه ثم أنظر كأنما هى المرة الأولى التى آراه فيها . فى مثل هذا المكان تكمن قوى الروح ، لا تنظر إلى ما فيه من فن رائع ، ولكن انظر إليهم كيف يفدون إليه للصلاة ، وكيف يتركونه متآخين ، وفكر لو وجهتهم إلى الخير وهم أصفياء !؟

صوت التقريب

« دار التقريب » بمثابة جهاز إرسال واستقبال بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، عنها يصدر « صوت التقريب » وإليها يرجع ، وعلى هذه الصفحات من « رسالة الاسلام » فى كل عدد تسجيل الصدى (*) .

بيان لابد منه

لما تكونت « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » فى القاهرة استبشر بها أهل العلم والدين ، واستقبلوها فرحين مسرورين ، وجعلوا يتحدثون عن أهدافها السامية ، وأغراضها الشريفة ، وما يجب على المسلمين فى كل شعب من تأييدها ، والاستماع لدعوتها ، والدخول فيما تدعو إليه من السلام بين أبناء الإسلام ، والكف عما فرّق القوى ووزع الجهود من ألوان الخصومات والمنازعات والتعصب للآراء والمذاهب .

وتوالت على « دار التقريب » رسائل التأييد من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وتحدثت عن فكرتها الجليلة كبريات الصحف والمجلات فى شتى ربوعه ، وشعر الناس أن الأمل الذى كان يجول فى خواطر المصلحين ، وأهل الغيرة على الإسلام والمسلمين منذ قرون ؛ قد بدأ يتحقق ، وأنه قد أصبح لتلك الفكرة السديدة مركز

(*) « دار التقريب » هى المركز العام للجماعة ، ومقر سكرتيريتها ومكتبتها الكبرى .

هام تلتقى عنده الجهود ، وتتجاوب الأصوات ، وتتركز الأعمال الصالحة التى ترمى إلى الأخذ بيد الأمة الإسلامية ، وإنهاضها من كبوتها ، والسير بها قدماً فى سبيل العزة والرشاد التى رسمها الله لها .

ومضت الجماعة تؤدى واجبها فى مثابرة وهدوء ، لا تجنح إلى الإعلان عن نفسها ، ولا تتعجل ثمرات الظفر فتقطفها قبل النضج ، ولا تقحم نفسها فى خلاف مع أحد ، ولا تنحاز الى جانب دون جانب ، وإنما تدعو إلى مبدئها بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتجادل عنه بالتى هى أحسن ، واثقة بأن كل لحظة تمر فهى كسب لها ، ونصر لفكرتها ، وأن وجودها نفسه هو تنبيه دائم ، وقرع مستمر لأسماع المسلمين ، يذكرهم بأنهم أمة واحدة فلا ينبغى أن يتفرقوا ، وأن أهدافهم واحدة فلا ينبغى أن يختصموا ، وأن أعداءهم متربصون بهم فلا ينبغى أن يغفلوا .

على ذلك مضت « جماعة التقريب » وفى هذا الجو من التأييد والترحيب والآمال الطيبة قامت وعملت واستقرت ، ولكن هل كل ما لقيته « جماعة التقريب » هو التأييد والترحيب ؟ وهل استراح الناس جميعا إلى صواب فكرتها وإمكان تحقيقها ؟

لقد تساءل بعض الناس : ما هى أغراض تلك الجماعة ، وما هى وسائلها ، وكيف يمكنها التوفيق بين المختلفين ، والتقريب بين المتباعدين ، وهل لديها من القوة ما يمكنها من حمل الناس على ما ترى ، وإذا عرضت بالبحث لبعض المسائل فهل من أسلوبها أن تطلب إلى المختلفين أن يتنازل كل منهم عن بعض رأيه فيتلاقى مع مخالفه فى منتصف الطريق ، أو هى ستقف من المختلفين موقفا وسطا وتدعو إليها كل طرف ، ثم ماذا هى فاعلة مع الطوائف التى تزعم أنها على الإسلام وهى تعتقد ما ينافى الإسلام ؟ وماذا هى فاعلة فى الفقه والفروع ؟ أتريد أن تحمل الناس على رأى واحد فتلغى المذاهب الإسلامية ؟ وإن كان كذلك فما هو هذا الرأى ؟ أهو رأى مذهب بعينه من المذاهب الفقهية المعروفة ، فيرجع الجميع إلى مذهب

الحنفية أو الشافعية أو الإمامية مثلا ؟ ، أم يلفق مذهب من هذه المذاهب جميعا ؟ ومن يلفقه ؟ وعلى أى أساس يكون هذا التلفيق ؟ وكيف يزعمون أن فى هذا صلاحا للمسلمين وما هو إلا مذهب جديد ينضم إلى المذاهب القديمة فيكثر عددها ، ويحدث خلافا جديدا ربما كان أعنف وأقوى ؟

تساءل بعض الناس عن هذا كله ، والتساؤل أمارة الاهتمام والعناية ، كما تساءل آخرون : هل تغلبت فى هذه الفكرة نزعة السنة على الشيعة ، أو نزعة الشيعة على السنة ؟ وأى المذهبين أقرب إلى أن يفيد منها ؟ وما هو اللون الفكرى الذى عرف به هؤلاء الداعون إليها ؟

* * *

وليس أحد من جماعة التقريب بالذى يضيق بهذه الأسئلة ذرعا ، ولا بالذى يعيا عن جوابها ، وإن هذه الأسئلة لدليل على أن المسلمين محتاجون حقا إلى من يعرّف بعضهم ببعض ، محتاجون إلى من يطهر النفوس من الشكوك التى لا مبرر لها ، ومن التخوف الذى جعلهم ينظرون فى كل عمل إصلاحى يراد به إنقاذهم والسموّ بهم نظر الحذِر المتظنن الذى لا يثق حتى بأخيه .

إن جماعة التقريب قد جعلت بينها وبين الناس قانونا وبيانا مفصلا هما عهدها ومنهاجها ، وقد عرضت فيهما إلى كل ما تساءل عنه هؤلاء المتسائلون ، فبينت أغراضها ، وحددت وسائلها ؛ وصرحت بأنها إنما تعمل على جمع كلمة المسلمين حول الأصول العامة لدينهم ، وأنها إنما تعنى بالمذاهب الإسلامية الطوائف الذين فرقت بينهم آراء لا تمس العقيدة الإسلامية التى يجب الإيمان بها ، وأنها ترحب بالخلاف الفقهى المبنى على النظر فى الأدلة ورعاية المصالح العامة للمسلمين التى اعترفت الشريعة بها ، ولا تبغى إلغاء المذاهب الفقهية ولا توحيدها ، كما لا تبغى نصرة الشيعة على غيرهم ، ولا نصرة غيرهم عليهم ، وأنها تترك لكل إنسان حقه الطبيعى فى أن يعتقد ما يراه من المعارف التى وراء العقائد الإسلامية ، على ألا يكون ذلك سببا فى ضغينة يحتفظ بها لمن يخالفه ، أو عصبية يرى بها أنه هو المحق

وحده ، وأن جميع من سواه من الناس مبطل ، فإن ذلك لا يصح إلا فى شىء واحد فقط هو إيمان المؤمن بما كلفه الله الإيمان به .

وليس من أسلوب جماعة التقريب أن تطلب إلى أحد أن يتجرد من مذهبه ، أو يندمج فى مذهب غيره ، أو أن تطلب من الناس أن يتلاقوا فى منتصف الطريق فيتنازل كلٌّ عن بعض رأيه ، أو أن يأخذوا برأيها هى فى المسائل التى تعرض للبحث ، وإنما أسلوبها الذى لا تحيد عنه هو أن تسل من الصدور أحقادها ، وتنزع من الرءوس أهواءها وتعصباتها ، وتوسع أمام الناس ما وسعه الله من الرأى والنظر فيما هو مجال للرأى والنظر ، وأن تردهم إلى الحدود التى رسمها الله للعقيدة والإيمان فلا يتعدوها ولا يختلفوا عليها ، فإذا آمن المسلم بان الله واحد أحد متصف بكل كمال منزه عن كل نقصان ، قد جرت سنته بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وأن وراء هذه الدار دارا أخرى للجزاء على الخير بالخير وعلى الشر بالشر ، وأن هناك جنة ونارا وحسابا ، إلى غير ذلك مما جاء به الصادق الأمين ، وأخبر به المعصوم ، فلا عليه بعد ذلك أن يعلم خلافات المتكلمين ، وفلسفة المتفلسفين ، وإذا علم شيئا من ذلك واستراح منه إلى ما لا ينافى عقيدةً أمر الله بها فله ما رأى ، ولغيره ما رأى .

إن قواعد الإسلام التى لا يكون المسلم مسلماً إلا بها هى موضع وفاق بين جميع المسلمين ، وإذا قلنا المسلمين فلا نقصد كل من يصف نفسه بهذه الصفة ، أو كل من ينسبهم الناس الى الإسلام بغير حق ، فإننا نعرف أن قوماً من القدماء والمحدثين قد اعتقدوا عقائد منافية للإسلام ، ومنهم من أنكر الصلوات الخمس ، أو غيَّرَ فيها وبدل ، ومنهم من ادعى أن النبوة لم تختم بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، فهؤلاء ليسوا منا ولسنا منهم فى شىء ، وإذا كان بعض الطوائف القديمة قد ترك فيما يؤثر عنه مما حوته الكتب آراء شاذة ، أو أفكاراً منافية للعقيدة الإسلامية الصحيحة ، فإن هذا شىء قد عفّى عليه الزمان ، ولم يعد أحد من الطوائف الحاضرة يؤمن به أو يعوّل عليه ، لأن التطور الفكرى قد أدرك هذه

الناحية الفكرية من المسلمين كما أدرك غيرها من النواحى ، وإذا صح أن أحدا من عامة هذه الطوائف ما زال متمسكا بحبال الماضى ، فإن هؤلاء ليسوا هم الذين يمثلون فكرة الشعب أو الطائفة ، وإنما هم أفراد مقلدون فى حاجة الى من يبصرهم بالحقيقة ، ويجلوها لهم ناصعة واضحة تدركها عقولهم ، وإذا كان على الخاصة من المسلمين أن يبثوا فكرة الدين الصحيحة ، والعقائد السليمة لمخالفيهم فى الدين والعقيدة ، وأن يكافحوا عنها وينافحوا بالبرهان والحجة والموعظة الحسنة ، فأولى بهم أن ينظروا إلى أبناء دينهم نظرة قوامها الرحمة والتسامح ، ليرشدوهم الى الطريق ويهدوهم للتى هى أقوم دون عنف ولا لجاج ، وإن أهدى السبل إلى ذلك لهى سبيل النشر والتعليم وبث الأفكار الصالحة ، ونشرها فى كل بقعة من بقاع الأرض يوجد فيها مسلم يؤمن بالله وكلماته ، ويدين بالخضوع لرسوله الكريم ، فإن المواظبة على ذلك ، والمثابرة عليه كفيلة بهداية الضالين ، وطمأنة الحائرين ، وتقويم المعوجين ، على شريطة أن يتجرد القائمون بالدعوة عن كل تعصب ، وأن يسموا بدعوتهم وفكرتهم عن أيه نزعة عصبية أو عنصرية ، وأن يؤمنوا إيماناً عميقاً بأن غايتهم التى إليها يسعون ، هى أشرف الغايات ، لأنها هى تصفية الاسلام مما علق به ، وتنقية المحيط الإسلامى من أوضار الجاهلية الأولى التى كادت تعصف فيه بكل معنى كريم .

إن العالم قد تغير ، وقد أصبحت تسيطر عليه مبادىء أخرى فى الحياة غير مبادىء الخلاف الذى لا طائل تحته فى ألوان المعارف والنظريات الكلامية ، ولا ينبغى أن يظل المسلمون وحدهم فى معزل عن الناس ، يشتغلون بالآراء التى ليست لها فوائد عملية ، وليست تثمر إلا المتاعب وكدّ الأذهان والعقول ، وتوسيع شقة الخلاف وتعميق هوّته ، وحسبهم أن يكونوا كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عقيدتهم الدينية ، وأن يتجنبوا ما كانوا يتجنبون من الخوض فى الشئون الغيبية ، والمسائل الخلافية ، حسبهم أن يؤمنوا بالله ربا ، وبالقرآن كتابا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا ، وأن يؤدوا ما فرضه الله ورسوله عليهم من عقيدة وعمل ، وأن يعملوا فى ظل هذا البرنامج الموحد ، وفى ضوء

ما أمرنا الله به من لين وتسامح وأخوة ، على استكمال أسباب عزتهم ، وعلاج مشاكلهم ، وتوطيد أخوتهم ، والوقوف صفا واحدا أمام أعدائهم والطامعين فيهم

ذلك هو منهاج التقريب وصراطه المستقيم ، ولا بد لنا من أن نثبته هنا واضحا ليراه من لم يكن رآه ، ويعلمه من لم يكن يعلمه ، أما هؤلاء الذين يتساءلون عن القائمين بهذه الدعوة وعن سر انبعاثهم لها ، فليطمئنوا ، فإنهم رجال منهم ، عزّ عليهم ما تلاقيه أمتهم من جراء التقاطع والتشاحن ، وأقلقهم مصيرها الذى يبدو أنها متجهة إليه ، وعلموا أن عليهم أمانة لأمتهم ودينهم إن لم يؤدوها سألهم الله عنها ، وحاسبهم عليها ، فقاموا يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وينادون إلى كلمة الله يجتمع حولها المتفرقون ، ويتفق عليها المختلفون ، وما هم بحاجة إلى مال ولا منصب ولا جاه ، وإنما بغيتهم الله ، وحسبهم الله !

فى العراق :

فى كتاب ورد إلينا من النجف بالعراق يقول فضيلة العالم الجليل « الحاج شيخ عبد الحسين رشتى » ما نصه :

« تسلمت من ساعى البريد العدد الأول من مجلة عنوانها من أسمى العناوين وأشرفها ، ألا وهى ــ رسالة الإسلام ــ التى تبحث عما يمكن التقريب به بين طوائف المسلمين ، والتى تمثل آراء وأفكار جماعة التقريب الموقرة ، نسأله تعالى أن يسدد خطواتها ، وينفع الأمة الإسلامية بها ، ويكلل مساعيها الشريفة بالنجاح إنه سميع الدعاء .

وتلوح « بفاكرتى » أمور أحب أن أبديها لهذه الجماعة المحترمة لكى أنوّرها بأجوبتهم ، وأزداد خبرة واطلاعا ، وهى أن هذا الهدف الشريف الذى ترمى إليه هذه الجماعة صعب جدا نيله ، ووعر إلى الغاية تحصيله ، حيث إن الاختلاف الواقع بين طوائف المسلمين هو فى الأصول أيضا لا فى الفروع فقط ، يرشدكم

إلى ذلك أن الفرقة الإمامية الاثنا عشرية قائلون بأن الله ليس بجسم ولا جسمانى ، ويبلغنا أن جما غفيرا من سائر طوائف المسلمين قائلون بالتجسيم ، ويثبتون لله لوازم الجسم ، والفرقة الامامية الاثنا عشرية قائلون بأن صفاته الكمالية عين ذاته وجودا ، وغير ذاته مفهوما ، ونسمع أن طائفة أخرى قائلون بتعدد القدماء التسعة الذات وصفاته الكمالية الثمانية ، وثامنها صفة البقاء ، والفرقة الامامية الاثنا عشرية قائلون بعدالة الواجب تعالى ، ويبلغنا أن طائفة أخرى من المسلمين قائلون بصدور الظلم منه تعالى شأنه ، فيا إخوانى : هل يمكن مع هذا التقريب ؟ وكيف يمكن ؟ »

وجوابنا على ذلك أننا نشكر فضيلة الشيخ الموقر على ما قدم إلينا من ثناء وأمل ودعاء ، ثم نقول لفضيلته :

إن هذه المسائل الثلاث التى تمثّل بها محتاجه الى بيان وتجلية ، وعند وضوحها وتبين الأمر فيها على حقيقته ، يظهر أن الخلاف فيها ليس خلافا أصليا يضر بالعقيدة الإسلامية أو يفسدها . بيان ذلك :

(١) أن المسألة الأولى وهى كون الله تعالى ليس جسما ولا جسمانيا أمر متفق عليه بين جميع الطوائف الإسلامية الحاضرة ، ولا يختلف فيه مذهب عن مذهب ، لا فرق فى ذلك بين الإمامية وغيرهم ، وكتبهم مثبتة له :

فمن ذلك ما جاء فى الجوهرة وشرحها ، وهى الكتاب الذى يدرس بالأزهر الشريف ، قال صاحب الجوهرة :

وأنه لما ينالُ العدمُ مخالف ، برهان هذا القدم

وقال شارحه الشيخ عبد السلام : « أى مخالفة ذاته وصفاته لكل ما يقوم به العدم ويجوز عليه من الحوادث ، سواء فى ذلك الحوادث السابقة كالأعدام الأزلية واللاحقة كالنعم الأخروية ، والمخالفة لما ذكر عبارة عن سلب الجرمية والعرضية ، أو الكلية والجزئية ، ولوازمهما عنه تعالى ، وإنما وجب له ما ذكر لأن الحوادث إما أجسام ، وإما جواهر ، وإما أعراض ، والأعراض إما أزمنة ،

وإما أمكنة ، وإما جهات ، وإما حدود ونهايات ، ولا شىء منها بواجب الوجود لمـا ثبت لها من الحدوث واستحالة القدم عليها » .

وقال الشيخ الأمير فى حاشيته عليه « قوله ـ ولا شىء منها بواجب الوجود ـ أشار إلى قياس من الضرب الأول من الشكل الثانى تقريره : البارى تعالى واجب ، ولا شىء من الجسم والجوهر والعرض بواجب — ينتج أن البارى تعـالى ليس جسما ولا جوهرا ولا عرضا — أفاده العلامة المَلّـوى » (١) .

وقال صاحب الجوهرة فى موضع آخر :

وكل نص أوهم التشبيها أولـه أوْ فوض ورم تنزيها

قال شارحه المذكور : (٢) « ولمـا قـدم أنه سبحانه وتعالى وجبت مخالفته للحوادث عقلا وسمعا ، وورد فى القرآن والسنة ما يشعر بإثبات الجهة والجسمية له تعالى ، وكان مذهب أهل الحق من السلف والخلف تأويل تلك الظواهر لوجوب تنزيهه تعالى عما يدل عليه ذلك الظاهر اتفاقا من أهل الحق وغيرهم ؛ أشار إلى ذلك مقدِّما طريق الخلف لأرجحيته ، فقال (وكل نص) أى لفظ ناص ورد فى كتاب أو سنة صحيحة (أوهم التشبيها) باعتبار ظاهر دلالتـه أى أوقع فى الوهم صحة القول به ، فمنه فى الجهة « يخافون ربهم من فوقهم » وفى الجسمية « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » « وجاء ربك » وحـديث الصحيحين « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا » وفى الصورة « إن الله خلق آدم على صورته » وفى الجوارح « ويبقى وجه ربك » « يد الله فوق أيديهم » ـ (أوّله) وجوبا بأن تحمله على خـلاف ظاهره والمراد أوله تفصيلا معيّنا فيه المعنى الخاص ، أُخذ من المقابل الآتى كما هـو مختار الخلف من المتأخرين ، فتؤوّل الفوقية بالتعالى فى العظمة دون المكان ، والإتيان بإتيان رسول عذابه أو رحمته وثوابه ، وكذا النزول ، وحديث إن الله خلق آدم على صورته ، ضميره يرجع إلى الأخ المصرح به فى الطريق الأخرى

(١) ص ٦٥ من حاشية الأمير على شرح عبد السلام للجوهرة المطبوع بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٤ هـ .

(٢) ص ٩٤ — ٩٥ من المرجع نفسه .

التى رواها مسلم بلفظ « إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته » والمراد بالصورة الصفة ، والوجه بالذات أو بالوجود ، واليد بالقدرة ، وأشار لتنويع الخلاف بقوله (أو فوض) عِلمَ المعنى المراد من ذلك النص تفصيلا إليه تعالى وأوله إجمالا كما هو طريق السلف (ورُمْ) أى اقصد ، واعتقد مع تفويض عِلم ذلك المعنى (تنزيها) له تعالى عما لا يليق ، فالسلف ينزهونه سبحانه عما يوهمه ذلك الظاهر من المعنى المحال ، ويفوضون علم حقيقته على التفصيل إليه تعالى ، مع اعتقاد أن هذه النصوص من عنده سبحانه ، فظهر مما قررنا اتفاق السلف والخلف على تنزيهه تعالى عن المعنى المحال الذى دل عليه ذلك الظاهر وعلى تأويله وإخراجه عن ظاهره المحال وعلى الإيمان بأنه من عند الله ، جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، لكنهم اختلفوا فى تعيين محمل له معنى صحيح وعدم تعيينه بناء على أن الوقف على قوله تعالى « والراسخون فى العلم » أو على قوله « ما يعلم تأويله إلا الله » .

ومن ذلك ما كتبه سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام فى عقيدته المشهورة(١) التى كتبها للسلطان الأشرف ، وقد جاء فيها قوله فى وصف الله عز وجل : « ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، ولا يشبه شيئا ، ولا يشبهه شيء ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات ، كان قبل أن كوّن المكان ، ودبر الزمان ، وهو الآن على ما عليه كان . . . استوى على العرش المجيد على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده ، استواء منزها عن المماسة والاستقرار ، والتمكن والحلول والانتقال ، تعالى الله الكبير المتعال ، عما يقول أهل الغى والضلال ، بل لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، مقهورون فى قبضته » .

وهذا الذى قاله عز الدين رحمه الله عن استواء الله تعالى على عرشه هو ما يقول به ابن تيمية وابن القيم ، وعلماء نجد فى عصرنا الحاضر ، وقد زخرت به كتبهم .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى . ص ٨٦ ج ٥ المطبوع بالمطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٢٤ هـ .

ومما جاء من ذلك قول ابن القيم فى الرد على الجهمية :

« هؤلاء الجهمية ومَن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله ، من صفات كماله ، ونعوت جلاله ، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصّلوه من عند أنفسهم ؛ فقالوا : هذه الصفات هى صفات الأجسام . فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسما ، هذا منشأ ضلال عقولهم ، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين ، فشبهوا الله فى ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه ، ثم عطلوه من صفات كماله ، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات ؛ فشبهوا أولا وعطلوا ثانيا ، وشبهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم ، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته ، وهذا هو الذى عليه سلف الأمة وأئمتها ، فإنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل ، فان الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات يحتذى حذوه ، فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتاً لاتشبه الذوات ، فأهل السنة يقولون ذلك ، ويثبتون ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله ، لا تشبه صفاته صفات خلقه ؛ فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يتناقضوا ، وأولئك المعطلة كفروا بما فى الكتاب والسنة من ذلك وتناقضوا ، فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل ولله الحمد والمنة ، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسمين » .

وقد نقلنا هذا النص عن ابن القيم من كتاب « فتح المجيد ص ٣٩٣ » الذى ألفه العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ شرحا لكتاب « التوحيد » للإمام محمد بن عبد الله ، وفى ذلك الكتاب يقول فضيلة الشيخ الشارح :

« ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه فى الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوالَ الصحابة والتابعين . فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي فى كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبى صلى الله

عليه وسلم أنها قالت فى قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » قالت « الاستواء مجهول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر » ، رواه ابن المنذر واللالكائى وغيرهما بأسانيد صحاح . قال : وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال : لما سئل ربيعة بن أبى عبد الرحمن : كيف الاستواء ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق . وقال ابن وهب : كنا عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى ؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرُّحَضاء وقال : الرحمن على العرش استوى ، كما وصف نفسه ولا يقال كيف و « كيف » عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة ، أخرجوه . رواه البيهقى باسناد صحيح عن ابن وهب ، ورواه عن يحي بن يحي أيضاً ، ولفظه قال الاستواء غير مجهول ؛ والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . قال الذهبى : فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله ، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا عنه الكيفية » .

ومن هذا كله يتبين أن لا خلاف على الحقيقة ، لأن الجميع متوافقون على نفى الجسمية عنه تعالى وتنزيهه عن مشابهة الحوادث ، كما أنهم متوافقون على الإيمان بما جاء فى كتابه الكريم من مثل قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » « إليه يصعد الكلم الطيب » « تعرج الملائكة والروح إليه » « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه » « يخافون ربهم من فوقهم » وعلى الإيمان أيضا بما جاء من قوله « ليس كمثله شىء » ، وكل مافى الأمر : أنهم اختلفوا فى الفهم والوسيلة إلى التنزيه ، وإذن فالقول بأن هذا خلاف فى الأصل يترتب عليه بذاته إيمان أو كفر ليس صحيحا ، والله المستعان .

ونكتفى الآن بهذا القدر من البحث على أن نرجع إليه فى العدد المقبل إن شاء الله تعالى . م

فى تركيا :

تلقى دعوة التقريب فى تركيا عناية كبرى ، وتُستقبل مجلتها ولسان حالها « رسالة الإسلام » استقبالا طيبا من أهل الرأى والفكر ، وفى مقدمة العاملين على بث الفكرة وتقديمها إلى الرأى العام التركى حضرة الأستاذ الكبير ، والكاتب الإسلامى الشهير عمر رضا دوغرول محرر جريدة الجمهورية ، وصاحب مجلة (السلامة) ، وكان آخر ما تلقيناه منه هذا الكتاب :

« أما بعد : فقد تلقيت العدد الأول من مجلة « رسالة الإسلام » بما يليق بها من الإجلال والاحترام ، ولم أتوان مطلقا فى تقديمها للرأى العام التركى على لسان مجلتى « السلامة » ، التى بشرت ببزوغ رسالتكم ونقلت عنها كلمتين من أبدع ما نشرته . وسترون كلمتنا المبشرة بصدورها فى العدد (٧٧) كما سترون ترجمة مقالة الأستاذ الفاضل تقى الدين القمى فى نفس العدد . ثم ترون فى العدد (٨٠) ترجمة بيان الأستاذ الجليل مولانا الشيخ عبد المجيد سليم حفظه الله . ونحن لا نشك أن الرأى العام التركى الإسلامى قد تلقى كل ذلك بانشراح وابتهاج يفيض بالدعاء لكم ، ولتحقيق غايتكم التى يؤيدكم فى سبيل تحقيقها بكل ما أوتى من قوة . ولو اتسع لدينا المجال ، لنقلنا عنكم جميع ما نشرتموه ، لكن كلمتى الأستاذ القمى والأستاذ العلامة الشيخ عبد المجيد سليم ، فيهما الكفاية للترحيب بعملكم الجليل ، ومجهودكم النبيل ، الذى نرجو له كل نجاح وتوفيق .

رجاؤنا من المولى عز وجل ، أن يؤيدكم بحوله وطوله وأن يرعاكم بعنايته ورعايته ، إنه سميع مجيب .

حاشية : بعد كتابة ما تقدم ، وصل إلينا العدد الثانى من المجلة الموقرة وسنعنى به عنايتنا بالعدد الأول إن شاء الله ، بارك الله فى همتكم ونفع الأمة بكم » .

ونحن نشكر الأستاذ الفاضل على جهوده الموفقة ، ونحييه ونحيي إخواننا المسلمين فى تركيا ، ونسأل الله أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه صلاح أمتنا الإسلامية العزيزة .

تحيـــة

تتوالى الأخبار السارة المبشرة باطراد الحركة الإصلاحية الإسلامية فى الشقيقة الناشئة « الباكستان » وتحفل الصحف والمجلات بثمار النشاط الدائب فى محيطها الجديد ، ومن توفيق الله وتيسيره ، أن حضرة صاحب السعادة محمد على علوبه باشا رئيس جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، يعاصر هذه النهضة الإسلامية الكبرى فى هذا الظرف التاريخى الهام ، ويشارك فى كل ألوان النشاط بما له من علم واسع ، ومواهب ممتازة ، وإخلاص جم : فهو يحاضر ، ويكتب ، ويتحدث ، ويوجه ، ومن حوله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وآمنوا بأمتهم وأمجادهم ، فهم تحت لوائه عاملون ، وفى سبيل عزة الإسلام دائبون .

ويسرنا أن نرسل إلى سعادة الرئيس وإخوانه أزكى تحياتنا ، وأعمق تقديرنا وإعجابنا ؟

وشكـر

مجلة « رسالة الإسلام » تزجى خالص شكرها إلى حضرات السادة الكرام ، أصحاب الصحف والمجلات الإسلامية فى سائر الشعوب والبلاد ، على ما استقبلوها به من الحفاوة والترحيب ، وتعتز بثقتهم ، فهم قادة الأمم وموجهو الشعوب ، وتثنى على جهودهم الموفقة فى خدمة دعوة التقريب ، باقتباس كثير من المقالات التى تنشر فيها ، وترجمتها إلى اللغات المختلفة من فارسية ، وتركية ، وأوردية وغيرها ، وإن ذلك لجدير بأن يحفزنا إلى مضاعفة الجهود ، وبذل كل ما نستطيع فى خدمة ديننا وثقافتنا الإسلامية ، وأمتنا الوفية ، وبالله التوفيق .

فهـــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة ـ تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشا مصريا

وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ١ ليرة إنجليزية

مطبعة أحمد مخيمر لبشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣



مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الأولى
العدد الرابع

ذو الحجة ١٣٦٨ هـ
أكتوبر ١٩٤٩ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

"قرآن كريم"

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

كان من أهم أسباب النزاع التى تفضى بالشعوب والدول إلى الخصومات والحروب ، تلك الرغبة الطبيعية التى تمتلىء بها جوانح الإنسان من حب الغلب والقهر والاستئثار بأكبر حظ من متع الحياة ولو على حساب غيره ، وقد سجل التاريخ كثيرا من أخبار الحروب التى كانت المطامع تشب نيرانها ، وكيف كانت دول تنشأ ، وأخرى تموت ، وملوك تعز ، وأخرى تذل ، وكيف كانت الدماء تسيل أنهارا ، والأرواح تحصد حصدا لأن زعيما مسلطا ، أو قائدا مظفرا ، يريد أن يفرض سلطانه ، أو يبنى مجده ، أو يجعل له فى التاريخ شأنا وذكرا .

وقد ظل هذا الروح الآثم يسيطر على العالم ويتحكم فى مصائر الأمم إلى عصرنا هذا مع فرق يسير بين الماضى والحاضر ، هو أن جبابرة الأولين كانوا صرحاء يصفون الواقع ، ولا ينافقون فيه ، ويعلنون ما يريدون أن يصلوا إليه من مجد الغلب والنصر والتوسع إعلانا صريحا واضحا ، أما جبابرة العصر الحديث فيتظاهرون بالدفاع عن المبادىء والمثل ، والرغبة فى رفع مستوى الإنسان ، ومنحه الحقوق الطبيعية للبشر ، وأمثال ذلك مما يتشدقون به ، ويختفون من ورائه ، ويجعلونه حَبا ينثرونه حول حبائلهم ، وطُعماً يغرون به فرائسهم ، وكان من جراء ذلك أن اتخذت كل أمة من الأمم العظمى ، بل كل دولة متحكمة فى أمة ، مبادىء زعم رجالها أنهم يؤمنون بها ، ويعملون عليها ، وجعلوا يبشرون بها فى الخافقين ،

ويدعون إليها أهل المشرقين وأهل المغربين ، ويحشدون لها العقول والعلوم والفنون والمواهب ، وسواعد الجند ، وخزائن المال ، ودهاء الساسة ، وتجارب القادة ، وقصارى ما يستطيعون دون ذلك أو فوق ذلك من جهود وقوى ، ومن ثمت غزيت الأفكار ، قبل أن تغزى الديار ، بالنازّية أحياناً ، والفاشيّة أحياناً ، والشيوعية أحيانا ، ووقف فى الجانب الآخر قوم يتنادون بما يسمونه الديمقراطية أو الاشتراكية . وقُرعت الأسماع بمبادىء ولسن ، وحريات روزفلت ، وميثاق الإطلنطى ، وخلبت الأنظار بعصبة الأمم ، ومحكمة العدل ، ومجلس الأمن ، وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا : بشراكم اليوم فقد أظلكم عصر حرية الشعوب وتقرير المصير ، والتخلص من الظلم والعوز والخوف ، وآدنت السماءُ الأرضَ بسلام وعدل دائمين تنام فى ظلالها الناغية إلى جانب الباغية فلا تخاف ظلما ولا هضما .

وبات العالم مشغولا بهذه الأفكار التى تثار ، فألفت الأحزاب ، وكوّنت الجماعات ، وصُنفت الكتب ، ونشرت الصحف ، وبثت الدعاوات ، وصُوِّر الأمر للناس فى كل أمة على أن حروب القهر والغلب والتوسع قد دالت دولتها من الأرض ، فإن تكن اليوم حربٌ فهى بين الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والحق والباطل ، والعدل والبغى ، حربُ أفكار ومبادىء ومُثُل ، وما هى إلا جولة أو جولتان حتى تضع هذه الحرب أوزارها ، ويغشى الأرضَ السلام .

ومن عجب أن الذين وقّعوا على أسماع العالم هذا النغم فاستنام إليه وسكن ، قد استطاعوا أن يخدعوا به الناس مرتين فى حربين متعاقبتين كانت نوايا السوء بعدهما تسفر واضحة ليس من دونها حجاب ، وأكبر الظن أن العالم سيخدع بذلك مرات أخر ، لأن السلام والعدل والأمن هى أقصى آمال البشر ، ومن دأب النفوس أن تصدق حديث الآمال ، وتركن فى شأنها إلى الوعود والمواعيد .

* * *

إن العالم لم يعرف « الجهاد » بمعناه الصحيح ، وباعثه الشريف : الجهادَ من

أجل الفكرة والمبدأ وسيادة الحق والفضيلة والخير والسعادة والإصلاح والمساواة؛ إلا يوم بزغت شمس الرسالة المحمدية، حين وقف رجل واحد نشأ يتيما فقيرا أميا فى بلاد جرّدها البؤس، وأنهكتها حروب الترات والنزعات، وأضلتها الأوثان والنُّصُب، ينادى فى صوت جهير لا يخافت به من شك ولا من خوف: أيها الناس. إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى» «ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية» «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم» «من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها» «إن لنسائكم عليكم حقا» «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تَوَلَّوْهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه» «ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور».

بهذه المبادىء وأمثالها جهر فى العالم رسول الإسلام فتفتحت لها قلوب، وصدت عنها قلوب، ولكن الله أذن للحق أن يعلو، وللخير أن يغلب، فسرى الإسلام وغدا حيث يسرى الليل ويغدو النهار، وجرت ريحه رخاء حيث أصاب من مشارق الأرض ومغاربها، واستوى فى عدله السيد والمولى، وفاء إلى ظله الضعيف والقوى، واجتمع فى أخوّته القاصى والدانى، فإذا العربى أخو الفارسى،

والهندى أخو الصينى ، والمغربى أخو المشرقى ، بناء متماسك يشد بعضه بعضا ، وجسد واحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

هذا لعمرى هو الرباط الذى يسعد الناس إذا ارتبطوا به ، وتلك هى المبادىء التى ينبغى أن يعتنقها العالم ، ويبشر بها دعاة الإصلاح والخير فيه .

إن العالم فى حاجة إلى دعوة صادقة مخلصة ترسم له سبل الحياة السعيدة ، وتضع له أسس الاستقرار والسكينة ، وتجمع فى تعاليمها بين المادية والروحية ، فلا تسمح لإحداهما بأن تطغى على الأخرى ، ويشعر فى ظلالها كل فرد بأنه لبنة فى بناء المجتمع ، وتأخذ الفطرة الصافية فيها حظها الطبيعى فى كل ناحية من نواحى الحياة ، فلا أثرة ولا استئثار ، ولا معاندة لما طبع الله عليه العالم من التفاوت فى المال والمواهب والاختصاص ، ولا تحكم ولا تمرد ، ولا عصبية لجنس على جنس ، ولا امتياز للون على لون ، ولا غمط لحق ، ولا انتصار لباطل ، ولا ترويج لرذيلة ، ولا تنكر لفضيلة ، ولن يجد العالم هذه الدعوة الصادقة المنقذة إلا فى « الإسلام » ولو ظل قرونا من الدهر ينظر إلى « الكتلتين » ، ويرجع البصر كرتين . فليت شعرى إلام يقبع المسلمون فى ديارهم وأوطانهم منكمشين يطرقها عليهم الطارقون ، فإما فتحوها لهم كارهين ، وإما ظلوا من ورائها خائفين يترقبون .

ألا إنهم لأرباب دعوة ، وأصحاب فكرة ، ودعوتهم هى النور المبين الذى به تمحى ظلمات الجهل والشرك والفساد ، والعلاج الحاسم لأدواء هذا العالم التى احتار فيها المتطببون ، فليخوضوا بدعوتهم كل مخاض ، وليعرضوها على العقول بيضاء نقية كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، وليلقوا بها فى وجوه أهل الباطل وما اصطنعوا من دعوات الزيف والضلال ، فإن الحق سيزهق الباطل ، وإن عصا موسى سَتَلْقَفُ ما يأفكون ؟

رئيس التحرير

محمد محمد المدنى

تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

سورة البقرة

مجمل ما سبق ـ الأحرف المقطعة فى فواتح السور وآراء العلماء فيها ـ هل فى كتاب الله ما لا يفهم ـ هل المتشابه فى القرآن من هذا الباب ـ الرأى الذى نراه فى ذلك كله .

— ٣ —

قدمنا لقراء « رسالة الإسلام » فى العدد السابق ، التعريف بسورة البقرة ، وعرضنا فيه لسبب هذه التسمية ، ومناهج الناس فى فهم القصص القرآنى ، كما عرضنا لمقاصد السورة التى احتوتها ، ومنه تبين أن هذه السورة المدنية عنيت بشئون الجوار الجديد الذى صار المسلمون إليه بالهجرة من مكة إلى المدينة ؛ فذكرت كثيرا من أحوال اليهود وشبههم ، كما ذكرت كثيرا من أحوال النصارى ومزاعمهم ، وأن هذا القسم ختم بالحديث عن حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ؛ ثم عنيت بعد ذلك بشئون المسلمين الخاصة من جهة التكاليف ، فذكرت كثيرا منها ، يرجع بعضه إلى الدماء ، وبعضه إلى العبادات من صوم وحج

وصلاة ، وبعضه إلى الأسرة من زواج وطلاق وإيلاء وعدة إلى آخر ما اشتملت عليه مما يحتاج إليه المسلمون فى تنظيم نواحى الحياة ، وأنها مع هذا وذاك عنيت فى مبدئها ووسطها وخاتمتها بتجلية العقيدة الحقة التى جاءت لتقريرها ودعوة الناس إليها رسالة الإسلام ، فجاء فى أولها : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » وجاء فى وسطها وبين مقصديها : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » وجاء فى آخرها : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

وقد كان سياق الآيات الأولى بيانَ عظم القرآن ، وأنه هداية للنفوس الخيّرة التى لم تطمس إشراقها القلبى ظلمة المادة ، ولا عصبية الجنسية ، ولا غلظة الأكباد أمام حاجة المحتاج من بنى الإنسان ، وأن هؤلاء هم الذين ينتفعون بهداية الكتاب ، لا غيرهم ممن غشيتهم ظلمة المادة فقصروا إدراكهم على ما يحسون ، وقصروا اتجاهاتهم على ما تركه الآباء والأجداد فلم يعرفوا إلا ما عرفوا ، وتحجرت قلوبهم فلم تتأثر أمام حاجة المحتاجين ، ولم تقم فيهم بحق الشكر على ما رزقهم الله ، وكان سياق الآية الوسطى قرعَ أسماع المختلفين فيما لا يعود عليهم بخير ولا يفضى بهم إلى نفع ؛ بحقيقة البر التى يجب أن يلتزموها ، ويسلكوا سبيلها ، ويطهروا أنفسهم عما سواها ، لا فرق فى ذلك بين يهودى أو نصرانى أو مسلم ، تلك الحقيقة التى لا ترتبط بشىء من المظاهر والصور والأشكال ، وإنما ترتبط بالواقع الصحيح ،

واللباب الخالص فى شأن العقيدة ، وما ينبغى أن يكون عليه الإنسان من الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ، وكان سياق الآية الأخيرة بيانَ أن هذه العقيدة التى دعا إليها الإسلام هى عقيدة المصطفين الأخيار من عباد الله الذين صفت نفوسهم ، واستضاءت بنور المعرفة قلوبهم ، وأدركوا أن دعوة الله فى كل جيل وأمة هى دعوة الله ، لا تعدد فيها ، ولا اختلاف : « إن الدين عند الله الإسلام » « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

* * *

بدئت « سورة البقرة » بحروف ثلاثة تقرأ مقطعة هكذا : ألف . لام . ميم ، وشاركها فى البدء بالحروف على هذا النحو كثير من سور القرآن ، ليس فيها من المدنى سوى السورة التى تليها ، وهى سورة « آل عمران » « ألم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » أما باقى السور فمكى .

وقد جاءت الحروف المقطعة التى بدئت بها هذه السور كلها ، على أنواع : منها ما هو ذو حرف واحد ، مثل « ص والقرآن ذى الذكر » « ق والقرآن المجيد » « ن والقلم وما يسطرون » ومنها ما هو ذو حرفين ، مثل « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » « يس والقرآن الحكيم » « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » ومنها ما هو ذو ثلاثة أو أكثر ، مثل « الم » و « المص » و « المر » و « كهيعص » و « حم عسق » . . . الخ .

افتتحت هذه السور بالحروف على هذا النحو ، ولم يكن هذا الأسلوب معروفا عند العرب من قبل ، ولم يكن لهذه الحروف معان فى اللغة العربية تدل عليها سوى مسمياتها كحروف هجائية يلتئم منها الكلام ، ولم يصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم بيان للمراد منها ، وقد كان الناس — لذلك — أمامها فريقين : فريق يرى أنها مما استأثر الله بعلمه ، فلا يصل أحد إلى معرفة المراد منها ، ويروى فى ذلك عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه « فى كل كتاب سر ، وسره فى القرآن

أوائل السور » وعن على رضى الله عنه « أن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى » ، وقد سئل الشعبي عن هذه الحروف فقال : « سر الله فلا تطلبوه » وهكذا ورد عن كثير من الصحابة والتابعين ، والفريق الآخر ينكر أن يكون فى كتاب الله ما ليس مفهوما للخلق ، ويرى أن هذا المبدأ يتنافى مع الأوصاف التى وصف الله بها القرآن من أنه « بلسان عربى مبين » ، وأنه نزل « تبيانا لكل شىء » ، وأنه « هدى للناس » ونحو ذلك من الأوصاف ، ويقولون : لو أن فيه ما لا يفهم لما صح فيه وصف من هذه الأوصاف ، إلى أدلة أخرى من هذا الوادى ، وقد نسب هذا القول إلى المتكلمين ، وأثر عنهم فى بيان المراد بهذه الأحرف أقوال كثيرة منها : أنها أسماء للسور التى بدئت بها ، ومنها أنها رموز لبعض أسماء الله تعالى أو صفاته ، فالألف مثلا إشارة إلى أنه تعالى « أحد ، أول ، آخر ، أبدى ، أزلى » واللام مثلا إشارة إلى أنه « لطيف » والميم إلى أنه « ملك ، مجيد ، منان » والعين إلى أنه « عزيز ، عدل » وروى عن ابن عباس أنه قال فى « الم » : أنا الله أعلم ، وفى « الر » : أنا الله أرى . . إلى غير ذلك مما يروون ، ومنها وهو أشهرها ومختار المحققين منهم كما يقولون ؛ أنها حروف أنزلت للتنبيه على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف التى عرفوها ، وألفوا كلامهم منها ، وهم قادرون عليها ، وعارفون بقوانين فصاحتها وبلاغتها ، فلم يكن القرآن بمادته التى يتألف منها غريبا عليهم ، وقد تحداهم الرسول بمثل هذا القرآن ، أو بعشر سور ، أو بسورة واحدة ، فعجزوا ، فلو كان من عند غير الله ومادته معروفة لهم لاستطاعوا أن ينفوا عن أنفسهم العجز والخزى ، ولما جوبهوا بالعجز الدائم المستمر فى مستقبل لا يعلم مداه إلا الله « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

وردت هذه الأقوال وغيرها عن المتكلمين الذين يرون أن القرآن لا يمكن أن يحتوى على ما لا يفهم الناس ، ونحن نرى بادىء ذى بدء أن القول بأنها رموز للأسماء أو الصفات أو لقضايا وصفية لله سبحانه ، قول لا يكاد قلب يطمئن إليه ،

إذ لا مستند له يعتمد عليه ، ولا قانون يرجع إليه ، فلكل ناظر أن يختار ما يخطر على باله من أسماء أو صفات أو قضايا ، ويجعل الحروف رمزاً له ، ونرى أيضا أن القول بأنها أسماء السور يرده اشتهار السور بأسماء أخرى غير هذه الحروف ، كسورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة الأعراف ، وسورة مريم ، وما إليها فلو كانت أسماء للسور كما يقولون لتواترت على ألسنة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى ألسنة المؤمنين جيلا بعد جيل ؛ ونرى أن القول الذى نسبوه إلى المحققين من أصحاب هذا الرأى ، وهو التنبيه على أن هذا القرآن من مادة الكلام الذى ألفوه وقد عجزوا مع ذلك عنه ؛ قول يعتمد قضيتين تصيدهما القائلون به من الواقع التاريخى لموقف العرب من القرآن ، ومن طبيعة هذه الحروف : إحداهما أن هذه من حروف التهجى المعروفة عند العرب التى يتركب منها كلامهم ، وأن القرآن مؤلف منها ، والأخرى أنهم مع ذلك قد عجزوا عن الإتيان بمثله . وما كان للعرب أن يجهلوا ، أو يغفلوا ، عن أن القرآن الذى يتلوه عليهم محمد صلى الله عليه وسلم هو من هذه الحروف ، أما عجزهم عن الإتيان بمثله فهو أمر يعرفونه من أنفسهم ، ويعرفه التاريخ عنهم ، وقد سجله القرآن عليهم بالعبارة الواضحة البينة ، فليس الأمر فى القضيتين بمحتاج الى استخدام رمز كهذا الرمز البعيد الذى لا يستند إلى نقل صحيح ، ولا فهم واضح .

هذا وقد نوقش المتكلمون فيما استدلوا به على المبدأ الذى بنوا عليه أقوالهم فى معانى أوائل السور ، وهو أنه لا يمكن أن يكون فى القرآن ما لا يفهم ، فقيل لهم : إن وصف القرآن بما وصف به من أنه هدى وتبيان ونحو ذلك لا يبطله أن تجىء فى أوائل بعض سوره مثل هذه الحروف التى لم يتعلق بها تكليف أو إرشاد وأنه ما دام واضحا فى جملته وفيما قصد به ، فلا بأس أن يرد فيه بعض ما استأثر الله بعلمه ، تنبيها على القدرة التامة فى جانب الربوبية ، والقصور فى جانب العبودية ، وتلك سنة الله فى خلقه وتكاليفه ، فكم له فى الكون من أسرار تنقضى الدنيا ولا تدرك ، وكم له فى التكاليف من أسرار لا يملك العبد أمامها إلا أن يمتثل ، وما هذه المكتشفات التى تتجدد للبشر يوماً بعد يوم ، وتنكشف للعلماء جيلا بعد

جيل ، إلا قطرة أو قطرات من بحر خلق الله الذى لا يعرف مداه سواه « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » . « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم » .

وإن فى قوله تعالى وهو بصدد الحديث عن الإسراء بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى « لنريه من آياتنا » وقوله وهو بصدد الحديث عن الإيحاء اليه « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ، لتنبيها لقلوب المؤمنين إلى أن فى مكنون هذا الكون ، وفى باطن خلق الله ما لا تدركه العقول ، ولا تصل إليه الأفهام ، « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وإذا كانت هذه لمحة ترشدنا إلى أن فى الخلق أسراراً لا تدرك للعباد ، فإن فى الصلاة من جهة أعداد ركعاتها وأوقاتها وكثير من وسائلها وكيفياتها ، وفى الزكاة والكفارات وسائر المقادير المشروعة المطلوبة؛ للمحات أخرى واضحة جلية فى أن لله أيضا فى تكاليفه ما يعجز البشر عن إدراك أسراره ، وما عليهم إلا أن يؤمنوا ويمتثلوا ، فتصدق فيهم العبودية ، ويخلص منهم الإيمان ، وما كان القرآن إلا شأنا من شئون الله جرت فيه سنته فى الخلق والتكليف ، فلم يخل من حروف استأثر بها علم الله ، وثبت بها قصور البشر دون أن يمس ذلك مقاصد القرآن ، أو ينقص من وضوح القرآن وبيان القرآن .

وعلى هذا فنحن نؤمن بأن فى القرآن سرا لا يدركه البشر هو معانى هذه الأحرف التى جاءت فى فواتح السور ، ولكن لا ينبغى أن نتوسع فنطرد هذا المبدأ فيما وضحت دلالته العربية ، وثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم بيانه ، فنزعم كما زعم أناس من قبل أن للقرآن ظاهرا يدل عليه ويفهمه العامة ، ويكلفون به ، وباطنا لا يفهمه إلا الخواص من عباد الله وهم مكلفون به ، فتلك نزعة فرقت المسلمين ، وضرب بعضهم بها رقاب بعض .

ولعلّ قائلا يقول : كيف لا يكون فى القرآن سر غير مدرك للبشر سوى معانى هذه الأحرف التى نتحدث عنها ، وقد استفاض الحديث ، وامتلأت الكتب

فى الأولين والآخرين بأن فى القرآن محكما ومتشابها ، وأن المحكم ما فهمه الناس ، وعرفوا دلالته ومعناه ، وأن المتشابه ما لم يفهمه الناس ولم يعرفوا دلالته ومعناه ، وأن العلماء كانوا أمام هذا المتشابه فريقين : فريق السلف يرى التفويض وعدم الخوض فى معناه ، وفريق الخلف يرى التأويل وصرف اللفظ عن دلالته المعروفة إلى معنى يتفق مع ما دل عليه المحكم ، ويعتبرون من ذلك أمثال قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » . « يد الله فوق أيديهم » . « بل يداه مبسوطتان » . « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » . فهل كل ذلك لا يكفى فى أن فى القرآن ما لا يعرف معناه وراء فواتح السور ؟

ونقول أولا : نعم كان كل ذلك ، وقرأناه عن السلف والخلف ، ولكن يفوت هذا القائل أن العلماء اختلفوا فيما بينهم فى معنى المتشابه الذى قوبل بالمحكم فى قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » وكان لهم فى ذلك أقوال كثيرة ينسب بعضها للمتكلمين ، وبعضها للأصوليين ، وبعضها لغير هؤلاء وهؤلاء ، وقد اشتهر من بين هذه الأقوال قولان : أحدهما ما يلمح القائل إليه ، وخلاصته أن المتشابه هو ما يوهم ظاهره معنى لا يليق بجلال الله ، ولا يتفق مع دلالة المحكم فى تنزيه الله عن صفات الحوادث ، فإما أن يؤمن به المسلم على وجه لا يتنافى مع التنزيه ، ولا يجنح الى تعيين المراد منه بالتأويل ، فيبقى له سره محفوظا فى الغيب الذى لايعلم حقيقته إلا الله ، وإما أن يصرفه عن ظاهره ، ويعين له معنى يدل عليه ويؤمن به على هذا الوجه ، وذلك كأن يقال كما قالوا : الاستواء بمعنى الاستيلاء ، واليد بمعنى القدرة ، واليمين بمعنى القوة ، وبسط اليدين بمعنى كثرة المنح والعطاء ، إلى غير ذلك ، وعلى هذا الوجه لا يكون من المتشابه بمعنى ما استأثر الله بعلمه ، وإنما هو من المتشابه الذى يحتاج فى معرفة معناه الى الرجوع للمحكم فيعلمه أرباب القدرة على هذا وهم الراسخون فى العلم ، والأمر على هذا الرأى الأخير واضح فى أن القرآن ليس فيه متشابه بمعنى ما استأثر الله بعلمه .

وبينما يرى بعض العلماء هـذا الرأى فى معنى المتشابه ؛ يرى غيرهم أن المتشابه المقابل للمحكم هو ما تعددت جهات دلالته ، وكان موضعا لخلاف العلماء ، ومحلا لاجتهـادهم ، وذلك يرجع إما إلى الاختلاف فى معنى مفرد ورد فى الآية كالقرء فى الحيض أو الطهر ، أو فى معنى تركيب كما نرى فى قـوله تعالى : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » ، وإما إلى تحكيم حديث صح عند الفقيه فى معنى الآية بينما أن غـــيره لم يُحَكِّمه فى معناها لسبب من الأسباب التى يراها ، وأمثلة ذلك كثيرة مبسوطة فى كتب الخـلاف يعرفها أهـل العلم بالفقه ، وهى المقصودة « بالأمور المشتبهات » فى قوله صلى الله عليه وسلم « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس » ، وعلى هذا يـكون المتشابه بعيدا عن دائرة ما استأثر الله بعلمـه وليس ممـا نتكلم فيه .

وكما وجـــدنا المتشابه بهـذا المعنى فى القضايا الفقهية ؛ نجـــده أيضا فى قضايا أخـرى لا تتعلق بصفات الله وتنزيهه ، ولا بعقيـدة ما ، وذلك كما فى المسائل العلميـة التى عرض لها المتكلمون ، واختلفت فيها فرقهم ، مثـل خلق الأفعال ، ورؤية البارى ، وحقيقة الميزان والصراط ، وزيادة الصفات على الذت وما الى ذلك من المسائل التى أثر فيها الخـلاف بين فريقى المعتزلة وأهل السـنة ، وكان لـكل فريق ـ من القرآن ـ على ما رأى حجته ومستنده ، ولا ريب أن خلاف المتكلمين فى مثل هذه القضايا هو كخلاف الفقهاء فى مذاهبهم وآرائهم ، ففى النوعين لم يُرد الله أن يكلف عباده بقضية معينـة ، بل فتح باب الاجتهاد للعقل البشرى ليسلـكه الإنسان ، ويحقق به نعمة الله عليه فى الإدراك والفهم ، والـكل فى ذلك مؤمن ناج مرضى عند الله أخطأ أم أصاب ، وهذا جانب تـكفينا منه فى هـذا المقام تلك الإشارة ، وأرجو أن يـكون فيها بلاغ لقوم اتخذوا اختلاف العلماء فى المسائل الـكلاميـة التى هى وراء العقائد سبيلا للطعن والتجريح فى الإيمـان

والعقيدة ، وما كان الله ليرضى عن الطعن والتجريح لرأى رآه الناظر فى موضوع وضعه الله موضع النظر والاجتهاد .

وبعد فلنا أن نختار فى معنى المتشابه ذلك الرأى الذى يرجع الى اختلاف الدلالة واحتمال المعانى المختلفة فى آيات الأحكام ، أو آيات المعارف على النحو الذى أشرنا إليه ، ولنا أن نختار رأى الخلف من المتكلمين الذين يصرفون اللفظ عن ظاهره إلى معنى يليق بجلال الله وتنزيهه ، وعلى هذا وذاك يبقى لنا ما قلناه من أنه ليس فى القرآن ما استأثر الله بعلمه سوى فواتح السور .

على أن بين المتشابه فى رأى المفوضين ، وبين فواتح السور فرقا كبيرا ، ذلك أن المتشابه ورد فى قضايا ذات محمول وموضوع وإثبات ونفى ، ومفردات تلك القضايا لها دلالات حقيقية معروفة لأرباب اللغة ، وقد تستعمل فى معان مجازية تصرف إليها بالقرائن ، ولا كذلك فواتح السور التى هى أحرف مقطعة ، ليست قضايا ذات موضوع ومحمول ، وليست مفردات ذات معان مفيدة على نحو « استوى » فى قوله : « الرحمن على العرش استوى » مثلا ، وقد جاءت هذه القضايا أوصافا لله ، واعتقد الجميع ثبوت محمولها لموضوعها ، على وجه يقضى به الإيمان ، ولا كذلك أيضا فواتح السور التى نتحدث عنها .

ولعل القارىء بعد هذا كله يستطيع أن يتلمس ما يزيل الشبهة التى أشرنا إليها فى صدر هذا الاستطراد .

ونعود بعد هذا إلى موضوعنا فنقول :

وكما أن هذه الحروف من حيث معانيها المرادة لله سر استأثر الله بعلمه ، فان فى الإتيان بها على هذا الترتيب الذى جاءت به ، وتنوعت به فواتح السور ، وفى اختيار بعض الحروف دون بعض ، وهو صنع الحكيم الخبير الذى لا يضع أمرا على محض المصادفة ، لسرا آخر تقصر دون إدراكه العقول .

ولعل من الخير للناس بعد الذى قررناه فى هذا المقام أن يوفروا على أنفسهم

عناء البحث فى معانى هذه الحروف ، وأسرار ترتيبها واختيارها على هذا النحو ، وأن يكفوا عن الخوض فيما لا سبيل إلى علمه ، ولم يكافهم الله به ، ولم يربط به شيئا من أحكامه أو تكاليفه ، وحسبهم أن يعرفوا أن الإتيان بهذه الفواتح على هذا الأسلوب الذى لم يكن مألوفا فى الكلام ، ولا معروفا عند العرب ، كان قرعا لأسماع أولئك الجاحدين الذين تواصوا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن ، وأن يلغوا فيه لعلهم يغلبون ؛ كان هزا لقلوبهم ، ودفعا بهم إلى إلقاء السمع ، وتدبر ما يلقى ، وقد جاء بعد هذه الحروف فى الأعم الأغلب نبأ ذلك الشأن العظيم ، وهو كتاب الله الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وختم به رسالته إلى خلقه ، وبيّن فيه شريعته وسننه فى كونه ، وكان لنبيه معجزة خالدة ، تنطق بأنه رسول الله رب العالمين ، اقرأ إن شئت « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه » « الم الله لاإله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق » « المص كتاب أنزل إليك » « الر تلك آيات الكتاب الحكيم » « الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » « الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » « المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق » « الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » « الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » « طسم تلك آيات الكتاب المبين » . « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين » . « طسم تلك آيات آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » « الم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين » « الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين » « يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » « ص والقرآن ذى الذكر » « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » « حم تنزيل من الرحمن الرحيم » « حم عسق كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » « حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » « حم والكتاب المبين إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين » « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » « ق والقرآن المجيد ».

اقرأ ذلك إن شئت تجد هذه السور كلها تتحدث عن القرآن أو تنزيل القرآن أو إنزاله ، وهو الكتاب الذى كان موضع الأخذ والرد فيما بينهم وبين الرسول ، وهو الكتاب الذى جاء ليصرفهم عما هم فيه من ضلال وبغى ، وهو الكتاب الذى وقفوا منه موقف المكابرة والعناد ، وهو الكتاب الذى رموه بأنه أساطير الأولين ، وبأنه حديث مفترى ، وبأنهم لو شاءوا لقالوا مثله إلى غير ذلك مما كانوا يحاولون به صرف الناس عن القرآن والصد عنه ، فبدئت هذه السور بهذا الأسلوب تأثيرا فى قلوبهم ، ولفتا لأنظارهم ، ولا يخفى أن المفاجأة بالغريب الذى لم يؤلف ، لها فى إرهاف الأسماع ، وتنبيه الأذهان ما لا يحتاج إلى بيان ، وفى هذا ما يكشف عن السر فى أن جميع هذه السور ـ ما عدا سورتين اثنتين ـ كان مما نزل بمكة حيث المعارضة فى أوج شدتها وعنفها ، حتى السورتان المدنيتان كانتا فى إبان اشتداد المجادلة والمناقشة بين المسلمين وغيرهم من اليهود والنصارى ، ومن شاء فليقرأ النصف الأول فى كل من السورتين ليرى كيف انصرفت كل منهما فيه إلى الحِجاج عن الحق ، والمجادلة عن دعوة القرآن على نحو شبيه بما كان من شأن القرآن مع المشركين .

ولا ينبغى أن يقال إن كثيرا من السور بدىء بالتحدث عن إنزال القرآن الكريم ، ومع ذلك لم تبدأ بهذه الفواتح ، وذلك كسورة الكهف « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » وسورة الفرقان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » وسورة الزمر : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » وسورة القدر : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ؛ فإنما جاء ذلك على سياق آخر قضى بذكر الحمد على إنزال الكتاب ، أو التمجيد لمنزل الكتاب أو التنويه بشأن الكتاب نفسه ، ولم تسق هذه السور مساق التنبيه وقرع الأسماع على النحو الذى جاءت به السور التى ذكرنا ، ولكل مقام مقال .

بقى أن يقال إن أربعا من السور التى بدئت بهـــذه الحروف لم يجىء بعد الحروف فيها ذكر القرآن وتنزيله كما جاء فى غيرها ، وهى : سورة مريم « كهيعص

ذكر رحمة ربك عبده زكريا »، وسورة العنكبوت : « الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون »، وسورة الروم : « الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيَغلبون »، وسورة القلم : « ن والقلم وما يسطرون ».

فنقول : نعم لم يأت بعد الحروف فى أوائل هـذه السور الأربع ذكر القرآن ولا تنزيله ، ولكن جاء بعدها ما يشارك القرآن فى أنه كان على غير السنن المألوفة للناس ، فقصة زكريا ونداؤه لربه أن يهب له على الكبر وليا ، واستجابة الله لهذا النداء وتبشيره إياه بيحيى ، أمر جدير بأن تقرع له الأسماع ، وتنبه له القلوب ، وكذلك شأن سورة الروم التى أخبرت بغيب يحدث فى المستقبل لا يشهد له الواقع الحاضر ، فكان مما يحسن فى هذا المقام أن يوجه الناس إلى نبأ هذا الغيب بمثل هذا الأسلوب ، وسورة العنكبوت جاءت فاتحتها لتخلع الناس من شأن جرت عادتهم بالاستنامة إليه ، والانصراف به عن الحق ، ذلك هو الاكتفاء بظاهر الإيمان دون تحمل أعباء الجهاد فى سبيله ، والقيام بالتكاليف الإلهية التى يقتضيها ، ولا ريب أن هذا أمر ألفت النفوس أن تركن إليه ، وأنه يؤدى بالناس إلى فساد فى حياتهم ودينهم ويجعل الرسالات الالهية قليلة الجدوى فى الإصلاح والإسعاد ، فكان من الحكمة أن يلفت الناس لفتا قويا يغرس فى قلوبهم أن سنة الله جرت بالاختبار والابتلاء تمحيصا للقلوب ، وتمييزا للخبيث من الطيب « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب »، « ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ». أما سورة القلم فمهمتها لفت الأنظار إلى ما يوحى به القلم من العلم والحكمة اللذين هما أساس هذا الدين وهدف ذلك الكتاب العظيم .

أما بعد فهذا هو الأثر الذى يقترن بسماع هـذه الحروف فى فواتح السور ، أما معناها فلا أستطيع أن أقول فيه سوى هذه الكلمة المأثورة التى تعبر عن إيمان سلف صالح يؤمن حق الإيمان بعظمة الله وكتاب الله : الله أعلم بمراده ؟

الاجتهاد في الشريعة

أثر مقال « الاجتهاد فى الشريعة » — فضل يذكر — بحث فى الموضوع للامام المراغى : شروط المجتهد المطلق متحققة الآن — الاجتهاد الخاص وآراء العلماء فيه — التقليد — إجماع المحققين وتمسك ابن الصلاح به — ليس فى الأدلة الشرعية شىء يسمى « إجماع المحققين » — عدم العلم بالمخالف لايسمى إجماعا — جواز تقليد غير الأئمة الأربعة متى صح النقل عنهم .

قرأ أهل العلم والفقه ذلك البحث القيم الذى جاد به قلم العلامة الأكبر والشيخ الموقر محمد الحسين آل كاشف الغطاء عن « الاجتهاد فى الشريعة » بين السنة والشيعة ، فرأوا كيف جلّى فضيلته العلم ، وأنصف الحق ، وكرم وجه الوفاء ، وعرف الفضل لأصحاب الفضل .

ولما كان هذا الموضوع الذى عرض له فضيلة الشيخ — حفظه الله — من أهم الموضوعات الحية التى تتصل بالفقه الإسلامى اتصالا عمليا كما قال ؛ وكان قد أشار فى ثناياه الى أن الحذاق من علماء أهل السنة لايرون فيه غير مايرى إخوانهم من الشيعة ؛ فقد أشار علينا بعض حضرات أصحاب الفضيلة كبار العلماء فى الأزهر ، بأن نسجل على صفحات مجلة ﴿ رسالة الإسلام ﴾ هذا البحث الجيد لإمام من أئمة أهل السنة فى العصر الحديث هو المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، وهو بحث كتبه بروح العالم

المتمكن الغيور على الشريعة ، الحريص على أن تتبوأ مكانتها اللائقة بها فى إصلاح المجتمع ، وإسعاد البشر ، وعلى أن يكون أهلها بحق مصابيح الظلام ، وهداة الأنام .

والأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ـ رحمه الله ـ أشهر وأجل ذكرا من أن نقدمه لقرائنا فى شتى أنحاء العالم ، ولكننا نذكر من آثاره الطيبة أنه أول من تنبه الى وجوب دراسة « الفقه المقارن » فى الأزهر ، ولم يزل يدعو الى ذلك ، ويعمل عليه ، منذ رياسته للمحكمة الشرعية العليا ، على صدود من العلماء ، ونفور من كثير ممن بيدهم مقاليد الأزهر حتى يسر الله فأصبح هذا الفقه مادة مقررة فى منهاج أعلى فرقة فى كليه الشريعة ، وكان عميدها يومئذ هو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر الحالى ــ أطال الله بقاءه ــ وهو الآن يُدرس دراسة حرة خالية من التعصب المذهبى ، وليست المقارنة فيه مقصورة على آراء أصحاب المذاهب الأربعة أو متبعيهم ، وإنما هى اوسع من ذلك دائرة ، وأكبر نطاقا .

وهذا البحث الذى نقدمه اليوم لقرائنا هو أثر من آثار الإمام الراحل ، كتبه إبان مساجلته لفريق من العلماء بشأن مشروع قانون الزواج والطلاق الذى كان من بين مواده أحكام عن الطلاق المعلق ، والطلاق الثلاث ، لم يؤخذ فيها برأى الأربعة ، وإنما أخذ فيها برأى يتفق وما يراه الشيعة الإمامية .

وإلى القراء الكرام نسوق هذا البحث :

* * *

المجتهد المطلق :

بعد أن قدم فضيلة الأستاذ الأكبر كلمة عن سبب تعرضه لهذا البحث ، قال : ينبغى الاشارة إلى أن المجتهد قد يكون أهلا لاستنباط الأحكام الشرعية جميعها لتوافر الشروط فيه ، ويسمى « المجتهد المطلق » ، وقد يكون أهلا لاستنباط

أحكام وقائع خاصة لإحاطته بما يلزم لتلك الوقائع ، ويسمى « المجتهد الخاص » أو « المجتهد الجزئى » ، والمجتهد والفقيه والمفتى ألفاظ مترادفة فى إصطلاح علماء الأصول .

ثم نقل فضيلته نصا طويلا عن الامام الغزالى فى كتابه « المستصفى » وعلق عليه بقوله :

هذه هى شروط المجتهد المطلق الذى كلفه الشارع البحث عن الأحكام جميعها من أدلتها التفصيلية ، وحرم عليه التقليد وتوسيط أحد من خلق الله بينه وبين الأدلة ، وتلخص فيما يأتى :

(١) يشترط فى المجتهد أن يكون عالما بموضع الآية التى يريد الاستدلال بها وتطبيقها عند الحاجة ، ولا يشترط فيه حفظ الكتاب كله ولا حفظ آيات الأحـــكام .

(٢) يشترط أن يكون عارفا بموقع كل باب من أبواب الحديث بحيث يستطيع المراجعة وقت الفتوى ، ولا يشترط أن يكون حافظا للأحاديث كلها ، ولا أن يكون حافظا لأحاديث الأحكام ، ويكفى أن يكون عنده أصل كسنن أبى داود ومعرفة السنن لأحمد البيهقى .

(٣) يلزم أن يعرف أن الآية التى يستدل بها ليست منسوخة والحديث الذى يستدل به ليس منسوخا .

(٤) يلزم أن يعرف أن المسألة التى يبحث فيها ليست مجمعا فيها على رأى يخالف رأيه ، ولا يلزمه حفظ مواقع الاجماع والخلاف .

(٥) يلزم أن يكون عارفا باللغة والنحو على الوجه الذى يتيسر به فهم خطاب العرب ، وأن يكون عارفا الأدلة وشروطها .

(٦) الأحاديث التى اشتهر رواتها بالعدالة وقبلتها الأمة لا يلزمه أن يبحث

عن أسانيدها ، أما الأحاديث التى ليست كذلك فيكفيه فيها تعديل الأئمة العدول لرواتها بعد أن يعرف مذاهبهم فى الجرح والتعديل ، وأنها مذاهب صحيحة .

ومعظم هذه الشروط يشتمل عليه ثلاثة فنون : الحديث ، واللغة ، وأصول الفقه ، ولقد جمع العلماء آيات الأحكام فى غير ما كتاب ، وجمعوا أحاديث الأحكام فى غير ما كتاب ، وجمعوا الناسخ والمنسوخ فى غير ما كتاب ، وجمعوا مواقع الإجماع فى غير ما كتاب ، وأصبحت الأحكام مدونة فى كتب الفقه وفى شروح الحديث وكتب التفسير .

وقد انتهى زمن الرواية للحديث وأصبحت الأمة تعتمد على الكتب المدونة كما تعتمد على آراء أئمة الجرح والتعديل فى الرواة ، ومع هذا فكتب الرجال موفورة تضم سيرهم وأحوالهم ولا يعسر على طلاب العلم البحث عن رواة أى حديث من الأحاديث .

واللغة العربية وفنونها من نحو وصرف وأدب وبلاغة تدرس فى معاهد مصر الدينية وغيرها دراسة دقيقة تكفى لفهم خطاب العرب ، كما يدرس أصول الفقه على أدق الوجوه وأكملها ، وتدرس الأدلة وشروطها ، وغير ذلك مما نص عليه الغزالى وما لم ينص عليه .

وليس مما يلائم سمعة المعاهد الدينية فى مصر أن يقال عنها إن ما يدرس فيها من علوم اللغة والمنطق والكلام والأصول لا يكفى لفهم خطاب العرب ولا لمعرفة الأدلة وشروطها ، وإذا صح هذا ، فيالضيعة الأعمار والأموال التى تنفق فى سبيلها .

ليس الاجتهاد ممكنا عقلا فقط ، بل هو ممكن عادة ، وطرقه أيسر مما كانت فى الأزمنة الماضية أيام كان يرحل المحدث إلى قطر آخر لرواية حديث ، وأيام كان يرحل الرواة لرواية بيت من الشعر ، أو كلمة من كلم اللغة ، وقد توافرت مواد البحث فى كل فرع من فروع العلوم : فى التفسير ، والحديث ، والفقه ،

واللغة ، والنحو ، والمنطق ، وجُمع الحديث كله ، وميز صحيحه من فاسده ، وفرغ الناس من تدوين سير الرواة ، وأصبحت كتب هــذه الفنون تضمها مكتبات للأفراد والحكومات فى كل قطر من الأقطار الأسلامية ، وهذا لم يكن ميسورا لأحد فى العصور الأولى ، ومذاهب الفقهاء جميعهم مدونة ، وأدلتها معروفة .

والواقع أنه فى أكثر المسائل التى عرضت للبحث ، وأفتى الفقهاء فيها ، لم يبق للمجتهد إلا اختيار رأى من آرائهم فيها ، أما الحوادث التى تجدّ فهى التى تحتاج إلى آراء محدثة ، وأن حفظ آيات الأحكام جميعها وأحاديث الأحكام جميعها وفهمها فهما صحيحا ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، وحفظ مواقع الإجماع ، لا يحتاج إلى المجهود الذى يبذل لفهم مرامى كتاب من كتب الأزهر المعقدة .

إن الزمن لم يغير خلقة الإنسان ، والعقول لم تضمر ، والطبيعة باقية فى الإنسان كما كانت فى العصور الماضية ، وها هم أولاء علماء الأمم يحدوهم الأمل إلى بلوغ أقصى ما يتصوره العقل البشرى ويصلون إليه بجدهم واجتهادهم ، وقد كان أسلافهم فى عماية وجهل ، وكان أسلافنا فى نور العلم وضياء المدنية ، لم يقل أحد منهم بقصور العزائم ، ولا بتراخى الهمم عن البحث والتنقيب ، بل كلما مر عليهم الزمن جدوا فى البحث والتنقيب ، وكثرت وسائط البحث والتنقيب .

وإنى مع احترامى لرأى القائلين باستحالة الاجتهاد ، أخالفهم فى رأيهم ، وأقول إن فى علماء المعاهد الدينية فى مصر من توافرت فيهم شروط الاجتهاد ويحرم عليهم التقليد .

الاجتهاد الخاص :

ندع الاجتهاد المطلق وما يقال فيه من غير تبصر ، ونتحدث عما يسمى الاجتهاد الخاص ، أو الاجتهاد الجزئى وهو الاجتهاد فى واقعة خاصة للوصول إلى معرفة حكمها الشرعى بالدليل ، والقادر على هذا النوع يحرم عليه التقليد فى المسألة التى يقدر على الاجتهاد فيها .

وقد اختلف العلماء فى تجزؤ الاجتهاد وعدمه ، والأكثرون منهم على تجزئه ، ومنهم حجة الاسلام الغزالى والشيخ ابن الهمام ، وقد استدلوا لذلك بأن التقليد فى حال القدرة على الدليل فيه ترك للعلم واتباع للريب وهذا منهى عنه بقوله عليه الصلاة والسلام : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » وقوله : « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » قال فى مسلم الثبوت : ومن له حسن أدب بأحكام الله تعالى لا يتعدى هذا الأصل .

وفى المستصفى للغزالى : اجتماع هذه العلوم الثمانية إنما يشترط فى حق المجتهد المطلق الذى يفتى فى جميع الشرع ، وليس الاجتهاد عندى منصبا لا يتجزأ بل يجوز أن يقال للعالم إنه مجتهد فى بعض الأحكام دون بعض ، فمن عرف النظر القياسى فله أن يفتى فى مسألة قياسية وإن لم يكن ماهرا فى علم الحديث ، ومن عرف أحاديث قتل المسلم بالذمى ، وطريق التصرف فيها فلا يضره قصوره عن علم النحو الذى يعرف به قوله تعالى : (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) وقس عليه ما فى معناه .

وفى كتاب الإحكام للآمدى بعد أن نص على شروط المجتهد قال : وذلك كله إنما يشترط فى المجتهد المطلق المتصدى للحكم والفتوى فى جميع المسائل ، وأما الاجتهاد فى بعض المسائل فيكفى فيه أن يكون عارفا بما يتعلق بتلك المسألة وما لا بد منه فيها ، ولا يضره فى ذلك جهله بما لا تعلق له بها مما يتعلق بباقى المسائل الفقهية .

المكلف إذا حصلت له أهلية الاجتهاد بتمامها فى مسألة من المسائل ، فإن اجتهد فيها وأداه اجتهاده إلى حكم فيها فقد اتفق الكل على أنه لا يجوز له تقليد غيره من المجتهدين فى خلاف ما أوجبه ظنه ، وإن لم يكن قد اجتهد فقد اختلفوا فيه ، والمعتمد أن يقال إن القول بجواز التقليد حكم شرعى لا بد له من دليل والأصل عدم ذلك الدليل ، فمن ادعاه فعليه البيان .

هذه آراء علماء الأصول فى الاجتهاد الجزئى ، وهى صريحة فى حرمة التقليد

على من يقدر على الاجتهاد فى وقائع خاصة ، سواء أكان المقلد صحابيا أم تابعيا أم إماما من الأئمة الأربعة أو غيرهم .

وشروط الاجتهاد الجزئى كما يرى سهلة المنال ، فليس على مريد الاجتهاد فى مسألة من مسائل البيع أو الطلاق إلا أن يعرف آيات البيع أو آيات الطلاق ، وأحاديث البيع أو أحاديث الطلاق ، ويعرف ما نسخ منها وما بقى ، ويعرف مواقع الاجماع ليتجنب المخالفة بعد أن يكون على بصيرة فى فهم اللغة ، ونصب الأدلة ، وليس عليه أن يحيط بجميع الأدلة وجميع علوم اللغة وفنون المنطق والكلام وآراء الفقهاء . فهل يجوز لمسلم بعد هذا أن يقول إن على المسلمين فى جميع بقاع الأرض تقليد واحد من الأئمة الأربعة دون سواهم وإلا كانوا آثمين جاهلين خارقين للاجماع ؟ !

وسأعرض لهذا الشىء المبتدع الذى سموه إجماع المحققين لأبين منزلته ومكانه بين الأدلة الشرعية ، ولأكشف عن بصائر الناس هذا الغطاء الذى حجب عنهم نور الحق .

التقليد :

العامى ومن ليس له أهلية الاجتهاد ، وإن كان محصلا لبعض العلوم المعتبرة فى الاجتهاد يجب عليه اتباع قول المجتهد والأخذ بفتواه ، واتفقوا على جواز استفتائه لكل من عرف بالعلم وأهلية الاجتهاد والعدالة .

قال الآمدى : وإذا حدثت للعامى حادثة ، وأراد الاستفتاء عن حكمها فإن كان فى البلد مفت واحد وجب عليه الرجوع إليه والأخذ بقوله ، وإن تعدد المفتون ، فمن الأصوليين من ذهب إلى أنه يجب عليه البحث عن أعيان المفتين واتباع الأورع والأعلم والأدين ، ومنهم من ذهب إلى أنه مخير بينهم يأخذ برأى من شاء منهم سواء أتساووا أم تفاضلوا وهو المختار .

وإذا اتبع العامى بعض المجتهدين فى حكم حادثة وعمل بقوله فيها فليس له الرجوع عن ذلك القول فى هذه المسألة ، وهل له اتباع غيره فى غير ذلك الحكم ؟ اختلفوا

فيه ، فمنهم من منعه ، ومنهم من أجازه ، وهو الحق نظرا إلى ما وقع عليه إجماع الصحابة من تسويغ استفتاء العامى لكل عالم فى مسألة ، ولم ينقل عن أحد من السلف الحجر فى ذلك ، ولو كان ممتنعا لما جاز من الصحابة إهماله .

وإذا عين العامى مذهباً معيناً كمذهب الشافعى أو أبى حنيفة أو غيره ، وقال أنا على مذهبه وملتزم له ، فهل له الرجوع إلى قول غيره فى مسألة من المسائل ؟ اختلفوا فيه فجوّزه قوم ومنعه آخرون ، والمختار التفصيل ، وهو أن كل مسألة من مذهب الأول اتصل بها عمله فليس له تقليد الغير فيها ، وما لم يتصل عمله بها فلا مانع من اتباع غيره فيها .

وفى التحرير وشرحه : لا يرجع المقلد فيما قلد فيه ، أى عمل به ، اتفاقا . ذكره الآمدى ، قال الزركشى : وليس الأمر كما قال ، ففى كلام غيره ما يقتضى وجود الخلاف بعد الفعل ، وكيف يمتنع ذلك عليه إذا اعتقد صحته ، وعلى هذا فإذا تعارض قولا مجتهدين يجب التحرى فيهما ، والعمل بما يقع فى قلبه أنه الصواب وليس له الرجوع عما عمل به إلا إذا ظهر له خطؤه .

ولو التزم مذهبا معيناً فقيل يلزم وقيل لا ، وهو الأصح ، لأن التزامه غير ملزم ، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأئمة فيقلده فى دينه فى كل ما يأتى ويذر دون غيره ، وقد انطوت القرون الفاضلة على عدم القول بذلك ، وصرح العلائى بأن المشهور فى كتب المذهب جواز الانتقال فى آحاد المسائل والعمل فيها بخلاف مذهب إمامه الذى يقلده إذا لم يكن ذلك على وجه التتبع للرخص .

وفى التحرير وشرحه نقل الإمام فى البرهان إجماع المحققين على منع تقليد العوام أعيان الصحابة ، وأن عليهم أن يقلدوا الأئمة الذين جاءوا بعد الصحابة ، لأنهم دونوا وهذبوا وفصلوا وبوبوا وأوضحوا طرق النظر ، وعلى هذا بنى ابن الصلاح وجوب تقليد الأئمة الأربعة لانضباط مذاهبهم وتحرير شروطها ، وغير ذلك مما لم يعلم مثله فى غيرهم ، وحاصل هذا أنه امتنع تقليد غيرهم لتعذر

نقل حقيقة مذهبهم ، وعدم ثبوته حق الثبوت ، لا لأنه لا يقلد ، ولذلك قال ابن عبد السلام إنْ تحقق ثبوت مذهب عن واحد منهم جاز تقليده وفاقا وإلا فلا ، وإذا صح عن بعض الصحابة حكم لم يجز مخالفته إلا بدليل أوضح من دليله ، ومعلوم أنه لا يشترط أن يكون للمجتهد مذهب مدون ، وأنه لا يلزم أحدا أن يتمذهب بمذهب أحد الأئمة بحيث يأخذ أقواله كلها ويدع أقوال غيره . انتهى بتصرف .

وفى مسلم الثبوت وشرحه بعد أن نقل ما فى التحرير وشرحه من إجماع المحققين ورأى ابن الصلاح :

قال القرافى : انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر ، وأجمع الصحابة رضى الله عنهم على أن من استفتى أبا بكر وعمر أميرى المؤمنين فله أن يستفتى أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما ، فمن ادعى رفع هذين الإجماعين فعليه البيان ، وقد بطل بهذين الإجماعين قول الإمام (يريد بذلك قوله إن المحققين أجمعوا على منع تقليد أعيان الصحابة) .

وقوله أجمع المحققون ليس معناه الاجماع الذى هو حجة حتى يقال أن إجماعهم عارض الإجماعين السابقين . وفى كلام الإمام خلل آخر : لأن التبويب والتهذيب والتفصيل ، لا دخل له فى التقليد ، فإن المقلد إن فهم مراد الصحابى عمل به وإلا سأل مجتهداً آخر ، وبهذا بطل قول ابن الصلاح أيضاً . وفى كلامه خلل آخر : إذ المجتهدون الآخرون أيضاً بذلوا جهدهم مثل بذل الأئمة الأربعة ، وإنكار هذا مكابرة وسوء أدب ، والحق أنه إنما منع من تقليد غيرهم لأنه لم تبق رواية مذهبهم محفوظة حتى لو وجدت رواية صحيحه من مجتهد آخر يجوز العمل بها ، ألا ترى أن المتأخرين أفتوا بالتحليف للشهود إقامة له مقام التزكية على مذهب ابن أبى ليلى ؟ .

أطلنا فى بيان النصوص فى هذه المسألة لنجلى الحق فيها ، ولنبرهن على صحة ما قلناه فى مذكرة المشروع من خطأ القول بعدم جواز تقليد غير الأئمة الأربعة ،

ومن أن هذا رأى حادث فى الأمة الإسلامية لم يقله أحد قبل ابن الصلاح ، وهو رأى خاطىء مبنى على خطأ .

كان المسلمون مجمعين على جواز تقليد أى عالم من علماء المسلمين ، فجاء الإمام ونقل إجماع المحققين على منع تقليد أعيان الصحابة ، لأنه ليس فى وسع العامى أن يعرف غرضهم ، وأن يفهم مقصودهم ، ثم رتب ابن الصلاح على هذا وجوب تقليد الأئمة الأربعة دون سواهم ، وبذلك نسخ حكم الإباحة الذى كان مستفادا من إجماع المسلمين برأى ابن الصلاح المبنى على إجماع المحققين .

ابن الصلاح هذا فقيه مقلد فكيف يؤخذ برأى فقيه مقلد ليس واحدا من الأئمة الأربعة ، وكيف ينسخ الاجماع برأى واحد لا يصح تقليده ولا الأخذ بقوله .

ليس لاجماع المحققين قيمة بين الأدلة الشرعية ، فهى محصورة : كتاب الله وسنة رسوله ، وإجماع المجتهدين ، والقياس على المنصوص ، ولم يعدّ أحد من الأدلة الشرعية إجماع المحققين ، فكيف برز هذا الاجماع ، وأخذ مكانته بين الأدلة ، وأصبح يقوى على نسخ إجماع المسلمين ؟

لم نعرف أحدا من العلماء ، تكلم عن إجماع المحققين ، وشروطه ، وطريقة نقله ، وهل هو ممكن أو مستحيل ، وهل يمكن نقله ، وهل يكفر مخالفه ، وغير ذلك من القواعد التى وضعها العلماء لاجماع المجتهدين ، فكيف مع هذا نأخذ من إجماع المحققين أحكاما شرعية تحصر الدين الاسلامى جميعه فى أشخاص أربعة بعد أن كان الفقهاء لا يمكن عدهم فى جميع العصور الماضية ؟

الاجماع الذى هو حجة معروف فى كتب الأصول أنه اتفاق جميع مجتهدى عصر من العصور على حكم شرعى ظنى ، وليس يعنينا الآن أن نبين إمكانه واستحالته ، وإمكان نقله وعدم إمكانه ، فهذا لا يدخل فى بحثنا الآن ، ولكن نذكر شيئا واحدا وهو أن محققى العلماء يرون استحالة الاجماع ونقله بعد القرون الثلاثة الأولى نظرا لتفرق العلماء فى مشارق الأرض ومغاربها ، واستحالة الإحاطة بهم وبآرائهم عادة ، وهذا رأى واضح كل الوضوح لا يصح لعاقل أن ينازع فيه .

وإذا كان هذا واضحا بالنسبة لاجماع المجتهدين ـ وهم أقل عدداً بلا ريب من المحققين ـ فكيف عرف إجماع المحققين على منع تقليد أعيان الصحابة ؟ وكيف أمكن نقل هذا الاجماع ؟

ولندل على رأى الأئمة فى الاجماع ، نثبت هنا ما قاله الإمامان الجليلان الشافعى وأحمد رضى الله عنهما : قال الشافعى فى الرسالة : ما لا يعلم فيه خلاف فليس بإجماع . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سمعت أبى يقول ما يدعى فيه الرجل الاجماع فهو كذب ، من ادعى الاجماع فهو كاذب ، لعل الناس اختلفوا ، ما يدريه ولم ينته إليه ؟ فليقل : لا نعلم الناس اختلفوا .

هذا ونصوص رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل عند العلماء من أن يقدموا عليها توهم إجماع مضمونه عدم العلم بالمخالف ، ولو ساغ ذلك لتعطلت النصوص ، وساغ لكل من لم يعلم خلافا فى حكم مسألة أن يقدم جهله بالمخالف على النصوص .

ولكن ضعفاء الأحلام ، ومن لم ينضج عليهم صاروا يدعون الاجماع عند عدم العلم بالمخالف قبل البحث عنه ، ولم يكف الناس ما هم فيه من شر ادعاء الإجماع كذبا حتى زادوا لهم شيئا سموه إجماع المحققين .

والخلاصة أنه يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة متى صح النقل عنهم ، وفهم مرادهم . وسنثبت فى فصل آخر إمكان صحة النقل عن غير الأئمة الأربعة ، ومما ينبغى الاشارة إلى فساده ماقاله صاحب الأشباه ، وهو: الخامس مما لا ينفذ القضاء به ما إذا قضى بشىء مخالف للإجماع وهو ظاهر ، وما خالف الأئمة الأربعة مخالف للإجماع ، وإن كان فيه خلاف لغيره ، فقد صرح فى التحرير أن الاجماع انعقد على عدم العمل بمذهب مخالف للأربعة لانضباط مذاهبهم ، وانتشارها ، وكثرة أتباعهم ، فان هذا مبنى على اعتبار حصول الاجماع ، وهو غير صحيح . لأن الذى حصل هو قول ابن الصلاح بالمنع بناء على إجماع المحققين ، وقد عرف ما فى هذا كله من الفساد ؟

إلى جماعة التقريب

لحضرة صاحب السماحة الأستاذ الكبير السيد محمد صادق الصدر
رئيس مجلس التمييز الشرعى الجعفرى ببغداد

مرحباً برسالة الاسلام ـ فرقتنا السياسة وستجمعنا السياسة ـ مصر تلم الشعث والعراق ترحب ـ أثر فتح باب الاجتهاد فى فقه الشيعة ـ عتاب على الأستاذ « خلاف » ـ ليس جعفر الصادق بالمجهول ـ حساب للأستاذ «أبى زهرة» ـ ليس الشيعة كما تظن ـ ابحثوا بانصاف واكتبوا بتجرد .

أخذتُ رسالتكم ﴿ رسالة الإسلام ﴾ وكم بالمسلمين من حاجة إلى « رسالة » تبعث فيهم روح الإسلام من جديد فينشطوا لاسترجاع مجدهم الخالد .

قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : « بدىء الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ » .

أجل : عاد اليوم كما بدأ ، وليس عجيباً أن يكون الإسلام فى فجر الدعوة غريبا فإن كل دعوة تبدو فى أول الأمر غريبة لدى النفوس التى لا تألفها ، ولا تتعرف على أهدافها السامية ، وإنما الغرابة فى أن يعود الإسلام غريبا فى نفوس أبنائه ومعتنقيه والناشئين فى أحضانه .

إن كثيرا من شبابنا الناشىء اليوم لا يعرف من الإسلام إلا أنه ولد من أبوين مسلمين ، فلا صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا حج ، ولا أى فرض من فرائض الإسلام ، له حرمة فى نفسه أو خفقة حب فى قلبه ، وإنما هى فى رأيه خرافات لا تليق بالرجل المتمدن المتحفز للنهوض والرقى .

وبلاؤنا فى شبابنا الخارج على تعاليمه بلاء يطول حديثه ، وهو أشد على الإسلام من خصم أعلن عداءه وخصومته .

و « رسالة الإسلام » مجلتكم الراقية ، أرجو أن تكون مناراً يهتدى بها الضالون الى دينهم القويم ، وتعاليم الإسلام الرفيعة التى تكفل لهم السعادة والخير ترجع بهؤلاء الى حضيرة الإسلام ، وترشد أولئك الجاهلين الذين قد خفى عليهم كثير من أحكام الدين .

كما أنى آمل أن تكون همزة وصل بين المذاهب الإسلامية تؤلف بين قلوبهم وتجمع شتاتهم ، وتوحد صفوفهم ، وتجعلهم جميعا يدا واحدة على من سواهم .

فقد آن للأمة الإسلامية أن تتكاتف وتتعاون ، وتكون كالبنيان المرصوص فى ظرف عالمى دقيق لا تنهض فيه أمة إلا إذا كانت متكاتفة يقظة .

لقد آن للشيعة والسنة اللتين فرقتهما السياسة أن تجمعهما السياسة (١) ، فإن السياسة التى فرقت صفوفهما بالأمس قادرة على أن تؤلف بين قلوبهما اليوم ، وليس بين الطائفتين اختلاف جوهرى فى الدين يوجب اتساع الشقة وبقاء الخلاف طوال السنين ، فالله واحد ، والقرآن واحد ، والنبى واحد ، وليست الاختلافات فى الفقه إلا اختلافات اجتهادية ، وهى موجودة فى كل مذهب من المذاهب الأربعة كما يعرفها المتتبعون الواقفون على فقه هؤلاء جميعا .

واختلاف الرأى لا يفسد للود قضية

نعم هناك موضوع واحد مهم جداً كان — ولا يزال — مثارا للخلاف والشقاق هو موضوع « الخلافة » ولكن الذى يهون الخطب أن أمس قد ذهب بكل ما فيه فلسنا نستطيع تغيير شىء مما وقع من حوادثه ولكن الذى نستطيعه الآن هو أن نتناسى الماضى وأن نضرب صفحا عن المنازعات الطائفية التى أدت إلى هذا الانحطاط والتأخر فى المسلمين ، والتى لا نجنى اليوم فائدة من ترديدها .

(١) إشارة إلى الكلمة القيمة : « فرقتنا السياسة وستجمعنا السياسة » التى نشرتها مجلة المنار المصرية فى حينها ، وهى من كلمات علامة جبل عامل الأكبر سماحة الحجة السيد عبد الحسين شرف الدين ، وهو من أعلام الأمة الذين خدموا الاسلام خدمات خالدة بالقلم واللسان والتأليف ، وكتابه الجليل (الفصول المهمة فى ، تأليف الأمة) يعبر خير تعبير عن آرائه الاصلاحية فى الاتفاق وجمع الكلمة ، بارك الله فى حياته ووفقه للخير والنفع العام .

إنا لا نريد من الاتفاق أن يترك كل منا مذهبه ويتبع مذهب الآخر إذ ليس من السهل على المسلم أن يترك مذهبه وقد نشأ وترعرع على حبه والاعتقاد به .

فالاتفاق بين هؤلاء وهؤلاء لا نريده على هذا النحو المستحيل وإنما نريده كما أرادته جمعيتكم الموقرة من « التقارب » بين المذاهب الإسلامية ، هذا التقارب هو أساس الوحدة اليوم ، وقد شاءت جمعيتكم المحترمة أن تبذر هذه البذرة فى مصر العزيزة على يد جماعة من افذاذها عرفوا بالعلم والأدب وحب الخير .

وليس من الغريب أن نرى مصر تجمع امرها على لمّ الشعث وجمع الكلمة ، ورتق الفتق ، والسعى وراء الوحدة والتقارب والتفاهم بين المسلمين خاصتهم وعامتهم ، وإن علماء الشيعة فى العراق ليرحبون بهذه الدعوة المباركة ويمدون أيديهم إليكم — أيها السادة — يشاركونكم فى كل هدف يرمى إلى صلاح هذه الأمة وإصلاحها ، فسيروا على بركة الله « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » وجاهدوا فان النصر حليفكم ما دامت النية صافية ، والهدف سامياً ، والغرض صحيحاً يهدف إلى غاية مثلى .

واجهوا المسلمين فى كل صفحة من صفحات مجلتكم الراقية ببحوث إسلامية تعرّف مذاهب المسلمين ليعرف كل مسلم مذهب الآخر ، وليتضح له ما خفى عليه من آراء ونظريات تقرب له ما بعد عن ذهنه من هذه البحوث والآراء .

وإنى أرى أن التقارب بالآراء فى الفقه مقدمة للتقارب فى السياسة وقد خطت مصر خطوات موفقة فى هذا السبيل . بدت واضحة فى لائحتها القانونية للاحوال الشخصية فقد اخذت برأى الامام جعفر الصادق عليه السلام فى كثير من موادها مما انفرد به الفقه الجعفرى كاعتبار الطلاق الثلاث فى اللفظ من غير رجوع طلاقا واحدا . وقضاء نفقة الزوجة ، والوصية لوارث وغير ذلك مما عرف اختصاصه بالمذهب الجعفرى ، وقد شاء المشرع العراقى أن يحذو هذا الحذو فى لائحة الأحوال الشخصية غير أن ظروفا قاهرة أخرت عرضه على المجلس النيابى إلى أجل غير معلوم .

لقد كان لفتح باب الاجتهاد عند الشيعة أثره الملموس فى صقل آراء فقهائهم وجعلها متمشية مع العصر الحاضر فى الرقى الفكرى ، والتقدم العقلى أضف إلى ذلك أن هذه الآراء مستقاة من اصح المصادر وأوثقها الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام الذين أخذوا علمهم عن جدهم الأعظم صلى الله عليه وسلم . ولا شك أن التطور فى الفكر يسير بسرعة فيصل إلى هذه الآراء المصفاة القريبة من ذوق العصر كل القرب .

والغريب أن نجد فضيلة الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى مقاله المنشور فى العدد الثانى من مجلتكم المعنون « كيف يساير الفقه الاسلامى تطور المسلمين » يذكر عند استعراضه للحركة الاجتهادية أسماء الأئمة الأربعة ويغفل ذكر الامام الصادق عليه السلام الذى تلمذ بعض هؤلاء عليه ، ثم يرى الكاتب الفاضل « أن الضعف الذى انتاب المسلمين سياسيا وخلقيا وعمليا قضى على هذه الجهود الجزئية أيضا وسد باب الاجتهاد المطلق وأصبح المسلمون وليس لهم أن يستنبطوا من الكتاب والسنة الخ » فهل من التقريب بين المذاهب أن نسدل الستار عما نعلم من فتح باب الاجتهاد عند الشيعة فى كل عصر وهى ميزة يذكرها المنصفون باعجاب المذهب الجعفرى ؟ !

وإذا كنا نجهل هذه الحقيقة الراهنة فهل نجهل شخصية الصادق اللامعة التى عبقت العصور بنشرها الفواح ، تلك الشخصية العظيمة التى كان يقول الامام مالك فى وصفها « ما رأت عين ، ولا سمعت إذن ، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد فضلا وعلما وعبادة وورعا ، وكان كثير الحديث ، طيب المجالسة ، كثير الفوائد » وكان الحسن بن زياد يقول « سمعت أبا حنيفة : وقد سئل عن افقه من رأى قال : جعفر بن محمد » وكان ابن أبى ليلى يقول : « ما كنت تاركا قولا قلته أو قضاء قضيته لقول أحد إلا رجلا واحدا هو جعفر بن محمد » .

ليس من التقريب فى شىء — أيها السادة — أن نتغاضى عن مثل هذه

البدهيات عندما نخوض فى بحث من البحوث الأسلامية النافعة فما التقريب اللفظى بين المذاهب بجامع للأمة الإسلامية فى عصرنا الحاضر، وإنما الذى يجمع كلمتها، ويوحد أهدافها هذا التقارب الروحى المنبنى على الاحترام والإنصاف وإعطاء كل ذى حق حقه .

وإذا ساد الجو العلمى مثل هذه الروح كنا على خير عظيم ، وكانت الأمة مقدمة على مستقبل زاهر ، وكانت جمعيتكم أول من وضع الحجر الأساسى لبناء الكيان الذى نحلم به ، ونتمنى له الشموخ والرفعة .

إنا لا نريد من جمعيتكم أن تسيطر على ما ينشر فى صفحات مجلتها أو يذاع على منبرها فحسب لأن هذا هو الهدف الأول من تأسيسها ، وإنما كل ما نتمناه أن يكون للجمعية نفوذ علمى يسيطر على الأقلام والمؤلفات، والمطابع يوجهها جميعا لمثل هذا الهدف السامى الذى نوهتم به فى أحاديثكم . واذعتموه على صفحات رسالتكم ، والعبء الثقيل لا يقوم به إلا أهله .

انظروا - أيها السادة - إلى ما كتبه الأستاذ البحاثة « أبو زهرة » فى كتابه القيم : « أبو حنيفة » عن الشيعة ، واحكموا فحكمكم العدل ، وقولكم الفصل ، قال فى ص ٩٨ مانصه : « ومن ذلك نرى أن الشيعة مزيج من الآراء ، ومضطرب لكثير من الأفكار ، ونحلة قد ضلت بها أوهام كثيرة ، ودخلت عليها خواطر باطلة ، ومبادىء من ملل قديمة قد أرادوا أن يلبسوها بلباس الإسلام فضاقت عن أن تسع بعضهم عقيدة الإسلام السامية النقية وهى عقيدة التوحيد » .

أهذه الصورة المشوهة صورة واقعية للشيعة تمثلها التمثيل الصحيح ؟! أكانت ضالة باعترافها بالشهادتين وقيامها بالصلاة والصوم والحج وأدائها للخمس والزكاة ، واهتمامها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ؟ أكانت مبادئها باطلة لتفانيها فى حب أهل البيت الذين طهرهم الله فى محكم كتابه ، وفرض علينا مودتهم والاعتصام بحبلهم ، والذين جعلهم الرسول الأعظم سفينة النجاة لأمته من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق وهوى .

ولم يكتف الأستاذ الجليل بهذا القدر من التصوير حتى أضاف الى ذلك قوله فى ص ١١١ : « وبعض الشيعة خلطوا بهذه الآراء آراء اجتماعية خطرة مفسدة للنسل هادمة للأديان ، فاستحلوا الخمر والميتة ونكاح المحارم ، وتأولوا قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » وزعموا أن ما فى القرآن من تحريم الميتة ولحم الخنزير كناية عن قوم يلزم بغضهم مثل أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية وكل ما فى القرآن من الفرائض التى أمر الله بها كناية عمن يلزم موالاتهم مثل على والحسن والحسين وأولادهم .

فمن هذه الفرقة - يا أستاذ - التى ترى مثل هذا القول المنكر المخالف للقرآن الكريم ، والمنافى لتعاليم الأديان كافة ؟

إن الشيعة لا تجيز الاجتهاد فى مقابل النص ، فالآية الصريحة لا يجوز صرفها عن ظاهرها ، ولا تحريفها عن موضعها ، وقد أجمعت كلمتها على تحريم ما حرم الله تعالى ، وتحليل ما حلل فى كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل ، وأما نكاح المحارم فانه أمر لا يقول به من له عرق ينبض بالشهامة والمروءة من بنى الإنسان ، والشيعة التى لا تأخذ بالقياس — لأنها ترى أن دين الله لا يقاس بالعقول — لا تذهب الى هذا الرأى الفاسد الذى لا ينطبق على قواعدها الفقهية وأصولها العملية ، وكان الأحرى بالأستاذ أن يتجنب هذه الأقوال التى لا تليق بباحث له علمه وأدبه واطلاعه .

إن خصوم الشيعة قد أضافوا إليها فرقا لا وجود لها ، ونسبوا إليها أقوالا لا صحة لنسبتها ، على أن تلك الفرق الضالة التى ليست من الشيعة فى شيء قد بادت واضمحلت ، فلا معنى لبعثها من جديد .

نفيهم عنا ولسنا منهم ولا هم منا ولا نرضاهم

وقد عرضت مفصلا إلى هذه الفرق فى كتابى « الشيعة » عند مناقشتى لأقوال الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك وكنت أظن أن تلك الضجة التى حدثت حول

تلك الأقوال يومئذ تبعث إخواننا الأعزاء رعاهم الله على البحث الصحيح فى كتب الشيعة للاطلاع على آرائها فى العلم والاعتقاد .

إن الشيعة اليوم – الإمامية الأثنى عشرية – وهم المنبثون فى إيران والعراق ولبنان وسائر البلاد الإسلامية - والزيدية - وهم فى اليمن ، هؤلاء جميعا قد عرفت مبادئهم وآراؤهم فى كتبهم الفقهية والكلامية والتاريخية ، فليس من الانصاف فى شيء أن نصور الشيعة كما يريد خصومها ، وكما تشاء الأهواء السياسية فى ذلك العصر الغابر يوم كانت الحقائق مكتومة قد أسدل عليها ستار كثيف من التعصب للرأى والمذهب .

أما وقد شاعت الحرية اليوم وأسفرت الحقائق فى كثير مما يكتب من المباحث العلمية بفضل المطابع وانتشار الكتب والمؤلفات القديمة والحديثة فلنكتب بتجرد وأمانة معتمدين على كتب كل طائفة نريد معرفتها ، وتحليل مبادئها ضاربين صفحا عن كل بحث يضر بالمصلحة ، أو لا يحقق المودة والألفة وفق الله الجميع للخير والعمل النافع ؟

* * *

« **رسالة الإسلام** » نؤيد الكاتب فيما توجه به إلى الأستاذ الكبير « أبى زهرة » فما كان له وهو العالم البحاثة أن يعير التفاتا لما يشاع عن بعض من يحسبون على الشيعة أو من انقرضوا فلم يعد لهم وجود بينهم . فان فى كل طائفة سنة كانوا أم شيعة خواص علمائها الذين لا يعول إلا على آرائهم ، وفيها شذاذ لا يؤبه لهم ، فاذا جرى العلماء منا على تصيد الهنات دون تحقق ولا تثبت كان مثلهم كمثل بعض المستشرقين الذين يحملون المسلمين عامة تبعات مايقوله ضعفتهم ومنكروهم ، وتلك خطة يأباها الحق والانصاف .

أما ما ذكره الكاتب موجها إلى الأستاذ الكبير الشيخ خلاف ، ففى رأينا أن الأستاذ « خلاف » لم يقصد بذكر الأربعة الأئمة أن يجحد غيرهم ، وأن حديثه عن سد باب الاجتهاد كان فى سياق يشعر بأنه غير راض عنه ، وإذن فلا بأس عليه ، على أن هذا العتب فى الجانبين محمود عواقبه إن شاء الله .

بمناسبة موسم الحج :

حكم الشريعة في استبدال النقد بالهدى

هل يجوز استبدال النقد بالهدى فى الحج ؟ سؤال يتردد على ألسنة الناس كلما أظلهم موسم الحج ؛ وقد تجدد الحديث عنه هذا الشهر فى الصحف والأندية العلمية ، ووجه فيه استفتاء إلى العلماء ، فأجاب عنه فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر ، ومفسر القرآن الكريم بهذه المجلة ، وقد رأينا أن ننشر فتواه على العالم تسجيلا لها وتعميما للنفع بها .

قال الله تعالى : وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ، فمن كان منكم مريضاً ، أو به أذى من رأسه ، ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ، فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم » . وقال تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم ، يحكم به ذوا عدل منكم ، هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما » وقال تعالى : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » وقال تعالى : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق » وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام » .

بهذه الآيات الكريمة ، وبما صح من أحاديث الأضحية ، تقرر فى الإسلام أن إراقة الدم نوع من أنواع القربى إلى الله ، وأن هذه القربة لا تقوم إلا بذبح الحيوان وإراقة دمه ، وأن التصدق بثمنه لا يغنى ولا يقع عند الله موقع القبول فى القيام بهذا المطلوب .

وقد تضمنت الآيات الكريمة النص على الهدى تارة على سبيل التعيين دون أن يكون له بدل ، وتارة على سبيل التعيين مع الالتجاء إلى البدل عند العجز عن الهدى ، وثالثة على سبيل التخيير بينه وبين غيره .

كما تضمنت أن مكان الذبح فيما وجب ذبحه هو الحرم « حتى يبلغ الهدى محله » « ثم محلها إلى البيت العتيق » « هديا بالغ الكعبة » ، وكذلك تضمنت اعتبار البدن والذبائح فى هذه الأماكن من شعائر الله التى تجب المحافظة عليها ، ولا يصح التهاون فيها أو إغفالها ، وحسبنا « لاتحلوا شعائر الله » والشعائر هى العلامات الواضحة الظاهرة التى اعتبرها الدين مظهرا من المظاهر العامة ، وهذا لا يتحقق إلا بعمل ظاهر يراه الناس فى مناسبات خاصة ، وإذا أردت زيادة فى الإيضاح ، فانظر إلى موقف الشريعة من الأذان ، إذ اعتبرته شعيرة من شعائر الدين ، يقاتَل أهل القرية أو المدينة على تركها وإن لم تكن من الفرائض .

ألا وإن للشعائر فى نظر الإسلام مكانة الفروض المقدسة ، وعلى هذا اتفقت كلمة الفقهاء فى ذبائح الحج ، ولم نر لواحد منهم خلافا فى ذلك ، نزولا على حكم هذه الآيات الصريحة الواضحة ، وتحقيقاً للغرض المقصود ، وهو التقرب إلى الله بإراقة الدم ، ولله سبحانه وتعالى أن يتعبد عباده بما يشاء : بما يدركون حكمته ، وبما لا يدركون ، وما كان اختلاف الفرائض فى عدد الركعات والكيفيات وتحديد الأوقات ، واختلاف مقادير الزكاة ، والكفارات ، وسائر مادخله العدد أو اعتبرت فيه الكيفية إلا نوعا من هذا التعبد الذى يتجلى فيه بوضوح مقتضى العبودية الحقة ، وهو الامتثال لأمر الرب الحكيم ، عُقل معناه أو لم يعقل . والعلماء يذكرون فى هذا المقام أن هذه القربة تذكر بحادثة الفداء الذى حصل لابراهيم

الخليل وولده عليهما السلام ، وتنبه النفوس المؤمنة إلى مبدأ التضحية فى سبيل الله وطاعته بأعز شىء لديها « وفديناه بذبح عظيم » .

على أن فى العمل بهذه القربة سراً اقتصادياً يرجع الى سكان البادية ، ولعله من مصداق دعوة أبيهم إبراهيم حين قال : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ذلك أن الماشية رأس مال أهل البادية ، وموسم الحج هو السوق التى تنفق فيه هذه السلعة ، عن رغبة لا مشقة فيها ، وبذا يحصلون على أرزاقهم من أعمالهم ومن ثمن أموالهم دون أن يتعرضوا لذل السؤال أو يترقبوا المن والعطاء .

من هذا يتضح جلياً أنه لا يجوز للمسلمين أن يفكروا فى استبدال النقود بالهدى أو الأضاحى التى طلبها الشارع بذاتها ، إقامة للتصدق بثمنها مقامها إذ ليس القصد هو التصدق وإنما القصد ـ كما قلنا ـ التقرب بها نفسها ، وإننا لو أبحنا لأنفسنا هذا النحو من التفكير ـ بناء على ما نظن من حكم للتشريع ـ لانفتح علينا باب التفكير فى التخلى عن الأعداد والكيفيات التى طلبت فى كثير من العبادات ، ولأمكن لقائل أن يقول : إن الغرض من الصلاة هو الخضوع ومراقبة الله ، وهما معنيان يحصلان بالقلب ، وبأى مظهر من مظاهر الخضوع والمراقبة ، فليست هناك حاجة إلى ركوع أو سجود أو غيرهما من كيفيات الصلاة الخاصة ! وبذلك ينفتح باب الشر على مصراعيه ، ولا يقف ضرره عند حد الأضاحى وفدية الحج .

أما ما يبررون به مثل هذا التفكير من أن لحوم الذبائح تتكدس فى منى ، وتترك للتعفن المفسد للجو ، أو للنار المذهبة للأموال ، فهذه الحالة ـ إن صحت ـ ليست ناشئة عن أصل التشريع الذى هو خير كله ، وإنما نشأت عن عدم التنظيم وعدم الإلمام بأحكام الشرع ، فإن الشرع لم يطلب من كل حاج أن يذبح ، ولم يوجب أن يكون الذبح ـ فيما يطلب فيه الذبح ـ فى خصوص منى ولا مجزرتها ، ولا فى اليوم الأول من أيام النحر ، فأيام النحر كلها زمن للذبح ، والحرم كله مكان للذبح ، والذبح لا يطلب عينا إلا فى حالات مخصوصة ، وما عداها فالحاج مخير بينه وبين غيره من صدقة أو صيام .

فلو عرف الحجاج أحكام الله على هذا الوجه فيما يختص بالدماء فتصدق من لم يطلب منه الذبح ، وذبح من طلب منه الذبح ، وفرقوا الذبح على الأماكن والأيام ، ثم تخيروا الذبيحة من غير العجاف والمرضى ، وهيئوها بالسلخ والتقطيع لما كان لهذه الشكوى موضع ، ولكن جرت سنتنا فى التفكير أن نعد الوضع الذى جرّت إليه العادات ـ وإن كانت فاسدة ـ صورة للتشريع فنحكم عليه بالقبح ، ثم نحاول التخلى عنه بالقضاء على أصله ، وبذلك ندخل فى باب من التغيير والتبديل فى أحكام الله ، ولا نلبث بعد ذلك أن نترك الشريعة كلها جانباً ، باستحساننا الفاسد المبنى على واقع جر إليه الجهل وعدم التنظيم .

وبعد : فإن الكلام فى هذا الموضوع ليس وليد اليوم ، بل سبق أن تحدث فيه المرحوم الهلباوى بك مع فضيلة المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ المراغى ، فأحال فضيلته علىّ بحثه من الوجهة الفقهية الشرعية ، فعدت إلى فضيلته بعد البحث الطويل بأن الفقهاء جميعاً يعتبرون التعبد فى هذه المسألة بإراقة الدماء ، دون أن أرى فى كلام واحد منهم ما يشير ـ ولو من بعيد ـ إلى جواز استبدال النقود بها ، فاطمأن فضيلته إلى هذا وأقره ، وقد عرضْتُ على فضيلته اقتراحا هو :

أنه على فرض تكدس اللحوم — كما يقولون بعد مراعاة الأحكام الشرعية فى زمان الذبح ومكانه ، وطلبه وعدم طلبه — يجب على المسلمين — وفيهم والحمد لله موسرون كثير : — أن يعملوا على استخدام إحدى الوسائل الحديثة لحفظ هذه اللحوم وادخارها طيبة ، ثم توزيعها على الفقراء المحتاجين فى جميع الأقطار الإسلامية إن ضاق عنها القطر الحجازى ، أو بيعها بأثمان تصرف فيما ينفع الفقراء والمساكين ، أو فى سبيل الله العامة ، وإنى أعتقد أن هذا المشروع متى كفله العاهلان العظيمان المؤمنان : عاهل مصر ، وعاهل الحجاز ، رأينا آثاره وانتفع الناس بثمراته فى الموسم المقبل إن شاء الله .

هذا ما يجب أن ينزل عليه المسلمون فى فهم أحكام دينهم ، وفى تنظيم العمل بها والمحافظة عليها ، والسلام على من اتبع الهدى .

كلمات في العلم والدين

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الأستاذ محمـــد فريد وجدى بك

مدير مجلة الأزهر

ظهر العدد الثالث من هذه المجلة المباركة ، فقرأت عقب مقالى فيه كلمات وجهها إلىّ فضيلة الأستاذ المحترم الشيخ محمد فؤاد السيد المدرس بالأزهر، يلاحظ فيها على ما ذكرته من خطر العلم على كثير من العقول ، وقد جاء فى آخر كلمة فضيلته قوله : « فهل يتفضل أستاذنا الجليل ببيان ما هو العلم المقصود ، وما خطره على العقول الشرقية ؟ وعلى الإسلام دين العلم والعقل ؟ وكيف يمكن أن تتألب لدفع هذا الخطر « جميع العقول البشرية » ومن بينها العقول القوامة على إزجاء هذا الخطر ؟ » .

ونحن نجعل مقالنا فى هذا العدد خاصاً بشرح ما أجملناه فى العدد الأول فنقول :

اتفق أهل العلم فى القرون الأخيرة بعد كفاح أسلافهم لرجال الدين زهاء عشرة قرون متوالية فى سبيل حرية النظر ، على إطلاق كلمة (العلم) على المحصول العقلى والعملى لجميع مجالات البحث من أول ما اشتغل به الفلاسفة الأولون ، وجميع من جاء بعدهم من أهل التفكير الحر ، وصبروا على ما عوملوا به من العسف ، وما سيموا به من الاضطهاد ، حتى استُشهد منهم فى القيام بحقه أكثر من ثلاثمائة ألف فى ثلاثة قرون متوالية ، إحراقاً بالنار ، وإغراقاً فى اليم ، وذبحاً بالمدى ، وما لا يمر بخيال أحد من صنوف التعذيب التى تقشعر منها الأبدان ،

وكان الذين يتولون هذه الحركة العدائية للعلم رجال الدين ، فلما نشأت البروتستانتية فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، واشتغل رجال الدين بالخلافات المذهبية ، وأظهر قادة هذا المذهب الأخير تسامحاً مشكورا حيال العلم والمشتغلين به ؛ تحرر العلم من رقابة خصومه ، فنهض رجاله ، وقد تملأوا حقداً على الدين وأهله ، يشهرون بهم وبالعقائد معهم ، ويبالغون فى نقدهم ، ونقد مذاهبهم ، وكلما أمعن هؤلاء فى تناحرهم ، وأغرقوا فى جهودهم ضد أنفسهم ، عمل أهل العلم على جمع صفوفهم ، وتقوية جهات ضعفهم ، وعلى قدر ما كان يثمره العلم من الاكتشافات ومن اختراع الآلات ، وتدارك الحاجات ، كان يزداد تأثير فلسفته فى العقول ، ويتضاعف الشعور باحترامه فى النفوس ، حتى نفوس من ليس له أدنى نصيب منه من العامة ومن هم قريبون منهم من المتعلمين . فأصبح للعلم بعد هذا التطور العظيم منزلة فى القلوب تفوق منزلته فى العهود الماضية ، ولما توالت مكتشفاته البخارية والكهربائية والمغناطيسية فى القرن الماضى وما سبقه ، اكتسب العلم سلطانا على النفوس لم يكن لغير الدين ، وتناسى الناس العقائد ، بل أغفل ذكرها أكثرهم .

كان شعور أهل العلم فى هذا الدور ، وقد استغرق نحواً من قرنين ، شعور من أسقطوا الدين ، وقضوا على دولته أبدَ الأبيد ! وقد صرحوا بذلك فى مؤلفاتهم .

اكتسب (العلم) بالاجماع الذى انعقد حوله مكانا ممتازا ، فلو كان هذا الإجماع على العلم المطلق البالغ أقصى مداه بحيث يستحيل نقض أى حرف منه ، لكان تقديسه من أوجب الواجبات على كل عاقل ، ولكن العلم الإنسانى كان لا يزال بحاجة إلى التمحيص ، وكان كثير مما يعتبرونه بداهات علمية لا يزال يعوزه التحقيق ، وكانت المذاهب التى عللوا بها قيام الوجود بنفسه لا تزال ظنية ، وكان كثير منهم يعرف هذا ولا يجاهر به حتى لا يحط من مكانة العلم الذى أصبحت له بفضل هذا التقديس المحيط به ، شخصية أدبية تخر العقول أمامها ساجدة ، وقد بالغ بعضهم فى هذا الغلو حتى وصفوه بالعصمة المطلقة ، واعتبروا أنفسهم

أهله الأقربين الذين من حقهم أن يحتكروا شرف التكلم باسمه ، فقرروا أن كل كل قول ينافى أصلا من أصوله المقررة ، أو اكتشافا سبق له أن حكم باستحالته ، أو رأيا جديدا يوهن بعض ما أيده ، كل هذا لا يجوز أن يلتفت إليه ، فضلا عن دراسته والعناية به مهما كانت الغاية التى يرمى إليها ، أما محاولة إثبات بعض العقائد الدينية ، أو لفت النظر إلى ما يؤيدها من حوادث ، أو الأخذ فى تمحيص ظواهر جديدة تمت إلى عالم الروح بسبب ، فقد كان هذا فى رأى الكهنوت العلمى من الاسفاف الذى يجب أن يترفع عنه المنتسبون إلى العلم بعد أن بلغ الغاية القصوى من حصر العوامل الوجودية والعلل الاولية .

فى هذا الدور ـ وقد بلغ أوجه فى القرن التاسع عشر ـ انتشر الإلحاد بين العلماء وذاع بين الطلاب والمتصلين بهم ذيوعا ينذر بانتهاء عصر الدين ، كما كان يذيعه مروجو هذا العهد فى كتبهم ومجلاتهم ، وشعر رجال الأديان بالخطر فقبعوا فى معابدهم يقرأون الطعن فيهم ، والتشهير بهم ، ولا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم .

هذا هو الذى عنيته فى مقالى بقولى (خطر العلم على العقول الشرقية) وبقولى (أن تتألب لدفع هذا الخطر جميع العقول البشرية) ، ومرادى بهذه العقول هنا التى أفاقت من غشية هذا الخطر ، لا العقول التى لا تزال غرقة فى حمأته أو خابطة فى دُجنته . وسيتبين القارىء مما يلى استقامة معنى هذا التعبير .

لم يكد يهل القرن العشرون ، ويهتدى بعض العلماء إلى تفتيت الذرة فى سنة ١٩٠٧ (١) ويثبت أنها قوة وكهرباء ، وكان قد سبق ذلك اكتشافات أخرى فى المادة ونواميسها ؛ حتى هب رجال العلم من سباتهم ، وأعادوا النظر فيما لديهم من صروح نظرياتهم ، وإليك ما قاله فى هذا الموضوع العلامة (جوستاف لوبون) فى كتابه (تحول المادة) :

(١) الذى اكتشف أخيراً وتردد ذكره كثيراً هو صنع قنبلة متى ألقيت انفجرت فيها الذرة .

« كان العالم يختال بالعلم الذى هو ثمرة جهود بذلت فى عدة قرون . وكانت الوحدة والبساطة سائدة بفضله فى كل مجال من مجالاته . . . » .

« دامت هذه العقيدة فى المقررات الكبرى للعلم العصرى حافظة لقوتها إلى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمى أن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الدهر . فإن الصرح العلمى الذى كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية ، تزعزع فجأة بشدة عظيمة وصارت التناقضات والمحالات التى فيه ظاهرة للعيان ، بعد أن كانت من الخفاء بحيث تكاد لا تبلغها الظنون . . . » .

« تلك المكتشفات التى نوهت بها آنفا قد كشفت اللثام عن الظنيات التى بدأت تفضحها الكتب الحديثة ، وبذلك دخل العلم نفسه فى دور من الفوضى كان العلماء يظنون أنه سلم منه أبد الآبدين . . . » .

« وقد كتب المسيو لوسيان بوانكاريه (العلامة الرياضى الكبير) من جهته يقول : إنه لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولا تاماً ، ويجمع عليها المجربون إجماعاً عاماً ، بل يسود اليوم على عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى ، واتسع المجال للاجتراءات الممكنة ، ولم يظهر أن ناموساً من النواميس ضرورى ضرورة مطلقة ، فنحن نشهد فى هذه الآونة أعمالا هى أشبه بالهدم منها بإقامة بناء نهائى . فالآراء التى كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسساً ثابتاً ؛ صارت اليوم لدينا موضوعاً للمناقشة » .

ثم ختم العلامة (جوستاف لوبون) هذا الفصل بقوله :

« من حسن الحظ لا شىء أحسن ملاءمة للترقى العلمى من هـــذه الفوضى . فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها ، والحجاب الذى يحجبها عنا منسوج غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التى توجبها علينا تقاليـد العلم الرسمى . فلا يمكن عمل خطوة للامام إلا بعد تفكك عرى الآراء السابقة ؛ والأشد خطرا على تقدم العقل الانسانى هو تقديم الظنيات للقراء لابسة حلل الحقائق المقررة ، على نحو ما تفعله

كتب التعليم ، والتطاول لوضع تخوم للعلم ، ورسم حدود لما يمكن معرفته ، كما كان يود ذلك اجوست كونت » انتهى .

وقال العلامة الرياضى الكبير (هنرى بوانكاريه) العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى مقدمة كتابه (العلم والافتراض) بعد ما وصف استسلام العلماء لكل ما اطلقوا عليه اسم العلم :

« لما تروى العلماء قليلا لاحظوا مكان الفروض من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها ، وأن التجربة لا تستغنى عنها كذلك ، حينذاك سأل بعضهم بعضا هل كانت هذه المبانى العلمية على شىء من المتانة ؟ وتحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها » .

هذا وإنى استطيع أن آتى على عدد كبير من هذه الاعترافات ، وكلها تدل على إفاقة العقلية العلمية من غشيتها ، وعلى أنها استردت اتزانها ، ولست فى حاجة لأن أقول بعد هذا : إنه بزوال هذا السد الفولاذى الذى كان قائما أمام العقول ، انفتح أمامها مجال النظر الصحيح ، والاستدلال القويم ، وخلصت من كابوس الانخداع الذى كانت تحت تأثيره عشرات السنين . ولكن هل بلغ هذا التطور العظيم انصاف العلماء ومريديهم من كل قبيل فى مشارق الأرض ومغاربها ؟ لا ، فلا يزال السواد الأعظم فى غفلة من هذا ، ولا يزالون ينشرون الإلحاد حيث يوجدون ، ولم يفت هذا الأمر أئمة العلم الأعلين . قال العلامة (جوستاف لوبون) فى كتابه المتقدم ذكره :

« لا مشاحة فى أن الأصول التى كان العلم يختال بها اختيالا لم تزُل كل الزوال ، فستبقى امدا طويلا - فى نظر الدهماء - كحقائق مقررة ، وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها ، ولكنها قد فقدت كل ما كان لها من القيمة فى نظر العلماء الحقيقيين » .

وبعد فهذا هو خطر العلم الذى أشرت إليه فى مقالى السابق هنا ، على كثير من العقول ، وليس بخاف اليوم على أحد ما عليه هذه العقول من الإصرار على

مجافاة الدين ، والحكم عليه بالزوال ، تمسكا منهم بالنظريات العلمية القديمة التى سقطت وأثبتنا لك رأى العلماء فى سقوطها وسقوط منزلتها .

لذلك أهبنا بالعقول التى استنارت بالعلم الحق أن تتألب على دفع هذا الخطر عن الدين ، فإنه رأس المقومات الأدبية للنوع الانسانى ، تلك المقومات التى إن سقطت سقط معها صرح الاجتماع كله ، ولا يغنى عنها العلم المادى كما لم يغن عن الأمم البائدة . وها هى ذى الأمم التى املست من شكيمة الدين تتفانى بوسائلها العلمية ، ولا يغنى عنها علمها الزاخر شيئا ؟

الدين والعلم

الدين والعلم فى نظر الماديين العصريين نقيضان لا يجتمعان ، وضدان لا يتفقان ، ذلك بأنهم قصروا الكون على المحسوسات ، وأنكروا ما وراءها جملة وتفصيلا ، فلا روح ولا خلود ولا ملائكة ، ولا غير هذا من العوالم الغيبية ، وتصوروا الدين على الشكل الذى يرون عليه المتدينين ، ولكنهم لو أنصفوا كما أنصف فى هذا العصر أكابرهم ، ووقفوا على ما فتح الله به على العالم العصرى من الحجج العيانية فى إثبات عالم ما وراء المادة ، ثم نظروا للدين فى أصله وينبوعه وعلاقته بالروح الانسانية نظر الحكيم المتبصر ، لعلموا أنهم كانوا فى أحكامهم الأولى غلاة مفرطين ولأصبحوا من أعز أبناء الدين كما أصبح اليوم كذلك أكبر علماء الماديين ، ولسنا نيأس من رجوعهم ، فقد رجع أشد منهم بطشا ، ومضى مثل الأولين .

[محمد فريد وجدى بك]

فى علم الكلام
وفيما وراء الطبيعة

لحضرة الدكتور عبد الحليم محمود
أستاذ التربية وعلم النفس بكلية اللغة العربية

لا يمكننا أن نحدد بالضبط تاريخ نشأة الأبحاث فى المغيبات ، ولكننا قد لا نعدو الصواب إذا قلنا إنها نشأت منذ نشأة الانسان على ظهر البسيطة . وقد لا نعدو الصواب أيضا إذا قلنا إنها منذ النشأة الأولى ، قد اختلفت فيما يتعلق بمنهاج البحث ، واختلفت فيما يتعلق بالنتيجة . وقد كان الاختلاف شاملا لكل المساتير ؛ فمن إنكار مطلق للألوهية وللروح ، إلى إيمان مطلق عام يغرق فى الوهم ويبعد فى الضلال حتى يصل إلى التخريف بأوسع معانيه ، وبين هذا وذاك مذاهب لا يحصيها العدّ : فمن تشبيه مطلق ، إلى تنزيه مطلق ، إلى تشبيه يشوبه التنزيه ، أو تنزيه مشرب بالتشبيه ، ومن حلول إلى اتحاد ، ومن وحدة الوجود ، إلى التفرقة بين العابد والمعبود ، إلى مذاهب يبعث اختلافها الدوار فى الرأس ، وتبعث براهينها الشك فى جميعها ، إلا من عصم ربى فوفقه إلى طريق الرشاد .

أجل : إلا من عصم ربى ؛ ذلك أن اتباع الطريق السوىّ توفيق من الله ، وليس ذلك من اكتساب العبد ، فالحلول ــ مثلا ــ عقيدة راسخة استساغتها البيئات المسيحية ــ وفيها من أساطين المفكرين ما لا يحصى ــ منذ ألفين من السنين ، وقد تسابقت العقول فى البرهنة عليها ، حتى أقامتها على دعائم فلسفية منطقية خلبت عقول الملايين من بنى البشر ، فآمنوا بها ، وضحوا فى سبيلها .

والتشبيه قد برهن عليه ذووه ببراهين عقلية ، وأخرى نقلية ، ووحدة الوجود لها أنصارها المتحمسون لها الذين يرون أن ما عداها لغو أو ضلال .

ولو درسنا تاريخ العقائد لوجدنا أن كل فرقة تستند إلى منطق ، وكل عقيدة قد سادت فى فترة من الزمن ، أو سادت فى بيئة من البيئات . وكل بيئة تعتقد أن ما لديها خير ما أخرج للناس . ولو سرنا فى المنطق إلى غايته لوصلنا إلى الحيرة والشك فى كل ما أنتجته العقول الإنسانية من آراء .

ومع ذلك فاليقين موجود . ومهما حاولت أن تنكر إشراق الشمس إذا كانت مشرقة ، فسوف لا يستجيب إليك شخص ما ، وسوف لا تستجيب أنت إلى نفسك . وهكذا الأمر فى جميع المحسوسات . بيد أن ذلك ميدان . والمغيبات ميدان آخر .

لقد كان من الطبيعى : أن يكون الحس طريق المعرفة المادية ، وأن يكون العقل طريق المعرفة العقلية . وما دامت المغيبات من المعقولات ، فالطريق إلى معرفتها إنما هو العقل ، وما دمنا قد وثقنا بالحس فى معرفة الماديات فلنلتزم الوثوق بالعقل فى معرفة المغيبات .

هذا النمط من التفكير يبدو موفقا ، ولكنه محض سفسطة : فالتصور ـ وهو أساس المعقولات ـ لا يقوم إلا على الحس ، وإذا جردته من المدركات الحسية ، فقد أزلته إزالة لا تترك له من أثر . وما دام الأمر كذلك فالتفكير المجرد عن المحسوسات معدوم ، وما دامت المساتير لا شأن لها بالحس فكل تفكير فيها لا يؤدى إلى نتيجة .

لقد أطال العلماء فى بحث الآراء الموضوعية ، والآراء الذاتية ، ورأوا أن الأولى لا تقبل جدلا : ذلك لأنها تعتمد الاعتماد كله على الحس . أما الآراء الذاتية ، وهى قائمة على أسس أخرى ، فإنها مجال للأخذ والرد ، ولا يمكن الوصول فيها إلى نتيجة حاسمة مهما طال النقاش . وإذا كانت مادة الأخلاق هى الميدان الخصب للآراء الذاتية ، فإن الإلهيات ، وهى حجب ومساتير ، ميدان أخصب ؛ لذلك لا يعدو البحث فيها أن يكون « علما كلاميا » أو « علما جدليا » .

ومهما أشاد المعتزلة بالعقل ، ومهما رفعوا من شأنه ، فمن البديهى : أن الميدان الذى يتخبط فيه العقل تخبطاً لا نهاية له إنما هو ميدان ما وراء الطبيعة .

ومن الواضح أن مذهب المعتزلة على ما فيه من روعة، ودقة، وجمال، وعلى ما أداه من خدمات جليلة فى ميدان المنطق الجدلى، لا يقوم على أساس « معقول ».

العقل قاصر إذاً فيما يتعلق بالأخلاق، وعلى الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات، ومن هنا كانت الحكمة فى نزول الأديان، ومن هنا كان السبب فى اقتصارها على الأخلاق والإلهيات. وإذا كانت قد تحدثت فى التشريع، فإن التشريع داخل فى نطاق الأخلاق.

بيد أن الأديان إذا كانت قد اتخذت موقفا حاسما فيما يتعلق بتحديد الخير والشر، فإنها فى المغيبات لم ترهق الإنسان من أمره عسراً، فتوضح له ما ليس فى مقدوره إدراكه، أو تبين له ما يسمو عن التبيان.

أما هذا الذى يسمو عن التبيان، فإنه ذلك النوع من المعرفة الذى لا يدخل فى نطاق المحسوسات، وبالتالى لا يدخل فى نطاق العقليات: أعنى المساتير.

لذلك رسمت الأديان فى هذا المحيط إطاراً عاما فقط، وهذا الإطار العام نفسه مبنى بعضه على الحس، وهو داخل فى نطاق الآيات المحكمات التى هى أم الكتاب: « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » أما بعضه الآخر فهو المتشابهات « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ».

هناك إذاً إطار عام لا يرضى النفوسَ الطُّلَـعَة، التى أبت ـ خطأ ـ أن تعترف بحدود للعقل، أو بقصور فيه، فبحثت داخل هذا الإطار فكان ما كان من تشعب، وفرقة، واختلاف. بماذا نفسر هذا الافتراق؟

إننا لا نشك فى أن رؤساء الفرق الاسلامية، معتزلة كانوا أم أشاعرة، وشيعة كانوا أم سلفيين، قد تشبعوا بإيمان راسخ، وحرارة دينية فائقة، وعقيدة لا تزعزعها الأعاصير، وقد اعتمدوا جميعا على نصوص واحدة: كتاب الله، وحديث رسوله.

فلم كان الاختلاف؟، ولم هذا التشعب الذى لا ينتهى؟.

لسنا ـ فى تعليل ذلك ـ أمام مشكلة لا تحل؛ إذ الشأن فى ذلك إنما هو الشأن

فى كل الآراء الذاتية التى لا تخضع إلا إلى الاستعداد الشخصى وحده . ولو استقامت أمور المسلمين الدينية لما حادوا عن موقف الامام مالك : التسليم المطلق « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » .

آراء ذاتية داخل الإطار العام ، آراء هى من صنع البشر ، آراء تتحد فى نسبتها ـ من حيث القرب والبعد ـ إلى النصوص المقدسة . إنها آراء . بيد أنها آراء غير مفهومة ، وكل من عالج ، فى إخلاص ، تصور صفات خارجة عن الذات ، أو تصور صفات هى الذات ، فإنه يقر معنا أن ذلك إنما علمه عند ربى .

الطريق الأقوم إذاً هو التسليم المطلق ، وهذا هو الإيمان بمعناه الصحيح . ولكن ذلك ليس معرفة . تلك هى النتيجة التى نريد من كل ماسبق الوصول إليها ، وإذا أردنا أن نلخص ما نريد أن ننتهى إليه قلنا :

(١) الحس عاجز عن الوصول بنا إلى المغيبات فإننا لا نحسها .

(٢) العقل : وهو مبنى على الحس ـ قاصر كذلك .

(٣) النصوص الدينية لا تؤدى بنا إلا إلى نوع من المعرفة غير المباشرة ، أو إلى التسليم ، أو التفويض ، وليس ذلك من المعرفة المباشرة فى شىء .

وإذا فعلم الكلام ليس بدعة فحسب ، وإنما هو ضلالة وهو عبث وهو انحراف عن السبيل السواء .

قد تبدو هذه الآراء جديدة أو خارجة عن الطريق السوى ، ولكنها مع ذلك تتفق تمام الاتفاق مع مايراه حجة الإسلام الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » ومع ما يراه الإمام المحاسبى فى مقدمة كتابه « الوصايا » ، ومع ما يراه غيرهما من أئمة العارفين بالله ، ولنا فيهم أسوة حسنة .

هل معنى ذلك أن المعرفة فيما يتعلق بالإلهيات غير ممكنة ؟ هل معنى ذلك أن الغطاء لا يمكن أن يكشف عن الحجب ؟ وأنه لاسبيل إلى المعرفة الحقيقية المباشرة ؟

ذلك ما لا نقول به . ما السبيل إذاً إلى المعرفة ؟ ذلك ما سيحدثنا عنه العالم الجليل الأستاذ المستهدى فى العدد القادم إن شاء الله .

فريضة الحج

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

قبل أن أدخل فى موضوع هـذا المقال ، أرجو أن يسمح لى القراء بكلمة يسيرة . . . فأقول :

لمـا ظهر العدد الأول من مجلتنا هذه فى ربيع الأول تفاءلنا خـيرا ، وقلنا : توفيق من الله وبشرى وطالع حسن ، ، فقد أشرقت « رسالة الإسلام » فى شهر « رسول الإسلام » .

واليوم نقدم إلى قرائنا الـكرام هـذا العدد الرابع الذى تتم به سنتنا الأولى ، ومن حقنا أن نتفاءل أيضا بهذا الختام الذى صادف موسم الحج الأكبر ، وصادف منه على الأخص عشر ذى الحجة التى يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أيام أحب الى الله فيها العمل من عشر ذى الحجة » ، فالحمد الله الذى جعل ختام عامنا الأول سعيداً ، كما جعل بدأه سعيدا ، ونسأله جل شأنه أن يهب لنا من لدنه فى سائر أحوالنا رحمة تضىء لنـا الظلمات ، وتعصمنا من الشبهات والنزعات وتهدينا إلى صراطه المستقيم ، كما نسأله جلت قدرته أن ينشر رحمته ، ويتم نعمته ، على وفده الأبرار الذين تجردوا من كل شىء فى هـذه الدنيا ليفدوا إليه فى بيته ، يدفعهم الإيمان ، ويحـدوهم الشوق ، ويملؤهم اليقين ، وترتفع أصواتهم عند كل

تشرّف من الأرض أو منحدَر بنداء صادر من الأعماق تخشع له القلوب ، وتدمع منه العيون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، فاللهم أكرم وفادتهم ، وأحسن مثواهم ، وأغدق عليهم من سحائب فضلك ورضوانك ماتشرح به صدورهم، وتغفر به ذنوبهم ، وأرددهم إلى أوطانهم وأهليهم سالمين . ربنا إنهم زوارك ، وعمّار بيتك ، وإنك لأنت الكريم الرحيم .

بعـــد هـذا الدعاء الذى أتوجه به إلى الله ، والذى أعم به جميع إخواننا المسلمين فى البلاد المقدسة أو على أبوابها ؛ أقول :

* * *

لا نعرف عبادة من العبادات عنى بها القرآن الكريم على وجه التفصيل ، وبينها بنصوصه أكمل بيان ، وعرض لكل ما يلابسها أو يتصل بها من أحكام وشعائر ، وأبرزها فى صورة رائعة تملأ النفوس ، وتهز القلوب ، وتشعر المؤمنين بعظمة الله ، ونعمة الله ؛ كعبادة الحج :

أنبأنا الله تعالى : ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، وأنبأنا أنه اختار لبناء هذا البيت نبيا كريما هو خليله ابراهيم الذى جاهد الشرك وحطم الأوثان ، وهاجر إلى ربه فى واد غير ذى زرع ، وأنبأنا بأنه هو الذى بوّأ لأبرهيم مكان هذا البيت ، أى هيأ له موضعه بإرشاد منه ووحى ، وعين له سمته ، وهداه إليه ، ثم عهد فى بنائه ورفع قواعده إلى هـذا النبي الكريم وابنه اسماعيل وصور لنا موقفهما الرائع ، موقف شيخ كبير ، وابن له فتى صغير ، يرفعان القواعد ، ويبتهلان إلى الله فى حرارة الايمـان ، وقوة اليقين ، راجيين القبول ، مفكرين فى أمر الأمة حاضرها ومستقبلها ، حريصين على هداها وتوفيقها « وإذ يرفع إبرهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » وأنبأنا جل شأنه أنه جعل

هـذا البيت مثابة للناس وأمنا ، لا يجوز فيه قتال ، ولا يجوز من حوله قتـال ، فمكن لهم بذلك حرما آمنا فى بلاد مضطربة لا ضابط لشئونها ، والناس من حوله يتخطفون كما يتخطف الطير ، وأنبأنا أنه أكرم جيرانه ، فجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، ورزقهم من الطيبات ، وجبي إليهم ثمرات كل شيء ، وأنبأنا أنه أكرم رسوله حين استجاب له وهو يقلب وجهه فى السماء ، فولاه قبلة يرضاهـا هى هذا المسجد الحرام ، ثم جعل شعائره شعائر الله ، ففرض على الناس تعظيمها وحرم عليهم انتهاكها ، وإرادة الإلحـاد أو الظلم فيها ، وأوجب حجة على كل مستطيع ، وجعل ذلك حقا « لله » على الناس من استطاع إليه سبيلا ، وأشعر بأن رفضه أو التـكاسل عنه لغير عذر كفر وجحود « ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » ، وجعل هذا الحج فى أشهر معلومات « فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » ، وعرض لتفاصيل أحكامه ، فذكر الطواف والسعى ، وأمر من أحصر بما استيسر من الهدى ، ونهى عن حلق الرءوس قبل أن يبلغ الهدى محله ، وجعل لمن كان مريضا أو به أذى من رأسه فدية من صيام أو صدقة أو نسك ، وأوجب على من أمن وكان متمتعا بالعمرة إلى الحج أن يقدم هديا ، فإن لم يستطع فصيام أيام بعضها فى الحج وبعضها إذا رجع إن كان من غير حاضرى المسجد الحرام ، وأمر الحجيج إذا أفاضوا من عرفات أن يذكروا اسم الله عند المشعر الحرام ، وأن يذكروه كما هداهم ، وأن يفيضوا من حيث أفاض الناس ، وأن يذكروا الله فى أيام معدودات ، وجعل البدن التى تذبح فيه من شعائر الله ، ولفت إلى ما فيها للناس من خير ومنافع ، وأمر بإطعام القانع منها والمعتر ، وأمر بعد تمـام النسك بقضاء التفث ، ووفاء النذر ، والطواف بالبيت العتيق ، إلى غير ذلك من أفعاله وتفاصيل أحـكامه .

* * *

ما هو السر فى عناية القرآن الكريم بتلك الفريضة على هذا النحو ؟ وهل الحج إلا ركن من أركان الأسلام كسائر أركانه الخمسة التى ذكرت فى الحديث

المعروف ، بل كان آخر هذه الأركان ذكرا ؟ فلم خص عن بعضها بهذه العناية التفصيلية ؟ ولم لم يكن كالصلاة وهى عماد الدين ، أو كالزكاة وهى نظام التأمين الاجتماعى فى الاسلام كما يسميها بعض العلماء ، لم لم يكن كالصلاة أو الزكاة حيث فرضهما الله على المؤمنين إجمالا ، ولم يعرض فى كتابه لسائر تفاصيلهما ؟

أجل إنه لسر عظيم . لقد ذكر الحج بين أركان الإسلام الخمسة التى جاء ذكرها فى الحديث الشريف ، وجاء ذكره فى آخرها ، ولكن ليس ذلك لأنه آخر هذه الأركان منزلة ، وأقلها شأنا ، بل لأنه أعلاها فى مراتب الترقى والوصول إلى الكمال ، فان أركان الإسلام الأربعة التى تقدمته كلها تمهيد له وإعداد بالتطهير والتزكية ، حتى إذا أقبل المرء إليه كان صافى النفس ، مطمئن القلب ، راسخ الإيمان ، ولذلك كان الحج المقبول عند الله بمثابة خلق الله لصاحبه من جديد ، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » ، فشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، هى الخطوة الأولى التى يتقدم بها الإنسان فيعترف بأصل العلاقة بينه وبين ربه ورسول ربه ، ومع ما لهذا الاعتراف من قيمة فى ذاته ، فهو لا يكلف صاحبه بذلا ولا تضحية ، ولا يستغرق منه جهدا ولا وقتا ، بل إن فيه لذوى البصائر وأولى الألباب لذة هى لذة العرفان ، وجمالا هو جمال الادراك للحق ، فاذا آمن قلبه كانت الخطوة التالية لهذا الإيمان أن يتوجه إلى هذا الإله الذى آمن به ، واعترف بوحدانيته ، خاشعا مناجيا ، فى صلاة رسمها له ، وحدد له أركانها ووسائلها وشرع له قبلتها ، وهذه عبادة مع سموها وجلالة شأنها ، لا تكلف صاحبها جهدا كبيرا ، ولا تأخذ منه وقتا طويلا ، فإن أدنى ما تصح به صلاة الفريضة لا يتجاوز بضع دقائق ، وما زاد على ذلك فهو كمال ، ثم تأتى بعد ذلك الخطوة الثالثة ، وفيها شىء من التضحية والبذل ؛ ذلك أن يؤدى زكاة ماله ، فيقتطع جزأ معينا طيبة به نفسه ليعطيه الفقراء والمساكين ؛ وبهذا الركن الثالث تكون أول تربية إيجابية ، وتزكية نفسية من الشح والاستئثار يطهر الله بها القلوب ، فإنه ما من شىء يتميز به الإيمان الصادق من التظاهر الزائف ، كالتضحية المالية ، ولقد نرى كثيرا

من الناس يصلون ويقومون ويصومون ، حتى إذا وقفوا أمام عقبة الشح والضن بالمال على البذل لم يقتحموها ، وفى ذلك يقول الله عز وجل مصورا طبيعة الإنسان « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة » ولكن الزكاة على ذلك ليست إلا تضحية مالية بنسبة ضئيلة تقل عن أصغر ضريبة من أهل الأموال على أدائها فى أى بلد من بلاد الله وهم لايشعرون ، ثم تأتى بعد ذلك الخطوة الرابعة ، وهى صوم شهر كامل متتابعة أيامه ، يتخلى فيه المؤمن عن طعامه وشرابه وشهوته إيمانا بالله ، واحتسابا لثوابه ، ويصبر فيه على كثير مما يقاسى ، وتلك منزلة من التضحية أعلى من التضحية فى الزكاة ، لأن التضحية بشىء من النفس أعز وأغلى من التضحية بشىء من المال .

أما الفريضة الخامسة وهى الحج ، ففيها ذلك كله على أبلغ وجه ، وأكمل صورة : فيها الاعتراف بالله ، والإيمان برسوله إلى حد الترك لكل ما سواهما من المال والأهل والولد ، فيها التوجه إلى الله ، لا بواسطة قبلة بينه وبينها آلاف الأميال ، ولكن بالرحيل إلى هذه القبلة نفسها ؛ فيها بذل الكثير من المال عن رضى وسخاء ، فيها التضحية بالنفس ، واحتمال مشاق السفر والاغتراب ، والتحلل من سلطان العادة فى متع العيش ولذاته ؛ فيها خلع ثياب الدأب والعمل والكدح وارتداء ثياب التطهر والإحرام والتسليم ؛ وفيها إلى ذلك كله زيارة الله فى بيته ، والمثول بين يديه فى المكان الذى قدسه ، والزمان الذى قدسه .

هكذا شأن فريضة الحج : كل ما قبلها بمثابة التمهيد لها ، مثل العبد فيها كمثل امرىء أحب ملكا عظيما ، ودان له وهو فى طرف من أطراف ملكه بالخضوع والولاء ، ينفذ أوامره ، ويخلص فى خدمته ، ويقوم بكل ما عليه من واجبات فى سبيله ، ثم يدعوه هذا الملك العظيم ، فيهرول إليه مسرعا ، ويخلع نفسه من كل ما هو فيه ، ويأخذ لهذه الزيارة التى ستتم فى بيت الملك أهبتها ، فيتزين ويتطيب ، ويقطع المراحل الطوال حتى يصل إلى غايته ، ويحظى بأمنيته ! « ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » ؟

القومية الإسلامية

لحضرة صاحب الفضيلة الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

نحن اليوم فى عصر القوميات الثائرة . هذه القوميات التى عمدت إلى المبادىء والنظريات تؤيد بها نضالها الدامى ، وكفاحها الدائم فى سبيل السيطرة على العالم ، وتتبجج فتبرر وحشية النضال والقضاء على المثل الإنسانية الرفيعة ، بحجة تحقيق الرخاء والسلام لبنى الإنسان .

وقد رأينا كيف ذاق العالم الأمرّين من هذه القوميات الثائرة المتعصبة فى الحرب الماضية والتى قبلها ، وكيف فشلت كل المنظمات العالمية ذات القوانين الوضعية فى كبح جماحها ، وتحرير العالم من سيطرتها ، كما فشلت فى تنظيم تعاملها وإشعارها بالأخوّة الإنسانية ، لأن الذين نظموها ووضعوا دستورها ، هم أنفسهم قواد القوميات المتنازعة ، وطلاب السيادة على العالم .

* * *

وكذلك كان الوضع قديماً قبل الإسلام : تعصبٌ قومى فى كل مكان . وحروب مستمرة بين القوميات .

فقدماء اليونان كانوا يرون أن السيادة الإنسانية مقصورة على العنصر اليونانى والدم اليونانى وحده ، وكل غير يونانى ـ جميع العالم ـ (برابرة) من حق اليونانى أن يستعبدهم ؛ حتى اننا لنجد شيخ الفلاسفة ــ أرسطو ــ يُعرّف الرقيق بأنه عنصر غير يونانى لأن اليونانى لا يمكن أن يستعبد !

وخلفهم الرومان على السيطرة والفلسفة ، فاعتنقوا هـذه النظرية أيضاً ، واعتقدوا أن غيرهم عبيد لهم ، وإن كانوا قد أعطوا هؤلاء (البرابرة) شيئاً تافهاً من الحقوق الإنسانية .

وفى الشرق اعتز الفرس بقوميتهم وعنصرهم إلى حد بعيد ، ورأوا غيرهم همجا ليس لهم من الشرف الإلهى مثل ما لهم ! .

وإلى جانب هؤلاء كان العرب ، أمة شعبتها العصبية ، وفرقتها الأهواء والنزوات فلا رابط يربط بين قبائلها ، ولا جامع يجمع شتاتها ، حتى احترب بنو الأب الواحد فى سبيل الهوى والشيطان ، وسيطر التعصب على كل شىء عرفى وتحكمت العصبية القبلية حتى كانت الموجه الأول للحياة العربية ، والحروبُ الطاحنة التى دارت بين الفرس والإغريق ، ثم بين الفرس والرومان ، وبين الرومان والقرطاجيين ، وبين الفرس والعرب فى ذى قار ، خير دليل على مدى الكفاح بين القوميات فى العصور التى سبقت الإسلام ، ولم تستطع جميع الرسالات وجميع الفلسفات قبل الإسلام وقف تيار العداء والحرب بين القوميات ، بل لم تستطع التقليل من ويلات الحروب أو التخفيف من هوس العصبية وجنونها .

فلما جاء الإسلام ، والعالم المتمدن ـ الفرس والروم ـ فى نضال دموى رهيب والعرب فى تطاحن قبلى مرير ، أعلن فساد هذا الوضع الاجتماعى العالمى ، كما أعلن فساد الوضع الدينى سواء بسواء .

جاء الإسلام فقرر العلاج الناجع لداء الإنسانية الذى استعصى على جميع الديانات والفلسفات ، فرأى أن يجمع هذه القوميات المتحاربة تحت لواء واحد ، ليس لواء السيطرة والسيادة لإحداها على الأخرى ، وليس لواء التحالف بين قوميتين على ابتلاع غيرهما ، ولكن لواء الأخوة الإنسانيه ؛ التى تقتضى المساواة والعدل والحب والسلام ، يوجه هذا اللواء روح دينى يتغلغل فى نفس الإنسان حتى يختلط بدمه ، ويضمن هذا التوجيه دستور قويم ، ليس من وضع طامع ولا متعصب ؛ دستور عالمى من وضع خالق العالم ، العليم بذات الصدور .

فذكّر الناس بأنهم جميعا خلق أله واحد ، وبنو أب واحـــد ، فهم عباد لله وإخوة ، ومن واجبهم ، أن يكونوا متحابين ، متفاهمين لا متقاطعين ، متعارفين لا متنابزين ، وجعل مقياس الصلاحية عند الله ـ للأفراد والشعوب ـ مدى القرب أو البعد من الشرور ، ومدى النفع الذى يحققه ـ الفرد أو الشعب ـ للصالح الإنسانى العام ؛ وجعل الدين عالميا ، والرسول للناس كافة ، أبيضهم وأسودهم ، أحمرهم وأصفرهم ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم » ، « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وزاد النبى عليه السلام هـذا المعنى إيضاحا وتأكيدا بقوله : « أيها الناس . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » ، « ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية ؛ ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية » ، وقال فى شأن فارس عربى قاتل المشركين تحت لوائه عليه الصلاة والسلام عصبية لقومه ، قال عند ما ذكر له ذلك : إنه فى النـار » .

وبهـذه الأخـــوة التى قررها الإسلام بين بنى الإنسان جميعا فى النصوص السالفة ، وبالأخوة الخاصة التى أقامها بين المؤمنين الموحدين والتى تظهر جلية فى قول الله تعالى : « إنمـا المؤمنون أخوة » وقول الرسول صـلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم . لا يظلمه ولا يخذله » « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

بهذا كان الإسلام ـــ منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ـــ أول مقرر لفكرة « العالمية » التى تهدف إلى جمع البشر فى نطاق الأخـوة الإنسانية ، و « الزمالة » العالمية ، لخدمة الإنسانية كلها ، ولصالح السلام العام بصرف النظر عن الأجناس والألوان ، والأحساب والأنساب ؛ وقضى بذلك على عوامل التعصب وأسباب الحروب القومية ، وضمن للبشرية ـ إذا اتبعته ـ حياة أمن وحرية ورخاء وسلام .

وقد طبق رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ الجديد عمليا فى المحيط العربى ، فحول شتات العرب جمعا ووحدة ، والعداوة القبلية ألفة ومحبة ؛ وربط

بالاسلام بين قلوب الناس ، ووحد أهدافهم ، كما حول « العصبية القبلية » الداعية إلى التفرق والضعف ، إلى « قومية دينية » هى « القومية الإسلامية » ، وأذكى هذا الروح القوى ليتعاون مع مبادىء الإسلام فى بناء الوحدة الإنسانية ، على أسس من العدل والانصاف لا على الظلم والعدوان ؛ ثم وجه عليه الصلاة والسلام طاقة هذه القومية لخدمة الإسلام ورعاياه بلا تمييز ولا تفريق ، وحملها أمانة تبليغ الإسلام إلى جميع شعوب الأرض ، وأفهم العرب أن دين الله عام خالد لجميع عباده ، وأن خلق الله أمام الله سواء كأسنان المشط ، ثم رأيناه عليه الصلاة والسلام : يقرب إليه بلال بن رباح الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيبا الرومى ، ويجعلهم فى صف خلصائه ، كأبى بكر وعمر وعلى ، بعد أن رأينا مبلغ اعتزازه وتقديمه لزيد ابن حارثة وابنه أسامة ، وفى ذلك يروى قول الرسول : « سلمان منا أهل البيت » ويقول عمر : « أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » يعنى بلالا الحبشى .

ثم يختلط الإيمان بدم المسلمين ، ويتغلغل فى قلوبهم روح القومية الإسلامية تغلغلا أنسى سلمان فارسيته يوم جلولاء . فقاتل قومه وهو يصيح : أنا ابن الإسلام ! ويعبر عن هذا المعنى بوضوح تام ، إبّان فتوة الإسلام . خبيب بن عدى الأنصارى يوم قتله المكيون بعد أسره فى حادثة الرجيع بقوله من قصيدة له قبل مصرعه :

ولست أبالى حين أُقتَل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

وقول بعضهم :

فنحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله مَن شكَر

وقول آخر :

أبِى الاسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ولقد اقتدى الراشدون برسول الله عليه الصلاة والسلام فى محاربة العصبيات والقوميات المفرّقة ، وفى إذكاء روح القومية الإسلامية ، فهذا أبو بكر . يقرُّ إمرة أسامة بن زيد على المهاجرين والأنصار ، رغم احتجاج بعضهم ، وهذا عمر ابن الخطاب يقول فى بعض خطبه : « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا

بغير عمل ، لـكانوا أحق بمحمد منا يوم القيامة ؛ أيها الناس : إن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه . . . . » وها هو ذا يستخلف صهيب بن سنان الرومى على الصلاة بالمسلمين ، ويقدمه على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

ولما اتسعت ارض الإسلام بنشر لوائه على بلاد الشام وبلاد فارس ومصر ، ودخلت فيه قوميات جديدة ، رأينا عمر رضى الله عنه لا يتعرض لكثير من التقاليد القومية فى تلك البلاد ما دامت لا تتنافى مع قواعد الإسلام ، واكتفى بالاشراف على الإدارة والحرب والتوزيع المالى والقضاء ، وترك لها كل شئونها الأخرى ، ـ وهو ما يعبر عنه اليوم بالاستقلال الذاتى ـ وطبقت مبادىء الإسلام فى تلك البلاد كما طبقت على العرب ، وصرفت زكاتها وخراجها فى مصالحها العامة ، حتى ان سعد بن عمير عامل حمص ، ليقول لعمر : (وهو يحاسبه) والله لو بقى لك درهم واحد لأتيتك به ، بعد صالح المسلمين » ا .

أما أبناء هذه القوميات الجديدة فقد امتزج الاسلام بقلوبهم ، ونسوا ـ إلى حد بعيد ـ قومياتهم ، وتعاونوا مع العرب فى نشر الإسلام خارج أقطارهم ، على قدم المساواة مع العرب . لهم مالهم من حقوق ، وعليهم ماعليهم من واجبات ، ثم تولى أبناء هذه القوميات بعد ذلك حماية الاسلام بالسيف والقلم .

وإذا كان العرب قد سموا المسلمين من غيرهم (الموالى) فإنهم فى جميع عصور القوة الروحية كانوا يقدرونهم ، ويحترمونهم ، ولم ينكروا فضلهم ، وإذا قلنا : إن العرب قد جردوا سيوفهم ، لحماية الاسلام والدفاع عن حرية العقيدة ، فواجبنا أن نقول : إن الموالى قد جردوا سيوفهم ، وشرعوا أقلامهم ، وشحذوا أفكارهم لنشر الاسلام وحمايته ، والدفاع عنه ضد الإلحاد والفلسفات الإباحية ؛ وعن هذا يحدثنا ابن عبد ربه عن ابن أبى ليلى بأن فقهاء الأمصار الإسلامية كلها فى أوائل القرن الخامس الهجرى كانوا جميعا من الموالى ، غير عربى أو عربيين فى الكوفة ويقول لنا ياقوت الحموى : إن الفقه بعد العبادلة فى جميع البلدان صار الى الموالى

فى أوائل القرن السابع الهجرى ، سوى عربى فى المدينة هو سعيد بن المسيب (١) .
وفى جميع عصور القوة الروحية ، التى كان الإسلام وحده هو الموجه للحاكمين والمحكومين فيها على السواء ، كانت القومية الإسلامية متميزة ، وارفة الظلال فأظلت بتسامحها وعدالتها وإنسانيتها جميع البلاد الإسلامية ، وكان الرجل عند ما يسأله سائل فى بلد أجنبى (غير إسلامى) عن هويته يقول أنا مسلم من بلدة كذا ! وكان الأوربيون يلقبون جميع الشرقيين بالمسلمين . دون نظر إلى قطر أو قومية محلية ؛ وفى جميع فتوحات الإسلام كانت الجيوش « قومية إسلامية » لا « قومية محلية » ! وكانت الوظائف الكبرى لذوى الكفاية من المسلمين كيفما كانت قومياتهم المحلية ، وشغل منصب الوزارة عرب وغير عرب ، وكان أئمة الإسلام كذلك .

حقيقة نجد فى العصور الأولى ما يشعرنا بالاعتداد بالقومية المحلية ، والتعصب الإقليمى بين العرب وغير العرب ، ولكن هذا بالضبط كالذى نجده بين العرب أنفسهم من تفاخر وتعصب قبلى كما يبدو بين عرب الجنوب وعرب الشمال . بل بين بنى القبيلة الواحدة ؛ وليس هذا على أى حال ممثلا لروح الاسلام ، بل لا يمارب الاسلام فى شىء ، ولم يكن طابعا عاما للمجتمع الاسلامى - كما يدعى المغرضون - وكثيرا ما كان صدوره عن نفوس عابثة مريضة لم تخالطها بشاشة الإيمان .

ولسنا نقصد بذلك الذى أسلفنا أن نقرر أنه لم تكن هناك قوميات محلية ؛ وإنما قصدنا أن هذه القوميات المحلية تآخت . كما تآخى الأفراد بالاسلام ، وتفاعلت مع مبادىء الأسلام ، ونتج من تآخيها وتفاعلها « القومية الإسلامية » ، وأصبح الاسلام هو الموجه الأول لها متفرقة ومجتمعة ، كما أصبح هدفها هو الصالح الاسلامى العام ، وكانت الخلافة هى رمز القومية الاسلامية ؛ وإلى حد ما . يمكننا أن نشبه حال هذه القوميات المحلية مع القومية الاسلامية التى تمثلها الخلافة بالاتحادات الفدرائية الحديثة — أى أن كل قومية كانت تحتفظ بطابعها الخاص

(١) راجع العقد الفريد ج ٢ ص ٦٤ ، ومعجم البلدان كلمة خراسان .

فى ظل الأخوة والوحدة التى فرضها الإسلام على أتباعه، وطالبهم على اختلاف ألوانهم أن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، ولأمر ما اعتبر معظم الفقهاء العرف فى كثير من الأحكام الفقهية، حتى قال الاحناف : المعروف عرفا، كالمشروط شرطا.

* * *

يستبين لنا مما تقدم أن « القومية الجاهلية » القديمة والحديثة : التى تعنى التمايز الجنسى، والتفاصل العنصرى، وتقضى بالصراع الدامى فى سبيل السيادة على غيرها، وتفرض على بنيها احتقار أبناء القوميات الأخرى، وتقيم الحواجز والفواصل فى سبيل التعارف الإنسانى، وسلام العالم — هذه القومية الجاهلية تنكرها « رسالة الإسلام »، ولا تعطيها حق الوجود، لأن رسالة الإسلام، هى دعائم السلام العام :

وبذلك آمن المسلمون، وساروا على هذا النهج القويم ما تمسكوا بدينهم، فلما ضعفت سيطرة الروح الإسلامى على النفوس، وخلصت الدنيا بزخرفها إلى القلوب، وأصبحت الأثرة والشهوة هما الموجه القوى ؛ أطلت القومية الجاهلية، والعصبية الجنسية من فوهة الجحيم على المسلمين، بإغراء من الملحدين وأرباب الأغراض الخبيثة، ووجدت لذلك قلوباً فارغة فاحتلتها، فانقسم المسلمون واحتربوا فى سبيل الهوى والسلطان، ثم ازدادت عوامل التفرق، بامتداد الزمن، وازدياد بعدهم عن روح الاسلام، وبعدهم عن تحكيمه فيما شجر بينهم، ثم امتد الزمن وازداد المسلمون ضعفا، وازداد الأوربيون قوة، ونظروا إلى المستقبل وخافوا إن هم تركوا المسلمين وشأنهم، أن يتحدوا فيذيقوا أوربا طعم أندلس جديدة فاحتلوا بلادهم، واستنزفوا مواردهم، وأغروا العداوة القومية بينهم، حتى قطعوا أرحامهم وتنابزوا بما لم يأذن به الاسلام، وأصبحوا يدورون فى أفلاك شتى ليس من بينها — على أى حال — فلك الاسلام.

وبعد. فهل لنا — : وقد استيقظ المسلمون وتحركت الغيرة الاسلامية فى

قلوب كثير من قادة الرأى والفكر فيهم — أن ندعو المسلمين إلى العودة مرة أخرى إلى القومية الاسلامية ، وهى كفيلة بتحقيق المساواة والعدل بين الجميع ، ووقايتهم من الفلسفات الحديثة التى لا تصلح لهم ولا يصلحون لها ؟

إنى أعتقد أننا نستطيع العودة إلى رحاب القومية الاسلامية ، عن طريق : وحدة الثقافة ، والتقريب بين المذاهب الفقهية ، والقضاء على الخلافات الطائفية ، وحسن التوجيه السياسى ، وعلى ﴿ رسالة الإسلام ﴾ أن تفهم المسلمين أن مذاهبهم الفقهية ، تشبه تماما المذاهب الفلسفية فى الدول الأخرى التى لا تلتق عند هدف ، ولا يجمع بينها إلا الشيطان ، ومع ذلك لم تفرق جمعاً ، ولم تقض على قومية ؛ بينما تلتق المذاهب الاسلامية كلها تحت راية القرآن ؛ عليها أن تفهمهم ذلك فى شأن الفقه ، وأن تفهمهم فى شأن العقائد أن الله كلفهم الإيمان بأصول بينها لهم بيانا شافياً قاطعاً ، ولم يدعها لاختلافاتهم واجتهاداتهم ، ثم أطلق لهم عنان البحث والنظر فيما وراء ذلك على ألا ينكروا نصا ، ولا يخرجوا عن أصل قاطع ، ولا يعارضوا حكما علم من الدين بالضرورة ، فإذا كان هذا شأنهم ، وكان الأمر فيه متفقاً عليه بين ذوى العلم والبصيرة فيهم ، فإن أمر الخلاف لا يضر ، وإن اعتناق كل طائفة ما تعتنق من رأى ، لا ينبغى أن يحول بينهم وبين التعارف والتآلف والتعاون على البر والتقوى ، واتخاذ « القومية الاسلامية » شعارهم الأول ، وغرضهم الأسمى ، فإن الزمان لا ينظرهم ، والأعداء لا يحكمون فى خلافاتهم ليصلوا إلى حق ينصرونه أو باطل يقمعونه ، ولكنهم يحكمون عليهم جميعاً بعدم الصلاحية للتقدم ، وتسنم منازل الشرف ، فيضربونهم جميعاً ، ويهلكونهم جميعاً .

ثم هل لنا أن ندعو قادة العالم إلى الاسلام ليصحح لهم أوضاعهم الخاطئة ، ويقيم لهم السلام على دعائم الأخوة الانسانية والعدل والرحمة ، ويحقق لهم ما يريدونه من تعاون عالمى ، وزمالة لخدمة البشرية كلها ؟ .

« سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ؟

في الادب العربي

أمالي المرتضى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ أبي محمد العرجاوى

من علماء المعهد الديني بالاسكندرية

كان السيد المرتضى راوية للشعر وما أثر عن العرب من جيد الكلام ، وكان من كثرة ما قلّب في ذلك وروّى فيه ، نقادة بصيرا ينفذ بنور قلبه إلى دخيلة المعنى وحقيقته ، فلا يصرفه مظهر عن مخبر ، ولا يغره قشر عن لباب ، وكان مما يعينه أيضا على الغوص على المعاني ، أنه كان ذا علم بعادات العرب وأساليبهم في الحياة ، فإنا نرى حياة قوم من الناس وشئونهم وما يلابسون من عمل ، وما يكابدون من خير أو شر ، وما يسكنون من أرض وديار ، وما يطعَمون من نبت وثمار ؛ كلّ ذلك ذا أثر فيما يقولون ، وفيما إليه يرمون ، وهؤلاء هم أساتذة الأدب ، وصيارفة الكلام ، يستطيعون في يسر وسهولة ـ لطول ما مرنوا ـ أن يميزوا كلام شاعر من كلام شاعر ، وأن يحكموا على قول بأنه من أى منبت نبت ، وفى أى عصر صدر .

وقد رسخت هذه الملكة القوية في نفس السيد الشريف المرتضى ، وظهرت آثارها في كتابه ، وانضم الى هذه البصيرة النافذة في الرجل ، علم غزير بكتاب الله وحديث رسوله عليه الصلاة والسلام ، وعقائد الإيمان ، ومعارف المتقدمين

والمتأخرين ممن خاضوا فى الكلام ، وجادلوا فيه ، وطوّفوا به فى كل واد ، لهذا كان الشريف رضى الله عنه أديباً كاتباً عالماً متكلما فقيهاً ، ولهذا كله كان « نقادا » . . .

وإنا لموردون فى مقالنا اليوم عن كتابه بعض الأمثلة على ذلك ، متحرون أن تكون من الطراز الذى يشترك فيه أهل العلم والأدب جميعا :

(١) فمن ذلك أنه ساق فى مجلسه الأول خبرا يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم هو قوله : « من تعلم القرآن ثم نسيه لقى الله وهو أجذم » ، وساق آراء أهل العلم فيه ، فروى عن أبى عبيد القاسم بن سلام أنه فسر « الأجذم » بالمقطوع اليد واستشهد بقول المتلمس :

وما كنت إلا مثلَ قاطع كفّه بكف له أخرى فأصبح أجذما

وروى عن عبد الله بن مسلم بن قتيبة نقدا لهذا التأويل خطّأ فيه أبا عبيد ، ذلك أنه قال : الأجذم وإن كان مقطوع اليد فإن هذا المعنى لايليق بهذا الموضع ، لأن العقوبات من الله لا تكون إلا وفقاً للذنوب وبحسبها ، واليد لا مدخل لها فى نسيان القرآن ، فكيف يعاقب فيها ؟ واستشهد ابن قتيبة على ذلك بقوله تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » فان الربا إذا أكلوه ثقل فى بطونهم ، وربا فى أجوافهم ، فجعل قيامهم مثل قيام من يتخبطه الشيطان تعثرا وتخبلا ، واستشهد أيضاً بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله : « رأيت ليلة أسرى بى قوماً تقرض شفاههم ، وكلما قرضت وُفِّيَت ، فقلت ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطباء أمتك تقرض شفاههم لأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

هذا ما نقد به ابن قتيبة أبا عبيد ، فأما ما اختاره هو فى معنى الحديث فإن الأجذم إنما هو المجذوم ، وإنما جاز أن يسمى المجذوم أجذم ، لأن الجذام يقطع أعضاءه ويشذّ بها ، والجذم القطع .

فقد نظر هذان العالمان إلى لفظ « أجذم » الوارد فى الحديث ، فحاما حول

معناه الحقيق الذى يجرى التعبير به فى وضع اللغة ، والذى تذكره القواميس ، وكان حومهما حول هذا المعنى فى ظل ما تأثرا به من ظنّ أن العذاب يوم القيامة إنما هو جسمانى كله ، كعذاب النار وما فيها من الأهوال ، أعاذنا الله تعالى وإياكم منها ، ولكن الشريف رضى الله عنه لا يعجبه ذلك النقد ، ولا يراه فى تأويل الحديث رأيا ، فيخطىء الرجلين جميعا ، ويقول إنهما ذهبا عن الصواب ذهابا بعيدا ، وإن كان غلط ابن قتيبة أفحش وأقبح ، لأنه علل غلطه فأخرجه إلى أغاليط كثيرة .

ثم مضى السيد فذكر لنا أولا رأيه فى معنى « الأجذم » فى الحديث ، وخلاصته أن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما أراد بقوله « يحشر أجذم » المبالغة فى وصفه بالنقصان عن الكمال ، وفقد ما كان عليه بالقرآن من الزينة والجمال ، والتشبيه له بالأجذم من حسن التشبيه وعجيبه لأن اليد من الأعضاء الشريفة التى لا يتم كثير من التصرف إلا بها ، فمن فقدها ؛ يفقد ما كان عليه من الكمال ، وتفوته المنافع والمرافق التى كان يجعلها ذريعة إلى تناولها ، وهذه حال ناسى القرآن ومضيعه بعد حفظه ، لأنه يفقد ما كان لابسا من الجمال ، ومستحقا له من الثواب ، قال الشريف : « وذلك ظاهر لمن كان له أدنى معرفة بمذاهب العرب فى كلامها . فإنهم يقولون فيمن فقد ناصره ومعينه : فلان بعد فلان أجدع ، وقد بقى بعده أجذم ، وقال الفرزدق يرثى مالك بن مسمع :

تضعضع طوْدا وائلٍ بعد مالك وأصبح منها مَعْطِس العز أجدعا

وإنما أراد المعنى الذى ذكرناه ، وللعرب ملاحن فى كلامها ، وإشارات إلى الأغراض ، وتلويحات بالمعانى ، متى لم يفهمها ويتسرعْ إلى الفطنة لها مَنْ تعاطى تفسير كلامهم ، وتأويل خطابهم ، كان ظالما نفسه ، متعديا طوره » .

ثم بين الشريف وجه الخطأ فيما ذهب إليه أبو عبيد وابن قتيبة ، فذكر أن الأجذم هو الأقطع لا محالة ، ولكن معناه الحقيق غير لائق بهذا الموضع ، لأن الجذم لو كان عقوبة لكان ناسى القرآن يستحق عقوبة على نسيانه ، وكان حفظه

بأسره فرضا واجبا ، إذ العقوبة لا تستحق إلا بترك واجب ، وليس حفظ جميع القرآن كذلك ، ثم ذكر أن ابن قتيبة أخطأ من حيث ظن أن العقوبة لا تكون إلا فى محل الذنب ، وهذا القول يوجب عليه ألا يجلد ظهر الزانى ، وتختص العقوبة بفرجه ، وكذلك القاذف كان يجب أن يعاقب فى لسانه دون سائر أعضائه . قال « والخبر الذى استشهد به حجة عليه ، لأنا نعلم أن اللسان أقوى حظا فى باب الكلام من الشفة ، فلم لم يخص بالعقوبة وحلت بالشفاه دونه ؟ ثم غلطه فى تأويل الآية التى أوردها أقبح من كل ما تقدم ، لأنه توهم أن ما تضمنته الآية من تخبط آكل الربا ، وتعثره فى القيام ، إنما هو فى الدنيا من حيث يثقل ما أكله فى معدته فيمنعه من النهوض ، ونحن نعلم ضرورةً خلافَ ذلك ، ونجد كثيرا من آكلى الربا أخفَّ نهوضا ، وأسرع قياما وتصرفا ، من غيرهم ممن لم يأكل الربا قط ، والمعنى فى الآية هو ما ذكره المفسرون من أن ما وصفهم الله به يكون عند قيامهم من قبورهم ، فيلحقهم العثار والزلل والتخبط على سبيل العقوبة لهم ، وليكون ذلك أيضا أمارة لمن يعاقبهم من الملائكة والخزَنة على الفرق بين الولى والعدو ، ومستحق الجنة ومستحق النار » .

(٢) ومن ذلك ما ذكره فى المجلس الثانى من تفسير قوله تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » ، فقد أورد ما ذكره أبو مسلم بن محمد بن بحر الأصبهانى إذ يقول : « إنما خص الموزون دون المكيل بالذكر لوجهين : أحدهما أن غاية المكيل تنتهى إلى الوزن ، لأن سائر المكيلات إذا صارت طعاما دخلت فى باب الوزن ، وخرجت عن باب الكيل ، فكان الوزن أعم من الكيل ، والوجه الآخر : أن فى الوزن معنى الكيل ، لأن الوزن هو طلب مساواة الشىء بالشىء ، ومقايسته إليه وتعديله به ، وهذا المعنى ثابت فى الكيل ، وخص الوزن بالذكر لاشتماله على معنى الكيل » .

وهكذا نرى أن الرجل يذهب إلى معنى الوزن والكيل فى الموزونات والمكيلات ، كأن الله يمنُّ على عباده بأنه أنبت لهم ما يوزن أو يكال ، ولذلك

يرفض الشريف هذا المعنى ويقول « ووجه الآية وما شهد له ظاهر لفظها غير ما سلكه أبو مسلم ، وإنما أراد الله تعالى بالموزون المقدر الواقع بحسب الحاجة ، فلا يكون ناقصا عنها ولا زائدا عليها زيادة مضرة أو داخلة فى باب العبث ، ونظير ذلك من كلامهم قولهم : كلام فلان موزون ، وأفعاله موزونة مقدرة ، وإنما يراد ما أشرنا إليه ، وعلى هذا المعنى تأول المفسرون ذكر الموازين فى القرآن على أحد التأويلين ، وأنها التعديل والمواساة بين الثواب والعقاب ، قال الشاعر ـ وهو ذو الرمة : ـ

لها بشر مثل الحرير ومنطق ... رخيم الحواشى لا هُراءٌ ولا نزر

الهراء : الكثير ، والنزر : القليل ، وكأنه قال : إن حديثها لا يقل عن الحاجة ، ولا يزيد عليها ، وهذا يجرى مجرى أن يقول هو موزون ، وقال مالك بن أسماء ابن خارجة الفزارىّ :

وحديثٌ ألَذُّه هو مما ... ينعت الناعتون يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحيا ... نا وخير الحديث ما كان لحنا

وهذا الوجه الذى ذكرناه أشبه بمراد الله تعالى فى الآية ، وأليق بفصاحة القرآن وبلاغته الموفيتين على فصاحة سائر الفصحاء وبلاغتهم » .

وقد استطرد السيد الشريف بعد ذلك ، ففسر اللحن الذى فى شعر مالك ، وبين أنه ليس اللحن فى الإعراب الذى هو ضد الصواب ، وساق شواهد من الشعر والحديث والأخبار تفيد فى معرفة المراد منه ، فطوَّف من ذلك فى واد خصيب ، وأتى بما لا يزال يؤثر عنه ، ويؤخذ منه .

(٣) ومن طرائف ما أورده الشريف رضى الله عنه أنه روى عن ذى الرمة الشاعر ، وهو غيلان بن عقبة المكنى بأبى الحارث أنه كان على مذهب أهل العدل وهو لقب المعتزلة ، وإنما لقبوا به أنفسهم لقولهم بوجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى ، وأنه يعاقب المسىء حتما على إساءته ، كما يثيب المحسن حتما على إحسانه .

قال الشريف : ويشهد بمذهبه فى العدل « ما جاء عن أبى عبيدة من أنه اختصم هو ورؤبة عند بلال بن أبى بردة ، فقال رؤبة : والله ما فحص طائر أفحوصا ،

ولا تقرمص سبع قرموصا إلا بقضاء من الله وقدر ، فقال له ذو الرمة : والله ما قدَّر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيايلَ ضرائكَ ، قال رؤبة : أفبقدرته أكلها ؟ هذا كذب على الذئب ثان ، فقال ذو الرمة : الكذب على الذئب خير من الكذب على رب الذئب ، وهذا الخبر صريح فى قوله بالعدل ، واحتجاجه عليه ، وبصيرته فيه — يريد أن فعل الذئب شر ، والله لا يريد الشر كما يقول المعتزلة — فأما العيايل فجمع عيِّل ، وهو ذو العيال ، والضرائك جمع ضريك وهو الفقير .

ثم روى عن لبيد بن ربيعة العامرى ما استُدِل به على أنه جبرى ، وذلك قوله :

إنّ تقوى ربنا خير نَفَل وبإذن الله رَيْثى والعجل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعمَ البال ، ومن شاء أضل

ودفع هذا عنه بقوله : « وإن كان لا طريق إلى نسبة الجبر إلى مذهب لبيد إلا هذان البيتان فليس فيهما دلالة على ذلك ، أما قوله : « وبإذن الله ريثى والعجل » فيحتمل أن يكون « بعلمه » كما يتأول عليه قوله تعالى : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » أى بعلمه ، وإن قيل فى هذه الآية انه أراد : بتخليته وتمكينه ، وإن كان لا شاهد لذلك فى اللغة أمكن مثله فى قول لبيد ، وأما قوله : « من هداه اهتدى ومن شاء أضل » فيحتمل أن يكون مصروفا إلى بعض الوجوه التى يتأول عليها الضلال والهدى المذكوران فى القرآن مما يليق بالعدل ولا يقتضى الإجبار ، اللهم إلا أن يكون مذهب لبيد فى الاجبار معروفا بغير هذه الأبيات ، فلا يتأول له هذا التأويل ، بل يحمل مراده على موافقة المعروف من مذهبه » .

وهذا باب من القول خبَّ فيه الشريف ووضع ، ولعله ما ساق كتابه إلا له ، ولا بناه إلا عليه ، فلا نكاد نجد آية أو خبرا يحتمل ظاهره خلافا ، وأن يكون له دلالة على الجبر ، ومناقضة لما يراه « المعتزلة » ؛ إلا تكلم فى ذلك وخرّجه وحمله على معنى يصرف عن التمسك به ، والاحتجاج بظاهره .

وقد اتُّخذ كتابه فى هذا الشأن مرجعاً وفيصلا وثبتا لآراء أصحابه ، وما لهم من قول واحتجاج ، ولعلنا نرجع إلى ذلك يوماً بالبسط والتفصيل إن شاء الله ؟

هل من جامعة إسلامية؟

لحضرة صاحب السعادة القاضي محمد بن عبد الله العمرى

وكيل وزارة خارجية المملكة المتوكلية اليمنية (*)

تحقق ، والحمد لله ، ذلك الحلم الجميل الذى كان يداعب أفكار العرب منذ زمن بعيد ، وأنشئت « الجامعة العربية » التى كان لها الفضل الأكبر فى تنبيه الشعوب العربية إلى ضرورة التآلف والتآزر فى هذا العصر ، حتى أصبح العرب بنعمة الله إخواناً متحابين متعاونين ، شعورهم واحد ، وأهدافهم واحدة ، وأصبحت قضايا أى قطر من الأقطار قضايا للجميع ، يشتغلون بها ، ويفكرون فيها ، ويتعاونون على حلها ، ويشعر أقصاهم وأدناهم فى شأنها بشعور واحد .

وإذا كانت « الجامعة العربية » حتى الآن لم تنجح النجاح الذى كان متوقعاً لها ، والذى كان يرجوه كل عربى مخلص لعروبته ، وإذا كان قد ران على صفحتها الناصعة شىء من غبش الحوادث الأخيرة ؛ فإنما مردّ ذلك إلى ما يحاك لها من الدسائس ، وما يبث فى طريقها من العقبات .

إن خصوم العرب يقلقهم دائما ، ويقض مضاجعهم أن يروا جميع شعوبهم متماسكة متآزرة ، تصدر عن رأى واحد ، وترمى إلى هدف واحد ، ولذلك نراهم يتخذون كل الوسائل الظاهرة والخفية ، ليفرقوا بين صفوفهم ، ويخيلوا إليهم أن مصالحهم متعارضة ، وأن لبعضهم مطامع وأغراضاً لا يرضى عنها الآخرون ،

(*) سعادة القاضي محمد بن عبد الله العمرى أحد الأعضاء المؤسسين لجماعة التقريب .

وقد تساعدهم ظروف السياسة وتقلبات الأحوال فى ظاهر الأمر ، فيلتبس الحق بالباطل ، وتتبلبل الأفكار ، وتتهيأ النفوس لقبول الدعاوة السيئة ، دعاوة التفريق والتمزيق وتقطيع الصلات بين ذوى الأرحام ، وأبناء الأعمام .

وتلك شنشنة يعرفها التاريخ من أخزم ، فما كان أعداء العرب بذى خلق يردعهم ، ولا فضيلة تحول بينهم وبين ما يرتكبون من الإفساد ، وما كانت لهم فى الحقيقة قوى مادية ، ولا قوى نفسية وأدبية ، ترسم لهم فى الخصومة دائرة شريفة لا يتعدونها ، ولكنهم ألفوا أن يستبيحوا فى سبيل مطامعهم وأغراضهم كل شىء ، وأن يتوسلوا لقضاء مآربهم بكل وسيلة ، والعالم اليوم عالم مادى ليس للمثل فيه قيمة ، ولا لأخلاق الشرف وزن ، فإذا لم يصحُ العرب وينتبهوا إلى هذه الحقائق وينظموا شئونهم على أساسها ، فسيكونون — والعياذ بالله — طعما سائغا لنيران حامية يوقدها عليهم أعداؤهم ، ولن تنفعهم يومئذ أرحامهم .

وإنى على هذا لست بيائس ، ولا أحب أن يتطرق اليأس إلى قلب من القلوب فان المعهود أن الأحداث والاهوال تجمِّع ، ولن تلبث « الجامعة العربية » بعد هذه المحنة التى منيت بها ، وهذه العثرة التى دبرت لها ، أن تنهض من كبوتها ، وتخرج من محنتها ، وتسير فى طريقها أشد مضاء ، وأقوى عزيمة ، لأن هذا هو رأى الجميع ، وإرادة الجميع ، وما دامت هناك إرادة وإخلاص ، فلن يكون هناك إلا الخير والصلاح والتعاون إن شاء الله .

هذا ولا يغيب عن البال أن الرسالة المحمدية التى طلع فجرها من قلب البلاد العربية ، قد دعت إلى ما هو أبعد مدى ، وأوسع أفقا ، فتخطت حدود البلاد العربية ، وألفت القلوب على رابطة أخرى هى أسمى شأنا ، وأجل قدرا ، وأصبر على محن الدهر ، وتيارت العداوة والحرب ، من كل رابطة سواها ، تلك هى رابطة « الإيمان » التى تجمع بين العربى وغير العربى ، وتجعل من الجميع أمة واحدة متماسكة ، حيث يشعر كل مسلم بأنه أخ لكافة المسلمين ، وأن الناس جميعا متساوون كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

هذه الرابطة هي الربطة المقدسة التي أوجدت من جميع العناصر أمة موحدة كبيرة العدد ، مؤتلفة القلوب ، متحدة المقاصد ، قوية الإرادة ، أدهشت العالم بقوتها وعبقريتها ، وكانت خير أمة أخرجت للناس ، وإذا كانت « الجامعة العربية » حين صفا جوها ، وتوجهت القلوب إليها ، قد نبهت العالم إلى قيمة العرب ، وإلى وجوب التفاهم معهم ، واحترام حقوقهم ، مع أنها لا تعتمد إلا على روابط من اللغة أو الجوار أو العمومة أو الخؤولة ، فما أحرى « الجامعة الإسلامية » أن تلفت العالم إلى أمة متماسكة قوية لا ترضى بأن تهتضم ، ولا تستنيم إلى عسف يراد بها ، بل تؤدى فى العالم رسالتها السامية على بصيرة من أمرها ، وقوة فى شكيمتها ، ونفاذ فى عزيمتها ، ويومئذ تشرق على العالم شمس الرسالة المحمدية من جديد ، فتطهر عفونات الفساد ، وتقضى على أسباب الشقاء ، وعوامل الحرب والفناء .

وأول واجب على المسلمين فى سبيل تحقيق هذا المقصد الشريف ، أن تصفو منهم القلوب ، وتستل من بينهم العداوت ، وأن يتخففوا من الخلافات المضنية التى فرقت بينهم ، ومكنت الخصوم والأعداء من أعناقهم ، فإنه لا قوة مع خلاف ، ولا هيبة مع نزاع وشقاق ، ولا تجدى دعوة من الدعوات يوجهها إلى العالم قوم هم أنفسهم عنها معرضون ، ولطريقها السوى متنكبون ، ولقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بما سيصيب هذه الأمة من تفكك نتيجة للخلاف والجهل الطاغى ، فى غير حديث من أحاديثه الشريفة ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الآكلة إلى قصعتها ، قالوا : ومن قلة نحن يومئذ يارسول الله ، قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » وقد حققت الحوادث ، وأثبت التاريخ هذا الخبر النبوى الصادق ، فرأينا كيف احترب المسلمون ، وتقطعت بينهم الأواصر ، وأرخوا العنان لعوامل الخلاف ، وأسباب النزاع ، حتى تحكمت فى عامتهم وخاصتهم قرونا من الزمان ، وكيف غذاها أعداؤهم ودعاة السوء بينهم حتى أثمرت ثمرها المر البشع ، فذاقوا منها لباس الجوع والخوف

بما كانوا يصنعون ، وتحالفت عليهم المطامع ، واجترأت عليهم الذئاب ، وطمع فيهم الأفاقون وشذا ذالبشر ، ونفايات الأمم .

لقد بلّـغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته ، وأداها كما يجب ، ونصح بالاعتصام بالوحدة ، كما أشار إلى المشاق التى تعترض المتمسك بدين الإسلام ، وفضائل الإسلام ، فجاء فيما روى عنه صلى الله عليه وسلم : « يأتى على الناس زمان يكون القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر » وها هو ذا قد جاء ذلك الزمان ، فأصبحنا نرى المتمسك بدينه يعانى كثيرا من المشاق ، ويجاهد كثيرا من الأهوال ، وأصبحنا نرى الدعاة إلى الفضيلة كأنهم غرباء فى قومهم وأهليهم ، يُستثقل نصحهم ، ويجابَهون بصيحات الاستنكار ، ويحاكمون إلى الواقع وإن كان فاسدا ، والمألوف وإن كان باطلا ، بل يحاكمون ـ وهم يقولون : قال الله ، وقال رسول الله ـ إلى قول فلان وفلان من فلاسفة الغرب ، ودعاة مبادئه « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » .

ألا إنه ليجب على قادة المسلمين أن يكونوا مستعدين للتضحية ، قابلين لأن يقبضوا بأيديهم على الجمر فى سبيل نجاحهم ، واستعادة مجدهم ، وألا ييأسوا من روح الله ، ولا يذهلوا من هول ما أصاب أمتهم وأوطانهم ، فإن اليأس لا يكون مع الإيمان ، وأن الذهول والبُهْر لا يردان حقا ، ولا يدفعان باطلا .

وإذا كان الله جل علاه أوصى المؤمنين فى عهد النبوة الأولى بقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » ـــ إذا كان الله قد أوصى المؤمنين الأولين بهذه الوصية الجامعة الحكيمة التى تجمع عناصر النجاح والقوة والسياسة والحكمة ، فإن المسلمين اليوم فى حاجة أمس ، وضرورة أشد ،

للاعتصام بحبل الله ، واطراح التفرق وعوامل الضعف فى أية صورة ، لأن أعداءهم اليوم أكثر وأقدر وأصبر من أعداء آبائهم الأولين ، ولأن العالم اليوم يمضى قدما ، فلا يعذر المتخلفين ، ولا يستمع إلى خلاف المختلفين ، وجدال المتجادلين .

فهل يصيخ المسلمون إلى هذا النداء الذى ينبعث من قلب يؤمن بالله وكلماته ، وينطوى على أعظم الحب لدينه وأمته ؟ هل يتوسعون فى تآلفهم وتقاربهم وتعاونهم بإيجاد « جامعة إسلامية » تلم الشعث ، وتحيي الأمل ، وتخيف العدو ، وتسر الصديق ؟ هل يقيمون أمة إسلامية عاملة ناصبة كما أرادها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكما كانت فى أيام سلفنا الصالح ؟ لعمرى إن فى تحقيق هذا الأمر العظيم ، لخدمة كبرى للأمة الأسلامية ومن يعيش بين شعوبها وفى ذمة أهلها من غير المسلمين ، إذ هو خير تقوية لها ، وزيادة فى هيبتها ، ورفع لمكانتها بين الأمم ، وهو بعد ذلك أمر ضرورى لا بد منه فى زمن أصبح فيه التكتل والتعاون بين الأمم التى تربطها وحدة المصلحة من ألزم الأمور ، على أن الوسائل لتحقيق هذا يجب أن تكون متوافرة ، والموانع يجب أن تكون مستبعدة ، ومن أهم ذلك أن ينبذ الجميع أسباب الخلاف الطائفى ، والنزاع المذهبي ، وتلك العصبيات التى كانت من أهم العوامل فى إنهاك قوة المسلمين .

وإنى أهيب بجماعة التقريب ومجلتها الغراء ﴿ رسالة الإسلام ﴾ ومؤازريهم فى سائر البقاع والأصقاع ، أن يثبتوا فى هذا الميدان المقدس الذى وضعهم الله فيه ، وأن يجاهدوا فى الله حق جهاده ، لتكون الأمة واحدة ، ذات هدف واحد كما خلقها الله ربها الواحد ، وكما أرادها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يضيع أجر المحسنين ؟

افضل الدين الكاشانى
فيلسوف مغمور

لحضرة الدكتور محمود محمد الخضيرى
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

من أوهام المؤرخين فى القرن الماضى ـ أفضل الدين وصلته بالنصير الطوسى ـ درجته فى الشعر ـ مؤلفاته بالفارسية والعربية ـ تحليل المطالب الإلهية ـ رأيه فى قياس الخلف ـ تأثير « العرفان » على فلسفته وتصوفه .

فى النصف الأول من القرن الماضى لم يكن علماء أوربا يعرفون من أسماء الفلاسفة الإسلاميين إلا قليلا ممن نقلت آثارهم إلى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى ، وكان عدد هؤلاء الفلاسفة لا يزيد على العشرة ، أولهم الكندى ، وآخرهم فى الزمن ابن رشد الأندلسى ، وذهب بعض هؤلاء العلماء الى أن تاريخ الفلسفة فى الإسلام انتهت آخر صفحة من صفحاته بوفاة ابن رشد ، على أن علماء أوربا عدلوا بعد ذلك عن هذا الرأى الفاسد ، وهداهم بحثهم واجتهادهم الى أن الفلسفة ظهرت فى الإسلام قبل زمن الكندى ، وأن تاريخها أعمق وأغنى مما كانوا يتصورون ، وأن المسلمين ظلوا يشتغلون بالفلسفة فى مختلف البلاد ، يفكرون فى مسائلها الكبرى ، ويدرسونها ، ويؤلفون فيها الكتب ، سالكين شتى المناهج ، ومتجهين بالفكر الفلسفى مختلف الاتجاهات والمذاهب ، وكانت بعض البلاد أكثر أحيانا فى هذا المجال رجالا من البعض الآخر ، فينتقل بعضهم من بلد إلى بلد حيث تلقى تعاليمه بيئة مختلفة فيكون لها مع القبول والاجتهاد نتائج مغايرة ،

وكثيرا ما كان طالب الفلسفة يهاجر قاصدا الأخذ عن فيلسوف ذاع صيته يقيم فى بعض المدائن أو القرى يستقبل الراغبين فى الأخذ عنه لا يردّ عن منهله أحدا منهم .

وفى الحقيقة ان الحضارة الإسلامية أنتجت من الفلاسفة عددا كبيرا لم يحط به الإحصاء بعد ، ومن عُرف من هؤلاء ، فإن مؤلفاته لم يوقف عليها جميعا ، بل لم تُحصر أسماؤها جميعا ، ولذلك ينبغى ألا يأخذنا العجب إذا فاجأنا يوماً أحد الباحثين الموفقين باستكشافه لآثار فكرية قيمة تركها فيلسوف إسلامى مغمور لا يعرف أكثر المشتغلين بتاريخ العلوم الإسلامية عنه شيئا قبل إعلان هذا الكشف .

وإنى مخصص هذا المقال لفيلسوف إسلامى إيرانى فذ . جمع إلى درايته بالفلسفة وإحاطته بالكثير من فنونها ، النبوغ والتفوق فى الشعر . ومع ذلك فهو مجهول فى مصر لا أعرف فيها أحدا عنى بدرس أفكاره ، أو تتبع سيرته . هذا الفيلسوف الشاعر هو أفضل الدين محمد الكاشى أو الكاشانى ، وقد يذكر بلقبه فقط ، وهو بابا أفضل الدين ، وينسب إلى كاشان كما ينسب أيضا إلى مَرَق من قرى كاشان ، حيث دفن هناك ، ويلقب بالإمام وبالصدر ، وهو من أعلام المائتين السادسة والسابعة .

ولست بمتعرض لدرس شعره ، فهذا ليس غرضى ، ولا هو من اختصاصى ، ولكنى أكتفى للتدليل على علو درجته ، بإيراد شهادة لمستشرق كبير هو الأستاذ هرمن إتيه Hermann Ethé إذ قرنه بالشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، وعمر الخيام وجعله معهما أكبر ثلاثة ألفوا الرباعيات فى الشعر الفارسى(١) . وتوجد مجموعة من رباعياته الفارسية محفوظة فى خزانة المخطوطات الفارسية ، بالمتحف البريطانى (٢) .

---

(١) راجع Hermann Ethé Catalogue of the Persian Manuscripts in the Library of the India Office . أى فهرست المخطوطات الفارسية فى خزانة ديوان الهند لواضعه هرمن إتيه نمر ٩٩٤ .

(٢) راجع Ch. Rieu, Catalogue of the Persian Manuscripts in the British .Muesum أى فهرست المخطوطات الفارسية فى خزانة المتحف البريطانى من تأليف شارل ريو ج ٢ ص ٧٣٩ ا رقم ٤

أما مكانه فى الفلسفة الاسلامية ، فهذا هو الغرض الذى نرمى إليه ، وليس هـذا من الأمور الهينة ، كما أنه ليس من الهين معرفة ما يشفى الغليل عن سيرته وحياته ، وأقدم ما عثرت عليه من أخباره هو ما وجدته فى مخطوط صغير الحجم كبير الفائدة ، عنوانه : « مختصر فى ذكر الحكماء اليونانيين والمليين » وليس فى المخطوط ذكر لاسم مؤلفه ، على أنى أعتقد أنه لا يمكن أن يكون متأخرا عن المائة الثامنة ، وهذا المخطوط ضمن مجموعة فى خزانة الاسكوريال بأسبانيا رقمها ٦٣٥ من الخزانة العربية ، ذُكر أفضل الدين فيه مرتين ، الأولى باسم : أفضل الدين محمد بن المرقى القاشى ، ووصفه صاحب المختصر بالزهد والتصوف ومداومة الرياضة ، ثم قال إنه مات فى حدود سنة ٦١٠ هجرية ، وفى المرة الثانية فى ظهر الورقة نفسها ذكره عند ترجمة فخر المحققين نصير الدين الطوسى إذ قال عن الأخير : « نشأ بمشهد طوس واشتغل بها بالتحصيل على خاله » .

أما ان أفضل الدين هو خال نصير الدين الطوسى ، فهذا ما تشهد به أيضاً بعض الكتب المتأخرة مثل كتاب : « رياض الشعراء » لمؤلفه عَلِى قُلِى الداغستانى الملقب بالواله ، فرغ من تأليفه سنة ١١٦١ هجرية ، حيث ورد أن نصير الدين ابن أخت لأفضل الدين الكاشانى (١) ، وكذلك قال العالم الجليل المعاصر محمد محسن المعروف بالشيخ آغا بزرك الرازى أو الطهرانى ـ عند كلامه عن كتاب منسوب إلى أفضل الدين ـ : « إنه معروف بـ « بابا أفضل المَرَقى » لأنه دفن بمرق من قرى كاشان ، وإنه كان معاصرا لخواجه نصير الدين ، بل قيل إنه خال المحقق الطوسى » (٢) .

ولأفضل الدين عدا الرباعيات مؤلفات كثيرة العدد ، وكان يكتب بالعربية

(١) راجع فهرست المخطوطات الفارسية فى المتحف البريطانى تأليف ريو ج ٢ ص ٨٢٩ و ج ١ ص ٣٧١

(٢) راجع الذريعة إلى تصانيف الشيعة تأليف محمد محسن نزيل سامراء ج ٢ رقم ١٤٧٩ مكرر ص ٣٦٤ ، ٣٦٥

والفارسية ، كما أنه ترجم كتبا فى الفلسفة إلى اللغة الفارسية ، ونذكر من أسماء كتبه ما وقفنا عليه مع إشارة موجزة إلى موضوع كل منها :

(١) جاودان نامه : أى كتاب البقاء ، وموضوعه معرفة النفس والمبدأ والمعاد ، وهو مرتب على أربعة أبواب فى أحوال السلوك وحقائق أمور الصوفية(١) .

(٢) مدارج الكمال إلى معارج الوصال ، كتبه أولا بالعربية ، ثم نقله إلى الفارسية ، وهو وصية جامعة لخير الدارين ، رتبه على ثمانية أبواب (٢) .

(٣) أنجام نامه : مختصر . ويقال له : « آغاز وأنجام » أى فى المبدأ والمعاد (٣) .

(٤) عرض نامه : فى التفرقة بين الجواهر والأعراض (٤) .

(٥) سازو پيرايه شاهان : فى حقوق الملوك وواجباتهم (٥) .

(٦) چهار عنوان : أى العناوين الأربعة (٦) ، وهو مستمد من كتاب : « كيمياى سعادت » لأبى حامد الغزالى ، اختصر فيه كتابه إحياء علوم الدين .

(٧) انتخاب كيمياى سعادت (٧) : لا يبعد أن يكون هو نفس الكتاب السابق .

(٨) رسالة ينبوع الحياة . أو ترجمهِ سيزده فصل إدريس (٨) : وهو ترجمة فارسية لكتاب عربى منسوب إلى هرمس المثلث بالحكمة ، وعنوانه بالعربية :

---

(١) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، طبع ليبزج ٢ ص ٥٨١ ، ٥٨٢ رقم ٣٩٩٥ وراجع أيضا فهرست ريو للمخطوطات الفارسية بالمتحف البريطانى ص ١٨٣١ .

(٢) حاجى خليفة ، الكتاب السابق ذكره ، ج ٥ ص ٤٦٩ رقم ١١٦٦٢ ، وفهرست ريو المذكور من قبل ص ٨٣٠ ب .

(٣) حاجى خليفة ، كشف الظنون ج ٣ ص ٥١٥ رقم ٦٧٠٤ ، ومحمد محسن كتاب الذريعة ج ٢ ص ٣٦٤ ، ٣٦٥

(٤) فهرست Ethé إتيه لخزانة ديوان الهند رقم ١٨١٢ [٢] نهر ٩٩٤

(٥) المرجع السابق رقم ١٩٢١ [٤] .

(٦) فهرست ريو لمخطوطات المتحف البريطانى الفارسية ج ٢ ص ٨٢٩ ب .

(٧) فهرست إتيه لمخطوطات ديوان الهند الفارسية رقم ١٧٩١

(٨) المرجع السابق الذكر رقم ١٩٢٢ (١٦) ورقم ١٩٢١ (١٤)

كتاب زجر النفس (١) ، وهو فى الأصل فى أربعة عشر فصلا ، ولكنه فى ترجمة أفضل الدين واقع فى ثلاثة عشر فصلا .

(٩) مجموعة نكات أرسطو در علم حكمت : ترجمة مقالة أرسطاطاليس (٢) ، وهو ترجمة لما جرى بين أرسطو قبيل موته وبين تلاميذه من أحاديث ، وموضوع الكتاب : بيان فضل الحكمة ، وعندى أن هذا الكتاب هو ترجمة لما يعرف فى العربية بكتاب التفاحة ، وقد نشر الأستاذ مرغليوث نص الترجمة الفارسية منذ أكثر من خمسين عاما (٣) ، وبحث عن شخصية مترجمى هذا الكتاب إلى اللاتينية والعبرية ، ولكنه لم يعن بالبحث عن شخصية صاحب الأثر الفارسى الذى نشره . ومنذ ثلاثين سنة وبدون علم بما قدمه مرغليوث نشر أديب شرقى النص العربى لهذا الكتاب (٤) .

والإسلاميون يضيفون كتاب التفاحة إلى أرسطو ، وقد ينسبون إليه ما ورد فيه من آراء ، كما فعل إخوان الصفاء فى رسالتهم الرابعة والأربعين (٥) . والحقيقة أن هذا الكتاب ليس من تأليف أرسطو ، وإنما هو من وضع فلاسفة « العرفان » Gnose المتأثرين بالمذهب الأفلاطونى الحديث . ويُذكر هرمس فى كتاب التفاحة موصوفا بأنه أول من علم الحكمة التى استفادها بالوحى من السماء ، ثم نشرها فى الأرض بين مختلف الأجناس والملل .

(١) نشر عدة مرات آخرها بتصحيح الخورى فيليمون الكاتب ، بيروت سنة ١٩٠٣ ويلاحظ فى الترجمة الفارسية إطلاق اسم إدريس على هرمس .

(٢) فهرست إتيه لمخطوطات ديوان الهند الفارسية رقم ١٨١٢ (١) وأيضا رقم ١٩٢١ (١) نهر ١٠٦٥ — ١٠٦٦ .

(٣) راجع D. S. Margoliouth, The Book of the Apple, ascribed to Aristotle. فى صحيفة الجمعية الأسيوية الملكية البريطانية سنة ١٨٩٢ ص ١٨٧ — ٢٥٢ .

(٤) الشيخ أمين ظاهر خير الله ، فى مجلة المقتطف أعداد ديسمبر سنة ١٩١٩ ويناير وفبراير ومارس سنة ١٩٢٠ .

(٥) رسائل إخوان الصفاء ، طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ ج ٤ ص ١٠٠ .

(١٠) كتاب نفس — وهو ترجمة فارسية لكتاب أرسطو فى النفس ، فى ثلاث مقالات (١) . وترجمة أفضل الدين لا بد أن تكون عن العربية . وقد عثر أخيرا على مخطوط فى استانبول للترجمة العربية الكاملة ، ونرجو أن تنشر عن قريب (٢) .

(١١) مطالب إلهية سبعة (٣) وهى رسالة صغيرة الحجم باللغة العربية ، نشرت فى مصر مشوهة ، كثيرة التحريف ، أصاب التحريف فيها لقب المؤلف ، لخاء « الموقى » بدل « المرقى » وسماها الناسخ ، باسم « آيات الإبداع فى الصنعة » ثم غير الناشر فى هذا العنوان وزاد فيه لجعله « آيات الصنعة فى الكشف عن مطالب إلهية سبعة » .

ونحن نعتمد الآن على هذه الرسالة الصغيرة الحجم للتعرف بمذهب أفضل الدين وأدعو من وقف على شيء آخر من آثاره أن يتفضل بالكتابة عنه ، فإن هذا الرجل يستحق المزيد من الدرس والعناية .

يتضح فى هذه الرسالة ، تأثير المذهب الأفلاطونى المحدث على نحو ما تمثله بعض المتصوفين من الإسلاميين ، لا سيما فى المائتين السادسة والسابعة ، وبالرغم من صغر حجمها فإن فيها من الفوائد اللطيفة ما يكفى مادة لبحث جليل .

وأهم ما فى الرسالة ، الإشارة إلى تنزيه « الهوية » عن الصفات تنزيها مطلقا ، وظاهر أنه يستعمل لفظ الهوية استعمال القدماء إياه ، والشائع عند أكثر الفلاسفة

---

(١) توجد منه نسخة بين مخطوطات ديوان الهند الفارسية راجع فهرست إتيه Ethé نهر ١٠٦٦ رقم ١٩٢١ (٤) .

(٢) يوجد بين مخطوطات الاسكوريال العربية تلخيص جيد لكتاب أرسطو فى النفس وهو الثالث من المجموع رقم ٦٤٩ وليس هو ترجمة للكتاب كما قال ديرنبورغ Derenbourg فى فهرسته لمخطوطات هذه الخزانة العربية .

(٣) نشرت ضمن مجموع الرسائل المسمى « جامع البدائع » لناشره محي الدين صبرى الكردى ، القاهرة سنة ١٣٣٥ هـ ١٩١٩ م ص ٢٠١ — ٢٠٤ .

الإسلاميين هو لفظ الموجود ، وإنما عدل البعض عن استعمال هذا اللفظ الأخير كما قال أبو نصر الفارابى ، لأنه بشكل المشتق ، والمشتق يدل على عرض بينما يتسم الفلاسفة هذا المعنى إلى الجوهر والعرض ، وإلى ما بالفعل ، وما بالقوة (١) . ويستعمل البعض الآخر لفظ « الإنية » وهو تعريب للكلمة اليونانية الدالة على « الموجود » .

ويتبين من سياق عبارته فى هذه الرسالة ، أنه يقدس الهوية ؛ ولذلك نرجح أنه يعنى بها ما يعنى « العارفون » من الإسلاميين باسم « المرتبة الأحدية » التى هى أعلى مراتب الوجود الكلية ، وهى حقيقة الوجود بشرط ألا يكون معها شىء(٢)

والهوية عند أفضل الدين الكاشانى سامية جدا ، ولا يمكن أن نتصور بينها وبين العالم أى نوع من الاتصال ، إلا إذا أخذناها موصوفة بالصفات . ومع أن الصفات تكون ذاتية إلا أن اعتبار الهوية موصوفة بها ، فيه تقليل من تنزهها وإذا أخذت الهوية موصوفة بالعلم ، تكون مبدعة للعقل ؛ وإذا أخذت من حيث تقتضى أوصافا ، كانت فاعلة ، أو خالقة لها .

ثم إن مما يستحق أن يشار إليه ، هو أن أفضل الدين ، يرى فى هذه الرسالة أن العقل ، وهو الذى تبدعه الهوية العالمة بذاتها ، ليس إلا فعل التعقل ، وليس جوهرا ولا عرضا ، وإذن فهو ليس ممن يذهبون إلى اعتبار العقل شخصا يسميه بعضهم ملكا ، ويسميه الآخر ربًّا .

أما النفس فهى عنده جامعة بين الوحدة والكثرة ، وهى البرزخ بين الوجوب والإمكان ، والفعل والانفعال . وهذا رأى أصحاب القول بالصدور على اختلاف مذاهبهم .

---

(١) راجع كتاب ابن رشد « تهافت التهافت » ، تحرير بويج ، طبع بيروت ص ٣٧١ — ٣٧٢ .

(٢) انظر تعريفات السيد الشريف الجرجانى عند مادة « المرتبة الأحدية » وكذلك بحث الأستاذ هرتن M. Horten الذى عنوانه Der Allah - Begriff im Islam فى مجلة Archiv f. Philos u. Soziol. برلين سنة ١٩٢٢ « المجلد المهدى إلى اشتين» ص ١٢٢ وما بعدها .

ثم إنه يُعرف الجسم بالتعريف الذى يختاره الإشراقيون ، ولا يقبله المشاءون أى إن الجسم عنده هو القابل لفرض الأبعاد الثلاثة ، المتقاطعة على زوايا قائمة فيه بالفعل (١) .

هذا تفسير مختصر لما فى هذه الرسالة الصغيرة من المعانى الخطيرة ، وإنى واثق أن الكشف عن غيرها من مؤلفات أفضل الدين كفيل بتوضيح مذهبه فى الفلسفة والتصوف على نحو لا يختلف عن الاتجاه الذى سلكته فى تقدير هذا الفيلسوف

وأضيف إلى ماسبق أنى وقفت على رأى له فى قياس الُخلف أورده صدرالدين الشيرازى حيث قال : « ذهب الشيخ أفضل الدين المرقى القاشانى قدس سره إلى أن الخلف قياس استثنائى من متصلة مقدمها نقيض المطلوب ، ويحتاج فى بيان تاليها إلى حملية مسلمة » ثم قال صدر الدين : « وهذا الطريق هو الذى ذكره الشارح » (٢) ، يعنى محمود بن مسعود المشهور بقطب الدين الشيرازى وظاهر أنه لا يذهب هذا المذهب فى مثل هذه المسألة الدقيقة إلا عالم له مشاركة عظيمة فى علم المنطق .

ونستطيع بعد ما قدمناه فى التعرف بأفضل الدين الكاشانى أن نتصور تصورا واضحاً شخصية أستاذ لنصير الدين الطوسى له تأثير كبير فى توجيهه الروحى والعقلى ، وليس يقتصر ما بين المعلم وتلميذه على ما بينهما من صلات الرحم فحسب ، بل إنهما يشتركان فى العناية بعلوم الأوائل ، والميل إلى التصوف الممزوج بمذهب « العرفان » وقد ذكر أكثر من واحد أن نصير الدين مدح أفضل الدين برباعيات أو لعله رثاه بها ، ولم نقف عليها لسوء الحظ ، ولكننا نحسب أنه أشار فيها إلى ما بينهما من صلة ، وقال فيها أيضا ما معناه :

نسب أقرب فى شرع الهوى بيننا من نسب أبوى

---

(١) راجع السهروردى المقتول — كتاب حكمة الإشراق ، طبع طهران ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٢) حاشية صدر الدين الشيرازى على حكمة الإشراق للسهروردى المقتول ، طبع طهران ، هامش ص ١١٧ .

نشأة الرواية وتطورها
في تاريخ الأدب العربي

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ محمد فؤاد السيد

المدرس بالأزهر

أسلفنا فى مقالنا السابق الكلام على « نشأة الرواية وتطورها فى تاريخ الأدب العربى » وقد بدا لنا أن نستمر فى متابعة ما يتصل بهذا البحث ، ونعرض بعد لحياة الأعلام من علماء هذه الرواية وشيوخها كالأصمعى ، وأبى عمرو بن العلاء ، والخليل ، وأبى زيد ، وأبى عبيدة ، فى ترجمات مستفيضة ، وبحوث تحليلية ، فى حياتهم وأدبهم وعلمهم ، مع عرض مصنفاتهم ؛ وفاء لبعض ما يجب علينا من حق هؤلاء الأعلام الذين أخذت عنهم فنون الأدب العربى ، وفى عهدهم دونت .

الأصمعى :

ولما كان الأصمعى هو فارس هذه الحلبة ، وأتقن تلك الطبعة ، وأبعدهم صيتاً وأوفرهم حظا وشهرة ، فإننا نبدأ بسلسلة الحديث عنه فى حلقات متتابعة والله المستعان.

نسبه :

هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب بن عبد الملك بن على بن أَصْمَع بن مُظَهِّر ابن رياح بن عمرو بن عبد شمس بن أَعْيا بن سعد بن عبد بن غَنْم بن قتيبة بن معن ابن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان (١) بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان ـ المعروف بالأصمعى الباهلى البصرى .

---

(١) إلى عيلان انتهت رواية الخطيب البغدادى التى أسندها إلى أبى حاتم السجستانى تلميذ الأصمعى ، والزيادة ذكرها ابن خلكان والسيوطى .

فهو قيسى من أبناء عدنان ؛ وقد اشتهر بالأصمى نسبة إلى جده أَصْمَع .

قال ابن خلكان « وإنما قيل له الباهلى وليس فى نسبه اسم باهلة ؛ لأن باهلة اسم امرأة مالك بن أعصر ، وقيل أن باهلة بن أعصر » . اهـ وقيل : بنو معن هم بنو باهلة ، وباهلة امرأة من همدان تزوجت معناً فنسب ولده إليها » . وقيل : « معن أبو باهلة ، وباهلة امرأة من همدان » .

ولعل الصحيح هو القول الأول الذى ذكره ابن خلكان ، وهو الثابت فى العقد الفريد حيث يقول ابن عبد ربه : (باهلة) هم بنو مالك بن أعصر نسبوا إلى أمهم باهلة ، وهم معن وحارثة وسعد مناة ، أمهم باهلة وبها يعرفون . وهذا لا ينافى أنها كانت من همدان .

وقد كانت العرب تستنكف من الانتساب إلى قبيلة باهلة ، وتعدّه سبّة ، لاشتهارهم بالحمق والجهل وخمول الشأن . قال بشار بن برد فى مهاجاته الشاعر البصرى أبا هشام الباهلى من قصيدة له :

وهجانى معشر كلهمُ حُمُقٌ ! دام لهم ذاك الحُمُق

ليس من جرم ! ولكن غاظهم شرفى العارض قد سد الأفق

فلما سمع الأصمعى ذلك اغتاظ وقال : « ويلى على هذا العبد القنّ ابن القن » ! وقد كان بشار شديد الافتخار بفارسيته عظيم التعصب لها ، وكان الأصمعى متعصبا للعرب .

ويظهر أن نسبة بنى باهلة إلى أمهم دون أبيهم كانت لكرم أصلها بخلافه هو وكان ذلك أصل الطعن عليهم ، فضلا عما عرف عنهم بعد من الحماقة .

يدلنا على هذا ما ذكره أبو العباس المبرّد حيث يقول : « وإذا كانت الأم كريمة والأب خسيسا قيل له (يعنى لولدهما) المُذَرَّع قال الفرزدق :

إذا باهلىٌّ تحته حنظليّة له ولد منها فذاك المذرّع

وقال الآخر :

إن المذرّع لا تغنى خؤولته كالبغل يعجز عن شوط المحاضير

(جمع محضير وهو الفرس السريع) وإنما سمى مُذَرَّعا للرقمتين فى ذراع البغل وإنما صارتا فيه من ناحية الحمار » اه .

هذا وقد اشتهر بنو باهلة بذلك حتى كانوا مضرب المثل فى المذمة عند العرب تنطق بهذا أشعارهم ونوادرهم ، ومما يروى من الشعر مايقوله فيهم الممزقّ الحضرمى :

إذا ولدت حليلة باهلى غلاما زيد فى عدد اللئام
وعرض الباهلى وإن توقى عليه مثل منديل الطعام
ولو كان الخليفة باهليا لقصّر عن مساماة الكرام

ومن طريف النوادر فى هذا أن قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلى ـ وكان من عظماء الدولة المروانية ، ومن أكبر أمرائها ، ولم يكن يعاب إلا بأنه باهلى ـ مازح أعرابياً من الحفاة فقال : « أيسرك أن تكون مثلى باهليا أميرا ؟ فقال : لا والله ! قال : فتكون باهلياً خليفة ؟ فقال : لا والله ولو أن لى ما طلعت عليه الشمس ! قال : فيسرك أن تكون باهلياً وتكون فى الجنة ؟ فأطرق ثم قال : بشرط ألا يعلم أهل الجنة أنى باهلى ! فضحك قتيبة من قوله :

ولقد هُجى الأصمعى بأنه باهلى من اليزيدى الشاعر فى قوله :

وما أنت ؟ هل أنت إلا امرؤ إذا صحّ أصلك ، من باهلَهْ !
وللباهلى على خبزه كتاب « لآكله الآكلهْ »

وكذلك هجاه إسحق فى شعر سيأتى ذكره إن شاء الله .

ولكن هذا لا يقدح فى الأصمعى ، كما لا يقدح فيمن سوّدتهم أعمالهم ونفوسهم من الباهليين ، أمثال أبى أمامة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلمان بن ربيعة أحد الولاة فى خلافة أبى بكر ، وزيد بن الحباب ، وقتيبة ابن مسلم الذى قدمنا ذكره وغيرهم كثير .

وصفـــه :

وفى ظننا أن الأصمعى فى شكله كان أقرب إلى أهل البادية منه إلى أهل الحضر ، يرجح ذلك ما نعلمه عنه من أنه كان يكثر الخروج إليها ، ويطيل الإقامة فيها ، وربما استغرقت بعضُ رحلاته سنوات يحج فى أثنائها ، ويلتقى بالفصحاء فى المواسم حتى اشتهر بذلك اشتهارا زاد فيه على لداته ومعاصريه من أهل صناعته ، مما يجعلنا - من غير حرج - نقسم حياته إلى شطرين ، إن لم يكن أوفاهما حظا ، وأكثرهما أثرا فى حياته هو ذلك الشطر الصحراوى ، فهو بلا شك ذو أثر عظيم فى جسمه وعقله وخلقه ؛ ولا شك أن طبيعة الصحراء تسبغ على ابنها والعائش فيها والمكثر من التردد عليها لونا خاصا ، ومزاجا خاصا ، وطبيعة فى جملتها تشاكل طبيعة الصحراء فى بساطتها ؛ ولما كنا الآن بصدد وصفه الظاهر ، فنحن نكتفى الآن هنا بذكر ما يؤدى إلى تقريب ذلك القدر مرجئين غيره إلى موضع آخر فنقول :

نشأ الأصمعى بالبصرة التى يعد موقعها الإقليمى من أعدل المواقع ، فكان له بالطبع نصيب أبنائها من خواصّ طبائعهم وسماتهم ، وشبّ على ذلك حتى ولّد الميلُ العلمى فى نفسه حب هـــذه الرحلات ، ورغّب إليه الأسفار ، فنهض بحاجات نفسه ، وصار يشد رحاله فى جد ونشاط ، يركب متون الصحارى ، ويضرب فى بطون الأودية ، متكبدا وعثاء السفر فيها ، متقلبا فى حِرارها وكثبانها ، وسهولها وحزونها ، منسلكا بين هضابها وشعابها ، يعايش وحشها وآهلها ، ويصادف جنها وإنسها ، ينزل فى منتجعاتهم ويجاورهم فى أخبيتهم وخيامهم ، ويشاركهم فى إقلالهم وفقرهم ، ويسمع حداءهم وغناءهم وشعرهم ورجزهم ، ويشاهد مراعيهم وإبلهم وشاءهم ، يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، وينشق أريج خزاماهم وشيحهم كما ينشقون .

وما زال على حاله تلك يعاودها وتعاوده حتى كان لها معه فى النهاية ما كان من آثار مختلفة ، فراح مشبها لأبناء الصحراء فى سمرة ألوانهم وضَوَى أجسامهم وعادِهم وسماتهم ، وإن شاب ذلك شىء من آثار الحضر .

ومع هذا لم يكن الأصمعى وسيما ، ولعله كان أقرب إلى الدمامة إن لم يكن دميما فلقد روى البغدادى فى كتابه « تاريخ بغداد » عن الأصمعى قال : « دخلت على جعفر بن يحيى بن خالد يوما فقال لى : يا أصمعى هل لك من زوجة ؟ قلت : لا ، قال : فجارية ؟ قلت : جارية للمهنة ، قال : فهل لك أن أهب لك جارية لطيفة ؟ قال : إنى لمحتاج إلى ذلك ، فأمر بإخراج جارية إلى مجلسه ، فخرجت جارية فى غاية الحسن والجمال والهيئة والظرف والمقال ، فقال لها : قد وهبتك لهذا ، وقال : يا أصمعى خذها ، فشكرته ، وبكت الجارية وقالت : يا سيدى تدفعنى إلى هذا الشيخ مع ما أرى من سماجته ، وقبح منظره ، وجزعت جزعا شديدا . فقال : يا أصمعى هل لك أن أعوضك منها ألف دينار ؟ قلت : ما أكره ذلك ، فأمر لى بألف دينار ودخلت الجارية ؛ فقال لى : يا أصمعى إنى أنكرت من هذه الجارية أمرا ، فأردت عقوبتها بك ثم رحمتها منك ، قلت . أيها الأمير فهلا أعلمتنى قبل ذلك ؟ فإنى لم آتك حتى سرّحت لحيتى ، وأصلحت عِمّتى ، ولو عرفت الخبر لصرت على هيئة خلقتى فوالله لو رأتنى كذلك لما عاودت شيئا تنكره منها أبدا ما بقيت » .

ويؤكد هذا أيضاً مارواه أبو الفرج والشريشى لمناسبة سنذكرها إن شاء الله فى مكانها من هجو اسحاق الموصلى له بأبيات يقول فى أولها :

أليس من العجائب أن قردا ... أصيمع باهليـــا يستطيل ! ؟

ويهجوه فى بيتين آخرين يخاطب فيهما الفضل بن الربيع :

عليك أبا عُبيـــدة فاصطنعه ... فإن العـــلم عند أبى عبيـدَة

وقـــدمه ، وآثره عليـــه ... ودع عنك القُـرَيْد ابن القُـرَيدة

فتشبيه اسحق له بالقرد مرة وبالقريد أخرى ، وأنه أصيمع ربما يزيد على دمامته ووصفه بالضآلة والقصر أيضا ؛ وبذلك لا نستطيع أن نقول كان الأصمعى مفرط الطول ، كما لا نستطيع أن نقول إنه كان بائن القصر وإن احتملته مبالغة اسحق ، ولا كان مثلا فى الدمامة والقبح ، لأن شيئا من ذلك لم يرو عنه ، ولو صح لعلمناه كما علمنا من جحوظة عينى الجاحظ ودمامته ، وقبح عمى بشار وضخامته .

وقــد اشتهر ــ إلى جانب ما ذكرنا ــ بالتقشف والبخل مما يجعلنا نميل فى وصف لباسه إلى ما تقتضيه تلك الطبيعة من غلّ اليد عما ينبغى لمثله ممن يجالسون الخلفاء والأمراء والوزراء وأصحاب النفوذ فى شئون الدولة .

فإذا قلنا ـ بما نعلمه من بعض قصصه عن نفسه ، وبما نرجحه من المتعارف عن علماء ذلك العصر ـ : إن الأصمعى كان فى الغالب يلبس القميص والجبة ، جنحت بنا القرائن إلى أنهما كانا غالبا من نوع خاص تستلزمه طبيعته الخاصة ، فما فى ظننا أنه كان يعنى بلبس الموشيات والمقطعات والمشهَّرات كما كان يفعل غالب الشعراء والعلماء فى ذلك العصر ، كما يروى الجاحظ ، إلا إذا استثنينا ما كان يهبه إياه الخليفة والأمراء والعظماء أحيانا ؛ ولعل ملابسه فى جملتها كانت تلتئم مع مثل نعله المذكورة فى قصة الخطيب البغداى قال : « قال الجاحظ كان الأصمعى مانيا (١) فقال له العباس بن رستم : « لا والله ولكن نذكر حين جلست إليه تسأله ، فجعل يأخذ نعله بيده وهى مخصوفة بحديد ، ويقول : نعم قناع القدرى نعم قناع القدرى ، فعلمت أنه يعنيك فقمت » . فها هو ذا يرى أن نعله المخصوفة بحديد ، بحال تغنيه فى رده على الجاحظ هذا الرد المقذع الذى أخزاه وأقامه من مجلسه ، وذكر السيوطى : أنه لم تبيض لحيته إلا لما بلغ الستين من عمره .

والخلاصة : أن الأصمعى كان أسمر اللون ، دميما ، أدنى إلى الضآلة والقصر إن لم يكن ضئيلا قصيرا ، ولكنه كان ظريفا ، خفيف الروح ، يحب الملحة والنادرة ويرويهما لمحدثه فيعجبه ويضحكه ، وكان يلبس القميص والجبة ، مخشوشنا فى لباسه ومظهره ، ولم تبيض لحيته إلا لما بلغ الستين من عمره ؟

(يتبع)

---

(١) نسبه الى (مانى الثنوى) الذى تنسب إليه (المانوية) كان مجوسيا يقول إن صانع العالم اثنان : فاعل الخير نور ، وفاعل الشر ظلمة ، ويقول : هما قديمان لم يزالا ولن يزالا سميعين بصيرين ، وأن النور لا يقدر على الشر ولا يجوز منه ، والظلمة لا تقدر على الخير ولا يجوز منها ، ورد عليهم فى ذلك بأنه لو هرب مخلوق فاستتر بالظلمة فهذا خير وقع فى شر ، ومن هنا أخذ المتنبى معنى بيته :

وكم لظلام الليل عندى من يد تخبر أن المانوية تكذب

الإسلام دين الوحدة

لحضرة صاحب السماحة الأستاذ العلامة الشيخ مسلم الحسيني الحلي

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون » .

آية كريمة ، في كتاب كريم ، أرسلها مرسِل كريم ، على مرسَل كريم ، وما هي إلا رمزٌ وإشعار ، وإعلام وإعلان ، بالفكرة الأولية التي هي حجر الأساس لبناء هذا المبدأ ، وقاعدة البناء للاشادة بتركيز ذلك الركن القويم ، وهي بعينها وبعين ما هي حجر الأساس ، أو قاعدة البناء ، أو نقول كما هي فكرة وإيحاء ، هي في الحال نفسه خطة وتخطيط لمنهج العمل وموازين الاتجاه .

منذ أن بذرت بذرة الإسلام ، وأظهر رسول الإسلام صوت الدعاية والدعاء يتردد بين الأنحاء والأرجاء ، وردده الكون كله من أقصاه إلى أقصاه ، بذرت بذرة الإسلام ، وما بذرت إلا على الوحدة والتوحيد ، وظهرت دعوته ودعايته ، وليس بين شفتيه إلا كلمة التوحيد ، لا إله إلا الله ، يحمل على يديه كتاب الله ، وكل ما فيه الدعوة إلى الوحدة والتوحيد (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) شاء لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون خاتم الأنبياء ، كما شاء الله لنبوته أن تكون خاتمة النبوات ، فيكون دينه مسك الختام للأديان ، وشريعته بقية السلف لتلك الشرائع المقدسة السالفة ، وما سرّ هذا وذاك إلا أن دين محمد صلى الله عليه وسلم يتفق مع كل عصر ، ويتلاءم مع كل حياة ، فهو باقٍ ببقاء العصور ، خالدٌ ما خلدت الحياة ، ذلك أنه دين بلغ في كل فضيلة حدها البعيد ، وضرب أكبر رقم قياسي في المدنية والمعارف والأخلاق

والنظم والقوانين ، فكان المثل الأعلى لكل أولئك ، والمثل السائر لكل مكرمة وكرامة بين الناس أجمعين .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بدين هو دين الوحدة فى العقيدة والاتجاه ، دين الوحدة فى الفكر والعمل ، دين الوحدة فى العقيدة ، لأنه ما جاء إلا بدعوة الاعتقادبأن خالق الكون ومدبره ، والمهيمن على الكائنات ، والمسيطر على الموجودات إله واحد ، هو الفاعل الكامل ، والغنى المطلق ، والمتصرف القدير ، يرقب النيات ، ويحكم الضمائر ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ليس مع أمره أمر ولا دون حكمه حكم لأى كائن كان من كائنات هذه الحياة ، لاضدّ له ولا ندّ ، ولا كفو ولا شبيه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، وأنت تعلم - وكل من له لمحة من ثقافة يعلم - ما لهذه العقيدة من بليغ الأثر فى النفس ، ومجتمع الحياة وحياة الاجتماع ، فما عقيدة التوحيد - ولا يعرف الكثير منها إلا أنها عقيدة فحسب - إلا رأس كل ملكة فاضلة ، وروح كل فضيلة نفسية سامية ، وأساس كل عمل فاضل من فضائل الملكات .

إن عقيدة التوحيد أساس الصدق - سواء أكان فى القول أم فى العمل - أساس كل فضيلة ، ذلك أن الإنسان - وقد عرف أن من بيده أمر هذه الكائنات فى كل أحوالها واحد - لا يرى حينذاك أى كائن غير الله سبحانه ، شيئاً يستحق المجاراة والمداراة - إلا من حيث أمر الله - فتزهق حينذاك نفس الكذب والخداع وتزهق روح الدجل والرياء ، وما للبشر والرياء للبشر ، ولا نفع ولا ضرر للبشر بيد أو لسان ، فهناك - وقد غلب الصدق وتغلب - يعود القول صادقا ، والفعل صادقا ، لا من أجل حب سمعة أو طلب ظهور ، ويكون الناس حينذاك مثال الأثر الصحيح بكل وضوح (صانع وجهاً واحداً يكفك الوجوه) .

إن عقيدة التوحيد تبعث فى الإنسان قوة البطولة والبسالة ، وتنفخ فيه روح الجرأة والشجاعة ، ذلك أن الموحد يؤمن كل الإيمان بأن الآخذ بزمام الآجال ، والمسيطر على الأعمار ، هو ذاك الواحد الحى الذى لا يموت ، فالموحد

ـ وقد خامرته هـذه العقيدة ـ لا يخشى بأس أى بشر ولا ضرره ، مهما بلغ من شدة البأس ومضاء العزيمة ، هذه هى الشجاعة ، وبالشجاعة يحفظ كثير من نواميس الاجتماع ، بالشجاعة تحفظ الأموال والنفوس ، وتحمى الأعراض والحرمات ، وتصان النواميس والديانات .

إن عقيدة التوحيد تطبع معتنقيها على حب الحرية والاستقلال ، فإن الموحد ـ وقد علم علماً لا يقبل الجدل ، أن كل تسيير أو تدبير ، هو لتلك الذات ، ومن تلك الذات ، وبتلك الذات ، الذات الأحدية الواحدة ـ يتيقن حينذاك يقينا لا يقبل الشك ، إنه هو السلطان المطلق ، والحاكم الوحيد ، وليس من سمى نفسه باسم السلطان الحاكم ، فما هو إلا مقهور بسلطان ذى السلطان والحاكم الحقيق العظيم ، وهو — وإن عد فى زمرة المعدمين والفقراء — يرى أنه شريكهم فى التمتع بالحرية الكاملة ، ونيل نصيبه من الحقوق الطبيعية فى هذه الحياة ؛ فهو وهم ، فى هذه الحقوق سواء بسواء ، وإن تيقظ الإحساس وتعززت المشاعر للمطالبة بكل ذلك ، نشأت حينذاك العدالة الصادقة والمساواة بمعناها الصحيح ، ومات روح الأثرة ، وذهب الاستغلال ضحية بسيف العدل الصميم ، وبهذا تخمد نار الحروب ، وتقطع ألسنة التنازع والخصومات ، ويعيش البشر هادئين مطمئنين فى مختلف الأحوال والشئون ، فكأن الأرض غير الأرض ، والناس غير الناس ، ولكن — ونحن كما نحن الآن — هل يحلم بتحقيق ذلك إنسان ؟

أجل : الأسلام دين الوحدة والتوحيد ، سار الأسلام سيره وسيرته هذه فى الفكرة والعقيدة ، وسار مع هذه الفكرة والعقيدة جنباً لجنب فى ناحيتى التطبيق والعمل ، فأراد الأسلام وما أراد ، إلا الوحدة فى كل شىء : الوحدة فى التضامن والتعاون ، الوحدة فى الواجبات والحقوق ، فالمسلمون جميعاً فى نظر الأسلام سواء « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » ، نص نبوى لا يقبل الجدل والتأويل ، وهو قبة من نور كتاب الله الكريم ، إذ صرح بكلّ قوة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » هذا كله بعد أمرهما الأكيد بتسوية

الصفوف وتوحيد الكلمة ، فهذا كتاب الله الكريم « إنما المؤمنون إخوة » وتلك السنة النبوية تقول « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » وبعد ذلك ، إنذارهما الشديد وتحذيرهما من اختلاف الكلمة ، وكلمة الاختلاف . فهذا الكتاب الكريم يقول « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وتلك السنة النبوية تقول « لا ألفينكم بعدى مرتدين على أعقابكم يضرب بعضكم رقاب بعض » وما للأمة الاسلامية والخلاف والاختلاف ، ودينها واحد ونبيها واحد ، وكتابها واحد ، وقبلتها واحدة ، وهى واحدة متحدة فى جميع الطقوس والنواميس ، وما هذه الفرق والفروق إلا بقايا عهود الجاهلية البائدة ، فقد كان — ولا يزال اليوم — للعنصريات والقبليات ، والقوميات ، أثرها البليغ على تلك النفوس ، وهنا لك قصتان هما قليل من كثير ، وهما أوضح مثال لمبلغ ما بلغت إليه تلك العنعنات : روى أن أحد العرب من بنى ربيعة لما ادعى مسيلمة الكذاب النبوة آمن به ولم يؤمن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم فقيل له فى ذلك ، فقال إنى أعلم أن نبى ربيعة كاذب ، ونبى مضر صادق ، ولكن كاذب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . وروى أيضا ، أنه رؤى رجل فى البيت الحرام يدعو لأبيه ، فقيل له : هلا دعوت لأمك ؟ فقال لا . إنها تميمية ! فمن هذا وذاك ، تعرف كيف كان لهذه العنعنات الفارغة أثرها البليغ ، وقد حارب بها النبي صلى الله عليه وسلم بكل قواه فذهبت ذهاب أمس الدابر وأصبحت فى حديث كان ، وقد جهر صلى الله عليه وسلم بقوله « من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا » فكان لزاما علينا الإيمان بهذه التعاليم إن كنا مؤمنين بالمعنى الصحيح ؟

الدين والفلسفة والعلم

لحضرة البحاثة الفاضل الاستاذ عبد الحليم كاشف الغطاء

منذ آلاف السنين بهر الإنسانَ هذا الوجودُ بتنوعه وغموضه وجماله ونظامه ، ونظرا لما امتاز به الإنسان من مزايا جسمية ومواهب عقلية ، بدأ تارة يحاول أن يتفهم أسرار الظواهر الطبيعية والأشياء ومنافعها ، كلّ ظاهرة وكلّ شيء منفصلا عن غيره ، وتارة يحاول أن يعطي تفسيرات عامة تربط بين الأشياء والظواهر المختلفة ، وبعد مرور ألوف من السنين فى البحث تمكن فى الوقت الحاضر أن يتعرف على بعض الحقائق الجزئية التى استعان بها لمنفعته ، ولكنه لم يستطع التعمق والوصول إلى الأسرار البعيدة إلا قليلا ، والأسئلة العامة التى عرضها فلاسفة اليونان الأقدمون لا تزال محل البحث والجدل ، وأهم تلك الأسئلة العويصة هى عن سر الوجود بأجمعه أرضه وسمائه ، وعن الجوهر الذى انبثق منه الوجود ، وعمن نظم هذا الكون وأعطاه الجمال ، وعن سر الحياة ، وعن نهاية الكون والحياة ، وعن سر الزمان والمكان والمادة .

يمكن أن نحصر تراث الإنسان الفكرى ، وجميع أنواع المعارف التى أنتجتها حضارة الإنسان فى أربعة أقسام : الدين والفلسفة والعلم والفن ، العالم يدرس جزءا محدودا من الكون ، يأخذ ظاهرة معينة أو شيئا معينا ، ويبحث عن العوامل التى تؤثر فيها ، ويوضح لنا كيفية حدوث الأشياء والظواهر ، ويقتصر على الأسباب ، ولا يعنى بالعلل البعيدة ، ولا يخبرنا عن الأشياء بذاتها بل يرمز عنها ، ولا يطلب من العالم أن يبين الروابط بين أجزاء الكون ، فهو يجرد الموجودات ، ويفصل بعضها عن البعض الآخر ليسهل عليه درسها وملاحظتها ، ويعتمد العالم فى الدرجة الأولى للوصول الى المعرفة ، على الحواس والآلات والمقاييس مع

إعمال الفكر للاستقراء والمقارنة ، وينتقل من الجزئيات الى الكليات ، ويصنف المعلومات التى يحصل عليها بالطريقة المذكورة .

هناك حاجة للربط بين جميع الحقائق التى توصل إليها العلماء ، هناك ضرورة للنظر إلى جميع الأشياء الملاحظة ككل واحد ، فمن المعلوم أن الأجزاء فى كثير من الأحوال عند ما تجتمع تعطى معنى يختلف عن معانى الأجزاء منفردة ، مثلا السيارة تختلف فى معناها عن معنى الأجزاء المكونة لها ، وعند ما يتحد عنصر الكلود مع عنصر الصوديوم يركبان ملح الطعام الذى يختلف فى خواصة وصفاته عن عنصريه ، فعلى الفيلسوف أن يربط اكتشافات العالم مع إلهام الفنان ، وانفعالات المحب ، وحماسة المصلح الاجتماعى ، والوازع الأخلاقى للرجل العادى ، ليعطى لهذه الأجزاء معنى جديدا يفسر فيه الوجود والحياة ، العالم يعتمد فى الدرجة الأولى على الحواس ، والفيلسوف يعتمد على التفكير مع إعطاء الحرية التامة للفكر فى فرضياته ونظرياته .

منذ أيام اليونان ، انقسم الفلاسفة إلى طائفتين مع اختلاف فى مذاهب كل طائفة . فطائفة ذهبت إلى أن المادة هى أصل الكون ، والحياة والعقل ناتج عن تفاعلات المادة وتغيراتها . قالوا : وبما أن المادة نستطيع أن ندركها بحواسنا فإليها تعود حقيقة الوجود . أما الطائفة الثانية فلا ترضى بهذا التعليل الناقص غير الدقيق . وتعتبر الفلاسفة غير الماديين كمن يفسر الماء بعد الجهد بالماء . وتقول بما أن وجود كل ما نتأمله يستلزم العقل ، فالعقل هو أصل المحسوسات . وحقيقة الأشياء هى عقلية أو روحية . وما الظواهر المادية إلا نتيجة للطريقة التى تتخذها الحقيقة الروحية للظهور . وما هذه الظواهر التى نحس بها إلا مظاهر كاذبة ، وظلال لحقيقة أخرى . أو كما يقول العالم الفيزيائى ادينكتون : « إن الظواهر المادية نتيجة للتجريد والعزل الذى يلجأ إليه عقلنا فى التعرف على الروحية ، التى تتضمن تلك الظواهر » . أى إن الأشياء واحدة فى طبيعتها ولكن عقلنا يظهرها بمظاهر مختلفة تبعا للطريقة التى تحس بها السمع والبصر ، والشم والذوق ، وغيرها .

أما الدين فلا ينكر على العلم أهمية حقائقه الجزئية ، ولا يمنع الفلاسفة عن الجدل والمناظرة للاستنتاج . ولكنه يرى أن الوصول للحقيقة النهائية عن طريق الحس والعقل وحدهما ، يؤدى إلى الالتباس . بالإضافة إلى هذين الطريقين ، ينبغي أن نستعين بطرق أخرى ، ذات صلة باعماق النفس الإنسانية وباطن الفرد مثل التنبؤ والنظر الغيبي ، والإلهام والوحى الإلهى والتجلى ، والبداهة والقناعة الذاتية . إن الدين يؤمن إيمانا تاما عن هذا الطريق ، بأن الله ، هو أصل الوجود ، وسواء أجاءت أبحاث العلماء والفلاسفة مؤيدة له ام لا ؟ فهو لا يكترث لها ، لأن آراءهم عرضة للتغير والتبدل . يقول الدين : إن العالم بموجوداته المتنوعة من بحار وأنهار ، وأشجار وجبال ، وحيوانات، ومواد مختلفة ، توحى إلينا بالبداهة ولأول وهلة أنها ليست إلا صور الحقيقة واحدة هى الله « وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد » كما انك تتنبأ عن أخلاق شخص عندما تجتمع به لأول مرة من تفرسك فى بريق عينيه ، وملامح وجهه ، وتصيب فى أكثر الأحيان ؛ كذلك من نظرة عاجلة لهذا الوجود ، نعرف ماهيته وحقيقته . أما إذا أردنا أن نوسوس فإننا نفقد الصواب . عندما يتأمل الفرد فى نفسه ، فى تفكيره وانفعالاته ، وآماله وآلامه ، وحيويته وغرائزه ، يجد أنه لا يعبر عن إرادته ، بل عن الارادة العامة للوجود التى تسيره كما شاءت . هناك نواح لا نستطيع أن ندركها عن طريق العلم . مثل معرفتنا بنفوسنا ، ومعرفة العدل والجمال ، ومعرفة الفكاهة والمزاح ، ومعرفة أخلاق شخص آخر . وإنما نعرفها باللقانة intuition . كذلك نعرف الحقيقة النهائية عن هذا الطريق .

والفن ذو صلة بالحقيقة الكلية ، فالفنان لا يصور الوجود كما هو ويعبر عنه فقط ، بل يظهره بشكله الأكمل ، ويحاول أن يسمو بالحياة ، ويسعى لتحسين الحياة ، ويوجهها نحو التقدم والكمال ، ويعرّف افلاطون الفن بأنه الكلى ممثلا فى الجزئى . ونحن نتذوق الفن كالموسيقا والغناء والتصوير والشعر والأدب عن طريق اللقانة أيضا .

فى القرن التاسع عشر ، انخدع الناس وأصابهم الغرور للتقدم والتوسع الذى حصل فى مختلف العلوم ، كالكيمياء والفيزياء ، والأحياء والفلك ، وطبقات

الأرض . ونشطت لذلك الفلسفة المادية ، وآمن بعض الفلاسفة والعلماء - مثل ارنست هيكل ، وبخز وهكسلي وسبنسر - بالتطور الذى حدث فى الأحياء ، والجمادات كأحسن تفسير للعالم ، مع أن التطور لا يخرج عن مجال العلم ، ويبين لنا فقط الأدوار التى مرت على الأرض والأحياء ، وخلاصة نظرية التطور ، أن أصل الأحياء كائنات حية بسيطة ، تطورت خلال ملايين السنين إلى أحياء راقية معقدة ، وأن السيارات كانت أجواما غازية ملتهبة ، مكونة من عناصر بسيطة ثم بددت وتعقد تركيبها . ولكن التطور نفسه يحتاج إلى تفسير ، فما سره ، وما غايته ونهايته ، وهو لا يوضح أصل الوجود .

فى أوائل القرن العشرين بدأت الفلسفة المادية بالتدهور . فقد اكتشفت حقائق علمية كثيرة ، زعزعت أسس الفلسفة المادية . وأهمها ما جاءت به النظرية النسبية لأينشتين عن الزمان والمكان والحركة والطاقة . ونظرية الكم لبلانك فى النور . ان الفلسفة المادية كانت تؤكد على التركيب الذرى للمادة ، وعلى تفاعلات المادة ولكن النظرية النسبية ، ونظرية الكم ترفعان الحواجز ، بين المادة والطاقة .

من صفات المادة المذكورة فى الكتب العلمية ، أنها تشغل حيزا من الفراغ ولها كتلة ولها وزن ، ولها استمرارية . وكل مادة تتكون من ذرات صغيرة جدا ، وتختلف كتل الذرات فيما بينها تبعا لنوع العنصر الذى تنتسب إليه الذرة ، وعدد العناصر ٩٢١ اخفها الهيدروجين ، واثقلها اليورانيوم . وتكونت العناصر من اتحاد عدد من ذرات الهيدروجين مع بعضها ، فتكون ذرة عنصر جديد . وذرة الهيدروجين تتألف من بروثون واحدو الكترون واحد ، يدور حول نواة البروثون وسائر العناصر تتألف من بروثونات ونوترونات فى النواة والكترونات حولها . إن النظرية النسبية تعطى صفات واحدة للمادة والطاقة ، فكما أن للمادة كتلة وضغطا واستمرارية ، فإن للطاقة صفات مماثلة ، تتحول المادة إلى طاقة وبالعكس فالمادة فى الأشعاع تتحول إلى طاقة ، والشمس تشع ٢٥٠ مليون طن من مادتها فى الدقيقة الواحدة ، وكل جسم تزداد كتلته (مادته) عند زيادة سرعته ، والنظرية النسبية تذهب إلى أن الذرة لا تتحلل إلى اجزائها المعروفة فحسب ، بل تتحلل إلى أبعد من ذلك .

إن نظرية الكم ترى أن النور يتألف من جسيمات صغيرة منفصلة عن بعضها وتدعى بالفوتونات ، ولها كتلة كالمادة وضغط ، وبما أنها فى حالة حركة فلها ذخم كما للمادة المتحركة ، ولكن الفوتون يسير بسرعة ثابتة ، وكتلة الفوتون تتناسب طرديا مع عدد ذبذبات الموجة فى الثانية ، وعكسيا مع طول الموجة ، فكلما ازداد عدد الذبذبات ، كانت كتلة الفوتون أكثر ، وفى نفس الوقت كانت طاقته أكثر ، فكتلة الفوتون فى النور المرئى (الألوان) تساوى أجزاء قليلة من مليون جزء من كتلة الالكترون الواحد ، وفوتون الأشعة السينية يساوى نحو جزء من عشرة آلاف جزء من كتلة الألكترون ، ويبلغ فى نوع من الأشعة كتلة الألكترون ، وفى أشد نوع من الأشعة الكونية يصل إلى كتلة ذرة الهليوم ، وفى نوع أضعف من الأشعة الكونية يصل الى نحو كتلة ذرة الهيدروجين .

النظرة القديمة للمادة أن لها وجودا مستمرا فى الزمان ، ولكن النظرية النسبية تمثل هذا الوجود المستمر بخط مستمر فى الزمان والمكان Space - time وهذا الخط ينحرف باستمرار مكونا خطا منحنيا تمثل كل نقطة من نقاطه (حادثة) وجود المادة فى لحظة معينة من الزمن ، وبذلك تدخل عامل التغير المستمر فى الزمان والمكان والتغير المستمر الطارىء على المادة ، وحسب هذه النظرية أن الوحدات النهائية للكون ليست المادة ولا الأثير الذى كان قد افترضه الماديون ، بل الحوادث الفضائية الزمانية التى يتداخل بعضها فى بعض وتتناسب وتتعاقب ، وخلاصة الأمر أن النظرية النسبية تتفق مع الفلسفة المثالية فى ان الأشياء غير ثابتة وليست كاملة مستقلة بذاتها ، وكذلك ليس للزمان والمكان وجود مطلق ، وهما يتأثران بذواتنا ، والزمان والمكان متحدان ونحن لا ندرك هذا الاتحاد ، كما أننا لانستطيع أن ندرك أشياء كثيرة ، ولا يحق لنا أن نزعم أن الخواص الهندسية للكون الذى يمتد إلى شاسع الابعاد تشبه الخواص الهندسية للجزء من الفضاء الذى نحل فيه ، وكذلك الزمان الذى نشعر به لا يصح أن نفترض أنه يشمل العالم بأسره وأن له نفس التأثيرات ، والسرعة والحركة والسكون ظواهر نسبية ؟

بين القديم والحديث

الدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

وكيل مصلحة النقل

عرضنا مقال حضرة الأستاذ البحاثة الشيخ عبد الحليم آل كاشف الغطاء « الدين والفلسفة والعلم » على حضرة العالم الفاضل الدكتور محمد محمود غالى ، باعتباره من أصدقاء « رسالة الإسلام » الاخصائيين فى البحوث الطبيعية ، وصاحب الجولات الموفقة على صفحاتها فى موضوع الذرة ، فكتب لنا هذه الكلمة واعدا أن يرجع إلى هذا البحث فى فرصة أخرى إن شاء الله .

[المحرر]

لقد طالعت المقال القيم للأستاذ عبد الحليم كاشف الغطاء من النجف ، وإنى لا أعلق عليه اليوم ، وقد تتاح لى الفرصة إلى العود إلى هذا المقال ، وإلى أمثال هذه البحوث فى فرصة أخرى .

إنما الذى يلفت نظرى هى هذه المحاولة من فريق من الذين درسوا الآداب فى عدم إهمالهم الناحية العلمية والاطلاع عليها عند ما يكتبون مقالاتهم وبحوثهم الفلسفية .

والذى يطالع مقال اليوم يشعر كيف يحاول كاتب المقال أن يشرح للقارىء ـ بالرجوع الى النسبية عند « أينشتاين » والكم عند بلانك ـ كيف تطورت نظرة

العلماء المحدثين للمادة والطاقة والحيز والزمان ، وكيف تطورت بهذا أسس الفلسفة المادية .

لعل السيد عبد الحليم كاشف الغطاء هو الذى عرفته فى دار المعلمين العالية ببغداد طالبا للآداب من طلبة الليسانس عندما كنت أستاذا للفيزياء فى قسم العلوم بهذه الدار فى سنى ١٩٤١ الى ١٩٤٣ ، وهو ابن العالم الكبير فضيلة الأستاذ الشيخ حسين كاشف الغطاء ، الذى تشرفت بمقابلته فى النجف ، ولا شك أن كاتب المقال قد ترك فى نفسى لا من اليوم بل من سنين خلت أحسن الأثر ، فهو من الباحثين المجدين .

ولعله وأمثاله يوالون قراء العربية بمثل هذه البحوث القيمة .

لقد أرجعنى مقالك إلى نحو من الشعور الذى يبلغه الانسان فى الليل عند النظر الى النجوم المنتشرة فى الفراغ ، أرجعنى الى شىء من التأمل فى هذا الكون وأنت تتحدث عن النظرية القديمة للمادة أن لها وجودا مستمرا فى الزمان والمكان ، وعما تسميه النظرية الحديثة بتمثيل هذا الوجود المستمر بخط مستمر فى الزمان والمكان ؛ خط ينحرف بحالة مستمرة مكوناً انحناء تمثل كل نقطة منه حادثة وجود المادة فى لحظة معينة .

لقد رجعت وأنا أطالع سطورك إلى الكون العظيم الذى نعيش فيه ، هذا الكون الذى تزداد معارفنا عنه من أيام كوبرنيك ونيوتن وجاليليه إلى أيامنا هذه التى يصح أن نسميها أيام بلانك وأينشتاين ودى بروى ، وهم من العلماء النظريين المحدثين بل نسميها أيام مدام كورى وبكارل .

وأتوهان من العلماء المحدثين المشتغلين بالعلم التجريبى ، وجلست فى ليلة مظلمة لا قمر فيها ، أتأمل أن هذا النجم الذى أراه من مجموعة الدب الأكبر ، ماثلا أمام عينى ، كما يمثل أمام أعين جميع الناس ، قد خرجت فوتوناته هذه التى تقع على رتينة العين ، وتحدث هذا الأثر ، الذى نسميه الإبصار قبل وجود الجنس البشرى ، ترى هل هو موجود الآن ؟ أم أننا نرى أحداثه السابقة ؟ ومع ذلك فأننا نعده

من النجوم القريبة لنا بالنسبة للكون ، فالضوء يقطع المسافة بينه وبيننا فى ٦٨ مليون سنة ضوئية ، مع العلم أن نصف المسير فى هذا الكون ، يبلغ عشرة آلاف مليون سنة ضوئية ، باعتبار أن السنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة كامله بسرعته التى تبلغ ٣٠٠ ألف كيلومترا فى الثانية الواحدة .

ليس لى إذن تعليق اليوم على المقال ، بأكثر من أنه يرد النفس إلى شىء من التأمل الذى فيه لذة للنفس ، وإلى شىء من التفكير العميق الذى لا يخلو من هذه اللذة .

ثم إنى بعد الذى ذكرت ، أرجو أن يسمح لى الأستاذ عبد الحليم كاشف الغطاء بذكر بعض الملاحظات العابرة التى لا تغير من جوهر المقال فى شىء ، مثل أن يكتب « نيترونات » بدل « نوترونات » لقرب هذه الكتابة من نطقها فى اللغتين الانجليزية والفرنسية معا ، كما أرجو أن يعتبر أن الشمس تشع أكثر بكثير من ٢٥٠ مليون طن فى الدقيقة من مادتها ، كذلك أفضل كتابة اسم العالم الانجليزى « إدنجتون » بالجيم لا بالكاف ، وهى طريقة كتابتنا فى مصر ، لاتفاق هذه الكتابة مع النطق الأصلى — كذلك ليسمح لى الأستاذ أن تكون العناصر ٩٦ عنصرا آخرها الكيريوم من اسم مدام كورى مكتشفة الراديوم لا ٩٢ عنصرا آخرها اليورانيوم ، ولقد ذكرت ذلك فى كتابى « ماذا تخبئه نواة الذرة للإنسان » .

هذه ملاحظات عابرة ، لم أقصد منها غير الرجوع إلى الحقائق العلمية الثابتة ، اللهم إلا إذا كان للأستاذ اعتراضات على ما ذكرت ، أود أن أعلمها منه على صفحات رسالة الاسلام .



« دار التقريب » بمثابة جهاز إرسال واستقبال بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، عنها يصدر « صوت التقريب » وإليها يرجع ، وعلى هذه الصفحات من « رسالة الاسلام » فى كل عدد تسجيل الصدى (*) .

تحدثنا فى العدد الماضى عن واحدة من المسائل الثلاث التى أوردها فضيلة العالم الجليل الحاج شيخ عبد الحسين رشتى على « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » فى سياق الاستدلال على صعوبة التقريب أو استحالته ، وكانت هذه المسألة هى مسألة « التجسيم » التى يقرر الأستاذ أن بعض الفرق الإسلامية تعتقد فيها ما ينافى تنزيه الله ومخالفته للحوادث جل وعلا ، وقد بينا بإيضاح وتفصيل أن جميع الطوائف الإسلامية الحاضرة متفقون على أنه تعالى ليس جسما ولا جسمانيا ، لايختلف فى ذلك مذهب عن مذهب ، ولا فرق فيه بين الإمامية وغيرهم وأن الأصل فى هذا ما يدل عليه العقل والنقل من وجوب اعتقاد تنزهه تعالى عن مشابهة الحوادث ، وكل ما فى الأمر أنهم اختلفوا فى الفهم والوسيلة لهذا التنزيه ، والاختلاف فى الوسيلة لا يترتب عليه بذاته إيمان أو كفر ، ولا يحول بين تفاهم المتفقين على أصل قاطع .

أما المسألتان الباقيتان فهما ما ذكره الأستاذ بقوله :

(*) « دار التقريب » هى المركز العام للجماعة ، ومقر سكرتيريتها ومكتبتها الكبرى .

(١) « والفرقة الإمامية الاثنا عشرية قائلون بأن صفاته الكمالية عين ذاته وجودا ، وغير ذاته مفهوما ، ونسمع أن طائفة أخرى قائلون بتعدد القدماء التسعة : الذات وصفاته الكمالية الثمانية ، وثامنها صفة البقاء » .

(٢) « والفرقة الإمامية الاثنا عشرية قائلون بعدالة الوجب تعالى ، ويبلغنا أن طائفة أخرى من المسلمين قائلون بصدور الظلم منه تعالى شأنه » .

* * *

وعجيب جدا أن يهتم الأستاذ الجليل بهذه المباحث الكلامية ، ويوليها هذا الشأن من العناية ، وينظر إليها على أنها عقبة كؤود فى سبيل اجتماع المسلمين وائتلاف قلوبهم ، وهو يعلم كما يعلم الناس جميعا ، أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا عنها معرضين ، وبغيرها من العلم والعمل مشغولين ، ولم يطعن أحد فى كمال إيمانهم ، ولا زعم زاعم بأنهم لقوا ربهم ، وقد فرطوا فيما أمرهم أن يعتقدوه ويدينوا به ، وأعجب من ذلك أنه يصف هذه المسائل بأنها « من الأصول لا من الفروع » .

إن الأصل القاطع فى مسألة الصفات ، الذى يتحقق به الإيمان ، ولا يكلف الله أحدا من عباده بما وراءه : هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم نفيا وإثباتا ، فنثبت له ما أثبته لنفسه ، وننفى عنه ما نفاه عن نفسه ، من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وقد جاء بذلك كتاب الله جل شأنه واضحا غير معقد : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » ، « وهو العليم الحكيم » ، « وهو العزيز الحكيم » ، « وهو على كل شىء قدير » ، « يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور » ، « هو الأول

والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » « رضى الله عنهم ورضوا عنه » « وكلم الله موسى تكليما » « وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا » « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » ، « ورحمتى وسعت كل شيء » « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » إلى غير ذلك من الآيات التى جاءت بإثبات صفات لله تعالى ، وإسناد أفعال إليه ، وآمن بها السلف الصالح كما جاءت دون إلحاد فى أسمائه وصفاته ، أو تلاعب وعبث بالخوض فى كيفية ثبوتها ، أو محاولة إدراك كنهها ، وهل هى زائدة على ذاته تعالى ، أو هى عين ذاته ، لأن صفات الله كذاته ، مما لا سبيل إلى معرفته معرفةَ كنهٍ وحقيقة من طريق الفكر والعقل ، فقد خلق الله العقول وأعطاها قوة ، وجعل لها حدا تقف عنده ، فإذا سلطت على ما هو خارج عن طورها ، اضطربت وركبت متن عمياء ، وخطبت خبط عشواء .

هذا الأصل كان سائدا فى المؤمنين على عهد سلفنا الصالح ، فكانوا عليه متوافقين ، وعنده واقفين ، فلما عقدت مناظرات الكلام ، ومجادلات أهل التفلسف ، نبتت مباحث الذات والصفات ، من أن الأخيرة عين الأولى أو غيرها ، وأن الاسم عين المسمى أو غيره ، وأن صفات الله قديمة كقدمه أو بقدمه ، وأنه عليم بعلم ، وقدير بقدرة ، أو عليم بلا علم وقدير بلا قدرة ، وأن من لوازم هذا أو ذاك تعدد القدماء أو التعددغير لازم ، وظاهرٌ أن هذا كله خوض فيما لا طائل تحته ، ولم يكلفنا الله به ، وأن المختلفين فيه لو حرروا محل النزاع لوجدوا أنهم متفقون وأن الأمر أيسر وأقرب من أن يتنازعوا فيه هذا التنازع ، ويضطربوا فى بيدائه هذا الاضطراب ، وإليكم أيها القراء نسوق تحقيقا لابن القيم يوضح به منشأ هذا الاختلاف ، فقد ذكر فى كتابه « بدائع الفوائد » بعد أن أوضح الفرق بين الاسم والمسمى ما نصه : « وإذا ظهر الفرق بين الاسم والمسمى فبقى هنا

التسمية وقد اغتر بها من قال باتحاد الاسم والمسمى ، والتسمية عبارة عن جعل المسمِّى ووضعه الاسمَ للمسمَّى ، كما أن التحلية عبارة عن فعل المحلِّى ووضعه الحليةَ على المحلَّى ، فهنا ثلاث حقائق : اسم ، ومسمَّى ، وتسميه ، كحلية ، ومحلّى ، وتحلية ، وعلامة ، ومعلم ، وتعليم ، ولا سبيل إلى جعل اللفظين منها مترادفين على معنى واحد ، لتباين حقائقها ، فإذا جعل الاسم هو المسمى بطل واحد من هذه الحقائق الثلاث ولا بد ، فإن قيل ما شبهة من قال باتحادهما ؟ فالجواب : شبهته أشياء ، منها أن الله تعالى هو وحده الخالق ، وما سواه مخلوق ، فلو كانت أسماؤه غيره لكانت مخلوقة ، ويلزم ألا يكون له اسم فى الأزل ولا صفة ، لأن أسماءه صفات ، وهذا أعظم ما قاد متكلمى الإثبات إلى القول باتحادهما ، والجواب عن كشف هذه الشبهة : أن منشأ الغلط فى هذا الباب من إطلاق ألفاظ مجملة محتملة لمعنيين حق وباطل ، فلا ينفصل النزاع إلا بتفصيل تلك المعانى ، وتنزيل ألفاظها عليها ، ولا ريب أن الله تعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها ، فلم يزل بصفاته وأسمائه ، وهو إله واحد له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، وصفاته وأسماؤه داخلة فى مسمى اسمه ، وإن كان لا يطلق على الصفة أنها إله يخلق ويرزق ، فليست صفاته وأسماؤه غيره ، وليست هى نفس الإله ، وبلاء القوم من لفظه « الغير » فإنها يراد بها معنيان . أحدهما المغاير لتلك الذات المسماة بالله ، وكل ما غاير الله مغايرة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون إلا مخلوقا ، ويراد بها مغايرة الصفة للذات إذا جردت عنها ، فإذا قيل علم الله وكلام الله غيره ، بمعنى أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام ؛ كان المعنى صحيحا ، ولكن الإطلاق باطل ، فإذا أريد أن العلم والكلام مغاير لحقيقته المختصة التى امتاز بها عن غيره ، كان باطلا لفظا ومعنى » (١) .

ومن هذا يتبين أن خلاف القوم ليس بذى خطر بعد اتفاقهم على الإيمان

---

(١) ص ١٠١ ، ١٠٢ من الجزء الأول من كتاب : « لوائح الأنوار البهية » للسفارينى طبع مجلة المنار سنة ١٣٢٣ هـ ، نقلا عن « بدائع الفوائد » لابن القيم .

بما وصف الله به نفسه ، وعلى أنه ليس لله صفات مغايرة له يطلق عليها أنها إله يخلق ويرزق ، أو يتصور انفصالها عن الذات حتى يقال بقدمها أو حدوثها .

وقد بينا مرارا أن جميع المسلمين ، بل جميع العقلاء متفقون على أن الله سبحانه وتعالى متصف بجميع صفات الكمال ، منزه عن جميع صفات النقص ، لكنهم مع اتفاقهم على ذلك اختلفوا في الكمال والنقص ، فترى أحدهم يثبت لله ما يظنه كمالا ، وينفي الآخر عين ما أثبته هذا لظنه إياه نقصا ، وفي ذلك يقول عز الدين ابن عبد السلام في كتابه : « قواعد الأحكام » المعروف « بالقواعد الكبرى » :

« اتفق المسلمون على أن الله موصوف بكل كمال ، بريء من كل نقصان ، لكنهم اختلفوا في بعض الأوصاف ، فاعتقد بعضهم أنها كمال فأثبتها له ، واعتقد آخرون أنها نقصان فنفوها عنه ، ولذلك أمثلة :

أحدها : قول المعتزلة : إن الإنسان خالق لأفعاله ، لأن الله لو خلقها ثم سبَّه عليها ولامه : لِمَ فعلها ، مع أنه لم يفعلها ، وعذبه عليها مع أنه لم يوجدها ، لكان ظالما له ، والظلم نقصان ، وكيف يصح أن يفعل شيئا ثم يلوم غيره عليه ، ويقول له : كيف فعلته ، ولم فعلته ؟ وأهل السنة يقولون : إن الله خالق لأفعال الإنسان لأن الإنسان لو خلقها لما قدر الإله على خلقها ، ونفي القدرة عيب ونقصان ، وليس تعذيبُ الرب على ما خلقه بظلم بدليل تعذيبه للبهائم والمجانين والأطفال ، لأنه يتصرف في ملكه كيف يشاء ، والقول بالتحسين والتقبيح باطل ؛ فرأوا أن يكون كماله في خلق أفعال العباد ، ورأوا أن تعذيبهم على ما لم يخلقوه جائز من أفعاله غير قبيح .

ومن الأمثلة أيضا : إيجاب المعتزلي على الله سبحانه وتعالى أن يثيب الطائعين كيلا يظلمهم والظلم نقصان ، وقول الأشعري : ليس ذلك بنقص إذ لا يجب عليه حق ، ولو وجب عليه حق لغيره ؛ لكان في قيده والتقيد بالأغيار نقصان .

ومنها قول المعتزلة بأن الله يريد الطاعات وإن لم تقع ، لأن إرادتها كمال ،

ويكره المعاصي وإن وقعت لأن إرادتها نقصان ، وقول الأشعري : لو أراد ما لا يقع لكان ذلك نقصا فى إرادته لكلالها عن النفوذ فيما تعلقت به ولو كره المعاصي مع وقوعها ، لكان ذلك كلالا فى كراهيته ، وذلك نقصان ... الخ »(١) .

ويقول عز الدين فى موضع آخر :

« إن الله كلف الخاصة أن يعرفوه بالأزلية والأبدية ، والتفرد بالإلهية ، وأنه حى ، عالم ، قادر ، مريد ، سميع ، بصير ، متكلم ، صادق فى أخباره ، وكلف العامة أن يعتقدوا ذلك لعسر وقوفهم على أدلة معرفته ، فاجتزى منهم باعتقاد ذلك وأما كونه عالما بعلم ، قادرا بقدرة ، فإنه مما يلتبس ، وقد اختلف الناس فيه لالتباسه ، وكذلك القول فى قدم كلامه ، وفى أن ما وصف به نفسه من الوجه واليدين والعينين صفات معنوية قائمة بذاته أو هى متأوَّلة بما يرجع إلى الصفات فيعبَّر بالوجه عن الذات ، وباليدين عن القدرة ، وبالعينين عن العلم ، وكذلك اختلف الناس : أله جهة أم لا جهة له ، بما يطول النزاع فيه ، ويعسر الوقوف على أدلته ، وقد تردد أصحاب الأشعري رحمهم الله فى القدم والبقاء : اهما من صفات السلب أم من صفات الذات ، وقد كثرت مقالات الأشعري حتى جمعها ابن فورك فى مجلدين ، وكل ذلك مما لا يمكن تصويب للمجتهدين فيه ، بل الحق مع واحد منهم والباقون مخطئون خطأ معفوا عنه ، لمشقة الخروج منه ، والانفكاك عنه »(٢) .

ويقول فى موضع ثالث :

« وقد رجع الأشعري رحمه الله عند موته عن تكفير أهل القبلة ، لأن الجهل بالصفات ليس جهلا بالموصوفات ، وقد اختُلف فى عبارات ، والمشار إليه واحد ، وقد مَثَّل ما ذكره رحمه الله بمن كتب إلى عبيده يأمرهم بأشياء ، وينهاهم عن أشياء ، فاختلفوا فى صفاته مع اتفاقهم على أنه سيدهم ، فقال بعضهم : هو أكحل العينين ، وقال آخرون : هو أزرق العينين ، وقال بعضهم : هو أدعج

---

(١) ص ١٩٠ من الجزء نفسه .

(٢) ص ١٩٢ من الجزء الأول من القواعد الكبرى .

العينين ، وقال بعضهم : هو رَبْعة ، وقال آخرون : هو طُوال ، وكذلك اختلفوا فى لونه أبيض أو أسود أو أسمر أو أحمر ، فلا يجوز أن يقال : إن اختلافهم فى صفته اختلافٌ فى كونه سيدهم المستحق طاعتهم ، فكذلك لا يكون اختلاف المسلمين فى صفات الإله اختلافا فى كونه خالقهم وسيدهم المستحق لطاعتهم وعبادتهم ، وكذلك اختلف قوم فى صفات أبيهم مع اتفاقهم على أنه أصلهم الذى خلقوا منه ، ولا يكون اختلافهم فى أوصافه اختلافا فى كونه منشأهم الذى نشأوا عنه ، وخلقوا منه » (١) .

ويقول الإمام محمد عبده فى « رسالة التوحيد » : « . . . وأما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة ، وهو ممتنع على العقل البشرى لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ، ولاستحالة التركيب فى ذاته ، وتطاولٌ إلى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومَهْلكة : عبث لأنه سعى إلى ما لا يدرك ، ومَهْلكة لأنه يؤدى إلى الخبط فى الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لايجوز تحديده ، وحصر لما لا يصح حصره .

ولا ريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان ، كما يأتى فى الذات من حيث هى ؛ يأتى فيها مع صفاتها ، فالنهى واستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها ، فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها ، وأما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب ، إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع ليُنفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية ، أما كيفية الاتصاف ، فليس من شأننا أن نبحث فيها .

فالذى يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه إله موجود لا يشبه الكائنات ، أزلى أبدى حى عالم مريد قادر ، متفرد فى وجوب وجوده ، وفى كمال صفاته ، وفى صنع خلقه ، وأنه متكلم سميع بصير ، وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه .

---

(١) ١٩١ من الجزء المذكور

أما كون الصفات زائدة على الذات . وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية ، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشئون التى اختلف فيها النظار ، وتفرقت فيها المذاهب ، فما لا يجوز الخوض فيه ، إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه ، والاستدلال على شى منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل ، وتغرير بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ، ولئن انحصر فيها ، فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيق — وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع . فما علينا إلا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ، ممن تقدمنا من الخائضين » (١) .

ويقول المحقق الدوانى فى شرح العقائد العضدية :

« اعلم أن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها ليست من الأصول التى يتعلق بها تكفير أحد الطرفين . ولا أرى بأسا فى اعتقاد أحد طرفى النفى والإثبات فى هذه المسألة » .

وعلق عليه العلامة الأمير بقوله : « قلت : ولو اختير الوقف لكان أنسب وأسلم من افتراء الكذب على الله تعالى ، وما ذا على الشخص إذا لقى ربه جازما بأنه على كل شىء قدير ، مقتصرا عليه ، مفوضا علم ما وراء ذلك إليه ؟ لكن اشتهر عند الناس كلام الجماعة على حد قول الشاعر :

وهل أنا إلا من غزية أن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد » (٢)

* * *

هذه خلاصة القول فى أمر الصفات ، وخلاف العلماء فيها ، والأصل الذى

---

(١) ص ٥١ ، ٥٢ من « رسالة التوحيد » .

(٢) ص ٨٠ من حاشية الأمير على شرح عبد السلام على الجوهرة ، وهو الكتاب الذى يدرس لطلاب القسم الثانوى بالأزهر .

يرجع إليه المختلفون ، وليست مسألة انتفاء الظلم عنه تعالى بالتى تحتاج إلى مسلك غير هذا المسلك ، فقد جاءت النصوص بذلك واضحة لا لبس فيها : « إن الله لا يظلم الناس شيئا » ، « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » ، « ولا يظلم ربك أحدا » ، « وما الله يريد ظلما للعالمين » ، « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ، « فما كان الله ليظلمهم » ، « ولا يظلمون فتيلا » ، « ولا يظلمون نقيرا » .

فهذه الآيات الواضحات تنفى عن الله سبحانه وتعالى أن يريد الظلم أو يظلم أحدا من العالمين ، ولكن أهل الجدل اختلفوا فى مسائل شغلوا بها أنفسهم ، ونبز بعضهم بعضا بلوازمها ، فمنهم من قال بجواز تعذيب الطائع ، وإثابة العاصى ، ومنهم من قال بامتناع ذلك ، والأولون يعللون قولهم بأن الله مالك الملك ، وخالق الخلق ، والعبيد لا يستحقون عنده شيئا فلا يكون منعهم ظلما ، والآخرون يقولون : إن إثابة المحسن وعقاب المسىء ، أمر حسن فى ذاته موافق للحكمة فهو واجب عليه تعالى ، فيمنعون الخروج على ذلك فعلا ، لأنه ظلم وقد نفى الله الظلم عن نفسه وإن أجازوه عقلا ، لأن الله لا يتمدح بنفيه إلا إذا جاز عليه .

فالجميع متفقون على تنزيه الله تعالى عن الظلم ، بعضهم عقلا وشرعا ، وبعضهم شرعا وفعلا ، وإنما اختلفوا فى الظلم نفسه : هل هو التصرف فى ملك الغير ، أو هو مخالفة ما تقتضيه الحكمة ولو من المالك فى ملكه ، ولن يستطيع أحد أن ينكر أن تصرف الله تعالى فى الخلق والناس بالايجاد والإعدام ، والإسعاد والإشقاء ، وغير ذلك تصرف فى ملكه ، لا يخالف فى ذلك معتزلى أشعريا ، ولا إمامى سنيا ، كما لا يستطيع أحد أن ينكر أن جميع أفعال الله ، صادرة عن حكم ، مجانبة للهو والعبث ، وإذن فالذى حمل على التقاذف والتهاتر ، ليس هو اختلاف القوم فيما ينبغى لله من صفات الكمال ، ولكن رغبة النبز واللمز عن طريق الإلزام ، ولذلك ينفر سمعى ، وينبو ذوقى ، إذا سمعت قائلا يقول : إن جماعة من المسلمين قائلون بصدور الظلم منه تعالى ، فإن ذلك مبناه على التلاعب

بالألفاظ فى ميدان الحجاج والجدال للتشنيع على الخصوم ، يفسر أحدهم الظلم بتفسير ، ويحكم على فعل من الافعال بأنه ظلم ، ويقول لصاحبه أنت تنسب هذا العمل لله فأنت إذاً تنسب إليه الظلم ، ولو كان منصفا لعلم أن صاحبه لا يقول بذلك ، وينظر إلى الفعل نفسه نظرة أخرى فلا يراه ظلما ، وإنما يراه عدلا ، ولذلك ينسبه إلى الله ، ولو رآه ظلما كما رآه صاحبه لما نسبه إلى الله ، وحاشا أن يجرؤ مؤمن على نسبة الظلم إلى الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وفى هذا المقام يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما نقله عنه الأستاذ الشيخ رشيد :

« وللعابثين بالكتاب وبعقائد الناس كلام فى الآية — يريد قوله تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) — أقاموه على أساس مذاهبهم ، فمن ذلك قول المعتزلة : انه يجوز الظلم على الله تعالى عقلا ، لأنه لو لم يكن جائزا لما تمدح بنفيه ، ورد عليهم الآخرون بأنه تعالى نفى عن نفسه السِّنَة والنوم ، وأنتم متفقون معنا على استحالة ذلك عليه ، فردوا عليهم بأن نفى الظلم كلام فى أفعاله ، ونفى النوم كلام فى صفاته ، وفرق بينهما . وهذا كله من الجدل الباطل والهذيان ، وإدخال الفلسفة فى الدين بغير عقل ولا بيان ، ومثله قول بعض المنتمين إلى السنة بجواز تخلف الوعيد ولا يعد ذلك ظلما ، لأن الظلم لا يتصور منه تعالى ، وبلغ بهم الجهل من تأييد هذا الرأى إلى تجويز الكذب على الله تعالى ، وجعلوا هذا نصرا للسنة ، والذى قذف بهؤلاء فى هذه المهاوى هو الجدل والمراء لتأييد المذاهب التى تقلدوها ، والتزام كل فريق تفنيدَ الآخر وإظهارَ خطئه لا طلب الحق أينما ظهر ، ولهم مثل هذه الجهالات ، الكثيرُ البعيدُ عن كتاب الله ودينه ، كقول المعتزلة إن بعض الأشياء حسن لذاته وبعضها قبيح لذاته ، ويجب على الله تعالى أن يفعل الأصلح من الأمرين الجائزين ، وكقول بعض من لم يفهم مسألة أفعال العباد بما يدل على جواز العبث على الله تعالى ، وكل هذا جهل . والذى يفهم من الآية أن هناك

حقيقة ثابتة فى نفسها وهى الظلم وأن هذا لا يقع من الله تعالى ، لأنه من النقص الذى يتنزه عنه ، وهو ذو الكمال المطلق والفضل العظيم »(١) .

* * *

أما بعد : فإنا ما أطلنا الكلام فى هذا الموضوع ، ولا أثبتنا فيهما أثبتنا من النصوص والنقول ، لنؤيد رأيا على رأى ، أو لننصر فريقا على فريق ، وإنما فعلنا ذلك لنبين للناس أن هذه المسائل وأشباهها ليست من أصول الدين التى يحكم فيها بالكفر فى جانب ، والإيمان فى جانب ، وإنما هى معارف نظرية ، ومسائل كلامية ، ومن الخير للمسلمين ـ ولا سيما فى هذا العصر الذى اشتغل الناس فيه بما ينفعهم من العلم والعمل فى كل أمة ـ أن يتخففوا منها ، بل يتخلوا عنها ، ويوسعوا مداركهم وعقولهم عن الارتطام فى خلافات بسببها ، وليعلموا أن الله ليس بسائلهم يوم يعرضون عليه عن الجزء الذى لا يتجزأ ، ولا عن الخلا والملا والجوهر والعرض ، وهل يبقى العرض زمانين أو لا يبقى ، وهل القدرة مع الفعل أو قبله ، وهل الصفات زائدة على الذات أو ليست زائدة ، وهل الاسم عين المسمى أو غيره ، فإن كان سائلا عن ذلك أحدا من خلقه ، ومستخبرا إياه خبره ، فليسعنا ما يسع أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وابن عباس وابن عوف وابن مسعود وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير لنا أن نحشر معهم بذلك جاهلين ، من أن نحشر مع النظام أو الجاحظ أو القفال أو الرازى أو الأشعرى أو النسفى أو غيرهم ولو كانوا أئمة فى العلم والتقى ، وسبحان من لا تدركه العقول ، ولا تحيط به الأوهام والظنون ؟

« م . . . »

---

(١) الجزء الخامس من تفسير المنار ص ١٠٥

فهـــــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية
تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشاً مصرياً

وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

مطبعة احمد مخيمر لشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣